



المسيرة الأدبية في أدب العصر العباسي

تأليف
الكتبة والنجدة بحمد الله الأعظم



مركز زايد للتراث والتاريخ



المسيرة في أدب العصر العباسي

تأليف

الدكتورة واجدة مجيد عبد الله الأطرقي

شبكة كتب الشيعة



مركز زايد للتراث والتاريخ



shiabooks.net

رابط يديل < mktba.net

المصباح
فوق
أدب العصر العباسي

رقم التصنيف : ديوي 809.05 تاريخ ووصف ونقد آداب متعددة في عصور معينة
المؤلف ومن هو في حكمه : الدكتورة واجدة مجيد عبد الله الأترجي
عنوان الكتاب : المرأة في أدب العصر العباسي
الموضوع الرئيسي : وصف ودراسة أدب المرأة ودوره وتأثيره في العصر العباسي
قيد الكتاب : تم قيد الكتاب في سجل الإيداع النوعي، بقسم الملكية الفكرية
وحقوق المؤلف بوزارة الإعلام والثقافة تحت رقم:
أ م ف ٤ / ١٢٥ - ٢٠٠٢ م تاريخ ٢٦ / أغسطس / ٢٠٠٢ م
الناشر : مركز زايد للتراث والتاريخ - العين
دولة الإمارات العربية المتحدة
نوصيف الكتاب : مقاس ١٧ × ٢٤ ، عدد الصفحات ٤٩٠ ص
الرقم الدولي : ردمك 4 - 078 - 06 - ISBN 9948

حقوق الطبع محفوظة للناشر

Copyright ©

All Rights Reserved

الطبعة الأولى

٢٠٠٢ م - ١٤٢٣ هـ



مركز زايد للتراث والتاريخ

ZAYED CENTER FOR HERITAGE AND HISTORY

ص. ب. ٢٣٨٨٨ العين - الإمارات العربية المتحدة . هاتف : ٧٦١٥١٦٦ - ٣ . ٩٧١ . فاكس : ٧٦١٥١٧٧ - ٣ . ٩٧١

P.O. BOX: 23888 AL AIN - U. A. E. - TEL: 971 - 3 - 7615166 . FAX: 971 - 3 - 7615177

E-mail: zc4HH@zayedcenter.org.AE

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة المركز

من خلال استقراء لتاريخ الأدب العربي والأعمال البيبلوغرافية الخاصة بالمرأة نجد أن المرأة احتلت حيزاً كبيراً من اهتمام الكتاب والمفكرين وأعمالهم على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم.

وإن الطفرة من أخبار النساء تضع الباحث أمام حقائق كثيرة لا يمكن إغفالها منها: دور المرأة في الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والأسرية ودورها في الجانب المالي والاقتصادي والعلمي وغير ذلك الكثير...

إلا أن موضوع المرأة عموماً يضع الباحث أمام تساؤلات كثيرة تحتاج إلى مباحث جادة ومعقدة للإجابة عليها بتجرد، فمن ذلك مثلاً: دور مجتمع الحرائر من النساء ودور مجتمع الإماء (الجواري) كما ينبغي البحث عن دور المرأة في المجتمع الجاهلي عموماً - قبل الإسلام - وبعده ونسبة اضطهاد المرأة في مجتمعنا العربي وشيوعه، وهل كان في أماكن ومجتمعات معينة دون أخرى، وكم هي نسبة سطوة المرأة وهيمنتها، إذ أننا لا نستطيع إغفال دورها في كلا المرحلتين: الجاهلية والإسلامية.. وما هي الإجابة الحقيقية على ملك بلقيس ملكة سبأ في اليمن، وملك الزباء في تدمر، وما سبب وأد الفتيات وما مدى انتشار تلك الظاهرة.

كما لا يمكننا أن نسلم - أمام الوقائع والحقائق التاريخية - بما بات يصور في أن المرأة كانت قصيرة الباع قليلة الشأن ضعيفة الحول، وإلا عددنا ممن ينظرون بعين واحدة..

ولعل الكثير قد خفي عنه المواضيع المطروحة في شأن المرأة في موروثنا التاريخي والأدبي والإسلامي فمن ذلك مثلاً:

أخبار النساء، أشعار النساء، حقوق الإناث، تاريخ النساء، أعلام النساء،

أحكام النساء، المتعبدات والصالحات من النساء، عجائب النساء، تعليم البنات، المحدثات من النساء، أدب النساء، نعوت النساء، بلاغات النساء، محاسن النساء، نباهة النساء، ذم النساء، مكائد النساء، عشرة النساء... وغير ذلك

وبين أيدينا كتاب المرأة في أدب العصر العباسي الذي يلقي الضوء على أدب المرأة ومبلغ علمها ومدى تفاعلها وتأثيرها وتأثيرها في مجتمعا في الفترة العباسية، اختاره مركز زايد للتراث والتاريخ كأحد الأبحاث والمصادر الجامعة في موضوعه، ليقدمه للقارئ والباحث عونا له وإثراء لمكتبته...
والله ولي التوفيق..

د. حسن محمد النابودة

مدير المركز

المقدمة

... وبعد... فليس من شك في أن دراسة المرأة في وقت اشتد فيه الحرص على حسن إعدادها، وعهد أولى المرأة الكثير من الاهتمام لإيمانه بعمق أثرها في البناء والتقدم، ولاعتقاده بأن المجتمع لا يكون قوياً رصيناً إلا إذا نهض بنصفه المتكاملين... يأتي مظهراً من مظاهر الانسجام والتلاحم بين الماضي والحاضر... ودليلاً على أن تقويم الحاضر وتطويره لا يمكن أن يتم دون وقوفنا على جوانب الضعف والقوة في الماضي لتجاوز عوامل الضعف ودواعيه... ولناخذ بأسباب القوة ونحسن التقدم في مسيرة البناء.

من هنا جاء اختياري لموضوع بحثي (المرأة في الأدب العباسي)... وما إن وقفت أمام الموضوع حتى تمثلت في ذهني الدوافع التي شدتني إلى الحرص على العمل فيه وهي: -

أولاً: تصويب الرأي القائل بأن العصر العباسي كان بجملته عصرًا شمله تيار التحلل والتفسخ، وأن هذا التيار قد لف المرأة بصورة عامة حتى جعل منها هذه الصورة التي نقلها أكثر شعراء العصر اشتهاً أمثال بشار وأبي نواس وغيرهما. ذلك أن الصورة التي أشيعت كانت في الغالب صورة الجواري الأجنبية لا صورة الحرائر العربيات... فقد كان للحرائر في الأسرة وفي المجتمع شأن آخر... وكانت لهن سيرة أخرى عرضها لنا عدد من أدباء العصر وشعرائه في صورة مشرقة وأحوال محمودة في الأسرة أو في المجتمع...

ثانياً: الكشف من خلال الأدب والتاريخ عن جوانب تعزز دور المرأة وتكشف عن الممارسات التي كانت تقوم بها في الثقافة والدين والأعمال والسياسة... وعرضها بشكل يؤكد فاعلية المرأة في المجتمع

وحسن بلانها في التطور الحضاري .

ثالثاً: الحرص على تقديم خدمة أمينة للتراث بالكشف عن جوانب مهمة مغفلة تتناول أدب المرأة، وإظهار معالمه المجهولة وتنظيم أشتاته المتناثرة في كتب الأدب والتراجم والتاريخ والأخبار والسير لإبراز دور المرأة في الأدب ومساهمتها فيه ولأموح شيئاً من الصورة المشوهة التي رسمها البعض لها على أنها قاصرة العقل ضعيفة الإدراك محدودة القابلية، ولأبين من خلال النماذج الأدبية أنها كانت لا تقلّ عن الرجل في القدرة على الإبداع فيما لو توفرت لها الظروف الثقافية والاجتماعية وأتيحت لها الفرص لكشف قابلياتها وقدراتها .

وربما كنت أول من تناول دراسة المرأة في الأدب في العصر العباسي في بحث موسع مستقل . .

فقد كتب الدكتور شوقي ضيف بعض الملاحظات المفيدة عن الحرائر والجواري^(١) في العصر العباسي الأول، وأفرد فصلاً للحديث عن الرقيق والجواري والغناء . كما خصص الدكتور مصطفى الشكعة^(٢) الفصل الخامس من الباب الرابع لدراسة شعر النساء وجعله في قسمين، الأول لشعر الحرائر والثاني لشعر القيان .

ويعتبر بحثي هذا امتداداً للدراسات التي قام بها كل من الدكتور أحمد محمد الحوفي في كتابه: (المرأة في الشعر الجاهلي) والدكتور علي الهاشمي في كتابه الموسوم بـ (المرأة في الشعر الجاهلي) .

وسار الدكتور مصطفى جاووك قليلاً في دراسة المرأة فتناول دراسة (المرأة في الجزيرة في القرن الأول الهجري) .

(١) العصر العباسي الأول ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي .

وكان لزاماً عليّ قبل أن أتناول دراسة المرأة في الأدب، أن أقدم لها بتمهيد عن (المرأة في العصرين الجاهلي والإسلامي)، ولقد اكتفيت خلال ذلك ببعض الإشارات والملاحظات العامة التي تكشف عن منزلة المرأة في المجتمع وعن أثرها فيه .

ثم تناولت بشيء من التفصيل استعراض أحوالها في المجتمع (المرأة في المجتمع العباسي) وقد وقفت عند التأثير الذي أثرت به السبايا والجواري على المجتمع بصورة عامة والانتكاسة التي منيت بها المرأة في ذلك العهد نتيجة لتغلغلهن في أكثر جوانب المجتمع ولشيوع الكثير من مظاهر التحلل والتفسخ .

وقد استعرضت بعض المواقف التي تصدت للحد من تغلغل الأعاجم في العصر الأموي ثم في مطلع العصر العباسي . . حتى أفلت زمام الأمر حينما صار تيارهم أعنف من أن يحد أو يقضى عليه . . فأثر ذلك في تحديد بعض المظاهر والمواقف تجاه المرأة الذي أدى إلى المبالغة في عزل الحرائر وحجبهن عن المجتمع .

على أنني لم أغفل الإشارة إلى أن المجتمع العربي الذي طفق بذلك الفيض الغزير من الإماء والجواري كان من الممكن أن تبذل المرأة فيه إلى درجة كبيرة لولا النظرة الإنسانية ولولا تلك التنظيمات الاجتماعية التي استنها العرب لحفظ حقوق هذا الصنف من النساء، رغم أنه ميز الحرائر وحفظ لهن المكانة والحقوق فلم يعجز للرجل أن يتزوج جارية وعنده حرة ويجوز له العكس . . وأباح ملك اليمين وحدد لملك اليمين قواعد وتنظيمات شرعية واجتماعية فقد كان للرجل أن يملك منهن ما يشاء بماله الخاص ولا يجوز له أن يقرب ملك زوجته أو ملك أحد أبنائه . . أو إخوته أو جاره أو صاحبه . . وفي كتب الأدب والأخبار والفقه والتاريخ إشارات كثيرة توضح لنا ذلك . .

ولا شك في أن العرب قد أحسنوا التصرف بذلك الفيض الزاخر من النساء . . ورغم ما ظهر من النتائج السلبية لكثرة الإماء والجواري إلا أن العلاج لتلك الظروف في حينها كان سليماً وجيداً إلى حد بعيد .

وكان من المفيد ونحن ندرس المجتمع أن نقف وقفة قصيرة عند الحالة الثقافية . . وقد بينت الحالة الثقافية للحرائر والجواري واستعرضت عدداً منهن مبينة المجال الثقافي والاجتماعي الذي برزن فيه . .

كما عرضت للحالة الاقتصادية لهن، واستعرضت أحوالهن ومجالات كسبهن وأعمالهن . . وبينت أن المرأة كانت تتمتع في كثير من الأحوال بالاستقلال الاقتصادي وبالحرية في التصرف بأموالها . . ووقفت وقفة مناسبة عند الأعمال والمهن التي مارستها المرأة في ذلك العصر .

وعرضت بعد ذلك إلى الأدوار السياسية التي قامت بها المرأة منذ بدء الدعوة العباسية سواء في الثورات، أو في المواقف الحربية التي شاركت فيها . ولقد عمدت إلى استقصاء الأدوار التي قامت بها الحرائر في السياسة والتي كانت تنصف في أغلبها بالحكمة وبعد النظر وتتمسم بالإيمان والأصالة في التفكير، وميزت بين أدوارهن في البناء وبين الأدوار التي قامت بها الجواري والقهرمانات ممن تسلمن مسؤوليات مباشرة وكانت لهن مكانة مرموقة في قصور الخلفاء، في إشاعة الفوضى والاضطراب والوهن في كيان الدولة العباسية الأمر الذي آل بها أخيراً إلى الاضمحلال والسقوط .

ويسير البحث بعد ذلك في مسارين كبيرين: المسار الأول منهما هو صورة المرأة في الأدب . . وبالنظر لسعة هذا المسار وتشعب أطرافه فقد جعلته في بابين: الباب الأول منهما درست فيه الحرائر (المرأة في

الأسرة) وضم خمسة فصول، كان الفصل الأول عن (صورة الابنة في الأدب) بينت فيه المواقف المختلفة منهن في كرههن والتهنئة بموتهن ومحبتهن والتهنئة بولادتهن وفي مواساتهن والإشفاق عليهن ورثائهن وغير ذلك من الظواهر الاجتماعية التي تباينت في المجتمع العباسي . . . وكان الفصل الثاني عن (الأم في الأدب) تناولت فيه مكانة الأم في النفوس من خلال ما ورد من ذلك في أدب العصر، وكانت مواقف مختلفة متباينة .

أما الفصل الثالث فقد درست فيه (الزوجة في الأدب)، وعرضت فيه لأحوال الزوجة في علاقاتها بالزوج من حب يمثل بمدحهن أو تبادل المودة معهن أو برثائهن بعد موتهن ومن كره يتجلى في الخصومات التي تقع بينهما، وفي ذمهن أو طلاقهن وقد بدت صورة تلك المواقف واضحة في النماذج الشعرية والثرية التي أوردتها .

وكان الفصل الرابع عن (الأخت في الأدب) تناولت فيه مكانة الأخت وعرضت لنماذج توضح ذلك سلباً أو إيجاباً .

أما الفصل الخامس فقد كان عن (الحبيبة) وغالباً ما كنا نراها ابنة العم أو إحدى القريبات من الحرائر . . . واتسم هذا النوع من الغزل بالحرائر، بالعفة، وكانت الحبيبة غالباً منيعة شريفة في حبسها ونسبها وفي سلوكها وخلقها . . . وذلك ما بدا لنا من خلال النصوص التي استعرضناها .

أما الباب الثاني فقد جعلته معرضاً لصورة الجوارى في الأدب وكانت في أكثر ما ظهر لنا صورة المخلوق الجميل الذي ملأ قلوب الشعراء وحرك عواطفهم فتوسعوا في الغزل وتعددت موضوعاته لوجود الحقائق في أوساط الجوارى التي أمدت بسيل من المواقف أغنت شعر الغزل ومعانيه .

وكان الغزل في أكثره صورة مترامية الأطراف تعكس لنا أحوال
الجارية في علاقاتها وصفاتها وأحوالها . .

ومهدت للباب بالحديث عن العشق وأحاديث الخاصة وآرائهم فيه
مبينة أنه كان من الظواهر التي تجلت بوضوح في عصر الحضارة والثقافة
والفن والجمال، ثم جعلت الباب على أربعة فصول، الفصل الأول عن
(الجواري والشعراء) تناولت البحث فيه عن الصورة التي أظهرها شعراء
العصر للجارية . . ووقفت عند بعض صور العفة متمثلة في الغزل العفيف
لعدد من شعراء العصر ممن عرف بالشرف والتقوى والعفة . . كما ذكرت
بعض ومضات للعفة لدى بعض شعراء العصر الماجنين كبشار وأبي
نواس مع بعض العفيفات من الجواري . ثم وقفت عند نوع آخر من
الجواري ممن عرفن بالتقلب والخيانة والتحول، واستشهدت ببعض
النماذج الشعرية لذلك . وعرضت بعد ذلك لنوع آخر من الجواري، هن
الساقيات وما جاء في الشعر من وصف لجمالهن وملابسهن .

ولما كان لجواري القصور آثار معينة في الأدب فقد تناولت عرض
أحوالهن وعلاقاتهن وأثرهن في الفصل الثاني (الجواري والخلفاء)
وأوردت فيه نماذج عديدة من غزل الخلفاء بالجواري ووصفهم لهن كما
أوردت أمثلة من مراثيهم فيهن وحنينهم إليهن وأسفهم على فوات الأنس
والبهجة والسرور بعدهن . . مما رفد الأدب بجانب من شعر الخلفاء في
التعبير عن عواطفهم وأحاسيسهم .

ثم تناولت صنف القيان الذي أثر في المجتمع بالكثير من
المؤثرات التي تجلت في الأدب . . بينت أثرهن في الشعر والنثر في
مختلف الأغراض . حيث وقف الأدب جزءاً كبيراً منه في ذلك العصر
لوصف القيان أو التغزل بهن أو هجائهن أو رثائهن . . وقد عرضت
لنماذج نثرية للجاحظ والوشاء وغيرهما، وشعرية لبشار وأبي نواس وابن

الرومي وابن المعتز وغيرهم . وذكرت ذلك مفصلاً في الفصل الثالث .

أما الفصل الرابع فقد استفدت فيه من الغزل الحسي والوصف المادي للجواري لإبراز المعالم الحضارية التي تجلت في مظاهر جمال المرأة وزينتها .

وتناولت في هذا الفصل معايير الجمال مع مقارنتها بها في العصور السابقة، ثم تناولت المظاهر الجمالية للمرأة في شعرها وملابسها وفي تزيينها بأنواع الزينة المختلفة من خضاب وكحل وطيب وحلى وغيرها . . وقد استطعت في هذا الفصل أن أكشف عن المستوى الحضاري الذي بلغته المرأة في هذا العصر، وأن أشير إلى أن اصطناع وسائل التجميل كان لا يقل في إتقانه والبراعة فيه عن أفضل مختبرات التجميل في العصر الحاضر .

أما المسار الثاني من البحث، فقد تناولت فيه دراسة أدب المرأة، وأفردت الباب الثالث له وجعلته في خمسة فصول، تناولت في الفصل الأول منه دراسة أدبها في المجالس والمناظرات والمطارحات، وقد أثبتت المرأة براعة وتفوقاً في هذا المجال شهد بهما فحول شعراء العصر .

وكان الفصل الثاني عن أدب المرأة في الرسائل والتوقيعات . . وشاع هذا النوع من الأدب في العصر، فكثيراً ما كان المراسل أو المراسلة يجعلان المعنى الذي يريدانه في رسائلهما شعراً أو قطعة أدبية بليغة . . .

واتسمت رسائل الجواري إلى أصحابهن بأن أكثرها كانت في الدعوة إلى اللقاء أو في العتب على فراق أو بث الشوق والهوى .

أما رسائل الحرائر فكانت في أكثر ما ورد منها لأغراض جدية كالموعظة والإرشاد أو كإبداء رأي في موقف من المواقف أو مهمة

المهام أو عرض مشكلة اللهم إلا ما جاء لعلية بنت المهدي في غير الأغراض الجادة .

وتمثل التوقعات إجابات مقتضبة بليغة عن بعض الرسائل وصلنا القليل منها للحرائر والجواري .

وكان الفصل الثالث لدراسة أهم الأغراض الشعرية للمرأة، وتناولت في الفصل دراسة المديح والهجاء والثناء والغزل والزهد .

أما الفصل الرابع فقد عرضت فيه لأدب الإعرابيات بفنونه المختلفة وأغراضه المتعددة التي تلائم الحياة البدوية وتتلون بألوانها . . .

وجعلت الفصل الخامس من الباب الثالث لدراسة الملامح الفنية لأدب المرأة واستعرضت بإيجاز أهم الملامح التي يمكن للباحث في أدب المرأة أن يميزها فيه . .

وبالنظر لسعة الموضوع وتشعب أطرافه، فقد كان عليّ أن أطلع على أهم ما كتب في التاريخ عن النساء . . وكثيراً ما كنت أجد فيه مادة خصبة تمدني بالمعرفة في إدراك مكانة المرأة في المجتمع ودورها فيه كما تمدني بفيض مفيد في أدبها . .

وقد استفدت من تاريخ الطبري في مواضع كثيرة، إذ كان يروي لنا أخبار بعض النساء ضمن ما يرويه من أخبار، أميناً في نقلها ملتزماً بتأديتها على نحو ما أدبت إليه وكان اعتماده هذا المنهج مثاراً للنقد عند بعض الباحثين الذين قالوا إن سياقة الأخبار دون تمحيصها أمر لا يليق بالمؤرخ الناقد .

أما المسعودي (ت ٣٤٦هـ) فهو كاتب موسوعي كبير ويعتبر من أكثر المؤلفين ثقافة واطلاعاً . . ويعتبر كتابه (مروج الذهب) من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخون في سرد الحوادث والأخبار . . ثم هو بعد ذلك

معين لا ينضب لدراسة الأحوال الاجتماعية وتصوير الحياة التي يستعرضها .

أما في الأدب والأخبار فقد كان كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني من أهم الكتب التي أفادتني في البحث، وقد ظهر لنا أبو الفرج فيه إخبارياً يحرص على الرواية والنقل، واستطاع أن يؤرخ جانباً من جوانب الحياة الفنية والاجتماعية، ونقل لنا جانباً كبيراً من أدب النساء ضمن ما نقله عن أدب العصر بصدقه وكذبه وجيده ورديته . . وهي ما يشتمل عليها كل عصر رغم غلبة جانب الإمتاع والمؤانسة على مرويات الكتاب وأخباره .

واستفدت من كتب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في الوقوف على بعض الحقائق الاجتماعية والأدبية ولا يمكن لباحث يبحث في العصر العباسي أن يستغني عما كتبه الجاحظ في كتبه ورسائله .

ويقال مثل ذلك عن ابن المعتز في طبقاته والصولي في أوراقه وأخبار أولاد الخلفاء، حيث سلك الأول في أخبار الشعراء المحدثين والثاني في أخبار الخلفاء من بني العباس وشعرائهم ووزرائهم، وذكر الصولي غرائب لم تقع لغيره، وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه وكان محظوظاً في العلم ممدوداً بالمعرفة .

وأفادني التنوخي أبو علي المحسن من كتبه كثيراً وبخاصة في كتابه نشوار المحاضرة وتأتي أهمية هذا الكتاب من أنه ينفرد بالكثير من الأخبار والحكايات، لأن المؤلف لم يعتمد فيه على المنسوخ المدون الذي كان يتردد في أكثر كتب العصر كالبيان والتبيين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبدربه . . وغيرها والتي تتفق في الكثير من أخبارها ومروياتها لاتفاق مصادرها .

أقول: إنه لم يعتمد على المنسوخ، وإنما اعتمد على سماع

الأخبار ممن عرف بالذاكرة وحفظ الحكايات. . . ولهذا قال في مقدمته حينما ذكر دوافعه إلى تأليف كتابه النشوار أنه لما قدم بغداد عام ٣٦٠ هـ وجد أنها قد أصبحت خالية من كثير من الشيوخ الذين عرفوا بالذاكرة وحفظ الأخبار والحكايات فإن لم يبادر إلى تسجيلها أصابها التحريف أو الاندثار باندثارهم^(١). . . إضافة إلى ما دونه لأبناء عصره من نظم ونثر وعلم وفن مما هو حري بالتسجيل والحفظ.

وسار المتأخرون على نهج المتقدمين واستفادوا من كتبهم وما فيها، ولهذا رأينا أن ما كتبه التنوخي أو الأصفهاني أو ابن المعتز أو الصولي أو ابن طيفور، أو ابن مسكويه. يكون جزءاً لا يستهان به من كتب المتأخرين من أمثال ابن الجوزي في مؤلفاته المنتظم والأذكياء وأخبار الحمقى والمغفلين وذم الهوى وتلبيس إبليس، أو ياقوت الحموي في معجميه الأدباء والبلدان، أو ابن خلكان في وفياته. . .

ومن الكتب المتأخرة التي أفادتني كثيراً كتب السيوطي (ت ٩١١ هـ) وهو وإن كان متأخراً، إلا أنه أحسن الأخذ عن المتقدمين ونوع مصادره وعددها. . . فقد استفاد في كتابيه اللذين حفظا جزءاً مهماً من أدب النساء (المستظرف من أخبار الجواري) و (نزهة الجلساء في أشعار النساء) من كتب مهمة ذات أثر كبير، نذكر منها كتاب النساء الشواعر لابن الطراح (ت ٧٢٠ هـ) وتاريخ بغداد للحافظ محب الدين بن النجار (ت ٦٤٣ هـ) واليتمة للثعالبي والوزراء والكتاب للجهمي وأخبار النساء لأسامة بن منقذ وطبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز والأغاني والإماء الشواعر لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ).

وقد استفدت بصورة مباشرة من دواوين الشعراء. . . وكنت لا أمر بغرض من الأغراض أو قصيدة من القصائد دون إطالة النظر فيها ودون

(١) تنظر: مقدمة النشوار، عبود الشالحي.

تمحيصها لأخذ منها ما يفيدني في جانب من الجوانب التي تناولت دراستها في البحث، وهي كثيرة.

وربما كان الدكتور صلاح الدين المنجد من المعاصرين من أكثر من كتب في النساء وأدبهن في العصر العباسي وكشف عن نواح مهمة كانت مبهمة، فقد حقق كتابي السيوطي: (نزهة الجلساء في أشعار النساء) و (المستظرف من أخبار الجوارى) كما ألف في هذا المجال كتبه الموسومة بـ (جمال المرأة عند العرب) و (الحياة الجنسية عند العرب) و (بين الخلفاء والخلعاء) وقد أفادتني كثيراً في رقد البحث بالكثير من المعلومات وهدتني إلى أصولها.

تلك هي أهم المصادر والمراجع التي أفدت منها إلى جانب مصادر ومراجع ثانوية سأكتفي بذكرها في ثبت المصادر والمراجع التفصيلي مشيرة إلى طبعاتها التي اعتمدتها ليستفيد منها من يريد أن يسلك الطريق.

ولا أشك في أن هذا المجهود الذي استغرق مني سنوات من العمل غير قليلة لا يزال في حاجة إلى المزيد من الدرس والتقويم وإلى الكثير من التمحيص والمتابعة ولا أظنني في عملي هذا قد انتهيت وإنما أعتقد كل الاعتقاد أنني أصبحت قادرة على أن أبتدىء وأن أصل إلى ما فيه خدمة تراثنا العربي..

وفق الله العاملين بصدق وسدد خطى المخلصين إنه سميع الدعاء.

واجدة الأطرقيجي

جامعة بغداد/ كلية التربية

التمهيد

١ - صورة المرأة في المجتمع في العصرين الجاهلي والإسلامي

قامت عند الإنسان منذ أقدم العصور عقائد صورتها الأساطير والخرافات النابعة من مصادر متعددة وكان لهذه العقائد تأثير عميق في حياة المرأة ومكانتها الاجتماعية، فقديماً بحثوا في هل للمرأة نفس وهل لها حق في الحياة إذا ما أراد أبوها أو زوجها لها الموت . . ؟ والتاريخ حافل بالأخبار التي تحدثنا عن وأد البنات ودفن الزوجات وهن على قيد الحياة مع جثث أزواجهن، وفي هذه دلالة على استبداد الرجل بالمرأة وتسلمته عليها . . ولا شك في أن يؤدي هذا وغيره إلى تخلف المرأة عن النشوء الطبيعي والتطور، فوهن جسمها وضعف ذكاؤها حتى أصبحت المخلوق العاجز الجبان . .

ولما كانت عزلاء من كل سلاح، دفعتها الحياة في الكثير من المجتمعات إلى التسلح بالمكر والخداع وبالحيلة والكيد، واستغلال الضعف والدموع وهي كلها حيل العاجز المغلوب . . فهل رأينا منتصراً يبيكي؟ أو حراً يتذلل وقوياً يحتال أو يخادع . . فيسلك طريق الظلام وقد أتيح له طريق النور؟

وربما كان حظ المرأة العربية في المجتمع العربي القديم أفضل بكثير من حظها في مجتمعات الفرس أو الرومان أو اليونان^(١).

إلا أن التاريخ لم يعدم ومضات قوية في بعض العصور . . ومضات كشفت نبوغ عدد غير قليل من النساء في السياسة وتدبير الملك وفي الشعر والخطابة والحكمة وغيرها، وما ذاك إلا لتوفر الظروف المساعدة على نمو مواهبها واستعداداتها الفطرية، ولأن الفرص كانت مواتية

(١) ينظر المرأة في الشعر الجاهلي (الحوفي) ص ١٨ - ٦٥، ٥٤٩ - ٥٥٤).

ليروزها في الميادين المختلفة، وربما ساعدها الرجل في حالات نادرة كهذه فأخذ بيدها لترتفع إلى المستوى العالي الذي وصلت إليه .

لقد كانت المرأة تابعة للرجل يوجهها الوجهة التي يريد لها وقد يعلو شأنها ويقوى مركزها ويعظم أمرها حتى تستطيع أن توجه الرجل ذاته والتاريخ العربي في جميع أدواره وعصوره حافل بالكثير من أمثال هذه المواقف .

لقد صور لنا القرآن الكريم^(١) عظمة الملكة بلقيس^(٢) وبعد نظرها وحسن تدبيرها واعتمادها الشورى في إدارتها للبلاد .

ووردت في الشعر الجاهلي إشارات تشيد وتفخر بالملكة بلقيس، قال أسعد تبع في فخره^(٣) .

ولدتني من الملوك ملوك كل قيل متوج صنيدي
ونساء متوجات كبلقيس وشمس ومن لميس جدود
ويظهر أنها كانت على جانب من العظمة والثناء . . . ونسب إلى تبع قوله في وصف عرشها^(٤) :

عرشها رافع ثمانون باعا كللته بجوهر وفريد
وبدر قد قيده وباليافوت بالتبر إيما تقييد

(١) القرآن الكريم سورة النمل الآية ٢٣ - ٤٤ .

(٢) بلقيس : هي الملكة بلقيس بنت ذي شرح ملكة سبأ وكانت مشهورة بالعقل الراجح والراي الصائب، خلدت في التاريخ صفحة زاهية تحدثنا عن حياتها وأعمالها العظيمة التي قامت بها خلال حكمها فترك أثرأ حميداً في الحضارة والعمران (أعلام النساء ج ١ ص ١٤٢) .

(٣) المرأة في الشعر الجاهلي (الحوفي) ٥٢٧ عن منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم لنشوان بن سعيد الحميري ٨ .

(٤) المرأة في التاريخ والشرائع ص ١٠٨ (طبع بيروت ١٩٢١) .

وصور لنا التاريخ زنوبيا^(١) ملكة تدمر التي بسطت رقعة مملكتها حتى آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين ومصر. ومن الملكات العربيات اللاتي يذكرهن التاريخ: العمردة بنت الأعشى (وكانت أعظم تأثيراً من إختوها في الناس، وأعمق نفوذاً لبلاغتها وذكائها وجمالها وبراعتها في تدبير شؤون الحكم^(٢)). وماوية الغسانية التي تولت الحكم في سيناء بعد زوجها في أواسط القرن الرابع بعد الميلاد^(٣).

أما في العصر الجاهلي فقد تجلت شخصيات نسائية في مختلف المجالات سواء في الفضائل الخلقية كالكرم والشجاعة والوفاء والعفة أو في القدرات الأدبية والعقلية..

ففي كتب الأدب أخبار عن والددة حاتم الطائي التي كانت من أسخى الناس حتى اضطر إختوها إلى الحजर على أموالها خوفاً من إضاعتها.

وعن ابنته سفانة التي كان يعطيها من إبله فتهبها وتعطيها الناس، فقال لها حاتم: يا بنية إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلغاه فإما أن أعطي وتمسكي وإما أن أمسك وتعطي فإنه لا يبقى على هذا شيء... فقالت: والله لا أمسك أبداً، وقال أبوها: وأنا والله لا أمسك أبداً. قالت فلا نتجاور، ففاسمها ماله وتباينا^(٤).

وممن اشتهرون بالشجاعة دختنوس^(٥) ابنة لقيط بن زرارة الدارمي

(١) زنوبيا: ملكة جليلة ذات رأي وحكمة وعقل وسياسة ودقة نظر وفروسية وشدة بأس وجمال فاتت اعتلت أريكة الملك باسم ابنها وهب اللات بعد قتل زوجها اذينة (أعلام النساء ج ٢ ص ١٢٩).

(٢) تاريخ حضرموت السياسي ٧٤.

(٣) المرأة في الشعر الجاهلي (الحوفي) ٥٣٤ والمرأة في التاريخ والشرائع ١٠٢، ١٩٢١.

(٤) أعلام النساء ١٩٦/٢.

(٥) أعلام النساء ١/٤٠٥ ويلاغات النساء ص ٢٠٣.

وكبشة^(١) بنت معد يكرب، وعفرا^(٢) بنت عقال.

ومنهن من اشتهرت بالوفاء والشهامة، فقد ذكر عن فكيفة بنت قتادة بن مشنوء خالة طرفة بن العبد أن السليك بن السلكة قد استجار بها فقامت دونه حتى نجا فقال^(٣) فيها:

لعمر أبيك والأنباء تنمى لنعم الجار أخت بني (عوارا)^(٤)
من الخفريات لم تفضح أباهـا ولم ترفع لإخوتها شنارـا
كان مجامع الأرداف منها نقى درجت عليه الريح هارـا
يعاف وصال ذات البذل قلبي ويتبع الممنعة النوارـا
وما عجزت فكيفة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارـا
ومما يدل على التزام المرأة بعزة النفس واتصافها بالأنفة ما عرف
عن أم عمرو بن كلثوم، وأخبارها معروفة في الأدب العربي تؤكد لها
معلقاته المشهورة.

وهناك عدد من النساء عرفن بالفطنة والدهاء والفصاحة مثل هند
بنت الخس^(٥) التي سجل لها الأدب مواقف بارعة في سرعة البديهة
وحسن الجواب وبلاغة القول وحدة الذكاء^(٦)، وفاطمة بنت الخرشب^(٧)
التي عدت من النساء المنجبات في الجاهلية وسئلت عن (عمارة) أحد
أبنائها فقالت فيه: لا ينام ليلة يخاف ولا يشبع ليلة يضاف، وقالت في

(١) أعلام النساء ٢٣٤/٤.

(٢) أعلام النساء ٢٨٨/٣.

(٣) الأغاني ٣٥٥/٢٠ وأعلام النساء ١٨٠/٤.

(٤) في البيت إقواء.

(٥) هند بنت الخس: شاعرة خطيبة ذات فصاحة ورجاحة عقل (أعلام النساء ٢٣١/٥).

(٦) بلاغات النساء ص ٥٩.

(٧) أعلام النساء ٤٨/٤.

(الربيع): لا تعد مآثره ولا يخشى في الجهل بوادره، وقالت في أنس: إذا عزم أمضى وإذا سئل أَرْضَى وإذا قدر أغضى. وقالت في الآخرين أقوالاً بليغة لم تحفظ عنها^(١).

وقد نبغ في الجاهلية والإسلام شاعرات أضاعت الأزمان الكثير من أشعارهن، اللهم إلا ما ورد عرضاً في بعض الأخبار.. ومما يؤكد هذا أن أبا نواس الشاعر العباسي (القرن الثاني للهجرة) كان يفخر بأنه يروي لستين شاعرة.. فممن اشتهرن بقول الشعر خرنق^(٢) بنت بدر أخت طرفة بن العبد لأمه، وجليلة^(٣) بنت مرة أخت جساس الشيباني، وخرقاء^(٤) العامرية، وليلى الأخيلية^(٥).

ورغم ما لاحظناه من تفوق المرأة في مجالات متعددة ورغم أننا وجدنا فيهن الملكة والمحاربة والشاعرة والحكيمة إلا أنها كانت مستضعفة ممتهنة في أهم علاقة تربطها بالرجل وهي علاقة الزواج.. واستعراضنا لأنواع الزواج في الجاهلية وأحكام كل منها. ولحرية الرجل المطلقة في تعدد الزوجات يؤكد الاضطراب وعدم التوازن في تقييم منزلة المرأة.

يضاف إلى هذا ما نعرفه عن امتعاض بعض قبائلهم وكرههم لولادة البنات حتى لقد كانوا يستترون إذا ما ولدت لهم بنات حياء من القوم وكأنهم اقترفوا ذنباً وارتكبوا عاراً.. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٦).

(١) المصدر نفسه.

(٢) خرنق: أعلام النساء ٣٤٨/١.

(٣) جليلة: أعلام النساء ٢٠١/١.

(٤) خرقاء: أعلام النساء ٣٤٦/١.

(٥) بلاغات النساء ص ١٨٥.

(٦) سورة النحل، الآية ٥٨.

إلا أنهم كانوا يميزون الوالدة ويختصونها بالإكرام، فالمرأة لم تكن ذات شأن حتى تصير أمّاً فيعلو مقامها . . . ولذلك (لم يكونوا يعزّون بالمرأة بعد موتها إلا أن تكون أمّاً)^(١).

وكانت الأم مجالاً مهماً للفخر والمدح أو للمهانة والهجاء فقد يمدح الشخص بأنه (ابن فلانة) التي شرفت قومها بخلقها وشرقها وسيرتها وعقلها ومكانتها ولا نزال في عصرنا هذا يفخر الرجل فينا بأن يقول: (أنا ابنك يا فلانة).

ولهذا وجدنا ظاهرة النسبة إلى الأم والتكني بها، فكان الكثير من رجال العرب وشعرائهم يتكنون بأسماء أمهاتهم فالمناذرة نسبوا إلى أمهم (ماء السماء) وعمرو بن المنذر ملك الحيرة كان يقال له عمرو بن هند . . . ولا نشك في أن لكل من أمهاتهم شخصيتها الغذة ومواقفها الحميدة التي أدت إلى الافتخار بها والانتساب إليها.

وأعتقد أن من الخطأ أن نتوسع في هذا فنرى أن النسبة إلى الأم تعني الرفع من منزلة المرأة دائماً أو أنها موطن للافتخار لا محالة . . . ، إذ ربما كانت النسبة إلى الأم مدعاة للذم والهجاء أحياناً فلان قيل للشخص (ابن فلانة) فليس معنى هذا أن أمه مشرفة إياه لا شك في ذلك وأن نسبته إليها لرفع منزلته ومنزلتها . . . فقد يكون العكس صحيحاً أو قد يكون ممن لا يعرف له أب وفي هذا مدعاة للذم كذلك.

وقد ألفت الكتب الكثيرة في شعرائهم وأدبائهم وشخصياتهم الذين نسبوا إلى أمهاتهم وهو ضرب من التأليف طريف عالجه إمام من أئمة الأخبار والأنساب ورواية الشعر وهو محمد^(٢) بن حبيب بن جعفر

(١) المقفد الفريد ج ٢ ص ٢٦٤.

(٢) قال ياقوت (من علماء بغداد باللغة والشعر والأخبار والأنساب ثقة مؤدب ولا يعرف أبوه وحبيب أمه).

وكتاب آخر في الباب نفسه لمجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي^(١).

ولا بد لنا إذا ما تكلمنا عن المرأة ومكانتها في المجتمع أن نفصل بين المرأة الحرة والمرأة الأمة لأن لكل منهما مكانة تميزها.

فالمرأة الحرة لدى الجاهليين محترمة محصنة يعترف الرجل بأولادها أما المرأة السبية فهي أخط منزلة وأقل قدراً وولدها هجين على كل حال سواء أكانت أمه عربية أم غير عربية وسواء أكانت الأم بنت رئيس شريف أم بنت رجل من عامة الناس^(٢).

ولعلمهم في هذا يرجعون إلى تفوق الأسرى على قوم السباء بالغلبة، يضاف إلى ذلك عرف الجاهلية في إشاعة السبايا وعدم إحصانهم^(٣)، قال قيس بن الخطيم في ذلك:

فلست لحاصن إن لم ترونا نجالدكم كأننا شرب خمر^(٤)

واستمرت النظرة نفسها في كثير من الأحيان حتى في العصر الإسلامي إذ يقول حسان في رجل من مخزوم^(٥):

(كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء (المقدمة)).

والكتاب يضم تسعة وثلاثين اسماً لشاعر منسوب إلى أمه يبدأ بـ (ابن شعوب ص ٨٣) وينتهي بـ (عمرو بن الاطنابة ص ٩٦) وأكثرهم جاهليون. والكتاب هذا ضمن مجموعة نوارد المخطوطات. ورد في كتاب المعارف لابن قتيبة الدينوري فصل ذكر فيه المنسوين إلى غير آبائهم وجاء عدد منهم ممن نسبوا إلى أمهاتهم ص ٢٥٨.

(١) الكتاب هو تحفة النبيه فيمن نسب إلى غير أبيه لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ويذكر فيه المؤلف واحداً وستين اسماً لمن لم ينسب إلى أبيه ويبدأ بـ (إبراهيم ابن عليّة ص ١٠٠) وينتهي إلى يونس بن حبيب الأديب الشاعر، وحبيب أمه ص ١١٠.

(٢) المرأة في الجزيرة ص ١٨٤.

(٣) المرأة في الجزيرة ص ٩٧.

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ص ٦٠.

(٥) ديوان حسان ص ١٤٣ - ١٤٥.

على ما قام يشتمني لثيم كخنزير تمرغ في رماذ
 فأشهد أن أمك ملبغايا^(١) وأن أباك من شر العباد
 مهاجنة إذا نسبوا عبيد عضاريط مغالنة^(٢) الزناد
 ولعل هذا هو الذي أدى إلى عدم الاعتراف بأولاد الإمام إلا أن
 يتفوق الهجين بشاعرية أو فروسية أو بموقف مشهود يدفع أباه إلى
 الاعتراف به، ولكنه يبقى رغم اعتراف أبيه بأبوته دون أبناء الحرائر في
 المنزل، قال ابن عبد ربه^(٣): (وكانت العرب في الجاهلية لا تورث
 الهجين) ولا تزوجه حرة^(٤).

وجاء الإسلام فساوى بين المسلمين جميعاً قال ﷺ: «لا يقولن
 أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ولكن ليقبل
 غلامي وجاريتي وفتاتي وفتاتي»^(٥).

وقد حرم الإسلام من الإمام ما حرم من الحرائر إلا العدد، فلا
 يجوز للمسلم أن يجمع بين أمتين أختين ولا يجمع بين الأمة وعمتها
 وخالتها ولا يستسر أمها أو ابنتها^(٦).

وللأمة الأم مركز يجعلها بمنزلة الحرة أثناء حياتها مع الرجل فإذا
 مات تحررت من الرق، ولم يجز التفريق بينها وبين أبنائها^(٧).
 وخلاصة ما يمكن قوله أن الإسلام قد رفع مكانة المرأة بصورة

(١) ملبغايا: قوله ملبغايا: هو من البغايا كما يقال بلعرت أي بني الحارث.

(٢) مغالنة: أي رخو والزناد: تقول: غلث الزناد: لم يور.

(٣) العقد الفريد ١٢٩/٦.

(٤) المرأة في الجزيرة ٩١.

(٥) مسلم ٥/١٥.

(٦) البخاري فتح الباري ١٢١/١١.

(٧) دائرة المعارف الإسلامية أم الولد ٦٣٥/٢.

عامة وكانت نظرته إليها إنسانية . . فقد ساوى بينها وبين الرجل^(١) ، ودفع عنها اللعنة التي ألصقتها المعتقدات السابقة في أنها أغوت آدم فأخرج من الجنة ، وجعلهما مشتركين في الغواية والذنب^(٢) .

وعمل الدين الإسلامي على النهي عن التشاؤم والحزن لولادتها وحرم وأدها^(٣) . . وكرم مقامها زوجة . قال تعالى : ﴿وَمِنْ مَّيْنَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(٤) . . وأما : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾^(٥) .

وقد حث على تعليمها وأعطاهها حق الإرث أمأً وزوجة وبنثاً ، ونظم قضية الطلاق بما يمنع من تعسف الرجل فيه واستبداده في أمرها ، فجعل له حداً لا يتجاوزه ، وجعل له عدة تتيح للزوجين العودة إلى الصفاء والوثام .

وأسيغ الإسلام على المرأة مكاناً اجتماعياً كريماً في مختلف مراحل حياتها وكافة علاقاتها الاجتماعية .

ونتيجة لذلك وجدنا عدداً لا يستهان به من النساء يبرزن في المجتمع نذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر السيدة خديجة الكبرى^(٦) زوجة الرسول ﷺ التي كانت أول من آمن بالله ورسله وساندت الرسول بنفسها وبمالها ، والسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله

(١) قال تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة) سورة النساء الآية : ١ ، وجاء في الحديث الشريف : (إنما النساء شقائق الرجال) : رواه أحمد وأبو أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم/ المرأة بين الفقه والقانون ص ٢٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٦ .

(٣) سورة التكوين الآية : ٩ .

(٤) سورة الروم الآية : ٩ .

(٥) سورة الأحقاف الآية : ١٥ .

(٦) أعلام النساء ١/ ٣٢٦ .

عنها التي عرفت بنشاطها الديني والسياسي والتي شاركت في الفتيا وروي عنها ١٢٠٠ حديث^(١) والسيدة فاطمة^(٢) بنت رسول الله ﷺ التي اشتركت مع أبيها في فتح مكة وحجة الوداع وروت بعض الأحاديث عن أبيها ﷺ، والسيدة سكينه بنت الحسين رضي الله عنها الشاعرة التي شهرت بجمالها وأناقتها وندواتها والتي كانت تحسن نقد الشعراء والمفاضلة بينهم عن علم وذوق، ومثلها عائشة بنت طلحة الأديبة العالمة التي عرفت بجمالها وعفتها وأخبارها مع الشعراء كثيرة ولها مجلس معروف عند هشام بن عبد الملك تجلى فيه علمها أمام شيوخ أمية^(٣).

وقد عرفت أروى بنت الحارث بن عبدالمطلب بالفصاحة والجرأة ورجحان الرأي حتى أنها أفحمت معاوية^(٤) وعمرو بن العاص ونذكر في هذا المجال الخنساء الشاعرة التي تفوقت على الكثير من شعراء زمانها.

وممن يذكر في التاريخ الإسلامي من النساء اللاتي سجلت أسماؤهن على صفحات المجد والبطولة خولة بنت الأزور التي أبلت أحسن البلاء يوم أسرت النساء في موقعة (صحورا) فأثارت نخوتهن ولم يكن من السلاح معهن شيء إلا عمد الخيام إلا أنها استطاعت بشجاعتها أن تنقذ النساء من أيدي الروم وخرجت وهي تقول:

نحن بنات تبع وحمير
لأننا في الحرب نار تسعر
وضربنا في القوم ليس ينكر
اليوم تسقون العذاب الأكبر

(١) الموسوعة الميسرة ص ١١٧٤ وأعلام النساء ٩/٣.

(٢) الموسوعة الميسرة ص ١٢٦٧ وأعلام النساء ١٠٨/٤.

(٣) الموسوعة الميسرة ص ١١٧٥ وأعلام النساء ١٣٧/٣.

(٤) أعلام النساء ٢٨/١ والموسوعة الميسرة ص ١٢٦.

ومثلها أزدة بنت الحارث بن كلدة^(١) التي خاضت ساحات الوغى بكل بسالة ورباطة جأش مع نساء المحاربين الذين خرجوا للجهاد حازت النصر المبين .

وممن يذكر في مجال البطولة والشجاعة غزالة الحرورية^(٢) زوج شبيب بن يزيد قائد الخوارج وبطلهم . قيل إن الحجاج بن يوسف عامل بني أمية المشهور بسفك الدماء خرج مرة في جنده شاكي السلاح مستكمل العدة فعرضت له غزالة في أربعين فارساً وهو في أربعة آلاف فاختلط عليه الأمر وانخلع قلبه من الفزع وولى هارباً وفي ذلك قال عمران بن حطان متهمكماً به حينما لج في طلبه :

أسد علي وفي الحروب نعامة ريداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزالة جمعه بعساكر تركت كتائبه كأمس الدابر

ومن المحدثات الفاضلات والمجاهدات الجليلات أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية وكانت من ذوات العقل والدين والشجاعة والخطابة حتى لقبوها بـ (خطيبة النساء)^(٣) . وقد بلغ من شأنها أنها أتت النبي ﷺ وهو في أصحابه فقالت له : بأبي أنت وأمي يا رسول الله : أنا وافدة النساء إليك أن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فأمننا بك وبإهلك ، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم ومقتضى شهواتكم وحاملات أولادكم وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا في الجمع والجماعات وعبادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل ، وإن الرجل

(١) أعلام النساء ٤١/١ .

(٢) أعلام النساء ٧/٤ .

(٣) أعلام النساء ٦٦/١ .

منكم إذا خرج حاجباً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم أفلا نشارككم في هذا الأجر؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: (هل سمعتم بمقالة امرأة قط أحسن من مسائلها في أمر دينها من هذه؟ فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا . . إلخ) ولعل دعوة أسماء بنت يزيد هذه هي أول دعوة إلى عدم إغفال شأن المرأة وإعطائها حقوقها من الأجر في المشاركة في الجهاد . .

أما حقوق المرأة الحرة والأمة في الزواج ومكانة كل منهما في المجتمع فلا بد من الإشارة إليها بإيجاز.

لقد ظلت مكانة الحرائر في العهد الإسلامي والأموي مكانة تطفئ على مكانة الجوارى . . وكانت هناك بعض الأمور التي تفرق بين منزلة الحرائر والإماء^(١) فالحجاب مثلاً فرض على الحرائر دون الإماء . قال الإمام فخر الدين الرازي: (وكان في الجاهلية تخرج الحرة والأمة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع التهم، فأمر الله الحرائر بالتجلبب بقوله تعالى: ﴿يَتَّخِذْنَ أَلْبِسَهُنَّ الْقُلُوبَ لِلزَّوْجِ وَنِصَائِكِ وَالْمُؤْمِنِينَ يُذِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ أَذَى أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ﴾^(٢). قيل: يعرفن أنهن حرائر فلا يتبعن^(٣) .

ويقول القاضي البيضاوي^(٤) في تفسيره قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَذَى أَنْ يَعْرِفْنَ﴾ يميزن من الإماء والقينات فلا يؤذين أهل الرية بالتعرض لهن .

(١) الحجاب: أبو الأعلى المودودي ص ٣٦٨.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٥٩.

(٣) التفسير الكبير للرازي ج ٦ ص ٥٩.

(٤) تفسير البيضاوي ج ٤ ص ١٦٨.

ولهذا رأينا حرص الأمة أحياناً على التشبيه بالحرّة وهو أمر يصوره في الإسلام ما رواه الإمام مالك^(١) : (أنه بلغه أن أمة كانت لعبد الله بن عمر بن الخطاب رأها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد تهيأت بهيئة الحرائر، فدخل على ابنته حفصة فقال: ألم أر جارية أخيك تجوس الناس وقد تهيأت بهيئة الحرائر؟) وأنكر ذلك.

ولعل نظرتهم إلى الإماء وإلى أبنائهم هي التي أدت إلى حرصهم على التزوج من الحرائر من ذوات الشرف والحسب أو كما كانوا يسمونهم (عقائل القوم)، ومما يؤكد هذا ما جاء في أقوالهم وأخبارهم فمن ذلك قول عثمان^(٢) بن أبي العاص الثقفي لبنيه: (يا بني إني قد أمجدتكم في أمهاتكم، وأحسنتم في مهنة أموالكم، ثم يقول والناكح مغترس فلينظر امرؤ منكم حيث يضع غرسه، والعرق السوء قلما ينبج ولو بعد حين)^(٣).

وقيل: (إن أبا الأسود الدؤلي قال لبنيه: (أحسنتم إليكم قبل أن ولدتم وبعده. قالوا: كيف أحسنتم قبل الولادة؟ فقال: لأنني اتخذت أمهاتكم من حيث لا تعابون به)^(٤).

ولما جلس عثمان بن عفان رضي الله عنه على المنبر قال: (إي أيها الناس إن الله قد فتح عليكم إفريقية، وقد بعث إليكم ابن أبي سرح عبد الله بن الزبير بالفتح. قم يا ابن الزبير، قال: فقمتم فخطبت، فلما

(١) الموطأ ج ٢ ص ١٣٥، المرأة في الجزيرة ص ٥٠.

(٢) عثمان بن أبي العاص: صحابي من أهل الطائف، استعمله الرسول ﷺ عليها ثم ولاء عمر عمان والبحرين سنة ١٥هـ. (الأعلام ٤/٣٦٨).

(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٦٧ وج ٢ ص ٦٧، وجاء في الأغاني ج ١٢ ص ٤٥ أن الوصية لغيلان بن سلمة.

(٤) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٣٢٩.

نزلت قام فقال: يا أيها الناس انكحوا النساء على آبائهن وإخوتهن فإنني لم أر لأبي بكر الصديق ولداً أشبه به من هذا^(١) وذلك أن أم عبدالله بن الزبير هي أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه.

(وكانوا لا يرون بأساً بأن تنتقل المرأة إلى عدة أزواج لا ينقلها عن ذلك إلا الموت ما دام الرجال يريدونها)^(٢) واعتبرت معاودة المرأة للزواج بعد أن تمضي عدة وفاة زوجها أو عدة طلاقها أمراً طبيعياً لا ينكره أحد. قال تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَ الْأَجَلُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٣).

وهناك عدد كبير من عقائل المسلمين وسيدات المجتمع ممن عرفن بالجمال والخلق ورجاحة العقل وجزالة الرأي قد تزوجن من سادات المسلمين وسراتهن منهن عائكة بنت زيد بن عمرو^(٤) وعائشة بنت طلحة^(٥) وأسماء بنت عميس^(٦).

وقد تلون الأدب العربي باللون الذي يناسب هذا الوضع الاجتماعي وكثرت في كتب الأخبار والأدب أقوال الأزواج يخشون

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٤٠٦ وج ٢ ص ٩٥.

(٢) رسالة القيان ص ٦٢.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٣٤.

(٤) أعلام النساء ٢٠١/٣ تزوجها عبدالله بن أبي بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب (رضي) ثم الزبير بن العوام ثم تزوجها الحسين بن علي بن أبي طالب ثم تأيمت بعده فكان عبدالله بن عمر يقول: من أراد الشهادة فليتزوج بعائكة.

(٥) أعلام النساء ١٣٧/٣ تزوجها عمر بن عبيدالله وعبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ثم تزوجها بعده مصعب بن الزبير وتزوجت بعد قتله عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي.

(٦) كانت أسماء قبل أبي بكر عند جعفر بن أبي طالب ثم لما قتل عنها تزوجها أبو بكر فلما مات تزوجها علي بن أبي طالب (الف باء البلوى ٥٧٨/٢) وينظر في ذلك ذم الهوى لابن الجوزي ص ٦٤٧ - ٦٥٢.

على زوجاتهم أن يتزوجن بعدهم . ذكر عن الحسن المدايني أنه قال :
(احتضر رجل من العرب فنظر إلى ابنه يدب بين يديه واسمه معمر وأم
الصبي عند رأسه جالسة فقال :

وإني لأخشى أن أموت وتنكحي ويقذف في أيدي المراضع معمر
وترخى ستور دونه وقلائد ويشغلکم عنه خلوق ومجمر^(١)

ويروى^(٢) عن عبدالله بن عكرمة قال : دخلت على عبدالرحمن بن
الحارث بن هشام أعوده فقلت له : كيف تجدك فقال : أجدني والله
للموت وما موت علي بأشد من أم هاشم أخاف أن تتزوج بعدي فحلفت
له أنها لا تتزوج بعده فغشي وجهه نور ثم قال : (فلينزل الموت متى
شاء) .

وكما أن الرجل يهتم كثيراً باختيار الزوجة الموافقة . . كان الآباء
حريصين على اختيار ذوي العقل والشرف لبناتهم وأن يكونوا موسرين
من عقل ودين على حد قولهم . . (قيل للحسن : فلان خطب إلينا فلانة
قال : أهو موسر من عقل ودين قالوا : نعم ، قال : فزوجوه)^(٣) .

وعن الأصمعي أن رجلاً مكثراً من مال مقلأ من عقل خطب ابنة
رجل فقير ، فلما شاور فيه أجيب (بأن لا تفعل ولا تزوج إلا عاقلاً ديناً
فإنه إن لم يكرمها لم يظلمها)^(٤) .

وكانوا كثيراً ما يحسبون لرأي الفتاة حساباً في موافقتها على
الزواج فيأخذون رأيها في خطابها فيعددون لها الحسب والنسب
ويذكرون المكارم والصفات ويصفون الأخلاق والطباع . .

(١) الف باء ٤٤٩/٢ .

(٢) الف باء ٤٤٩/٢ .

(٣) العقد الفريد ١٠٠/٦ .

(٤) المصدر نفسه .

جاء عن هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان أنها طلبت من أبيها أن لا يزوجه من أحد حتى يعرض عليها أمره ويبين لها خصاله . وقيل إنها لما خطبها الخطاب وعرضت عليها خصالهم وناقشتها وفاضلت بينهم . فضلت أبا سفيان^(١) .

وكانت الفتاة الحرة تربي على حسن معاشرة الزوج وطاعته وفهم جوانب نفسه كما تربي على المجالسة والمنادمة وتروي الشعر^(٢) وتحفظ الأحاديث والنوادر وقد تعلم العلوم والفقه ويدل على ذلك ما روي عن الحجاج حينما ذكرت النساء عنده أنه قال : (عندي أربع نسوة : هند بنت المهلب وهند بنت أسماء بن خارجة ، وأم الجلاس بنت عبدالرحمن بن أسيد وأمة الله بنت عبدالرحمن بن جرير بن عبدالله البجلي ، فأما ليلتي عند هند بنت المهلب فليلة فتى بين الفتيان يلعب ويلعبون . وأما ليلتي عند هند بنت أسماء فليلة ملك بين الملوك ، وأما ليلتي عند أم الجلاس فليلة أعرابي مع أعراب في حديثهم وأشعارهم . وأما ليلتي عند أمة الله بنت عبدالرحمن بن جرير فليلة عالم بين العلماء والفقهاء^(٣) .

ومما يدل على أنهم كانوا حريصين على اطلاع الفتيات على الأدب ورواية الشعر ما ذكره صاحب الأمالي عن عمارة بن عقيل أنه قال^(٤) : (كانت مولاة لبني الحجاج تحفظ شعراً وترويه وتنشده فتيات بني الحجاج ، فأنشدتهن ذات ليلة كلمتي في حمادة - وفيهن واحدة وهي عقيلتهن - فلما انتهت إلى قلبي :

فإن تصبح الأيام شيبن مفرقي وأذهبن أشجاني وفلنن من غربي

(١) المصدر نفسه ٨٧/٦ - ٨٨ .

(٢) العقد الفريد ٦/١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) الأمالي ٢/٦٠ .

فيا رب يوم قد شربت بمشرب شفيت به هيم الصدى بارد عذب
ومن ليلة قد بتها غير آثم بساجية الحجلين ريانة القلب

ضحكت، ثم أعرضت وضربت بكمها على وجهها وقالت:

هلا إثم...! حرمه الله...!

ولا بد لنا ونحن في مجال الحديث عن المرأة في المجتمع
الجاهلي والإسلامي أن نقف وقفة قصيرة عند التشبيب لأنه يمثل جانباً
من جوانب صورة المرأة في المجتمع.

أما في العصر الجاهلي فرغم كون الزواج والطلاق وتعدد
الزوجات على كثير من الفوضى وعدم الانتظام، إلا أنهم كانوا مع ذلك
جد حريصين على العفاف والصيانة حتى أدى حرصهم على ذلك إلى وأد
البنات عند بعض القبائل كما سبق أن مرّ بنا.

وكانوا إذا توسم رجل منهم نظرة إلى امرأته أو أخته أو ابنته بريئة
طلب الناظر إلى التبارز أو التجالد أو المصارعة، وربما نشب القتال^(١)
بين القبائل غير على نظرة مريبة قال الجاحظ: (ولا كانوا يرضون مع
سقوط الحجاب بنظرة الفلنة ولا لحظة الخلصة)^(٢).

وكانوا إذا ما وقع الحب بين اثنين يحظرون على العاشقين الخلوة
حظراً شديداً، ويمنعونهما من الزواج^(٣) غالباً ولهذا أبى أهل ليلى تزويج
ابنتهم من ابن عمها قيس بن الملوح.

وكان المسلمون في صدر الإسلام قريبين من البداوة فحرصوا
حرص آبائهم على العرض وزادوا عليهم في التزام العفاف واعتباره من

(١) ينظر كتاب المرأة في التاريخ والشرائع في تفصيل بعض الحوادث ص ١٢٧.

(٢) رسالة القيان ص ٥٨.

(٣) الأغاني ٨/٢.

أشرف الخصال، لا خوفاً من القصاص فحسب وإنما تديناً وتقوى، إلا أن الموقف الإنساني للدين الإسلامي والنظرة إلى العلاقة بين المرأة والرجل عدلاً من سنة العرب بمنع تزويج الرجل من امرأة استحسناها وأحبها.

وتحدثنا كتب الأخبار والأدب عن العشاق في صدر الإسلام وعن أخبار عفافهم وشرفهم^(١)، وكيف أنهم كانوا يكتفون بالنظرة وببث الشكوى وتناشد الأشعار، وكانوا يعتبرون القبلة إثماً وزنى يجب التكفير عنهما^(٢).

قيل إن أم البنين^(٣) قالت لعزة صاحبة كثير: أخبريني عن قول كثير^(٤):

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممتطوئاً معنئ غريمها أخبريني ما ذلك الدين؟ قالت: وعدته قبله فخرجت منها، قالت أم البنين: أنجزها وعليّ إثمها.

وقيل إن رجلاً سأل أعرابياً ما الزيا عندكم؟ فقال: القبلة والضمّة^(٥). وكان للعفة مظاهر شتى عندهم قد تتجاوز الأعمال، فهم يريدون من المرأة أن تكون عفيفة حتى في قولها وحديثها. قال سويد بن أبي كاهل:

تسمع الحداث قولاً حسناً لو أرادوا غيره لم يستمع^(٦)

(١) المستطرف ١٤٦/٢ وينظر الغزل العذري للدكتور أحمد عبدالستار.

(٢) عيون الأخبار ٤ ص ٩٢، ٩٤.

(٣) المستطرف ١٤٦/٢ وينظر الغزل العذري.

(٤) هي ابنة عبدالعزيز أخت عمر بن عبدالعزيز وزوجة الوليد بن عبدالملك.

(٥) عيون الأخبار ٩٢/٤.

(٦) المصدر نفسه.

وقال آخر:

ويخالها المرح السفيه تحبه ونوالها غير الحديث بعيد^(١)
وكان الغزل أغلبه موقوفاً على الحرائر العربيات^(٢)، وكانت صورة
المرأة في ذلك العصر صورة رائعة تمثل الجمال والحياء والعفة والعزة
والعقل والإرادة.

نخلص مما مر بنا إلى أنه كانت هناك حدود اجتماعية ومثل عليا
للرجال والنساء تواضع عليها الناس ومنهم الشعراء، حدوداً التزمها
الأكثرية بدلالة ما بين أيدينا من أدب وتجاوزها قلة من الشعراء الذين
جاهروا بالفحش وانساقوا وراء الحياة اللاهية كامرئ القيس وعمر بن
أبي ربيعة ومن شاكلهما.

وكان لذلك كله أثره البين على مكانة المرأة ومركزها الاجتماعي
في الجاهلية والإسلام.

(١) المفضليات ١/ ١٩٠.

(٢) المؤتلف والمختلف ١٢٧.

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ص ١٣.

٢ - صورة المرأة في المجتمع في العصر العباسي

المرأة في المجتمع العباسي:

لقد أدى توالي الفتوحات الإسلامية واتساعها في العصر الأموي إلى انتكاس في قضية المرأة في العصر العباسي . (ولما كثرت الفتوحات كثرت الاسترقاق من الأمم المفتوحة كثرة هائلة، ووزع المسترقون رجال ونساء وذراي على العرب الفاتحين، حتى يروي المسعودي أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد وألف أمة، وهذا الرقيق يعد مملوكاً للسيد كالمتاع، له الحق في بيعه وهبته، وإذا كان أمة جاز للسيد أن يستمتع بها، ولا يقيد الملك بعدد، فيصح أن يكون للرجل عدد كبير من العبيد كما يصح أن يكون في بيته عدد من الإماء)^(١).

وأدت الانتصارات إلى أن غمرت البلاد بالسبايا والجواري والأموال والخيرات كما أدت إلى تسرب أخلاق الأعاجم إلى العرب، وإذا بهذا التطور الذي أصاب أخلاق العرب بسبب الامتزاج الاجتماعي والثقافي، وبوفرة المال يقترن بحيف شديد أصاب المرأة وعاد عليها بالتضييق وأفسد الثقة بها .

ورغم أن هذه الظاهرة بدأت بوادرها بالظهور منذ العصر الأموي، إلا أن المجتمع حافظ جهد المستطاع على التقاليد القومية، والمثل العربية، فقد وقف موقف المحتاط المتوجس الذي لا يريد أن يفسح للأجنبي المجال للانصهار في عروبة المجتمع وللتأثير فيه .

لهذا لم يكن للجواري في ذلك العهد شأن ولا خطر^(٢) . فلم

(١) فجر الإسلام، ص ٨٨ - ٨٩.

(٢) المرأة العربية، ص ٧.

يتخذن إلا قهارم للخدمة أو سراري في الأسرة، وبقي العرب في عهد بني أمية سادة المجتمع، فقد رفضوا حتى فكرة التسوية بالموالي وتعصبوا لجنسهم تعصباً قوياً..

روي عنهم الكثير من الأخبار الطريفة التي تدل على ذلك، فقد زعموا أن نافعاً بن جبير^(١)، كان إذا مرت به جنازة وقيل عربي، صاح: يا قوماء! وإن قيل مولى، قال: مال الله يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء^(٢).

وكان العرب، وبخاصة أبناء القبائل منهم لا يرضون زواج بناتهم من الموالي فقد روي أن أحدهم خطب بنتاً من أعراب سليم وتزوجها^(٣)، فركب محمد بن يسير الخارجي إلى المدينة فشكا إلى الوالي ذلك، ففرق بين المولى وزوجته وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه وفيها يقول محمد بن يسير^(٤):

وفي المائتين للمولى نكال وفي سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببسات كسرى فهل يجد الموالي من مزيد
فأي الحق أنصف للموالي من اصهار العبيد إلى العبيد

وكانت بنو أمية لا تستخلف بني الإمام، وقالوا لا تصلح لهم العرب^(٥)، وربما كانت هذه هي نظرة الخلفاء أنفسهم حتى ولو كان

(١) نافع بن جبير من قرش، من كبار الرواة للحديث، تابعي ثقة من أهل المدينة، كان فصيحاً عظيم النخوة جهير المنطق يفخم كلامه وفيه تيه، وكان ممن يؤخذ عنه ويفتى بفتواه (الأعلام ٣١٦/٨).

(٢) محاضرات الأدباء ٣٤٧/١.

(٣) محاضرات الأدباء ٢١٨/١، وضحي الإسلام ٢٣/١.

(٤) محمد بن يسير: هو محمد بن يسير الرياشي، وكان شاعراً ظريفاً مثلاً، وكان ماجناً هجاء خبيثاً، وكان من بخلاء الناس، ترجمته في الأغاني ١٨/١٤، وكثيراً ما يتصحف اسمه إلى (بشير) وله أخبار في كتاب الحيوان ٥٩/١، وترجمة في الشعر والشعراء ٧٥٦/٢.

(٥) العقد الفريد ١٣٠/٦.

أبناءؤهم من الإمام أفضل من أبنائهم من الحرائر وأكثر منهم نباهة. قيل إن عبدالملك سابق بين سليمان ومسلمة فسبق سليمان مسلمة، فقال عبدالملك^(١):

ألم أنهكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدرك وما يستوي المران هذا ابن حرة وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك وتضعف عضداه ويقصر سوطه وتقصر رجلاه فلا يتحرك وأدركنه خالاته فنزعنه ألا إن عرق السوء لا بد يدرك

على أن طبيعة الحضارة تغلبت في آخر دولة الأمويين على الحرص الشديد على النسب العربي وقضى الامتزاج بالأعاجم باختلاط الأنساب فبايعوا لأبناء الإمام فكان أول من تولى الخلافة من الهجناء يزيد بن الوليد بن عبدالملك، فقد قيل إن أمه كانت من نسل يزدجرد بن كسرى سبها قتيبة من بلاد الصفد ثم أرسلها الحجاج إلى الوليد بن عبدالملك^(٢).

هذه بعض الأمور التي استدعت المناسبة الاقتصار عليها ذكرناها بإيجاز لنؤكد ونوضح أن المجتمع الذي كان يلفظ الموالي ويستخف بأولاد الإمام لا يمكن له أن يسيغ أخلاقهم وعاداتهم، وأن المرأة العربية في هذا العصر بالذات قد حافظت إلى حد بعيد على مكانتها وعزتها في نفوس رجال الأسرة وفي المجتمع بصورة عامة.

ولسنا هنا في معرض القيام بتفضيل وضع اجتماعي على آخر، ولكن رأينا أن نجعل ما ذكرناه بإيجاز مدخلاً لدراسة وضع المرأة في المجتمع العباسي..

(١) نفسه ٦/١٣٠.

(٢) الكامل ٤/٢٧٥، ٥/١٤٧.

فهل يمكن القول إن المجتمع العربي بقي محافظاً على نقائه إلى حد ما .؟ وهل في بيوت الخلافة، وهي القدوة للمجتمع بأسره دليل على ذلك .؟ أجل يمكننا أن نقر بهذا، وبخاصة في مطلع الخلافة العباسية . فأبو العباس السفاح أمه عربية، وهي ريطة^(١) بنت عبدالمدان الحارثي . ولعل عروبة أمه كانت السبب في تقدمه على أخيه المنصور الذي كان يكبره في السن والذي أبلى بلاءً حسناً في تأسيس الدولة العباسية، لأن أم المنصور كانت بربرية اسمها سلامة^(٢) .

ومن خلفاء بن العباس الذين ولدوا من أمهات عربيات: المهدي بن المنصور فأمه أم موسى^(٣) بنت منصور بن عبدالله الحميرية، ومحمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة^(٤) بنت جعفر بن المنصور .

وكانت مسيرة التأثير الأجنبي في أبناء الخلافة متباطئة محدودة في بادئ الأمر فقد رأينا أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور رغم أنهما كانا قد حصلا على الثروة والجاه وعلى كل مباحج الحياة، إلا أنهما فرضا على نفسيهما وعلى أتباعهما، بل على دولتهما حياة الصلابة^(٥) والجد وعدم الانسياق وراء الملذات والملاهي .

ولكن تيار الأعاجم ما لبث أن اشتد حتى صار أعنف من أن يمكن الحد منه أو القضاء عليه . . حتى رأينا المجتمع في العصر العباسي تعمل فيه المدنية عملها فتقوض الكثير من تقاليده وتدفع جزءاً كبيراً منه إلى الجري وراء الحياة ولذائدها ومباهجها .

(١) تاريخ الطبري ٤٧١/٧ .

(٢) لطائف المعارف، ص ١٢٥ ومروج الذهب ٢٠٩/٣ .

(٣) تاريخ الطبري ١٠٢/٨ ولطائف المعارف ص ١٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ٣٥٩/٨، ولطائف المعارف ص ١٢٥ .

(٥) مروج الذهب ٢٣٢/٣ .

إلا أن هذا لم يمنع جزءاً آخر من المجتمع من التمسك بالتقاليد والمثل العربية والالتزام بالفرائض والتعاليم الدينية، وسنرى آثار ذلك في بعض المواقف والقواعد والعادات الاجتماعية، نذكر منها:

أ - الحجاب: على أن الذي يعنينا من هذا المجتمع هو مكانة المرأة فيه . نعم . . لقد كان لانتشار حياة البذخ والترف في الكثير من الأوساط الاجتماعية وكثرة تدفق القيان والجواري آثارها في تحديد بعض المظاهر والمواقف تجاه المرأة، الأمر الذي أدى إلى عزل الحرائر وحجبهن عن المجتمع .

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن عادة عزل الحريم التي كانت منتشرة عند الفرس منذ أقدم الأزمنة لم تظهر عند المسلمين إلا في عهد الوليد الثاني^(١)، أي في أواخر العهد الأموي، ولهذا دلالة لأن عنصر الزمن يجب أن يحسب له حسابه .

وقد أشار الجاحظ إلى إباحة الاختلاط عند العرب، بقوله: (فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلته ولا لحظة الخلصة دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ويزدوجوا في المناسبة والمشافعة، ويسمى المولع بذلك من الرجال بالزير المشتق من الزيارة، وكل ذلك بعين الأولياء وحضور الأزواج، لا ينكرون ما ليس بمنكر إذا أمنوا المنكر^(٢) .

ويضرب الجاحظ لذلك مثلاً ببثينة وصاحبها جميل بعد أن استعظم أخوها مخالطتها جميلاً ومحادثتها إياه، فشكا ذلك إلى زوجها، فكمنوا لجميل عند إتيانه بثينة ليقتلاه، فلما دنيا لحديثه وحديثهما سمعاه يقول ممتحناً لها: (هل لك فيما يكون بين الرجال والنساء فيما يشفي غليل

(١) مختصر تاريخ العرب ص ١٨٩.

(٢) رسالة القيان، ٥٧.

العشق ويطفئ نائرة الشوق؟ قالت: لا. قال: ولم؟ قالت: إن الحب إذا نكح فسد، فأخرج جميل سيفاً كان قد أخفاه تحت ثوبه فقال: أما والله لو أنعمت لي لملاّته منك. فلما سمعا ذلك منه وثقا به وركنا إلى عفاfe وانصرفا عن قتله وأباحاه النظر والمحادثة^(١).

وقال الجاحظ^(٢): (فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي ﷺ خاصة).

ويبدو أن الحضارة والمدنية والاختلاط بالأجانب هي التي أدت إلى التشديد في حجب الحرائر عن الرجال، ويؤكد ذلك ما ذكره ياقوت في أعراب مرباط الذين حافظوا في باديتهم على نقاء مجتمعهم (فكانوا لا يجدون حرجاً في أن تخرج نساؤهم إلى ظاهر مدينتهم لمسامرة الرجال ومجالستهم إلى أن يذهب آخر الليل، فيجوز الرجل على زوجته وأخته وعمته وخالته، وإذا هي تلاعب آخر وتحادثه فيعرض عنها ويمضي على امرأة غيره فيجالسها كما فعل بامرأته)^(٣).

ويلعل ابن قيم الجوزية^(٤) إطلاق الحرية للمرأة في محادثة الرجل والجلوس معه بقوله: (لما يرون من النقص في الريب، ويأخذون أنفسهم بحفظ الجيران وما يعرف بعضهم عن بعض من استعمال الوفاء والتحرز من العار، لأن الرجل منهم كان يصون حرمة جاره وصاحبه كصيانة الابنة والأخت والزوجة من حرمه، لا يرى أحد منهم لنفسه رخصة في إضاعة ذلك وإنما يتحمل العذر ويرخص نفسه فيه من باين البوادي وخالط الحضرة، لأنه يرى أجناس العبيد وأخلاط العوام، وقد نشأوا على عادة فجرها عليها).

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) نفسه، ص ٥٧.

(٣) معجم البلدان (مرباط) ٤/ ٤٨٢.

(٤) أخبار النساء ص ١٤٥.

ولا شك في أن الجاحظ وابن قيم الجوزية يلتقيان عند مبرر واحد لإباحة الاختلاط حينذاك وهو (أمن المنكر).

وهو ما نلتقي به معهم على بعد الزمن من عهدهم، رغم اختلافنا معهم في الأسباب المؤدية إلى إباحة الاختلاط (لا من المنكر)، فإن كان السبيل عندهم إليه سذاجة الأعراب وشهامتهم ونقاء سريرتهم والتزامهم بمثلهم الأصيلة في الغيرة على الحرم وعدم التأثر بأجناس العبيد وأخلاق العوام - على حد قولهم - فسيبيلنا اليوم إلى (أمن المنكر) هو حسن التربية والتوجيه والثقافة القويمة التي تسمو بالرجل والمرأة عن الدني من الأمور، وتنزههم عن التحلل والفساد، وتصون خلقهما عن التبذل والتحلل.. وإنما هو لقاء يرحى منه السمو بالفكر والنفس ويقصد به إلى البناء والتقدم.

وهكذا رأينا أن التضييق على المرأة في فرض الحجاب ومنع الاختلاط والحذر منه كان واقعاً تحت تأثير المجتمع وكلما زاد تحللاً.. وكلما كثرت السبايا والجواري وانتشر الفساد، خيف على المرأة من أن تهدر كرامتها وتبيح عفتها، فتشددوا في الحجاب وأكدوا عليه.

ونشط الفقهاء في الاجتهاد بمنع المرأة من الخروج من بيتها^(١). وكانوا يغارون على الحرائر أكثر مما يغارون على الجواري، ويحجبون الحرة ويشددون في حجبها^(٢)، ويحرصون عليها أن تظن بها الظنون وأن تكون من المبتذلات بالخروج من الدار.

فقد ذكر أبو عمر القاضي محمد بن يوسف بن يعقوب الأزدي^(٣)

(١) البخاري ٣٤/٢.

(٢) ضحى الإسلام ٨١/١.

(٣) أبو عمر القاضي: ولد بالبصرة سنة ٢٤٣هـ، كان ثقة فاضلاً غزير العلم والحلم والذكاء، يضرب به المثل بعقله وسداده وحلمه، توفي سنة ٣٢٠هـ (المتنظم ٢٤٦/٦).

أنه كان مرة عند التاجر أبي عبدالله بن الجصاص^(١)، وكان في صحنه سرادق مضروب، وبينما كانوا يتحدثون إذا بصريير نعل من خلف السرادق. فصاح ابن الجصاص يا غلام: جثني بمن مشت خلف السرادق الساعة، فأخرجت إلينا جارية سوداء. فقال: ما كنت تعملين ها هنا؟ قالت: جثت إلى الخادم لأعرفه أني قد فرغت من الطبخ وأستاذن في تقديمه، فقال: انصرفي لشأنك، قال: فعلت أنه إنما أراد أن يعرفني أن ذلك الوطاء وطاء سوداء مبتذلة، وأنها ليست من حرمة ولا ممن يصونه، فيزيل عني أن أظن به مثل ذلك في حرمة^(٢).

ولم يقتصر الحجب على الحرائر فقط، وإنما تعداهن إلى الكثير من جوارى القصور والبيوتات، فكان الخروج ممنوعاً على حريم الخلفاء والأمراء والوجهاء إلا على القهرمانات اللاتي سمح لهن بالدخول والخروج لقضاء الحاجات^(٣) ولهذا رأينا إحدى مملوكات السيدة أم المقتدر حينما اشتت رؤية الناس، سعت إليها حتى جعلتها قهرمانة^(٤).

وبلغ من تشدهم في صون النساء، وحراستهم أنهم كانوا يبذلون في سبيله المؤونة العظيمة، وإلى ذلك أشار الجاحظ بقوله^(٥): (ولو لم يكن إلا الاهتمام بالحفظ والحراسة وخوف العار من خيانتهم والجناية عليهم، لكان في ذلك المؤونة العظيمة والمتعة الشديدة، غير أن أولى

(١) أبو عبدالله بن الجصاص: الحسين بن عبدالله بن الجصاص الجوهري، كان ذا ثروة عظيمة، وفي (نشوار المحاضرة للتوخي) قصص تحدثت عن كيفية إثرائه وعن ذكائه، توفي سنة ٣١٥هـ.

(٢) نشوار المحاضرة ٣٦/١.

(٣) نشوار المحاضرة ١٨٣/٤.

(٤) نشوار المحاضرة ١٨٣/٤.

(٥) المحاسن والأضداد ص ٢١٢.

الأشياء بالرجال حفظهن وحراستن).

ومن ذلك ما يرويه أبو الفرج الأصفهاني^(١) أنه (كان للمراكبي جارية يقال لها مظلومة، جميلة الوجه، بارعة الحسن، فكان يبعث بها مع عريب^(٢)) إلى الحمام أو إلى من تزوره من أهله ومعارفه، فكانت ربما دخلت معها إلى ابن حامد الذي كانت تميل إليه، فقال فيها بعض الشعراء، وقد رآها عنده:

لقد ظلموك يا مظلوم لما أقاموك الرقيب على عريب
ويتضح من هذا الخبر أن الرقيب قد لا يجدي نفعاً مع أمثال
عريب ممن غرقن في حياة العبث والمجون والفن الانسياق وراء
الملذات. كما يتضح منه السبب الذي حدا بأولياء الأمور إلى أن
يتشددوا في حجب الحرائر حرصاً منهم على إبعادهن عن مواطن الغواية
ومواضع الشبهة.

فقد كان في المجتمع العباسي الكثير مما يساعد على ذلك،
فالجواري اللاتي ربين ودربن على الغواية والتحلل والفساد منبثات في
كل مكان يمارسن الوسائل المختلفة لإرضاء غرائز الرجال وأبصارهم
وأسماعهم. والشباب العايب اللاهي يتصيد الغفلة ويتنزه الفرصة.

قليل إنه لما توفيت - بانه - مولاة جنان التي يشبب بها أبو نواس
وكان يوم ثالثها، خرجت الجواري إلى قبرها فتبعهن الشباب والشعراء
وكان معهم محمد بن منذر^(٣) فقال^(٤):

(١) الأغاني ٧٢/٢١.

(٢) عريب: جارية من القيان. انظر: (تعريف بأعلام النساء).

(٣) محمد بن منذر: شاعر عباسي عاصر الرشيد. ترجمته في الشعر والشعراء ٧٤٧/٢،
والأغاني ١٠٣/١٨.

(٤) الأغاني ١٠٩/١٨.

اليوم يوم الثلاثاء ويوم ثالث بانه
اليوم تكثر فيه الظباء في الجبانة^(١)

ولا شك في أن هذه الطائفة من النساء اللاتي كن يمارسن التهتك
والمجون هن اللاتي أوحين للشعراء الماجنين بفكرتهم السيئة عن
النساء. جاء في الأغاني أن مطيع بن أبياس مر بيحيى بن زياد وحماد
الراوية وهما يتحدثان فسألهما عما يتحدثان. فأجابا: في قذف
المحصنات، فقال: أو في الأرض محصنة تقذفانها^(٢).

أما بشار فقد رمى جميع النساء بالفاحشة، وحث الناس على
الفجور بقوله:

قاس الهموم نمل بها نجحا والليل إن وراءه صبحا
لا يؤيسنك من مخبأة قول تغلظه وإن قبحا
عمر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعدما جمحا

وقد نتج عن أمثال هذه الظواهر الاجتماعية ظهور شكوى كثيرة
عامة صدرت عن الرجال تدعو إلى عدم الثقة بالنساء وحتى بالحرائر
المحجبات. فالوشاء^(٣) يصور ذلك بقوله^(٤): (وليس بنات البيوت في
الخدور وربات الحجال والقصور كذوات المذق من القينات، وكذوات
التكسب من المتقينات. فإن هؤلاء معروفات بطلب الدراهم والأموال،
منسوبات إلى التكسب بتعشق الرجال لا يقدم عليهن إلا مغرور، ولا يثق
بهن إلا مسحور، وإنما يذهب على أهل الألباب وأهل النظر والآداب

(١) الجبانة: المقبرة.

(٢) الأغاني ٢٨٦/١٣.

(٣) الوشاء: هو أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى، كان أديباً فاضلاً حسن
التصنيف، ملحق الأخبار، توفي سنة ٢٨٦هـ.

(٤) الموشى ١٥٢/٢ - ١٥٤.

مكر البنات المخدرات والغواني المحجبات، اللواتي لم ترهن العيون ولم تكثر فيهن القالة والظنون، اللواتي يُبدّلن نفيس الأموال لمن يتعشقه، ويعنين من راسلته وكاتبته، ويزعنمن أنهن وراء الحجاب ودون الأقفال والأبواب، وأنهن لا فرج لهن إلا في المكاتبه، ولا فرح إلا في المراسله، ولا سرور إلا في النظر من بعيد، ولا يقدرن على اللقاء إلا في الخروج كل عيد، وأولئك اللائي تخف أمورهن وتعنى سرائرهن ويطمع الجاهل فيهن، ويصبو النزق إليهن ويشق بحبهن الأحداث والأطفال، ولا يتمسك بمودتهن إلا الجهاال مع أن مكرهن أخفى من الخيال وأعظم من راسيات الجبال، تنفذ حيلتهن على الرجال، ويتمكن كيدهن من الأبطال).

وربما ذهب البعض إلى عدم الثقة بالنساء عامة كما هي الحال عند أبي العلاء المعري الذي كان لا يرى للمرأة عفة يحفظها عليها دين أو تأديب، ولا يعتدها إلا ملهاة وغواية. قال^(١):

إذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليد
فإن خالفتني وأضعت نصحي فأنت وإن رزقت حجى بليد
ألا إن النساء حبال غي بهن يضيّع الشرف التليد
وقال^(٢):

وليس عكوفهن على المصلّى أماناً من غوار مجرمات
وهناك نظرة أخرى تحمل الرجال وزر التحلل والفساد تتمثل بنظرة الشافعي.. فهو يؤكد أن على الرجال أن يعفوا ويتجنبوا ما لا يليق بهم لتعف نساؤهم.. لأنه يرى أن الزنى إذا ما أقرضه الرجل رد إلى أهل

(١) اللزوميات ١/٣٣٧.

(٢) اللزوميات ١/٢٣٦.

بيته . قال^(١) :

عَفَوا تَعَف نَسَاؤُكُمْ فِي الْمَحْرَمِ وَتَجَنَّبُوا مَا لَا يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ
إِنْ الزَّانِي دِينَ فَإِنْ أَقْرَضْتَهُ كَانَ الْوَفَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَاعْلَمْ
الزَّوْجُ : نَعُودُ فَنَقُولُ : إِنْ هَذِهِ الْأُمُورُ وَأَمْثَالُهَا أَدَّتْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ
الاضْطِرَابِ فِي بِنَاءِ الْمَجْتَمَعِ كَمَا أَدَّتْ إِلَى ظُهُورِ انْحِرَافٍ فِي النُّظَرَةِ إِلَى
الْمَرْأَةِ الْحُرَّةِ وَإِلَى عِلَاقَةِ الرَّجُلِ بِهَا . . لَقَدْ صَارَ الْبَعْضُ يَرَى الزَّوْجَ^(٢)
غُلًّا وَوَثَاقًا ، وَصَارُوا يَعْجَبُونَ لِمَنْ عَرَفَ السَّرَارِي كَيْفَ يَتَزَوَّجُ الْحَرَائِرُ
الْمَهَائِرُ^(٣) .

وكان أبو نواس الشاعر الماجن بما يدل عليه ما وصلنا من شعره
شيخهم في هذا المجال خلال إغراقه في الفسوق والعبث والمجون ، فقد
رفض العرض الذي عرضته عليه إحدى النساء بالزواج من امرأة موسرة
جميلة لأنه لا يريد أن يتزوج على مهر حتى ولو كان المهر درهماً ،
فقال^(٤) :

وَلَوْ أَنَّهَا فِي الْحَسَنِ كَانَتْ كِيُوسُفَ وَبَلْقِيسَ أَوْ كَانَتْ كَخُطِّ جَمَالٍ
وَقَالَتْ تَزَوِّجْنِي عَلَى مَهْرٍ دَرْهَمٍ لَقَلْتُ أَغْرَبِي عَنِّي فَمَهْرُكَ غَالِي
ولكنه حينما ينزع عن نفسه العبث والضلال ويركن إلى عقله خلال
ومضات من الإيمان تمس قلبه يحث على الزواج بذوات الشرف والعفة ،
فيقول^(٥) :

(١) ديوان الإمام الشافعي ، ص ٧٦ .

(٢) ينظر ص ١٤٢ وما بعدها من البحث إذ فيه تفصيل عن الزواج والزوجات .

(٣) العقد الفريد ١٢٩/٦ .

(٤) ديوان أبي نواس ص ٣١٢ ، وأخبار أبي نواس ص ٢٧ .

(٥) ديوان أبي نواس ص ٦١٨ .

فاسم بعينيك إلى نسوة مهورهن العمل الصالح
ومن الظواهر الاجتماعية التي بدت في العصر العباسي فيما يخص
الزواج الحث على الاكتفاء بزوجة واحدة^(١) . . وربما كانت هذه
الظاهرة تكملة للموقف السابق من الزواج، إذ لا داعي للإكثار من
الزوجات ما دام البيت يعج بملك اليمين، وما دامت القيان وبيوتهن
ومجالس العبث واللهو منبثة في كل مكان على اختلاف المستويات،
الأمر الذي كان يصرف كثيراً من الرجال عن أسرهم وزوجاتهم.
وربما كان لعدم الثقة بالمرأة وللنظرة السلبية، أثر في ذلك كما
ظهر عند أبي العلاء المعري إذ يقول:

وواحدة كفتك فلا تجاوز إلى أخرى تجيء بمؤلمات
وإن أرغمت صاحبة بضر فأجدر أن تروع بمعمرات^(٢)
زجاج إن رفقت به وإلا رأيت ضروبه مقتصات^(٣)
إلى أن يقول:

فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة وللمات
وقال في النهي عن التزوج بأكثر من واحدة^(٤):

متى تشرك مع امرأة سواها فقد أخطأت في الرأي التريك
فلو يرجى مع الشركاء خير لما كان الإله بلا شريك
وقال مبيناً أن من يتزوج اثنتين فكأنه محارب لعدوين، فكيف إذا

(١) الحضارة الإسلامية ١٧٣/٢، وآراء أبي العلاء المعري ص ١١٨، اللزوميات ٢٣٨/١.

(٢) الضر: الزواج بالضرائر، المعمرات: الشدائد.

(٣) مقتصات: متكررات.

(٤) آراء أبي العلاء المعري، ص ١١٩ واللزوميات ٢٤٢/٢.

تزوج ثلاثاً.. ويرى أن القران بالنساء أذية، فعلى العاقل أن لا يتحمل الأذاة فإن كان غراً بالزمان وأهله فلتكفه واحدة منهن. قال^(١):

إذا كنت ذا ثنتين فاغد محارباً عدوين واحذر من ثلاث ضرائر
وإن من أبدين المودة والرضا فكم من حقوق غيّبت في السرائر
قرانك ما بين النساء أذية لهن فلا تحمل أذاة الحرائر
وإن كنت غراً بالزمان وأهله فتكفيك إحدى الآنسات الحرائر
وقد يكون الموقف من المرأة إيجابياً فيكون الحث على الاكتفاء
بالزوجة الواحدة صادراً عن الحرص على المصلحة المشتركة بين
الزوجين.

ذكر عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أنه خاطب جماعة من
الشيخ قائلاً لهم: (وأقبلوا بعد الأعمال على نسائكم، والزموا الواحدة
التي تكون لكم ولا تشروها إلى التكسر منهن والرغبة فيهن، فينغص
عيشكم وتعود المضرة عليكم.. إلى أن يقول.. فحسب الرجل الواحد
الواحدة)^(٢).

وجاء في المقامة المضيرية للهمذاني قوله على لسان أحد تجار
بغداد عن زوجته: (ولو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه الجميل،
وأثر في ذلك الخد الصقيل، لرأيت منظرًا تحار فيه العيون، وأنا أعشقها
لأنها تعشقني ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليته، وأن
يسعد بظيعته)^(٣).

وتغيرت النظرة إلى المرأة، تتزوج بعد وفاة زوجها، فبعد أن كانوا

(١) المصدر نفسه، ص ١١٨.

(٢) الخطط للمقرزي ٣٥٢/١.

(٣) شرح مقامات الهمذاني ص ١٢٥.

لا يرون بأساً في أن تنتقل المرأة إلى عدة أزواج؛ لا ينقلها عن ذلك إلا الموت ما دام الرجال يريدونها، صاروا يكرهون ذلك ويستسمجونه في بعض، ويعافون المرأة الحرة إذا فارقت زوجاً واحداً، ويلزمون من خطبها العار ويلحقون به اللوم^(١).

وتلحق السخرية أبناء المتزوجات فيقال فيهم الهجاء وترسل إليهم رسائل التعزية مملوءة بالتندر والاستخفاف^(٢) مما سنعرض له خلال حديثنا عن صورة المرأة (الأم) في الأدب في العصر العباسي، بينما كنا نرى أولاد الأم الواحدة من عدة أزواج^(٣) يجتمعون في كثير من الأحيان، في صدر الإسلام، على وفاق ووثام، ولم يكن زواج أمهم ليشير في نفوسهم أي شعور بعدم الرضا أو بالخجل.

ومن الأمور التي أدت إلى اضطراب الحياة العائلية، أن الرجل في كثير من الأحيان لم يك ليصبر على زوجته إذا ما كبر سنها وذوى جمالها فيعتمد إلى أحد أمرين. إما أن يطلقها ليتزوج شابة غيرها، وإما أن ينصرف عن ذلك - وما أكثر ما كان يفعل - إلى اتخاذ جارية شابة تكفيه شؤونهم فيوهم نفسه بأنه إنما عاد إلى الشباب وأعاد النضارة إلى حياته بالعيش معها...

وقد لاحظنا رضوخ الزوجة الحرة لذلك الواقع وقبولها واعتيادها للحياة مع ذلك العدد من الجواري في بيتها... ويبدو أن الذي خفف من وقع ذلك على نفسها أنها كانت في الغالب سيدة البيت حتى ولو لم تكن

(١) ثلاث رسائل، ص ٦٢.

(٢) رسائل الخوارزمي، ص ١٧٣، نشوار المحاضرة ٢/ ٢٦٤.

(٣) كانت أسماء بنت عميس قد تزوجت ثلاثة من سرة المسلمين، وهم جعفر بن أبي طالب وأبو بكر وعلي بن أبي طالب وولدت من كل منهم. ألف باء البلوى ٢/ ٥٧٨ والبصائر والذخائر ١/ ٢٠٠.

سيدة لقلب زوجها . . ولقد أدت هذه الظروف إلى أن خفت غير المرأة على زوجها إلى مدى بعيد من الجوّاري والإماء . . فمن ذلك ما روي عن السيدة زبيدة حينما أهدت زوجها (هارون الرشيد) عشر جوار من جواربها منهن (مارية) أم المعتصم و (مراجل) أم المأمون و (فارهة) أم صالح بن الرشيد لتشغله عن كلفه (بدنانير) المغنية جارية يحيى بن خالد البرمكي^(١).

إلا أن هذا لا يعني أن غير المرأة على زوجها كانت قد تلاشت وانعدمت في العصر العباسي . . وإن كانت قد خفت كثيراً بحكم رضوخ المرأة للواقع، ومما لا شك فيه أن قصص كيد الزوجات الحرائر للإماء مما كثر وروده في (الف ليلة وليلة) دليل على وقوع أمور كثيرة من هذا القبيل .

وقد يشتد الخلاف بين الحرائر الزوجات والجوّاري السراي، حتى ذهب بعض اللغويين إلى أن تسميتهن بالسراي كان سببه الغيرة، فقد نقل اللسان عن بعضهم أن السرية: الأمة التي يتسراها صاحبها منسوبة على غير قياس إلى السر وهو الإخفاء لأن الإنسان كثيراً ما يسرها ويسترها عن حرته^(٢). وكثيراً ما ينسل الرجل الواحد الحرائر والجوّاري فيفخر أولاد الحرائر على أولاد الجوّاري ويعتزون بأنهم لم يجر في عروقهم دم رقيق كالذي كان بين الأمين والمأمون حينما بلغه أن أخاه المأمون قد عدد مثالبه وفضل نفسه عليه فقال^(٣):

لا تفخرنّ عليك بعد بقيّة والفخر يكمل للفتى المتكامل

(١) ولعلها كانت مسوقة بتخفيف العلاقة بين هرون الرشيد ويحيى بن خالد . . وقد عرف عن السيدة زبيدة بعد نظرها وحرصها على الحد من التأثير الفارسي .

(٢) ضحى الإسلام ٨٠/١.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص ٣٠٤.

وإذا تناولت الرجال بفضلهما فأربع، فإنك لست بالمتناول
أعطاك ربك ما هويت وإنما تلقى خلاف هواك عند مراجل
تعلو المنابر كل يوم آملاً ما لست من بعدي إليه بواصل
فتعيب من يعلو عليك بفضله وتعيد في حقي مقال الباطل

الحالة الثقافية

١ - الحرائر:

كان العصر العباسي عصر ازدهار حضاري شمل كافة المرافق الحيوية في المجتمع . . ومما لا شك فيه أن الثقافة والآداب كانت من أهم الأمور التي عمها التقدم وشملها الازدهار، حتى صار الناس يقدرون الأشخاص بمقدار نصيبهم من العلوم والآداب . .

وقد نتج عن ذلك أننا رأينا المرأة تنال قسطاً لا بأس به منها لتساير تيار العصر في ذلك، وقد استطاعت، رغم ما فرض عليها من حجر وحجاب، في أكثر الأحوال، أن تثبت جدارة واستحقاقاً، وأن تنبؤاً منزلة لا يستهان بها .

وكان لا بد للفتاة، كحد أدنى للتعليم، أن تلقن مبادئ الدين وبعض الفنون المنزلية . . لتكون على تبصرة بأمور الدين بصورة عامة، ولأمور الدنيا بالقدر الذي تحتاجه في مسؤولياتها عن البيت وشؤون العائلة .

أما بنات السراة والأغنياء فلم يوقف بهن عند هذا الحد من التعليم، وإنما قد يتجاوزن ذلك إلى تعلم القراءة والموسيقى والآداب الاجتماعية، حتى إذا برعن فيها أوقفن في الغالب على أسرار اللغة وفروع البيان والمعاني والبديع وقرض الشعر والمنطق وغيرها من العلوم والآداب^(١) .

وكان يستعان على تعليم البنات بالنساء المتخصصات، ويشتد

(١) المرأة في حضارة العرب، ص ١٥٠ .

الإقبال عليهن، وتكثر الحاجة على من أثبتت جدارة وأهلية منهن، وتميزت بالخلق والعلوم والآداب^(١).

على أن المرأة لم تقتصر على طلب العلم فقط، في هذا العصر العلمي، وإنما تضلعت فيه حتى أصبحت تعد أحياناً في عداد مدرسية الثقات. وقد ترجم الخطيب البغدادي^(٢) (ت ٤٦٣هـ) في تاريخ بغداد لاثنتين وثلاثين من النساء من أهل بغداد المذكورات بالفضل ورواية العلم، مبتدئاً بـ (الخيزران)، المتوفاة (ت ١٧٣هـ) ومنتهاً بـ (خديجة بنت محمد الشاهجانية) المتوفاة (ت ٤٦٠هـ) وقد ذكر لكل منهن مآثرهن الاجتماعية والعلمية والأدبية والدينية، وذكر بعض أساتذتهن ومن أخذ عنهن من العلماء المعروفين. كما أن في وفیات الأعيان والوفاي بالوفيات والمنتظم لابن الجوزي ونشوار المحاضرة للتنوخي ومرآة الجنان للياضي ونزهة الجلساء للسيوطي ونساء الخلفاء لابن الساعي، إشارات كثيرة إلى عدد كبير من النساء العالمات. . وإن في الورقة لابن الجراح وطبقات ابن المعتز والأغاني ومعجم الأدباء وغيرها، ذكر لعدد كبير من الأدبيات والشاعرات اللاتي أثبتن جدارة واستحقاقاً في أن تدون أسماؤهن وتذكر أخبارهن وأشعارهن.

ويمكننا حصر العلوم التي تميزت بها المرأة في ثلاثة مجالات أساسية هي: العلوم الدينية وما يتصل بها من حديث وفقه، والأدب والشعر، ثم الموسيقى والغناء.

ولا بد لنا في معرض الحديث عن ثقافة الحرائر، أن نشير إشارة عامة إلى بعض الأعلام اللواتي تميزن بالعلوم الدينية، ومنهن: السيدة نفيسة (١٤٥ - ٢٠٨هـ) زوجة المؤتمن إسحق بن جعفر، وكانت على

(١) نفس المصدر، ص ١٥٠.

(٢) تاريخ بغداد، ١٤/٤٣٠ - ٤٤٧.

تقواها من عالمات العصر ومن أساتذة الجيل، حتى أن الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) سمع عليها في مصر.

والسيدة أم عمر الثقفية^(١) وكانت محدثة معروفة روى عنها كثير من الأعلام المشهورين، منهم أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، والسيدة زينب بنت سليمان^(٢) الهاشمية (ت ٢١٨هـ) وكانت من أفاضل النساء ومن ربات النفوذ والسلطان والعقل والرأي والفصاحة، حدثت عن أبيها سليمان، وروى عنها الكثير ممن اشتهر بالحديث. وعبد^(٣) بنت عبد الرحمن أم أحمد الأنصارية، وكانت محدثة ذات دين وفصاحة، حدثت عن أبيها، وروى عنها محمد بن مخلد الدوري العطار المتوفى (ت ٣٣١هـ) وسليمان بن أحمد الطبراني. وسمانة بنت حمدان^(٤) الأنبارية، وكانت محدثة، حدثت عن أبيها، وروى عنها أبو بكر الشافعي وأبو القاسم الطبراني. وأم عيسى^(٥) بنت إبراهيم بن إسحاق الحربي، وكانت فاضلة عالمة تفتي في الفقه، توفيت في (٣٢٨هـ). وأمة الواحد^(٦) بنت القاضي المحاملي، واسمها ستينة، حفظت القرآن والفقه على مذهب الشافعي، والفرائض وحسابها والدور والنحو وغير ذلك من العلوم، وكانت فاضلة في نفسها، حدثت وكانت تفتي، وكتب عنها الحديث، وتوفيت سنة ٣٧٧هـ.

وقد اشتهرت بين النساء بعلم الحديث كريمة بنت أحمد المروزي،

(١) انظر ترجمتها في أعلام النساء ١٨٧/٥.

(٢) تاريخ بغداد ٤٣٢/١٤، وأعلام النساء ٣٤٣/٣.

(٣) نفسه ٤٣٤/١٤، نفسه ٦٨/٢.

(٤) المصدر نفسه ٤٣٩/١٤، المصدر نفسه ٢٣٩/٣.

(٥) تاريخ بغداد، ٤٤٠/١٤ وأعلام النساء ٢٦٠/٢.

(٦) نفسه ٤٤٢/١٤.

(٧) نفسه ٤٤٢/١٤ - ٤٤٣، الحضارة الإسلامية ١٧٢.

وقد قرأ عليها الخطيب البغدادي صحيح البخاري في خمسة أيام (الإرشاد لياقوت ٤٧/١ عن آدم متر، ص ١٧٢).

وأمة السلام^(١) بنت القاضي أبي بكر وتكنى أم الفتح، سمعت علماء عصرها وحدث عنها الأزهري والتوخري، وأثني عليها ثناء حسناً ووصفها بالديانة والعقل والفصل، توفيت في سنة (٣٩٠هـ).

كما أن من المفيد، إضافة إلى ما أوردناه من الأعلام النسائية التي عرفت بالعلوم الدينية وتوفقت فيها أن نعرض كذلك إلى بعض السيدات اللاتي عرفن بحبهن للآداب والعلوم وبأخذهن نصيبهن الذي دل على التقدم والنبوغ.

فقد كانت الخيزران^(٢) على درجة كبيرة من النباهة والذكاء، وكانت عاملاً من عوامل نشاط الحركة الأدبية في قصر الخلافة، تقابل العلماء وتناظرهم، ويفد إليها الشعراء من شتى الجهات، كما كانت تحض المهدي على تشييد دور العلم ومكافأة الموهوبين، وتنشئ أولادها وأحفادها على ما نشأت عليه من حب العلم والعلماء والأدب والأدباء، أخذت العلم عن الأوزاعي^(٣)، توفيت في سنة (١٧٣هـ).

وممن يذكر في هذا المجال السيدة زبيدة^(٤)، وكانت جليلة في نسبها جليلة في خلقها وعلمها وأدبها وعملها، توفيت سنة (٢١٦هـ) وكانت قد أوتيت درجة من العقل وبعد النظر وحدة الذكاء، ما أهلها لأن يذكرها الجاحظ^(٥) ضمن الأمور التي أتاحت للرشد مما لم يتح

(١) نفسه ٤٤٣/١٤.

(٢) نفسه ٤٣١/١٤.

(٣) أعلام النساء ٤٠٠/١.

(٤) المصدر نفسه ١٧/٢.

(٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٦.

لغيره، وعرفت عنها قدرتها على النظم والكتابة، وقد أثرت عنها أشعار^(١) معروفة، ورسائل^(٢)، وتوقيعات^(٣) ووصايا^(٤).

ومما يدل على براعة السيدة زبيدة في الجواب، وسرعة بديهتها وتمكنها من القدرة على نظم الشعر ما ذكره (الجهشياري)^(٥)، إذ قال: (دخل الرشيد على أم جعفر، فقال لها: قد تهتك كاتبك سعدان^(٦) فاعزليه. قالت: وبأي شيء تهتك؟ قال) بالمرافق والرشا، حتى قال فيه الشاعر:

صب في قنديل سعدان مع التسليم زيتاً
وقناديل بنبيه قبل أن تخفى الكميئاً
فقلت له: وقد قال الشاعر في كاتبك أبي صالح يحيى بن
عبدالرحمن أشنع من هذا، فقال: وما قال؟ قالت: قال:

قنديل سعدان على ضوئه فرج لقنديل أبي صالح
تراه في مجلسه أخوصاً من لمححه للدرهم اللائح
فقال لها: كذب على كاتبك وكاتبك!

وقيل: إنها قالت هذا الشعر في تلك الساعة.

ويذكر النويري أن المأمون عندما تسلم رسالة نثرية من السيدة

(١) تاريخ الطبري ٥١٤/٨ والمقد الفريد ٢٦١/٣ ومروج الذهب ٣٢٣/٣ و٤٢٣/٣ وأعلام النساء ١٧/٢.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣٧٤/٣.

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٦٥ - ١٦٦ والفرج بعد الشدة ص ١٢١.

(٤) جمهرة خطب العرب ١٠٤/٣.

(٥) الوزراء والكتاب ص ٢٥٦.

(٦) سعدان: هو مسلم بن سعدان وكان كاتباً لأم جعفر (بغداد في تاريخ الخلافة ص ١٦٣، والوزراء والكتاب ص ٢٥٦).

زبيدة في تهنته بالخلافة بعد مقتل الأمين، قال بعد أن قرأها ووقف على ما فيها من رجحان عقل وبعد نظر وبلاغة: (ما تلد النساء مثل هذه، فماذا أبقت في هذا الكلام لبلغاء الرجال)^(١).

وكانت تجيد الحكم على الشعر فتقابل العلماء والشعراء وتنصف المتفوقين وتشجعهم وتجزئهم بصلاتها^(٢).

وقد حق لهذا العصر أن يذكر من أعلامه من النساء البارزات عليّة بنت المهدي^(٣) (ت ٢٠٩هـ) وكانت إلى جمالها تجمع بين الذكاء والصوت الحسن والصنعة الموسيقية^(٤)، واستطاعت أن تتخطى الأغراض التي ألّفت الحرائر القول فيها من رثاء ومديح إلى الغزل... مما يدل على تطور روح العصر وتبدل المقاييس العامة.

ولم تقف فيه عند التغزل وإنما صارت تسن أحكام الحب وتستخلص خباياه، فمن ذلك قولها:

إنني كثرت عليه في زيارته فملّ والشئ مملول إذا كثرا
ورابني منه أني لا أزال أرى في طرفه قصراً عني إذا نظرا
أو قولها^(٥):

بني الحب على الجور فلو أنصف المحبوب فيه لسمج
ليس يستحسن في حكم الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج

(١) نهاية الأرب ١٣٧/٥.

(٢) الأغاني ٦٨/٤ و ٣٧٢/٨.

(٣) الأغاني ١٧٢/١٠ وزهر الآداب ص ١٣ وأعلام النساء ٣/٣٣٤.

(٤) أشعار أولاد الخلفاء، ص ٥٥.

(٥) زهر الآداب ص ١٣ والمحاسن والأضداد ص ٢٢٩ والأغاني ١٨٥/١٠، وأشعار أولاد الخلفاء ص ٦٦.

وقليل الحب صرفاً خالصاً هو خير من كثير قد مزج

أما ليلى بنت طريف^(١) الفارسة التي عرفها العصر العباسي تدخل الحروب لابسة عدتها وتحمل على الجيوش بعد أن قتل أخوها الوليد بن طريف، فلم تكن أقل شاعرية ممن سبق ذكرهن من الحرائر، ولعل أشهر قصيدة لها قولها في رثاء أخيها تعاتب شجر الخابور على عدم تساقط ورقه لاحتراقه بنار الحزن على قتل أخيها الوليد والتي فيها قولها:

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف
ولا أظن المقام يضيق بالإشارة إلى (أم القراطيس) التي قيل عنها إنها كانت (أشعر أهل عصرها وأعف النساء وأجملهن) سمع شعرها المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) وأجرى عليها نفقة تقديراً لأدبها وعفافها^(٢).
وقطر الندى^(٣) زوجة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) فهي وإن كانت تركية الأصل فقد كانت تفهم العلم وتذوق الأدب، فأنشأت في قصرها حلقة تجتمع فيها الأدبيات والعالمات ليتناقشن ويتناظرن في شتى الأمور.

وكانت أم الشريف^(٤)، من السيدات اللاتي عرفن بالحصافة وسعة العقل وبعد النظر ولها رسائل شعرية^(٥) تدل على الحكمة والاتزان في الرأي، ننقل منها قولها في رسالة إلى ابن أخيها (محمد بن أحمد بن عيسى) وكان المعتضد قد بعث بجيوشه لحصاره في سنة ٢٨٦هـ، فكتبت إليه تبصره بأموره وتنبيهه إلى التفكير قبل الإقدام وتذكره بعدم الثقة

(١) الطبري ٢٦١/٨ و امرأة الجنان ١/٣٧٠ والعيون والحدائق ٣/٢٩٧ والعقد الفريد ٣/٢٦٩ وزهر الآداب ٤/٩٩٢.

(٢) المرأة في حضارة العرب ص ١٥٥.

(٣) أعلام النساء ٤/٢١٢.

(٤) أعلام النساء ٢/٢٩٣.

(٥) مروج الذهب ٤/١٧٦ - ١٧٧ وجمهرة رسائل العرب ٤/٣٩٣.

برجال يحملون له الضغينة في قلوبهم، تخشى من انقلابهم عليه،
وتطلب إليه أن لا يقف في وجه الخليفة المعتضد، وأن لا يمنعه مالا
ولا أهلاً ولا ولداً، فقالت:

إقبل نصيحة أم قلبها وجع عليك خوفاً وإشفاقاً وقل سدا
واستعمل الفكر في قلبي فإنك إن فكرت ألفيت في قلبي لك الرشد
ولا تشق برجال في قلوبهم ضغائن تبعث الشنآن والحسدا
مثل النعاج خمول في بيوتهم حتى إذا أمنوا ألفيتهم أسدا

٢ - الجواري:

وكان العباسيون يحرصون على أن لا تستأثر أبصارهم وأجسادهم
بالتلذذ بالجمال، وإنما كانوا يريدون إشراك أرواحهم في التلذذ بالكمال
الفني والأدبي، فصارت الجارية لا تحسن عندهم لمجرد حسنها وفتنتها
ورخامة صوتها ورشاقة رقصها، ولكنهم أرادوا فيها حلاوة في الحديث،
وبراعة في المنطق وذكاء في الإجابة وقابلية في الشعر، إلى غير ذلك من
آداب المجالسة والمناظرة والمفاكحة..

كان فيهم نهم إلى الجمال بكل أنواعه.. فكانوا ينتشون لإجابة
بارعة أو نكتة ذكية أو أبيات شعر جميلة يستمعون إليها من فم جارية..
كالذي وقع لدعبل الخزاعي حينما تعرض لفتاة بباب الكرخ وقال لها:

دموع عيني لها انبساط ونوم عيني به انقباض
فقالت:

وذا قليل لمن دهمته بسحرها الأعين المراض
فقال لها:

فهل لمولاي عطف قلب أو للذي في الحشا انقراض

فقال مسرعة من غير تلبث :

إن كنت تبغي الوصال منّا فالوصل في ديننا قراض
فلم يسعه إلا أنه قال : فلا أعلم أنني خاطبت جارية تقطع الأنفاس
بعذوية ألفاظها ، وتختلس الأرواح ببلاغة منطقها ، وتذهل الأبواب
برخيم نغمتها مع تلاعة جيد ورشاقة قد وكمال عقل وبراعة شكل
واعتدال خلق قبلها فحار والله البصر وذهل اللب وجل الخطب وتلجلج
اللسان وتعلقت الرجلان وما ظنك بالحلفاء أدنيت من النار^(١) .

ولم يكن الخلفاء ليدفعوا في الجواري الأثمان الباهظة لمجرد
الجمال ، وإنما كانوا يجرون اختبارات لهن ، فقد يطلب إلى شاعر
معروف أن يلقي على الجارية أبياتاً لتجيزها وأسئلة لتجيبه عنها ، فيكون
تقدير الثمن بقدر ما تثبت من تفوق وبراعة ، وهناك شواهد كثيرة على
ذلك ننقل منها ما ذكره أحد النخاسين^(٢) وقد عرض على المأمون جارية
فصيحة متأدبة شطرنجية ، فسأوه في ثمنها بألفي دينار . فقال المأمون :
إن هي أجازت بيتاً أقوله من عندها اشتريتها بما تقول وزدتك . فأنشد
المأمون :

ماذا تقولين فيمن شقّه أرق من جهد حبك حتى صار حيرانا
فأجازته بقولها :

إذا وجدنا محباً قد اضرّ به داء الصبابة أوليناه إحصانا
وعن نبت جارية المعتمد على الله أنها عرضت عليه فامتنحها في
الغناء والكتابة فرضي بما ظهر له من أمرها ، ثم قال لبعض الشعراء
قارضها . . بل لقد كانوا يشترون الجارية أحياناً وما لهم فيها من أرب

(١) بدائع البداهة ص ٤٣ والعقد الفريد ٦/٣٩٧ .

(٢) تاريخ الخلفاء ، ص ٣٢٣ .

غير الشعر^(١).

ومن هنا رأينا النخاسين يهتمون كل الاهتمام، ويحرصون كل الحرص على تثقيف الجوّاري وتعليمهم صنوف الآداب والفنون لأن قيمة الجارية ومكانة النخاس بمقدار ما تتقنه الجارية من آداب وفنون ومعارف.

وكانت الجوّاري أنواعاً مختلفة. فمنهن التي سببت بعد أن بلغت حداً من السن لا مجال إلى تعليمها وتخريجها في الفنون والآداب، أو تهذيبها بآداب المجتمع، وهذه يكون حظها من الرعاية قليلاً وشأنها في المنزل الذي تحل فيه هيناً، وتكون قيمتها موقوفة على ما فيها من جمال وفتوة، فإما أن تحظى لدى سيدها أو أن تكون للخدمة وأعمال المنزل. وهي من (السواذج) اللاتي لم يتعلمن أدباً أو علماً أو فناً.

ومنهن من سببت وهي صغيرة السن قابلة على التكيف والتعلم، فتنشأ تنشئة عربية خالصة، تحذق أساليب التعبير، وتتخلق بعبادات العربيات، وتلين السنتهن في الكلام حتى لتكاد تمحي أو تزول آثار الأصول التي انحدرت منها.

كان لهؤلاء شأن عظيم وأدب رفيع وغناء بديع، فلقد فطن أصحابهن إلى نفاسة ما في حوزتهم منهن، وعرفوا أنهم يستطيعون بشيء من العناية أن يجعلوا منهن فنانات بارعات فإن اكتمل لهن ما أرادوه من علم وظرف وفن وذكاء إلى ما فيهن من جمال ورقة ودلال صار كل يفخر بما لديه من ثمين المتاع وما تفرد به من نفائس وطرف، وعرض بضاعته النادرة هذه على الأصدقاء والإخوان ليطلعوا على ما لدى جاريته من سحر وجمال وفن وأدب ومقال. أو ليتغزل بها الشعراء فيشتهر أمرها. وربما عمد مالكها إلى نظم الغزل فيها ليجري على

(١) الأغاني ٢٢/٥٢٨.

الأسنة فتعز بذلك مكانته ويصير مقصد السراة والشعراء .

وكان الموصلي إبراهيم من أنشط تجار الجواري وأعظم من كسب بهن ربحاً طائلاً، وقد ذكر (ابن خرداذبة)^(١) أنه أسس شركة لتجارة الجواري مع (يزيد حوراء) المغني المعروف، واقتسما الربح بينهما^(٢)، وكانت الجارية تشتري بالمائة والمنتين ثم تباع بعد تعليمها الغناء ببضعة آلاف .

إذن فقد كان المغنون هم تجار الجواري وكانوا هم المعلمين لهن، إلا أن بعض التجار كان يشتريهن فيدفع بهن إلى من يؤدبهن ويعلمهن .

وعن إسحاق قال : لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسنة الغناء، وإنما كانوا يعلمونها الصفر والسود، (وأول من علّم الجواري المثنات أبي فإنه بلغ بهن كل مبلغ من أقدارهن، وفيهن يقول أبو عبيدة بن محمد بن أبي عبيدة المهلب^(٣)، وقد كان هوي جارية يقال لها (أمان) فأغلى بها مولاهما السوم وجعل يرددها إلى إبراهيم وإسحاق ابنيه فتأخذ عنهما فكلما زادت في الغناء زادت في سومه فقال أبو عبيدة^(٤) :

قلت لما رأيت مولى أمان قد طغى سومه بها طغيانا
لا جزى الله الموصلي أبا إسحاق عنا خيراً ولا إحسانا
جاءنا مرسلًا بوحي من الشيب طان أغلى به علينا القيانا

(١) ابن خرداذبة : جده مجوسي أسلم على يد البرامكة، وكان ابن خرداذبة مؤرخاً جغرافياً اتصل بالمعتمد العباسي . له تصانيف، منها : المسالك والممالك واللهو (والعلاهي) و(الشراب) و(الندماء والجلساء) و(أدب السماع) الأعلام ٣٤٣/٤ .

(٢) نهاية الأرب ٣٥٠/٤ والجواري المغنيات ص ٤٦ .

(٣) أبو عبيدة : يكنى أبا جعفر وهو ابن المهلب بن أبي صفرة . ترجمته في الأغاني ١٩/٢٠ .

(٤) الأغاني ١٥٦/٥ .

من غناء كأنه سكرات الحـ ب يصبي القلوب والآذان
 وكان الغناء شرطاً من شروط الحسن، ومن أهم بواعث السرور
 في النفوس، وربما استمع الخليفة إلى صوت من الأصوات فأعجبه
 فأحب إلقاءه على إحدى جواريه^(١) الحسان ليمتع نفسه به كلما أراد، أو
 ربما سمع أبياتاً من الشعر فأمر بإلقائها على إحدى جواريه من ذوات
 الصنعة لثلثته وتغنيه^(٢).

وكانوا يؤثرون سماع الأغاني وإجادة الصنعة من النساء من ذوات
 الوجوه الحسنة، وكانوا يقولون إن الله لم يخلق شيئاً أوقع في القلوب
 وأشد اختلاساً للعقول من الصوت الحسن لا سيما إذا كان من وجه
 حسن، كما قال الشاعر^(٣):

رب سماع حسن سمعته من حسن
 مقرب من فرح مبعد من حزن
 لا فارقاني أبداً في صفة من بدني

وسئل حكيم عن فرق ما بين غناء النساء والرجال، فقال: ما
 خلقت الأغاني إلا للغواني^(٤)، وقيل: نعيم الدنيا أن تسمع الغناء من فم
 تشتهي تقبيله، وقال الجاحظ: كم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن
 تقبله وبين أن تسمعه من فم تشتهي أن تصرف بصرك عنه، وأيهما أملح
 أن يغنيك فحل ملتف اللحية وشيخ متخلع الأسنان متغضن الوجه، أو
 تغنيك جارية كطاقة نرجس أو آس^(٥).

(١) نفسه ١٢٣/١٠.

(٢) نفسه ٥٨/٢١.

(٣) العقد الفريد ٥/٦.

(٤) محاضرات الأدباء ٧١٨/٢.

(٥) محاضرات الأدباء ٧١٨/٢.

وقد بلغت بعض الجوارى نتيجة التثقيف والتعليم شأواً بعيداً في الغناء حتى صرن من أساتذته وشيوخه . . فقد اجتمع الطنوبريون عند أبي العباس بن الرشيد يوماً وفيهم المسدود^(١) وعبيده، فقال للمسدود: غن، فقال: والله لا تقدمت عبيدة وهي الأستاذة، فما غنى حتى غنت. كما بلغ من براعة عريب في الغناء والصنعة، أنه ذكر أنه كان لغنائها ديوان، قال الصولي في مجال حديثه عن عريب (ولها شعر وصنعة في أشعار كثيرة، ولغنائها ديوان مفرد من شعرها والصنعة فيه لها)^(٢)، وقيل إن المعتمد أمر علياً بن يحيى^(٣) أن يجمع غناءها الذي صنعتها، فأخذ منها دفاترها وصحفها التي كانت قد جمعت فيها غناءها فكتبه فكان ألف صوت^(٤).

وعرف أنها كانت تلحن للمعتمد بعض ما كان يرسله إليها من أشعاره وأنها كانت تقول: (ويلي إلى كم أغني في حروف ألف باء تاء ثاء) وذلك لأنها كانت تجد في شعر المعتمد ضعفاً^(٥).

وكانت بعض العجائز من المغنيات الحاذقات يتولين تعليم الغناء للرجال والنساء، حتى لقد طلب إلى مخارق (المغني المشهور) حينما اختل عليه صوت من الأصوات أن يلزم عجائز الحارث بن بسخر^(٦) ليقوّن أوده^(٧).

(١) المسدود: أحد المغنين في العصر العباسي.

(٢) نساء الخلفاء، ص ٥٧.

(٣) علي بن يحيى: هو أبو الحسن المنجم نديم المتوكل وبقي إلى أيام المعتمد، كان راوية للأشعار والأخبار (٢٠١ - ٢٧٥ هـ) الأعلام ٥/ ١٨٤.

(٤) الأغاني ٢١/ ٦٠.

(٥) الديارات ص ٩٩.

(٦) الحارث بن بسخر: مولى المنصور، من ولد بهرام شوبين مرزبان الري وهو حسن الغناء والنغم بقرّة وشجاً واقتدار على الغناء كان في زمانه أحد الممدودين فيه.

(٧) الأغاني ٢٣/ ٥٣.

وكما نبغت الجواري في الموسيقى والصنعة والغناء فقد نبغت في نظم الشعر وبرعت في روايته وتأديته حتى لقد كانت في كثير من المواقف لتثير الإعجاب والتقدير. . قيل أن الرشيد اعترض قينة فغنت: ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحملون إن نقموا^(١) فلما ابتدأت به تغير وجه الرشيد وعلمت أنها غلطت وأنها إن مرث عليه قتلت، فغنت:

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يجهلون إن غضبوا وأنهم معدن النفاق بما نفسد إلا عليهم العرب فقال الرشيد ليحيى بن خالد: أسمعت يا أبا علي؟ فقال: يا أمير المؤمنين تبتاع وتسني لها الجائزة ويعجل الإذن ليسكن قلبها، قال: ذلك جزاؤها^(٢).

وكانوا لا يقفون في وصف الجارية عند حد الجمال والغناء فقط، وإنما كانوا في الأكثر يشترطون فيها أن تكون شاعرة تحسن التصرف بشعرها وتجيد النظم في المواقف المختلفة. . قيل في وصف عريب: (كانت عريب مغنية محسنة وشاعرة صالحة الشعر وكانت مليحة الخط والمذهب في الكلام، ونهاية في الحسن والجمال والظرف وحسن الصورة وجودة الضرب، وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار والرواية للشعر والأدب)^(٣)، وقيل في وصف عنان الشاعرة: (وكانت صفراء جميلة الوجه شكله مليحة الأدب والشعر سريعة البديهة وكان

(١) الأبيات للرقيات، الأغاني ٧٦/٥.

(٢) الأغاني ٧٦/٥.

(٣) الأغاني ٥٨/٢١، والمستظرف من أخبار الجواري ٣٧ ونساء الخلفاء ص ٥٥، وكانت عريب كاتبة تحسن كتابة الرسائل الثرية، ولها رقايع ومراسلات كثيرة شعرية ونثرية أشار إليها عبدالله بن المعتز (المستظرف من أخبار الجواري ص ٣٧).

فحول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم^(١). وقد دونت كتب الأدب كثيراً من مساجلاتها ومعارضاتها للشعراء^(٢).

وفضل الشاعرة التي (ذكرها^(٣)) محمد بن داود بن الجراح في كتاب الورقة في أخبار المحدثين فقال: فضل الشاعرة العبدية مولاة المتوكل أشعر امرأة كانت في هذا العصر^(٤) وكانت تجلس في مجلس المتوكل على كرسي تعارض الشعراء^(٥) ولها مراسلات شعرية^(٦).

وقيل: (كانت فضل الشاعرة من أحسن الناس خطأً وأفصحهم كلاماً وأبلغهم في مخاطبة وأثبتهم في محاوره).

وغيرهن كثيرات لا يتسع المجال لذكرهن وسنتناول ذلك خلال حديثنا عن (أدب الجواري).

إلا أنه لا بد لنا أن نوضح أن الشاعرية والبراعة في العصر العباسي لم تكن في عدد قليل من الجواري وإنما كانت مألوفة لدى الكثير منهن، وكفي أن نلقي نظرة على كتب التاريخ والأدب والأخبار لنجد أي نوع من الجواري المثقفات حفل بهن العصر العباسي.. فقد كان منهن الجارية الكاتبة^(٧) والخطاطة^(٨) والعالمة المتكلمة^(٩) حتى لقد

(١) الأغاني ٢٢/٥٢١.

(٢) المستطرف من أخبار الجواري ص ٣٨ والأغاني ٢٢/٥٢٢ و ٥٣٠، وأخبار أبي نواس ص ٧٨ وزهر الآداب ٤/٩٧١ والمحاسن والأضداد ص ١٥٢ - ١٥٦ ونساء الخلفاء ص ٤٧ - ٥٣.

(٣) نساء الخلفاء ص ٩٠.

(٤) لم يرد هذا الخبر في المطبوع من كتاب الورقة وهذا ما يدل على أن الكتاب ناقص.

(٥) المستطرف من أخبار الجواري، ص ٥١، ونساء الخلفاء، ص ٨٥، وطبقات الشافعية ١/٢٦٣.

(٦) جمهرة رسائل العرب ٤/٢٨٤.

(٧) ديوان السري الرفاء، ص ١٦٧.

(٨) العقد الفريد ٤/١٩٨ وأدب الكتاب ص ٤٨.

(٩) الأغاني ٢١/٩٠.

قال المأمون في إحداهن وقد سمع منها إجابات بارعة (أترى لو كان هذا من كلام النظام ألم يكن كثيراً).

وسنكتفي عند هذا القدر الموجز من بيان الحالة الثقافية للجواري وللحديث رجعة كما قلنا وسنعمل فيها على توضيح ما أشرنا إليه وتفصيل ما يحتاج إلى تفصيل وإبانة...

الحالة الاقتصادية

ولا بدّ لنا ونحن في مجال الحديث عن الحالة الاقتصادية للمرأة أن نفرق بين نساء القصور ونساء العامة من حرائر وجوار.

وقد لا نجد صعوبة كبيرة في معرفة المستوى الاقتصادي لنساء القصور إذ إن أخبارهن تملأ كتب التاريخ والأخبار والسير والأدب.

فالخيزران حينما خرجت عام ١٧٣^(١) هـ للحج، قسّمت بالمدينة أموالاً وأجازت بجوائز عظيمة وزوجت أيتاماً وقسمت في النساء آتية من ذهب وفضة مملوءة من أنواع الطيب، وكست كسوة كثيرة ووضعت لكل قبيلة مالاً يعطون^(٢)، وقد بلغت غلتها قبل موتها مائة ألف ألف وستين ألف درهم^(٣).

والسيدة زبيدة قامت بالكثير من المآثر الجليلة التي خلدها التاريخ، منها حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز، فأنها حفرتها ومهدت الطريق لمائها من كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة، فكان جملة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصي ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، وكذلك إنفاقها

(١) وهي ستة وفاتها (تاريخ الطبري ٢٤٢/٨)، والكامل ١١٩/٦.

(٢) العيون والحدائق ٢٩١/٣.

(٣) مروج الذهب ٢٦٣/٢.

الألوف على المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور، وما عمّ أهل الفاقة من بذلها من المعروف والخصب^(١)، إضافة إلى ما عرف عنها من إنها كانت أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكملّة بالجواهر، وصنع لها الرفيع من الوشي حتى بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار، وأول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصنّدل وكلاسيها من الذهب والفضة ملبّسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير، واتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر وشمع العنبر^(٢)، وما عرف عنها من إنعامها على الشعراء^(٣) والمغنين^(٤) والقضاة^(٥)، وكانت لها ضياع كثيرة جعلت عليها وكيلاً لها . . . وقيل إن داود كاتبها حبس الوكيل لحساب عن ضياع تقلدها من ضياعها وجب عليه، ولما بعث الفيض بن صالح^(٦) برقعة إليها يطلب فيها أن يفتديه بالمال لإطلاق سبيله، وقعت في رقعته: (أنا أولى بالمكرمة من الفيض بن صالح، فاردد عليه كتابه بالمال، وادفع إليه الرجل)^(٧).

هذه الأمور وأمثالها توقفنا على الرفاه الاقتصادي الذي كانت تتمتع به السيدات الحرائر في القصور.

وممن اشتهرت أخبارهن بالغنى والثروة، بوران بنت الحسن بن سهل زوجة المأمون، وأخبار زواجها به تتردد في الكثير مما سجل تاريخ ذلك العصر^(٨).

(١) تاريخ بغداد ٤٣٣/١٤ ووفيات الأعيان ٣١٤/٢ ومروج الذهب ٤٤٤/٤.

(٢) مروج الذهب ٢٤٤/٤.

(٣) الأغاني ٣٧٢/٨، ٦٨/٤.

(٤) الأغاني ٣٧٢/٨.

(٥) مروج الذهب ٢٦٠/٣.

(٦) من سادة العصر وكرمانه.

(٧) الوزراء والكتاب ص ١٦٥ والفرج بعد الشدة ص ١٢١.

(٨) تاريخ الطبري ٦٠٦/٨ - ٦٠٩.

وعلية بنت المهدي وأخبار ترفها وبذخها . . . ويشير الأصفهاني إلى أنه كان لها وكيل يقال له سباع خانها في أموالها فحبسته^(١).

وممن يذكر في هذا المجال قبيحة زوجة المتوكل حتى ذكر ابن الأثير أنهم وجدوا عندها مليوناً وثمانمائة ألف دينار^(٢).

وتذكر أيضاً السيدة أم المقتدر، وكانت غاية في الغنى والثراء^(٣) قيل إن خزينة الدولة قد اعتمدت على أموالها ومساعداتها في بعض الملمات، فمن ذلك أنها قدمت للدولة مبلغ خمسمائة ألف دينار، في سنة ٣١٥هـ للمساعدة على صد جيوش القرامطة عن الكوفة^(٤). وقد عرفت السيدة بنهما في حب المال من مختلف المصادر، ويشير ابن الجوزي إلى ذلك بقوله: (كانت لها أموال عظيمة تفوق الإحصاء، وكان يرتفع لها من ضياعها كل عام ألف ألف دينار)^(٥).

ويذكر أن الخليفة القاهر بعد اعتقاله المقتدر (ضربها أشد ما يكون من الضرب لتعترف بما لديها من المال والمصوغ والثياب ولكنها لم تعترف بشيء)^(٦).

وذكر عن جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني أخت أبي تغلب وشريكته أنها حجت في سنة ٣٦٦هـ فضرب بحجها المثل، فقد استصحبت أربعمائة جمل وكان معها عدة محامل لم يعلم في أيها

(١) سيدان البلاط العباسي ص ٣٥، الأغاني ١٠/١٩٣.

(٢) عصر الخليفة المقتدر بالله/ أطروحة، ص ٦٥ عن ابن الأثير ٣٤١/٥. وكان قسيم الجوهري يشرف لها على ضياعها بواسطة (الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ٣٨).

(٣) نشوار المحاضرة ٢٩٣/١.

(٤) تكملة تاريخ الطبري للهمداني ج ١ ص ٥٥.

(٥) المتظم ٢٥٣/٦.

(٦) نفس المصدر والصفحة.

كانت، ونشرت على الكعبة لما رأتها عشرة آلاف دينار، وسقت جميع أهل الموسم السوق بالسكر والثلج وأعتقت ثلاثمائة عبد وجارية وأغنت المجاورين بالأموال وخلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب^(١).

ولا نرى حاجة إلى الإفاضة في تفصيل ما ورد في أخبار غنى سيدات القصور، ونكتفي بهذا القدر لدلالته على مستوى الحياة المترفة الباذخة التي كانت تحياها نساء القصور والخلافة..

وتشاركهن في الثروة وعيش حياة الترف، الجواري اللاتي كان لهن أن يصطفين لخدمة القصور وإدخال البهجة إليها.. إلا أنهن في ذلك على درجات حسب مواقعهن لدى أصحابها ومنزلتهن فيها... فقد عرف عن عريب أنها كانت تغلف شعرها بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً، وتغسله من جمعة إلى جمعة، فتقسم الجواري غسالة رأسها بالقوارير، وما تسرحه منه بالميزان^(٢).

وعرف عن ذات الخال (خنث) أنه لما بعث الخليفة الرشيد في طلبها (استأجر لها حمويه) من بعض الجوهريين بدنة^(٣) وعقوداً ثمنها اثنا عشر ألف دينار فأخرجها إلى الرشيد وهو عليها، فلما رآه أنكره وقال: ويلك يا حمويه من أين لك هذا، وما وليتك عملاً تكسب فيه مثله ولا وصل إليك مني بهذا القدر؟ فصدقه عن أمره، فبعث الرشيد إلى أصحاب الجوهر فأحضرهم واشترى الجوهر منهم ووهب لها^(٤).

وقيل إن الرشيد وهب الجارية دنانير في ليلة عيد عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار^(٥).

(١) لطائف المعارف ص ٨٢.

(٢) الأغاني ٨٨/٢١.

(٣) البدنة: قميص لا كمين له تلبسه النساء.

(٤) الأغاني ٢٦٦/١٦.

(٥) المستطرف من أخبار الجواري ص ٢٨.

ويذكر عن الخليفة المقتدر أنه (كان يدعو بالأموال ويفرقها على الجوّاري والنساء فيلعب بها ويمحقها ويهبها)^(١) وقد أعطى بعض حفاظ الدرة اليتيمة ووزنها ثلاثة مثاقيل^(٢).

وكثيراً ما كان الخلفاء أو الأمراء أو غيرهم من سائر الموسرين يهبون الجوّاري المبالغ الطائلة لشعر قالتها الجارية أو لجواب بارع أجابته به^(٣)، وكان من الجوّاري من تشرى حتى لتستطيع أن تتحف الشعراء بالهدايا والأموال في حضرة الخلفاء بما يقارب هديتهم، ومن ذلك ما أمرت به (ماردة) جارية الرشيد للعباس بن الأحنف وكان قد قال فيها شعراً أعجب الخليفة وطابت له نفساً^(٤).

وذكر عن (فضل) الشاعرة أنها بعثت هداياها إلى سعيد بن حميد الكاتب وكان قد افتصد ألف جدي وحمل وألف دجاجة فائقة وألف طبق ريحان وفاكهة ومع ذلك طيب كثير وشراب وتحف حسان^(٥).

وربما تبادل الجوّاري الهدايا بينهن وتبارين في التهادي بالتحف النفيسة ومن ذلك ما يروى عن مؤسسة جارية المأمون من أنها أهدت إلى متيم الهاشمية جارية علي بن هشام في يوم احتجمت فيه مخنقة (قلادة) في وسطها حبة - لها قيمة جليلة - كبيرة وعلى يمين الحبة ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وما بينها من شذور الذهب وباقي المخنقة قد طيّب بغالية^(٦).

(١) سمط النجوم العوالي ٣/ ٣٥٤.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص ٣٨٤.

(٣) نساء الخلفاء ص ٨٦.

(٤) المستطرف من أخبار الجوّاري ص ٦١ ووفيات الأعيان ١/ ٤٢.

(٥) الأغاني ١٨/ ١٠٠، المحاسن والأضداد ص ١٥٧ ومحاضرة الأبرار ١/ ١٢٨.

(٦) الأغاني ٧/ ٢٩١.

وممن كان يثري من جوارى القصور (القهرمانات) وبلغ الأمر أشده في عصر (المقتدر) حيث استطاعت القهرمانات أن يصلن إلى درجات في الأمر والنهي مما أدى إلى كثرة إغداق الأموال عليهن من الأمراء وذوي الحاجات الذين كانوا يتوسلون إليهن بمختلف الوسائل للوصول إلى المناصب أو الرتب التي ييغونها أو لمساعدتهم على تذليل بعض العقبات فقد استخرجت من أم موسى الأموال والجواهر الكثيرة^(١)، حتى اضطر (علي بن عيسى)^(٢) إلى استحداث ديوان جديد لإدارة الأموال المقبوضة منها سماه (ديوان المقبوضات عن أم موسى)^(٣) بعد قتل المقتدر.

وتذكر من القهرمانات اللاتي أثرين في عهد المقتدر (زيدان) وقد نالت نصيبها الوافر من كلام الخليفة حتى تمكنت من جواهر الخلافة فحصلت على سبحة ثمينة كان يضرب بها المثل في الندرة والنفاسة وقدرت قيمتها بثلاثمئة ألف ألف دينار^(٤).

أما سائر النساء، فتشير الأخبار إلى أنه كان لبعضهن أموال خاصة بهن، تنحدر إليهن إما عن طريق الإرث^(٥)، أو عن طريق ما يملكهن أزواجهن من صداق^(٦)، أو أولياؤهن^(٧) من عطايا وهبات في مختلف المناسبات، أو عن طريق قيامهن ببعض الأعمال^(٨) التي يزاولنها، وكان

(١) تاريخ الإسلام ٧ الورقة ٢٣.

(٢) علي بن عيسى: وزير من وزراء المقتدر، استطاع أن يصلح بعض شؤون الدولة وأن يكون مثلاً في الاقتصاد والتدقيق والكفاءة/ الوزراء ص ٣٠٦.

(٣) تجارب الأمم ٨٤/١ ولطائف المعارف ص ٨٢.

(٤) المنتظم ٧٠/٦.

(٥) المحاسن والأضداد ص ١٩٢ والأذكياء ص ١٢٢.

(٦) الأمالي ٢٨٣/١ والأذكياء ص ٧٨ وص ١٢٢.

(٧) الأغاني ٣١/٢٣ والعصر العباسي الأول ص ٣٣١.

(٨) المستظرف من أخبار الجوارى ص ٢١ والأذكياء ص ٦٣.

لهن حق التصرف بأموالهن في حاجاتهن ومطالبتهن الخاصة من الأمور الدنيوية كشراء الأثاث^(١) والحلى^(٢) والملابس، أو شراء الجوارى^(٣) لمساعدتهن على الأعمال البيتية.

أعمال المرأة:

ولعل من المفيد ونحن في مجال الحديث عن مالية المرأة في العصر العباسي أن نشير إلى بعض الأعمال التي قامت بها بعض النساء من الحرائر والجوارى وربما كانت أكثر الأعمال موقوفة على الجوارى والإماء لعدم التحرج في الإذن لهن بمزاولة ما يستدعي التنقل من مكان إلى آخر أو يستوعب مجالسة الرجال والتحدث معهم بحرية تامة. . وقد يتساهلون مع الحرائر اللاتي بلغن سنّاً لا يخشى عليهن فيه من مخالطة الرجال عندهم.

ومن الأعمال التي قامت بها الجوارى^(٤) بصورة خاصة، الخط والكتابة، فقد وردت إشارات عدة إلى المرأة الكاتبة والخطاطة. . وتناول أبو بكر الصولي (ت ٣٣٦هـ) ذكر ما استحسّن من خط الجوارى^(٥) أسوة بما ذكره من خط الكتاب.

وكان الخط كما يبدو مظهراً من المظاهر الثقافية التي يستحسن توفرها في الجارية، فمن ذلك أن المأمون نظر مرة إلى جارية من جواريه

(١) الأوراق ص ٢٤ والمحاسن والأضداد ص ١٩٢.

(٢) المتنظم ١٢٧/٥.

(٣) أخبار الحمقى والمغفلين ص ٥٦ والأذكياء ص ٧١.

(٤) على أن من أكثر الأعمال التي انتهتها الجوارى الغناء والرقص. . وسنفرّد فصلاً للحديث عن (القيان)، تنظر ص (٢١٧).

(٥) أدب الكتاب ص ٥٠.

تخط خطأ حسناً فقال فيها^(١) :

وزادت لدينا حظوة حين أطرقت وفي إصبعيها أسمر اللون أهيف
أصم سميع ساكن متحرك ينال جسيمات المنى وهو أعجف
وكثيراً ما نجد الشعراء والكتاب يتغزلون بجمال الجارية وبحسن
خطها في آن واحد . . قال القضاوي^(٢) يصف جارية كاتبة^(٣) :

أفدي البنان وحسن الخط من علم إذا تقمص بالحناء فالكتم
كانما قابل القرطاس من يدها شهباً ثلاثة أقلام على قلم
وقال أحمد بن صالح^(٤) يصف جارية كاتبة ويشبه خطها الجميل
بصورتها، ومدادها الأسود بشعرها الفاحم وقرطاسها ببياض وجهها،
وقلمها بأناملها الرشيقة . . ثم يشبه سكينها بسيف نظراتها ومقطها بقلب
محبها، قال^(٥) :

(كأن خطها أشكال صورتها، وكأن مدادها سواد شعرها، وكأن
قرطاسها أديم وجهها، وكأن قلمها بعض أناملها، وكأن بنانها سحر
مقلتها، وكأن سكينها سيف الحاظها، وكأن مقطها قلب عاشقها) .
وأشار السري الرفاء إلى أن المرأة كانت تمتحن كتابة الحديث في قوله :
ولقد مررت على المحدث مرة وإذا بحضرته ظباء رثع
وإذا ظباء الإنس تكتب كلُّ ما يملئ وتثبت ما يقول وتسمع
يتجاذبون الحبر من ملمومة بيضاء تحملها علائق^(٦) أربع

(١) العقد الفريد ٤/ ١٩٨ .

(٢) أدب الكتاب ص ٨٩ .

(٣) أدب الكتاب ص ٨٩ .

(٤) أدب الكتاب ص ٤٨ .

(٥) ديوان السري الرفاء ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٦) علائق: العلاقة: ما علقته به، والعلق والعلقة: العبل المعلق بالبكرة، اللسان/ علق .

من خالص البلور غير لونه فكانه سبج^(١) يلوح ويلمع
واشتغلت المرأة حجامة للنساء، وإلى ذلك يشير السري الرفاء
بقوله معزياً صديقاً بزوجه الحجامة:

فقدت أبا عمران عرساً شفيقة لها لوعة يدمى عليك رسيسها
وكاتبة أقلامها حين تنتضي^(٢) حديد وأعناق النساء طروسها^(٣)
وأبقت فراخاً حين أعدم زقها تصرّم نعمائها وعادود بوسها
وقد يستفاد من المرأة الحجامة في أعمال التجسس ومعرفة أخبار
المنازل لقاء راتب شهري يمنحه لها المسؤولون في الدولة، ومن ذلك ما
يذكره البيهقي عن امرأة جيء بها إلى أبي جعفر ليسألها عن (محمد بن
عبدالله)^(٤) ومكانه... ولما استمرت على الإنكار فاجأها بقوله: (أتعرفين
فلانة الحجامة)؟ فاسود وجهها وتغيرت وقالت: (نعم يا أمير المؤمنين
تلك في بني سليم)، قال: (صدقت هي والله أمتي ابتعتها بمالي، ورزقي
يجري عليها في كل شهر، أمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتعرف
أخباركم... إلخ)^(٥).

وقيل إنه (كان للمأمون ألف عجوز وسبعمائة يتفقد بهن أحوال

(١) السبج: خرز أسود، دخيل معرب، وأصله سبه.

(٢) تنتضي: نضا السيف نضوا وانتضاء: سلّه من غمده (اللسان/نضا).

(٣) طروسها: الطرس: الصحيفة (اللسان/طرس).

(٤) محمد بن عبدالله الملقب بالنفس الزكية وبالأرقط وبالمهدي وهو أحد الأشراف من
الطالبيين. لما بدأ الانحلال في دولة بني أمية بالشام، اتفق رجال من بني هاشم على بيعته
سراً، وكان من دعائه أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور ثم قامت دولة العباسيين
فتواري هو وأخوه بالمدينة ولم يفدا على السفاح أو المنصور، قاومه المنصور حتى قتل
(الأعلام ٩٠/٧).

(٥) المحاسن والمساوي ص ١٦٠.

الناس من الأشقياء ومن يحبه ييغضه ومن يفسد حرم المسلمين، وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن^(١).

وقد يبدو في هذا الخبر شيء من المبالغة، إلا أنه على كل حال يشير إلى أن المرأة كانت تمارس عمل التجسس لقاء أجر بلا شك.

ويشير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي إلى أنه اجتاز يوماً بموضع فرأى جبانة تعمل جبناً، فقال^(٢):

وزولة^(٣) مقربة مسته ريفية تقذف بالجبنه
في قالب أسفله مشته^(٤) ثم بدت بيضاء مقبئنه^(٥)
وحولها غيبد كأنهن برزن من حور نساء الجنه

ومن الأعمال التي كثيراً ما كانت تقوم بها الحرائر والجواري، الغزل، وهي من الأعمال التي استحبت للمرأة لأنها ملهاة أمينة مربحة حتى لقد أجاب الخليفة أبو جعفر المنصور أحدهم حينما جاء يشكو له كثرة عياله من البنات بقوله: (أنت أيسر العرب أربعة مغازل يدرن في بيتك)^(٦) وكان من الواجب أن يكون لكل بنت مغزل.

وقد جعل الإمام الغزالي ملازمة المرأة للمغزل من أهم نصائحه حينما عدد آداب المرأة^(٧).

(١) بين الخلفاء والخلفاء ص ٩٣.

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، ص ٤٢١.

(٣) امرأة زولة: برزة للرجال ذات فطنة وظرف.

(٤) المسقة: كالمكتل، والمكتل: الزنجيل.

(٥) مقبئة: منقبضة عن الناس.

(٦) تاريخ الطبري ٧٥/٨.

(٧) أحياء العلوم ٦١/٢.

وذكر عن (واصل بن عطاء)^(١) أنه لم يكن غزاًلاً، ولكنه كان يلقب بذلك لأنه كان يلزم الغزاليين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته عليهن^(٢).

وأكد أبو العلاء المعري ضرورة لزوم النساء للمغازل وفضلها على الأقسام بقوله^(٣):

فحمل مغازل النسوان أولى بهن من البراع مقلّمات
وكان الغزل مورد رزق جيد للمرأة تقضي به حاجاتها المختلفة^(٤)
للدنيا والدين حتى جعله أحمد بن حنبل أحل رزق للمرأة^(٥)، لها أن
تحج به إذا شاءت.

وهناك الكثير من الأعمال التي أشير إليها مما تقوم به النساء، فقد
اشتغلت بعضهن ماشطات^(٦) أو خبازات^(٧) في بيوت الموسرين أو
غسالات^(٨) للموتى أو مولدات للنساء أو نائحات في المآتم^(٩) وغيرها
من الأعمال التي فرضتها الظروف الاجتماعية المعاشية. إضافة إلى أن
البعض منهن كان يساعد الأزواج في أعمالهم وحرفهم^(١٠) إذا ما اتخذوا

(١) واصل بن عطاء: هو رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين، سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزالهم حلقة درس (الحسن البصري)، لم يكن غزاًلاً وإنما لقب به لتردده على سوق الغزاليين (ت ١٣١ هـ) الأعلام ١٢١/٩.

(٢) الكامل ١٩٢/٣.

(٣) بشار بن برد ص ٦٦.

(٤) الأذكياء ص ٦٣ وتاريخ بغداد ٤٣٦/١٤.

(٥) المستطرف من أخبار الجوارى ص ٢١.

(٦) نفس المصدر والصفحة، أخبار النساء ص ١٠٨.

(٧) المتنظم ٦٩/١٠.

(٨) أخبار الحمقى ص ١٠٩.

(٩) الإعجاز والإيجاز ص ١٣٢ والأغاني ٢٦/٤.

(١٠) العامة ص ٥٤.

من بيوتهم دكاكين لهم .

من كل ذلك نستخلص أن المرأة في العصر العباسي كانت تتمتع بشيء من الاستقلال الاقتصادي^(١) ، وبسند اقتصادي يدعم لها حرية التصرف في بعض الأمور .

المرأة والسياسة

وكان للمرأة دور مهم في السياسة إلا أن هذا الدور قد لا يبدو لأول وهلة ساخراً للعيان بحكم كون الرجل هو القائد الموجه في جل المواقف السياسية . ويتجلى دورها في مواقف قد تبدو هينة في مظهرها إلا أنها على غاية من الأهمية والفاعلية . .

وسنعرض في هذا المجال مساهمات المرأة في السياسة ونبين أدوارها بما يتيسر لدينا من معلومات وملاحظات .

ورغم عدم وضوح الأدوار المباشرة التي قامت بها المرأة في التهيئة للثورة العباسية فقد ترددت بعض الأسماء في أخبار الدعوة مشاركات في المواقف ومناصرات بالأموال . . قيل : (وكانت المرأة لتخرج من جميع حليها الذي على جسدها فتبعث به)^(٢) لنقباء الدعوة وأعلامها .

وقد تردد ذكر بعض الشخصيات النسوية في هذا المجال فقد (بعثت أم الهيثم امرأة أبي عون^(٣) بثلاثة أبرد وبر من غزل يدها وسواري فضة)^(٤) .

(١) المتنظم ١٢٧/٥ والمحاسن والأضداد ص ١٩٢ والأوراق ص ٢٤ وأخبار الحمقى والمغفلين ص ٥٦ والأذكياء ص ٧١ .

(٢) أخبار الدولة العباسية ص ٢٢٤ .

(٣) أحد رجالات الدعوة العباسية .

(٤) أخبار الدولة العباسية ص ٢٢٤ .

أما (ماوية بنت عمرو بن سعيد) وهي بنت خالة عامر - أحد رجال الدعوة - وكانت قبلت الدعوة عنه - فخلعت ما كان عليها من حلي فبعثت به، وكان سواري ذهب وطوق ذهب وخاتم ذهب وخلخال فضة^(١).

ولا يمكن أن يقف دور المرأة عند تقديمها الأموال والحلي فقط لقبولها للدعوة معناه إيمانها بالفكرة والإيمان بالفكرة يدفع إلى العمل والتضحية حتماً. ولا أشك أن لها أدواراً أخرى ربما سيتهياً لها من يكشف عنها ليعزز لنا دور المرأة وأهميتها في المجال السياسي.

وقد وردت إشارة تفيدنا في ذلك أن امرأة تدعى (سعيدة) كانت قد اتخذت للمسلمين سرباً في دارها يجتمعون فيه بالليل^(٢).

أما الحركة الإباضية فقد أولت المرأة في مرحلة التخفي والكتمان وبعدها اهتماماً كبيراً.. فذكرت لها مشاركتها في تحمل مسؤولياتها وإبداءها المقدرة الكبيرة في حفظ أسرار الدعوة والتكتم عليها..

وكان المرأة الإباضية على درجة من المعرفة السياسية والتنظيمية نتيجة للإعداد والدروس التي كانت تتلقاها عن مشايخ الدعوة فقد كان (جابر بن زيد)^(٣) يزور الإباضيات لغرض تعليمهن وكانت (عاتكة بنت المهلب) تسأله ويحييها^(٤).

كما كانت الدروس الفكرية تقام على شكل مجالس ثقافية تتعلم فيها المرأة، وكانت بيوت النسوة المعجّز عبارة عن خلايا يجتمع فيها

(١) المصدر نفسه.

(٢) الحركة الإباضية ص ٨٣ عن السيد للشماخي ص ١٠٨.

(٣) من أعلام الإباضية.

(٤) الحركة الإباضية ص ٨٣.

الإباضية دفعاً للشبهة ولعدم وجود الرقابة والرصد عليها^(١).

إن هذا الإعداد الفكري والتنظيمي مكن المرأة الإباضية من المشاركة في خوض المعارك الحربية التي خاضها الإباضية فيما بعد.

يتضح مما مر بنا من ملاحظات الدور الذي قامت به المرأة في الإعداد للثورات والتهبئة لها.. كما يتبين مدى الاهتمام بتثقيفها ثقافة فكرية تؤهلها لتأدية واجباتها في المجال السياسي.

وعرف بعد ذلك للنساء دور في تسيير أمور الدولة وتوجيهها كن فيه قدرات على تذليل ما صعب ونيل ما بعد، وكان تقدير سلطاتهن ونفوذهن في ذلك بمقدار ذكائهن وبراعتهم وسعة اطلاعهم أحياناً أو بما لهن من مكانة وتأثير في نفوس الخلفاء أو ولاية الأمور.. وهو إما دور مباشر، أو دور غير مباشر يقوم على الشفاعات والتأثير وإبداء المشورة.

ورغم ما عرف عن بعض الخلفاء من أنهم أداروا أمور الدولة بعيداً عن الكثير من المؤثرات فقد كان لنساء البعض منهم سلطان عليهم، (فأم سلمة)^(٢) حظيت عند أبي العباس السفاح فحلف أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى (وغلبت عليه غلبة شديدة حتى كان لا يقطع أمراً إلا بمشورتها وبتأمرها)^(٣).

ولم يكن العباسيون أول الأمر ليسيفوا إبراز دور المرأة، وربما كان لموقف الهاشميين (خصوصاً العباسيين) من المرأة أثره في تهوين أمرها في نظر خلفاء بني العباس، إذ كان الهاشميون يفخرون بأمومة

(١) المصدر نفسه ص ٨٤.

(٢) هي أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبدالله بن الوليد بن المغيرة المخزومي، كانت عند عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك فهلك عنها ثم كانت عند هشام فهلك عنها، ثم تزوجها أبو العباس السفاح.

(٣) مروج الذهب ٣/ ١٩٠.

النساء الفضليات من العرب في حين أعياء الخلفاء العباسيين هذا الفخر لأن جلهم نسل إماء، وقد ظلت المرأة مثار ألم الخليفة أبي جعفر المنصور^(١) حتى آخر عهده في الدنيا فكانت آخر وصية له لولده المهدي: (وإياك والاستماع لمشورة النساء وأظنك ستفعل)^(٢).

وقد عبر صراحة عن ذلك الموقف في كتاب أرسله إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسن: (بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد: فلقد بلغني كلامك وقرأت كتابك فإذا جلّ فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة الغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء كالعصبة والأولياء، لأن الله جعل العم أباً وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا (قال جل ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام: واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أمّاً وأباً، وأنه لم تلدك العجم ولم تعرف فيك أمهات الأولاد فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طرّاً، فانظر ويحك أين أنت من الله غداً، فإنك قد تعديت طورك وفخرت على من هو خير منك نفساً وأباً وأولاداً وآخرّاً (إبراهيم)^(٣) بن رسول الله ﷺ وعلى والد ولده، وما خيار بني أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلّا بنو أمهات أولاد. وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن حسين، وهو لأم ولد)^(٤).

وبدأ سلطان المرأة يقوى منذ تولي المهدي الخلافة وتزوج الخيزران^(٥) (وكان المهدي سمحاً رضي الخلق صفي النفس قطيع الخنا

(١) كانت أم الخليفة أبي جعفر أم ولد يقال لها سلامة (بربرية).

(٢) تاريخ الطبري ١٠٤/٨.

(٣) أم إبراهيم عليه السلام مارية التي أهداها المقوقس عظيم القبط إلى رسول الله ﷺ.

(٤) أم علي زين العابدين سبية من بنات يزديجرد (انظر ابن خلكان ١/٣٢٠).

(٥) الطبري ٤٦٦/٣ والكامل ٥٣/٥.

صاحك السن قليل الأذى والبذاء^(١) (وكانت زوجته الخيزران امرأة قوية تحب النفوذ وتهوى السلطان، وقد وجدت في أخلاق المهدي ما وافق طبيعتها وشجعها على التمادي، فكانت تأمر وتنهى وتشفع وتبرم وتنقض^(٢)).

ولما مات المهدي وتولى الهادي الخلافة أرادت الخيزران أن يتسع سلطانها ويمتد نفوذها إلا أن الهادي كان يختلف اختلافاً بيناً عن المهدي فقد كان على حد قول الجاحظ^(٣): (شكس الأخلاق، صعب المرام قليل الإغضاء سيء الظن) (وكانت الغيرة من أبرز صفاته^(٤)).

وكان يتصل بالهادي وصول القواد إلى أمه الخيزران يؤملون بكلامها قضاء حوائجهم عنده، وكانت تريد أن تغلب على أمره كما غلبت على أمر المهدي^(٥)، فكان يمنعها ذلك وأرسل إليها (ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك وعليك بصلواتك... إلخ)^(٦). ولما كثر عليه مصير من يصير إليها من قواده قال يوماً وقد جمعهم: أيما خير أنا أو أنتم؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين، قال: فأياكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقولوا: فعلت أم فلان، وصنعت أم فلان وقالت أم فلان؟ قالوا: ما أحد منا يحب ذلك قال: فما بال الرجال يأتون إلى أمي فيتحدثون بحديثها...؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة، فشق ذلك عليها

(١) التاج للجاحظ ص ٣٥.

(٢) الفخري ص ١٦٧.

(٣) التاج ص ٣٥.

(٤) الكامل في التاريخ ٢٩/٦.

(٥) تاريخ الطبري ٢٠٦/٨ ومروج الذهب ٣٣٧/٣.

(٦) العيون والحدائق ٢٨٣/٣.

فاعترلته وحلفت ألا تكلمه فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة^(١). وقيل إنها سعت إلى قتله^(٢) لمواقفه منها في تحديد سلطاتها.

ولما كانت الخيزران قد لعبت دوراً كبيراً في مجيء الرشيد فلا بد أن يستمر نفوذها فترة حكمه. . ولهذا كانت الناظرة في الأمور في عهده، وكان يحيى بن خالد يعرض عليها ويصدر عن رأيها^(٣)، وكان الرشيد لا يعصي لها أمراً.

وذكر الطبري أن الرشيد لما عاد من دفنها، دعا الفضل بن الربيع وقال له: وحق المهدي: إني لأهم لك من الليل بشيء من التولية وغيرها فتمنني أمني فأطيع أمرها^(٤)، فانتزع خاتم الدولة من جعفر وحول جزءاً من صلاحياته إلى خصمه وخلفه (الفضل بن الربيع).

وكان للسيدة زبيدة زوجة الرشيد مواقف معروفة تدل على توجيهها لبعض الأمور السياسية في عهد الرشيد. . فقد بايع بولاية العهد لابنه محمد الأمين وله يومئذ خمس سنين لحرص أمه زبيدة على ذلك^(٥).

وقيل إنها اعترضت على الرشيد في توليته محمد الأمين العراق فقالت له: (ما أنصفت ابنك محمداً حيث وليته العراق وأعريته من العدد والقواعد وصيرت ذلك إلى عبدالله دونه)، فقال لها: وما أنت وتمييز الأعمال وأخبار الرجال: إني وليت ابنك السلم وعبدالله الحرب، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم.

(١) تاريخ الطبري ٢٠٦/٨ ومروج الذهب ٣/٣٣٨.

(٢) ويرى بروكلمان (أنه قتل بتحريض أمه ما في ذلك شك): تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٨٥.

(٣) الطبري ٨/٢٣٤.

(٤) نفسه ٨/٢٣٨.

(٥) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٠.

ولعل من المفيد أن نقف موقف الحذر والدقة من قبول كل ما نسب إلى الأمين من صفات وما نسب إلى الرشيد من أقوال قالها في عدم الثقة به، وفي تمجيد المأمون وإسباغ صفات البطولة والحكمة عليه. فقد كان هناك صراع عنيف بين العرب والفرس أدى إلى القضاء على البرامكة في عهد الرشيد. ولم يكن ذلك بقادر على إيقاف التيار الفارسي العنيف أو الحد منه، وإنما زاد الصراع التهاباً، كالذي يحصل عادة من رد فعل للتيارات القوية إذا ما أريد إيقافها، فكان الأمين الذي يمثل الجانب العربي الضحية، حيث شوهت شخصيته وعُبت بأخباره في الوقت الذي رجحت فيه شخصية المأمون الذي يمثل الاتجاه الفارسي.

إلا أن - مما ينصف الأمين ويدل على بعد نظره ورجحان تفكيره بعض ما وصلنا من رسائله التي كان يتبادلها مع أخيه المأمون أو مع عدد من قواده وولاته^(١). وكان فيها رجلاً ذا علم وعقل وبصيرة يقلب الأمور جهده لولا أن الأمر غلبه بعنف التيار الأعجمي وطغيانه ..

ولا بدّ لنا بعد هذا أن نوضح أن غاية ما عرف للسيدة زبيدة من نشاط سياسي لم يكن ليتجاوز حرص الوالدة على تولية ابنها من جهة، وحرصها على أن لا يخرج الأمر إلى أيدي الفرس بتولية المأمون .. ويذكر التاريخ مواقفها في ذلك وكرهها للبرامكة وخشيتها من استفحال أمرهم وعملها على الحد من سيطرتهم، حتى قيل إنها كانت ممن حرص الرشيد على القضاء عليهم^(٢) حينما استفحل أمرهم وقوي سلطانهم.

إلا أنها كانت تحسن التصرف في جميع أحوالها سواء أكانت غالبية

(١) ينظر تاريخ الطبري ٨/ ٣٨٠ - ٣٨٥، ٤٠٠، ٤٠٣، ٤٩٣... إلخ، وجمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٦٣.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٢٧٢.

أم مغلوبة، ولا أدل على ذلك من وصيتها لعلي بن عيسى بن ماهان^(١) حينما شخص إليها قبل سفره لحرب المأمون^(٢):

(يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي، إليه تناهت شفقتي وعليه تكامل حزري، فإني على عبدالله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه وغار^(٣) على ما في يده، والكريم يأكل لحمه ويمنعه غيره، فأعرف لعبدالله حق والده وأخوته، ولا تجبهه بالكلام فإنك لست نظيره، ولا تقتسره^(٤) اقتسار العبيد ولا ترهقه بقيد ولا غل ولا تمنع منه جارية ولا خادماً ولا تعنف عليه في السير، ولا تساوه في المسير ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سفه عليك فلا تراذه، ثم دفعت إليه قيداً من فضة وقالت: إن صار في يدك فقيده، فقال لها: سأقبل أمرك وأعمل بطاعتك).

ويذكر التاريخ كذلك عن (زينب بنت سليمان)^(٥) أنه لما قدم المأمون بغداد اجتمع الهاشميون إليها وكانت أقعد ولد العباس نسباً وأكرمهم بيتاً فسألوها أن تكلم أمير المؤمنين في تغييره الخصرة، فضمنت لهم ذلك وجاءت إلى المأمون فقالت^(٦): يا أمير المؤمنين إنك على بر أهلك من ولد علي بن أبي طالب أقدر منهم على برهم لنا من

(١) علي بن عيسى بن ماهان: من كبار القادة في عصر الرشيد والأمين وكان ممن حرّض الأميين على خلع المأمون في حربه مع المأمون. الأعلام ١٢٣/٥.

(٢) تاريخ الطبري ٨/٤٠٥ - ٤٠٦ وجمهرة خطب العرب ٣/١٠٤.

(٣) غاره: أنقصه. يقال في التحية: لا تغار: أي لا تنقص. (اللسان/غرر).

(٤) اقتسر: القسر: القهر على الكره، قسره واقتسره: غلبه وقهره (اللسان/قسر).

(٥) زينب بنت سليمان: من ربات النفوذ والسلطان والعقل والرأي والفصاحة. ينظر أعلام النساء ٦٨/٢ ومروج الذهب ٣/٢٣٦.

(٦) أعلام النساء ٦٩/٢.

غير أن تزيل سنة من مضي من آبائك، فدع لباسك الخضرة ولا تطمعن
أحداً فيما كان منك، قال لها: يا عمة ما كلمني أحد في هذا المعنى
بكلام أوقع من كلامك وأقصد لما أردت. . وبرر لها عمله إلا أنه ختم
ذلك بقوله: ولا يكون بعد هذا إلا ما تحبون، ورجع إلى لبس السواد.

ويذكر التاريخ أم الشريف بكثير من الهيبة والاحترام.

أورد المسعودي^(١) عن شعلة بن شهاب الإشكري^(٢)، أنه قال:

وجه بي المعتضد إلى محمد^(٣) بن أحمد بن عيسى بن الشيخ لآخذ
بالحجة عليه، فلما سرت إليه واتصل الخبر بأم الشريف أرسلت إلي
فقلت: يا بن شهاب كيف خلفت أمير المؤمنين، قال فقلت: خلفته والله
ملكاً جذلاً وحكماً عدلاً أماراً بالمعروف فعالاً للخير متعزلاً على أهل
الباطل متذللاً للحق لا تأخذه في الله لومة لائم. قال فقلت لي: هو
والله أهل لذلك ومستحقه ومستوجه وكيف لا يكون كذلك وهو ظل الله
الممدود على بلاده، وخليفته المؤمن على عبادته، أعز به دينه وأحيا به
سنته وثبت به شريعته، ثم قالت لي: وكيف رأيت صاحبنا؟ تعني ابن
أخيها محمد ابن أحمد، قال فقلت: رأيته غلاماً حدثاً معجباً قد استحوذ
عليه السفهاء فاستبدّ بآرائهم وأنصت لأقوالهم، فهم يزخرفون له الكلام،
ويوردونه الندم، فقلت لي: فهل لك أن ترجع إليه فلعلنا أن نحل ما
عقده السفهاء قال: قلت: أجل، فكتبت إليه كتاباً لطيفاً حسناً أجزلت
فيه الموعظة وأخلصت فيه النصيحة، وكانت مشورتها عليه هي

(١) مروج الذهب ١٧٥/٤.

(٢) شعلة بن شهاب الإشكري: من رجال المعتضد وجهه إلى محمد بن أحمد بن عيسى سنة
٢٨٦هـ.

(٣) محمد بن أحمد بن عيسى ابن الشيخ عبدالرزاق. تحصن بأمه وفاة أبيه. ولكن المعتضد غلبه
ثم عفا عنه.

الواقعة . . إلا أنه لم يمثل بها فلقي ما لقي، إلا أنها لم تلبث أن أصلحت الموقف وتداركته مع المعتضد بحسن تدبيرها وسياستها^(١).

ورغم هذه المواقف المشهودة لما مرّ بنا من سيدات العصر العباسي فلم نذكر لهن مواقف صريحة في الحكم كالذي عرف (لست الملك) أخت الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر (٣٨٦ - ٤١١هـ)، فقد لعبت دوراً في التاريخ الإسلامي لم تقم به سيدة أخرى، ذلك أن أخاها الحاكم بأمر الله كان متقلب الرأي مقرباً للباطنيين، وكان يقدم البربر والترك على المصريين مما حملهم على كرهه وسبه، فكانوا يكتبون إليه الرقاع وفيها السباب والشتائم والدعاء عليه^(٢).

وكانت أخته (ست الملك) من أحسن نساء زمانها عقلاً وأشدّهن حزمًا وعزماً، فنالت في أول الأمر ثقة الخليفة حتى صار لا يقطع في أمر إلا برأيها، وحظيت بمحبة الناس فصاروا يفضلونها على أخيها، ولما أفضت الوقعة بينه وبين المصريين إلى قيامهم بالثورة التي أخمدوها بالسيف اتهم أخته (ست الملك) بأن لها ضلعاً فيها، فأوجس الحاكم بأمر الله خيفة من أخته وشرع يترقب الفرص لقتلها^(٣) ولكنها سبقته فتآمرت عليه مع (دارس) أحد قواده. ولما أيقن الناس بقتله اجتمعوا عليها وولوها وصية على ابن أخيها الظاهر لصغر سنه . . وأنفذت الكتب إلى البلاد^(٤)، وفي الغد حضر ابن دارس ومعه أركان جيشه بأمر من ست الملك، فأوعزت إلى خادماً لها فضربه بالسيف فقتله وهو ينادي: يا ثارات الحاكم. وقد قوبل عملها بالامتنان من الشعب، وراحت ست الملك تصرف أمور الدولة أحسن إلى الناس ورتبت الأمور وباشرت

(١) مروج الذهب ١٧٦/٤ وأعلام النساء ٢/٢٩٣.

(٢) المرأة في حضارة العرب ص ٢٠٨.

(٣) المختصر في أخبار البشر ٢/١٥١.

(٤) المصدر السابق.

تدبير الملك بنفسها وقويت هيبتها عند الناس، وعاشت بعد قتل الحاكم أربع سنين ثم ماتت. فكان بدء انحطاط الدولة الفاطمية في مصر.

وامتاز القرن الرابع بصورة خاصة بدور القهرمانات والجواري، وكان أصل عمل القهرمانية في بلاط الخليفة أن تؤدي الرسائل من الخليفة إلى الوزير^(١)، وإلى ذلك أشار الجاحظ بقوله: (إنه لم يزل للملوك إماء يختلفن في الحوائج ويدخلن الدواوين ويجلسن للناس)^(٢). وقامت بعض النساء بنقل الرقاع والمراسلات في بعض الظروف والمواقف كالخلاف بين الأمين والمأمون، أو بين الخلفاء وبعض الأمراء والقواد.

ويبدو أن ضعف الخلفاء واحتجابهم في قصورهم أدى إلى سيطرة القهارة، فقد كان للمكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥هـ) داية اسمها فارس نصبها قهرمانة لما استخلف وكانت تتدخل في نصب الوزراء وفي عزلهم^(٣).

وجاءت دولة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) وهي دولة السيدة (شغب) أمه وكان لها كاتب يدعى^(٤) (أبو يوسف عبدالرحمن بن محمد) يكتب لها الكتب باسمها وقد عرف للسيدة أم المقتدر تأثيرها القوي على ابنها فكانت تشير عليه ببعض الاستشارات وتحلل له مواقف أعوانه وأعدائه لتبصره بالأمور^(٥) فمن ذلك أنها كلمت ابنها في شأن نصر الحاجب الذي أراد ابن الفرات^(٦) القبض عليه (واتصل الخبر بنصر، فلجأ إلى

(١) نشوار المحاضرة ١٧٩/٤.

(٢) ثلاث رسائل ص ٦٣ وبين الخلفاء والخلفاء ص ٦.

(٣) نشوار المحاضرة ٢٦٩/٣.

(٤) تجارب الأمم ١٦٤/١.

(٥) تجارب الأمم ١١٧/١.

(٦) ابن الفرات: علي بن محمد بن الفرات كان وزيراً للمقتدر قتل سنة ٣١٢هـ.

السيدة واستغاث بها فكلمت ابنها وقالت له : قد أبعد ابن الفرات مؤنساً^(١) عنك وهو سيفك وثقتك ، ويريد الآن أن ينكب حاجبك ليتمكن منك فيجازيك على ما عاملته به من إزالة نعمه وهتك حرمة ، فليت شعري بمن تستعين عليه إن أراد بك مكروهاً من خلعتك والتدبير عليك لا سيما ما أظهر من شره وإقدام ابنه المحسن على كل عزيمة^(٢) .

وفي عهد المقتدر أصبح للقهرمانه سيطرة تامة على أمور الدولة فكانت تتدخل في ترشيح الوزراء وكبار العمال^(٣) وفي عزلهم واعتقالهم^(٤) وقد تحضر عقوبة الوزير المعزول^(٥) .

ومن شهرات القهرمانات في هذا العصر (فاطمة) القهرمانه و (أم موسى) الهاشمية التي عينت قهرمانه سنة (٢٩٩هـ) بعد وفاة فاطمة وقد سيطرت سيطرة عظيمة ، وهي التي أوصلت أبا الحسين بن أبي البغل^(٦) إلى الوزارة فكان لا يخرج عن أمرها^(٧) ، وكانت تجلس أخاً لها عند القصر فيلقاه الناس وأصحاب الحوائج فيأخذ رقايعهم وشكاواهم^(٨) إليها وانتهى أمرها عام (٣١٠هـ) بالاعتقال والمصادرة^(٩) . . . وكانت الأموال المقبوضة منها كثيرة جداً حتى اضطر إلى تشكيل ديوان عرف

(١) مؤنس: الخادم الملقب بالمظفر المعتضدي، بقي مستين أميراً وولي دمشق للمقتدر قتله القاهرة ٣٢١هـ / ٨ / ٢٩٢ .

(٢) تجارب الأمم ١ / ١١٧ .

(٣) تجارب الأمم ١ / ٢١ ، ٢٤ .

(٤) تجارب الأمم ١ / ٤٠ .

(٥) تجارب الأمم ١ / ٩٠ .

(٦) أبو الحسين بن أبي البغل: وزير من وزراء المقتدر .

(٧) الصابي ٢٧٢ .

(٨) الصابي ٢٧٦ .

(٩) تجارب الأمم ١ / ٨٣ .

بـ (ديوان المقبوضات من أم موسى)^(١).

وزيدان القهرمانة التي اعتقل عندها الوزير علي بن عيسى لما عزل من الوزارة^(٢). وكان لها طبيب خاص هو عيسى البغدادي يحمل الرقاع بين الوزراء وربما حملها إليها لتعرضها على الخليفة^(٣).

وتمثل القهرمانة التي عرفت بالشر والإسراف في العقوبة وكانت تجلس للمظالم^(٤) وتنظر في رقاع الناس كل جمعة، وتحض القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها.

وذاع اسم (اختيار) قهرمانة القاهر، فعرفت لها بعض المواقف في توجيه السياسة وفي تعيين الوزراء وإبداء المشورة والرأي للخليفة^(٥).

أما علم قهرمانة المستكفي والتي كانت تدعى بـ (حسن الشيرازية) فقد أوعزت إلى أمير الأمراء (توزون) فخلع المتقي وسمله فسيطرت على جميع مرافق الدولة وأمورها^(٦)، وعندما اعتقل المستكفي اعتقلت (علم) معه^(٧) وسملت عيناها وقطع لسانها^(٨).

ولم يعرف للجواري والقيان وعامة النساء في الغالب دور مهم مباشر في السياسة في هذا العهد، وكان جل ما عرف لهن بعض الشفاعات في تولية أحدهم منصباً من المناصب، أو في استرضاء

(١) نشوار المحاضرة ٢٤٢/١.

(٢) تجارب الأمم ٤٠/١.

(٣) تاريخ الحكماء للقفطي ص ٢٤٩.

(٤) المتظم ١٤٨/٦.

(٥) تجارب الأمم ٢٦١/١.

(٦) تجارب الأمم ٧٥/٢.

(٧) تجارب الأمم ٨٦/٢.

(٨) تجارب الأمم ١٠٠/٢.

ال خليفة أو صاحب الشأن عن البعض أو في السعي لإخراجهم من السجن ولا بأس أن نكتفي ببعض الإشارات إلى ذلك فقد قيل إن الرشيد كان قد سأل (ذات الخال) في حاجة تطلبها، فطلبت إليه أن يولي مولاه (حمويه) خراج فارس سبع سنين، ففعل ذلك، وكتب عهده به وشرط على ولي عهده أن يتمها له إن لم تتم في حياته^(١).

ويذكر الأصفهاني: (أن إبراهيم بن المدبر لما سجن سألت (عريب) وما أدراك ما عريب - الخليفة في إخراجه فوعدها بما تحب ثم أطلقه)^(٢).

وكانت القيان من ذوات الجاه والسلطان يتعصبن لطائفة سياسية أو يشايعن مذهباً، ويقضين حوائج أهله عند أولي الأمر. وقد أشار ابن المعتز إلى أن (فضلاً) الشاعرة كانت تشيع لجماعة من الناس وتقضي حوائجهم بجاهها ومزنتها عند الملوك والأشراف)^(٣).

إلا أننا لا بدّ لنا في هذا المجال أن نذكر (عائشة العثمانية) التي عرف عنها أنها كانت تقاتل في حروب الطالبين وتجهز جيوشهم وتقوي أمورهم. ذكر لها ابن المعتز ذلك وقال: (كانت من أشجع الناس وخرجت في غير جيش وحاربت في مواطن كثيرة وقتلت بشراً كثيراً، ولها في كل وقعة شعر، وقد شوهدت على جمل أحمر نجيب تقاتل في بعض حروب الطالبين)^(٤).

يتضح مما مرّ بنا الدور الذي لعبته المرأة حرة أو أمة، عربية أو أعجمية في السياسة. إلا أننا لا بدّ لنا أن نشير إلى رصانة التدخل

(١) الأغاني ١٦/٢٦٦.

(٢) الأغاني ١٩/١١٦.

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٢٦ والأغاني ٢٠/١٥٦.

(٤) طبقات ابن المعتز ٤٢٣.

السياسي لكل من (زينب بنت سليمان والسيدة زبيدة وأم الشريف وست، الملك) وأنه كان تدخلاً رصيناً يدل على بعد النظر وصواب الرأي والحكمة في معالجة الأمور، مما يدل على أن المرأة العربية في أكثر الحالات كانت قد أجادت الممارسة، وأنها لم توصل الحكم العربي في العصر العباسي إلى التخليط والبلبله والاضطرابات كالذي حصل على أيدي القهرمانات اللاتي عملت نزعاتهن عملها في تدهور الأمور حتى آلت إلى الضعف والاضمحلال.

الباب الأول

المرأة في الأدب

الفصل الأول: الابنة في الأدب

الفصل الثاني: الأم في الأدب

الفصل الثالث: الزوجة في الأدب

الفصل الرابع: الأخت في الأدب

الفصل الخامس: الحبيبة في الأدب

تمهيد

المرأة في الأدب:

سبقت الإشارة إلى أن كتب التاريخ كانت قاصرة في إعطاء صورة واضحة عن المرأة في العصر العباسي، وذلك لأنها لم تكن لتعنى بها أو تلتفت إليها، إلا إذا كانت من سيدات القصور كالخيزران وزينب بنت سليمان والسيدة زبيدة وبوران وعليه وقبيصة وغيرهن ممن كانت لهن بعض الآثار في سير الخلفاء وأخبارهم، ولهذا بقيت صورة المرأة باهتة لا تكاد تعطينا ما يكفي لتكوين فكرة واضحة عن أحوالها وآثارها في هذا العصر.

وقد رأينا من المفيد أن نعرض على أدب العصر وهو سجل حافل للحياة، ندرسه دراسة واعية لنستخلص منه ما يمكن أن يلقي الضوء على المرأة وظروف حياتها ومكانتها وأثرها في المجتمع والأدب.

ولما كان الأدب بأساليبه المختلفة المجال المباشر الذي يفرغ فيه الأدباء والشعراء انطباعاتهم عن المرأة ويتحدثون عنها في أحوالها المختلفة وعلاقاتها المتنوعة بهم، فقد تجلت صورة المرأة فيه بشكل قد يفوق في وضوحه وأصالته وصدقه الصورة التي عرفت للمرأة في تاريخ العصر.

فالشعر وهو الميدان الفسيح للنتاج الأدبي، حفل بالكثير من أحوالها وربما كان الغزل أكثر الأغراض الشعرية تناولاً وذكراً لها. وقد أفادنا شعر الغزل الكثير في معرفة صفات المرأة والمعايير الجمالية المادية والمعنوية التي اتخذها العصر مقياساً للحسن والجمال.

ولا يمكن لتقصي أحوال المرأة أن نقف عند الغزل وحده لأن هذا

الغرض لا يصور المرأة إلا في جمالها وفي صفاتها الحلوة المستحبة التي يراها الرجل فيها، وفي زينتها، ولا يعبر إلا عن صلة الحب لها والإعجاب بها . . وربما صورها كما هي الحال في شعر الشعراء الماجنين عابثة ماجنة مستهترة .

والمرأة التي كشف عن صورتها في غزل العصر الذي يكاد يكون أكثره غزلاً حسياً يتناول صفات المرأة الجسمية ولا يمثل إلا المرأة الجارية . . لأن المرأة الحرة كانت قد حجبت عن مسرح الحياة العامة ولم تكن لتصلها العيون أو لترقى إليها الأقوال، اللهم إلا القليل مما وصلنا من تغزل بالحرائر من بنات العم أو بعض القريبات .

ولما كان غرضنا دراسة المرأة في الأدب فقد كان علينا أن نعرف مكانتها وأثرها فيه لا كحبيبة فقط، وإنما كأم وابنة وأخت وزوجة وقريبة، وأن نبرز دورها في المجتمع عاملة تمارس مختلف الأعمال والواجبات السياسية لها دورها في توجيه إدارة الدولة، وشاعرة وكاتبة وراوية وناقدة، وغير ذلك مما استطعنا أن نكشف بعض جوانبه مما توفر لدينا من مصادر، ولهذا فقد كان علينا أن ندرس أغراض الشعر المختلفة من مديح وهجاء وفخر ورثاء ووصف وتهان وتعاز، لأننا قد نجد في كل منها وقفة عندها وتصويراً لها . .

ثم كان لا بد أن لا يوقف عند الشعر وحده في استجلاء ذلك، إذ كانت الأخبار والرسائل والأمثال والأقاصيص وغير ذلك من أفانين القول الأدبية مما يزيد في توضيح الصورة ويكملها .

ولم نفصل في دراستنا للمرأة بين الشعر والنثر، بفنونه المتعددة، تجنباً لوقوع تكرار في الأغراض والموضوعات العامة، ولذلك رأينا من الأجدر تناولها مجتمعة حول الفكرة الواحدة المراد توضيحها، والصورة التي رسمها الأدب للمرأة بصورة عامة لهذا الغرض، مشفوعة بما

يكملها في الأخبار والأمثال والرسائل والأقاصيص ليؤدي ذلك بلا شك إلى إظهارها أكثر وضوحاً وأعمق دلالة .

وقد تناولنا المرأة في مختلف علاقاتها بالرجل، فوضحنا صورة الحرائر في الأسرة، أمهات وأخوات وبنات وزوجات، ثم حبيبات من القريبات أو غيرهن .

ثم كشفنا عن صورة الجواري في الحياة العامة وفي الأدب، وصنفنا دراستهن إلى جواري القصور والساقيات والقيان ووقفنا على طراز حياتهن وخلقهن وصفاتهن وأثرهن من خلال الأغراض المختلفة التي تناولتهن في الغزل أو الهجاء أو الرثاء أو الوصف . . واستفدنا من الوصف والغزل في السمات الجمالية التي أرادها العصر والمظاهر الحضارية من ملابس ووسائل الزينة والتجميل .

وقد جعلنا صورة المرأة في الأدب في بابين هما : الحرائر (المرأة في الأسرة)، ثم الجواري . . . وستناول ذلك بالتفصيل .

الفصل الأول

الابنة في الأدب

وتردد ذكر الابنة في العصر العباسي في صور وأغراض مختلفة، واضطرب الموقف بين محب لها مشير إلى أهميتها ومنزلتها وبين كاره لها حريص على دفنها.. ولا نشك في أن الاختلاف في الموقف من البنت والنظرة إليها مرتبط إلى حد بعيد بالمستوى الاجتماعي للاب والعايلة، إضافة إلى بعض الظروف والمبررات الحاصلة التي تؤدي إلى التفاعل بين المجتمع من جهة والآباء وأولياء الأمور من جهة ثانية.. وقد يكون هناك رأي يسود المجتمع في فترة من الفترات فتدده الشعراء والأدباء، وتتناقله العامة والخاصة.. فإما أن تركز إلى الرأي العام السائد، وإما أن تجعل لنفسها موقفاً متميزاً يتفق مع واقع شعورها تجاه البنت دون التأثير بالمواقف والآراء السائدة.

كره البنات:

فموقف الكره للبنات موقف فيه آثار الجاهلية.. الآثار التي أشار إليها تعالى في قرآنه الكريم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(١) ورغم أن الإسلام قد خفف كثيراً من غلواء هذه النظرة بالمثل الإنسانية التي أكد عليها لخدمة البشر جميعاً، إلا أن جذور التخلف بقيت ممتدة تخف حدتها أحياناً وتشتد أحياناً أخرى حتى العصر العباسي.

ولعل في الأقوال التي تتردد في كتب الأدب والأخبار ما يدل

(١) سورة النحل الآية: ٥٨.

بعضها على كرههم للبنات وحرصهم على موتهن ورغبتهم في الخلاص
منهن .

قال الحسين رضي الله عنه : (والد بنت متعب ، ووالد بنتين مثقل ،
والد ثلاث فعلى العباد أن يعينوه)^(١) .

وقال الزهري^(٢) : (كانوا لا يرون على صاحب ثلاث بنات صدقة
ولا جهاداً ، وسأل عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه نصيباً عن حاله
فقال^(٣) :

(كبر سني ، ورق عظمي ، وبليت بينات نفضت عليهن من لوني
فكسدن عليّ) قيل : فبكى عمر من قوله .

وكانوا إذا هناؤا بالبنات قالوا^(٤) : أمنكم الله عارها وكفاكم مؤنتها
وصاهرتم قبرها .

وكانوا يقولون : تقديم الحرم أفضل النعم ، وموت الحرة أمان من
المعرة أو : وما ختن أعف من القبر^(٥) .

ولما سأل ابن الأعرابي أبا العباس بن ثعلب عما له من الولد
قال : ابنة ، وأنشد^(٦) :

لولا أمية لم أجزع من العدم ولم أجب في الليالي حندس الظلم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم

(١) محاضرات الأدباء ١/ ٣٢٥ .

(٢) محاضرات الأدباء ١/ ٣٢٥ .

(٣) نفس المصدر ١/ ٣٢٦ .

(٤) نفس المصدر ١/ ٣٢٦ .

(٥) نفس المصدر ١/ ٣٢٦ .

(٦) معجم الأدباء ٥/ ١٢٢ وقد ورد البيت الثاني منسوباً إلى إسحق بن خلف في محاضرات
الأدباء ١/ ٣٢٦ .

فأنشد ابن الأعرابي في المعنى :

أميمة تهوى عمر شيخ يسره لها الموت قبل الليل لو أنها تدري
يخاف عليها جفوة الناس بعده ولا ختن يرجى أودة من القبر
ولا نشك في أن هذا الموقف تجاء البنت سببه في هذه الأبيات
الدافع المادي إذ تظهر فيها خشية بقائها بعد أبيها الشيخ والخوف عليها
من جفوة الناس بعده .

التهته بموتهن :

وكان منهم من إذا أراد تعزية بفقد الابنة جعل التعزية كالتهته لأن
من نعم الله - كما يقولون - موت البنات وبقاء البنين -
قال البحرى يعزى أبا الحسن بن الفرات عن ابنته^(١) :

أبا حسن إن حسن العزاء عند المصيبات والنازلات
يضاعف فيه الإله الشوا ب للصابرين للصابرات
ومنزلة الصبر عند البلاء كمنزلة الشكر عند الهبات
ومن نعم الله لا شك فيه بقاء البنين وموت البنات
وقال في رثاء ابنة أحد بني حميد^(٢) :

ظلم الدهر فيكم وأساء فعزاء بني حميد عزاء
أنفس ما تزال تفقد فقد وصدور ما تبجح البرحاء
وسفاهاً أن يجزع الحرّ مما كان حتماً على العباد قضاء
أثبّكي من لا ينازل بالسيف ف مشيحاً ولا يهز اللواء

(١) ديوان البحرى/ ٣٨٢.

(٢) العقد الفريد ٣/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

والفتى من رأى القبور لمن طاب به من بناته أكفاء
لسن من زينة الحياة لعدّ الله منها الأموال والأبناء
قد ولدن الأعداء قدما وورثن التلاد الأفاصي البعداء

فالبحتري لا يريد أن يبكي على البنات لأنهن لا ينفعن في
الحروب، بل يرى أن على الفتى أن تطيب نفسه إذا ما كانت القبور
أكفاء لبناته، وهن لا يمكن أن يعتبرن زينة للحياة الدنيا لأن الله تعالى
قال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١) ولم يعد البنات من تلك
الزينة.. ثم أنهن يلدن الأعداء ويورثن البعداء مجد عوائلهن.

ولم يقف البحتري عند هذا الحد في ثورته على المرأة وإنما استمر
يسرد لنا من مواقف كارهيها عبر التاريخ مبرراً لهم مواقفهم تلك.. ثم
يختتم قصيدته التي كانت في جملتها ثورة عارمة على المرأة وعلى من
يقيم لها أي وزن ويختتمها بقوله:

إن من العجز عنده أن يبيت الرجال يبكون النساء فقال^(٢):

لم يشد تربهن قيس تميم غيلة بل حمية وإياء
وتغشى مهلهل الذلّ فيها بن وقد أعطى الأديم خباء
وشقيق بن فاتك حذر العار عليهن فارق الذهناء
وعلى غيرهن أحزن يعقوب وقد جاءه بنوه عشاء
وشعيب من أجلهن رأى الوحدة ضعفاً فاستأجر الأنبياء
وتلفت إلى القبائل فانظر أمهات ينسبن أم آباء
واستنزل الشيطان آدم في الجنة لما أغرى به حواء
ولعمري ما العجز عندي إلا أن تبيت الرجال تبكي النساء^(٣)

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

(٢) العقد الفريد ٣/ ٢٨٣.

(٣) نفسه ٣/ ٢٨٤.

ويتفق الخوارزمي الأديب بنقمته على المرأة وكرهه للبنات مع البحثري وقد عبر في عدد من رسائله عن ثورته تلك...

فقد كتب إلى كثير بن أحمد يعزيه عن ابنة صغيرة له، وكان الخوارزمي مغتبطاً كما يبدو بهذا المصائب لأنه يراه كالعوذة يتعوذ بها أمام الدهر. فوقوع سهم الزمان عنده على النسوان أمثل من وقوعه على الذكران، وهو يرى أن الله تعالى قد جعل في طي المحنة منحة وقد مزج الترحة بالفرحة فستر العورة من حيث سلب الأنس وكفى المؤونة من حيث جلب الفجيعة وأبقى الكبير وسلب الصغير. وهو يرى أن موت الابنة في مثل هذه الحال مصيبة من مصائب المجدودين، قال: (وإذا كان لا بد من عين تصيب طرفاً من أطراف الكمال ولا بد من عوذة يعوذ بها وجه الجمال، فلأن تكون الواقعة في الصغير خيراً من أن تكون في الكبير، ولأن يقع سهم الزمان على النسوان أمثل من أن يقع على الذكران، فالحمد لله تعالى الذي جعل في طي المحنة منحة، وزج الترحة بفرحة، فستر عورة من حيث سلب أنساً ونزهة، وكفى مؤونة من حيث جلب فجيعة وأبقى الكبير من حيث أخذ واحدة صغيرة، وجمل والدأ من حيث أكل والدة.. وهكذا تكون مصائب المقبلين المجدودين).

ولا يكاد يبعد عن الفكرة نفسها في رسالته التي كتبها إلى رئيس بهراء يعزيه فيها بابن أخته وبنته: في أن ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكرمات، وأن من زف كريمته إلى القبر فقد بلغ أمنيته من الصهر. إلا أن يكشف لنا في هذه الرسالة عن واقع المجتمع أو عن نظرتهم إليه.. فالتجابه فيه (على حد قوله) غريبة في رجاله عجيبة في نسائه، والعفاف معوز في الذكران معجز في الإناث، والعقل نادر في الشيوخ معدوم في الشبان. قال^(١): (فأما البنت رحمها الله تعالى فقد

(١) رسائل الخوارزمي ص ٢٠.

كانت في حياتها عفافاً وسترأً، ووفاتها ثواباً وذخراً، ولقد كانت في زمان النجاة في رجاله غريبة وفي نساته عجيبة، والعفاف في ذكرانه معوز وفي إنائه معجز. والعقل في شيوخه نادرة تفقد وفي شبابه ضالة لا توجد. . فالحمد لله الذي سترها بالحياء في حياتها وبالثواب بعد وفاتها) ثم قال: (والمستور عزيز في كل مكان ومحجب إلى كل إنسان وممدوح بكل لسان، فإن تكون خلقت أنثى لقد خلقت كريمة غير أنثى العقل والحسب. . .

ولولا ما ذكرته من سترها ووقفت عليه من غرائب أمرها لكنت إلى التهنتة أقرب من التعزية فإن ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكرمات ونحن في زمان إذا قدم أحدها فيه الحرمة فقد استكمل النعمة، وإذا زف كريمة إلى القبر فقد بلغ أمنيته من الصهر. .

وختم الخوارزمي الرسالة بأقوال للشعراء تؤكد النظرة التي ذهب إليها. وكثر دوران هذه الأغراض في الشعر والثر مع اختلاف في اللفظ واتفاق في المعنى إلا في القليل النادر.

فقد أورد الثعالبي رسالة^(١) في التعازي عن الحرم لم يخرج فيها عن المعاني التي سبق أن قدمنا نماذجها إلا في قوله: (ورجعت إلى شبابك مرحلة، فليس بشيخ من لا بنت له ولو كان ابن مائة سنة، وليس بشاب من وراءه بنت ولو كان ابن يوم وليلة) فالبنت عنده هي التي تجعل من أبيها شيخاً مسناً ربما لثقل التفكير في همها. . أو ربما لكونها أسبق في الزواج من الأبناء.

أما أبو العلاء المعري فلم يكن رأيه في ذلك بمختلف عن سابقيه وإن حمل في لزومياته على الأولاد جميعاً إلا أنه خص البنات بالذم فقال^(٢):

(١) سحر البلاغة وسر البراعة (١٢٢ - ١٢٣).

(٢) اللزوميات ١/٢٣٣.

وإن تعط الإناث فأى بوس تبين في وجوه مقسمات
يردن بعمولة ويردن حلياً ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب ولو من غارة متقشحات
ودفن والحوادث مفجعات لإحداهن إحدى المكرمات
وقد يفقدن أزواجاً كراماً فيا للنسوة المتأيمات
فهو يرى أن ولادة البنات بؤس أي بؤس لأنهن يردن البعولة،
ويكلفن آباءهن الحلي، ولأنهن لا يغنين في الغارات والحروب فدفنهن
إحدى المكرمات.

ولم تكن النظرة إلى البنات على أنهن ثقل وهمّ وغلّ في أعناق
الآباء بمستحدثه وإنما هي نظرة تقليدية قد يتسامى البعض عنها وقد
يرتفع فيخالف تلك النظرة وقد يلفه التيار التقليدي في الموقف منها..
وكتب الأخبار والأدب مليئة بما يدل على اختلاف المواقف وتباين
النظرات.

قيل^(١) إن المأمون أصيب بابتة له وكان يجد بها وجداً شديداً..
فجلس للناس وأمر أن لا يمنع منه أحد وأن يثبت عن كل رجل مقالته..
فدخل إليه فيمن دخل إبراهيم بن المهدي فقال: (يا أمير المؤمنين كل
مصيبة تعدتك شوى^(٢)) إذ كنت المنتقم من الأعداء ولك في رسول الله ﷺ
أسوة حسنة، فإنه عُرِّي عن ابنته رقية فقال: (موت البنات من
المكرمات)^(٣) فأمر له المأمون بمائة ألف درهم، وأمر أن لا يكتب شيء

(١) بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ص ١٠٥.

(٢) الشوى: الهين من الأمر. اللسان/شوا.

(٣) ورد هذا القول منسوباً للرسول ﷺ كذلك في قصيدة البحري في تعزيتة لأبي الحسن بن
الفرات عن ابته قال:

لقول النبي عليه السلام دفن البنات من المكرمات

بعد تعزيتة).

فالمأمون الخليفة رغم وجده الشديد بابنته المتوفاة . . ورغم جلوسه للناس وقبوله التعزية بها بما يثبت كل من المعزين من مقالة وقف عند التعزية التي قالها إبراهيم بن المهدي والتي ختمها بالقول: (موت البنات من المكرمات).

ولاحظنا في المجتمع نظرة أخرى هي نظرة الشفقة والرحمة إلى آباء البنات^(١) فكثيراً ما كانت الأيادي تمتد بسخاء لإعانتهم على تربيتهن أو تزويجهن.

قيل أن أبا جعفر المنصور (أمر بإعطاء بنات أبي زيد الست ثلاثين ألف دينار لكل منهن، وتزويجهن بأكفاء)^(٢).

ويبدو أن إعانة آباء البنات قد أصبح مجالاً للكسب والتندر لدى البعض . . إذ يروي صاحب الأغاني عن علي بن إسماعيل أنه قال^(٣):
(كنت أسقي أبا دلامة والسيد^(٤) إذ خرجت بنت لأبي دلامة فقال لها أبو دلامة:

فما ولدتك مريم أم عيسى ولا رباك لقمان الحكيم
ثم التفت إلى السيد وقال له: اجزيا أبا هاشم، فقال السيد:

وقد أشار الدكتور عبد اللطيف جاورك إلى أن هذا الحديث دائر على ألسن الناس وليس بالصحيح معتمداً على:

(كشف الخفاء ومزيل الإلباس) للمجلوني ٤٠٧/١.

(١) وهذا الموقف من آباء البنات قديم . . في المجتمع العربي وقد لاحظنا ذلك خلال حديثنا عن المرأة في المجتمع الجاهلي والإسلامي وينظر محاضرات الأدباء ٣٢٥/١.

(٢) تاريخ الطبري ٨/٨٤.

(٣) الأغاني ١٠/٢٥١ - ٢٥٢.

(٤) ربما يقصد السيد الحميري الشاعر.

ولكن قد تضمنك أم سوء إلى لبّاتها وأب لئيم
فضحك لذلك . . ثم غدا أبو دلالة إلى المنصور فأخبره بقصة بنته
وأنشده البيتين فقال له : بأي شيء تحب أن أعينك على قبح ابنتك
هذه . . فأخرج خريطة كان قد خاطها في الليل فقال : تملأ لي هذه
دراهم ، فملئت فوسعت أربعة آلاف درهم).

محبة البنات :

وهناك نظرة إنسانية إلى البنت خففت الكثير من التزمّت
والاستكراه لها . . وفي أقوال العرب الدلالة على ذلك . . قال محمد بن
جعفر^(١) : (البنات حسنات والبنون نعم ، والحسنات مثاب عليها والنعم
مسؤول عنها)^(٢) ، والمتأمل في هذا القول يجد أن آثار النظرة التقليدية
إلى البنت في أنها همّ وثقل . . خفية مستورة لا يكاد يظهرها النص . .
وإنما تحس بها من ورائه ، فاعتبارها حسنات يثاب عليها يقصد به إلى
أن تحمل تبعاتها وحسن رعايتها والرافة بها والعطف عليها ما يؤدي
بالآباء إلى استحصال الأجر والثواب .

وكانت هناك دعوات إلى عدم إنكار البنات وإلى حبهن ورعايتهن
إلا أنها لم تكن لتخلو من الإشارات الخفية التي تدل على استمرار
الجدور العميقة في نفوس الأفراد والمجتمعات بتفضيل الأبناء على
البنات . قال صاحب^(٣) :

إياك أن تنكر الإنثاء فكم أنثى غدت في فخارها ذكراً^(٤)

(١) محمد بن جعفر : ينظر الأعلام ٢٩٦/٦ .

(٢) محاضرات الأدباء ٣٢٥/١ .

(٣) صاحب بن عباد : وزير غلب عليه الأدب ، استوزره مؤيد الدولة بن بويه الديلمي . ينظر
الأعلام ٣١٢/١ وفيات الأعيان ٢٢٨/١ .

(٤) محاضرات الأدباء ٤١١/٢ .

فهو ينهى عن إنكار الإناث. . إذ كثيراً ما تغدو الأنثى مفخرة
وذكراً حسناً.

أما ابن المقفع فيوضح ذلك بقوله في كتاب إلى صديق له ولدت له
ابنة^(١): (بارك الله لك في الابنة المستفادة وجعلها لكم زيناً وأجرى لكم
عليها خيراً، فلا تكرههن، فإنهن الأمهات والأخوات والعمات
والخالات ومنهن الباقيات الصالحات. . ورب غلام ساء أهله بعد مسرة
ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم. وأنشد في ذلك:

سخطت بنية عما قليل تسرّبها عيون النساظرات
فبارك في فطيمة ربّ موسى وأنبتها نبات الصالحات
وزادك عاجلاً أخرى سواها بسخطك إذ سخطت على البنات

ورغم ما ذكرناه من مواقف سلبية من البنات على امتداد العصر
تشدد أحياناً وتخف أخرى تبعاً للظروف والأحوال، فقد رأينا الكثير من
المواقف التي صورها الأدب من التعاطف الرقيق بين الأب وابنته والذي
يعبر عن الكثير من البر والحنان، ومن ذلك ما قاله ابن يسير^(٢) مصوراً
عطفه على بنية له واصفاً حرصه على اقتحام المصاعب من أجل إسعادها
مبيناً أن سبب رغبته في العيش هو خوفه عليها من ذل اليتيم وجفوة الأهل
والأقارب. . وإنه ليشفق عليها من أن تسيل عبراتها عليه إذا ما مات
فتحز في نفسه الصورة فيجري دمه دماً لتلك الذكرى إشفافاً على ابنته
وحرصاً عليها أن لا يمسه سوء أو يصيبها مصاب. . .

(١) المحاسن والمساوي، ٣٧٧/٢ وجمهرة رسائل العرب ٥٧ واختيار المنظوم والمثثور ١٣/
٣٠٤.

(٢) ترجمته في الطبقات ص ٢٧٩، وقد علق ابن المعز على هذه الأبيات بقوله: ومما يستحسن
لابن يسير وسار له في العرب والمعجم قوله (الطبقات ٢٨١).

قال^(١):

لولا البنية لم أجزع من العدم ولم أجب في الليالي حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ وكنت أخشى عليها من أذى الكلم
إذا تذكرت بنتي حين تندبني جرت لعبرة بنتي عبرتي بدم
تهوى بقائي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم
أما عمارة بن عقيل^(٢) فقد صرح بعمق حبه الصادق لها وأنه قد
سرى في لب عظامه واختلط بلحمه ودمه . . وأنه حب خالص يتجدد مع
الأيام ولا يستطيع له كتماناً لأنها قد نزلت من فؤاده منزلة أحب وأكرم
شيء لديه قال^(٣):

حبك يا ذات الأنيق الأكشم^(٤) حب نساقاء مشاش^(٥) أعظمي
ودب بين كبدي ومحزمي وساطه^(٦) الله بلحمي ودمي
فليس بالمذق^(٧) ولا المكتم ولا الذي إن يتقدم يسأم

(١) ورد البيت مضافاً إليه بيت آخر هو:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم

وقد نب هذا البيت إلى إسحق بن خلف في محاضرات الأدباء ١/ ٣٢٦.

(٢) عمارة بن عقيل: شاعر مقدم من أهل اليمامة كان يسكن بادية البصرة ويزور الخلفاء من بني
العباس فيجزلون له صلته إلى أيام الواثق. الأعلام ٥/ ١٩٣.

(٣) ديوان عمارة بن عقيل: ٧٦.

(٤) الأكشم: الأنف الأكشم: المقطوع، اللسان/كشم، وأراد به الشاعر هنا: الأنف الصغير
وهو من دواعي الحسن.

(٥) مشاش العظم في اللسان: هو العظم لا مع فيه ونحسب أنه أراد هنا أن جها يسري في لب
عظامه.

(٦) ساطه: مزجه وخلطه.

(٧) المذق: الكذاب.

لقد نزلت في فؤادي فاعلمي منزلة الشيء المحب المكرم
وهذا أبو فراس الحمداني يذكر ابنته عند موته، فيواسيها ويطلب
إليها أن لا تجزع، وأن تكتفي بالنواح عليه دون أن تستهين بسترها
وحجابها . . فهو حريص على شرفها في مماته حرصه عليه في حياته . .
وهو بهذا يشير إلى عادة اجتماعية كانت سائدة وهي نبذ الحجاب في
المصائب وفي حالات الروح . . فيكتفي بأن يطلب إليها أن تنوح عليه
بهدهو وحسرة وأن تذكره بما هو أهل له . . قال^(١):

أبنيّتي لا تجزعي كل الأنعام إلى ذهاب
نوحى عليّ بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولي إذا كلمتني فعميت عن رد الجواب
زين الشباب أبو فراس لم يمتع بالشباب
ومما ورد من شعر التعاطف بين الأب وابنته قول نصيب الأصغر
وقد حبس باليمن مدة طويلة فلما أشخص إلى الخليفة المهدي في بغداد
ودخلت إليه ابنته حجناء ورأت قيوده بكت، فقال^(٢):

لقد أصبحت حجناء تبكي لوالد بدرّة عين قلّ عنه غناؤها
أحجناء صبراً كلّ نفس رهينة بموت ومكتوب عليها بلاؤها
أحجناء أسباب المنايا بمرصد فلا يعاجل غدرها فمساؤها
أحجناء إن أفلت من السجن تلقني حتوف منايا لا يرد قضاؤها
أحجناء إن أضحى أبوك ودلوه تعرّت عراً منها ورث رشاؤها
لقد كان يدلي في رجال كثيرة فيمتح ملأى وهي صفر دلاؤها
أحجناء إن يصبح أبوك ونفسه قصير تمنيتها طويل عناؤها

(١) يتيمة الدمر ١/١٠٣.

(٢) الأغاني ٢٢/٤٠٦.

لقد كان في الدنيا تغيّاً ظلها عليه ومجلوب إليه بهاؤها
ومن المواقف التي صورها الأدب مما يدل على احترام البنات
وقبول المشورة منهن والاستماع إلى آرائهن والأخذ والعمل بها . . ما
أورده البيهقي^(١) أنه: كان المأمون قد وجد على قائد من قواده
فاستصفى ضياعه وداره وأنهب دوابه وماله، وكان شيخاً فانياً ولم يكن
له من الولد إلا بنتٌ صغيرة فأجمع أن يضرب في الأرض ويطلب من
فضل الله عزّ وجلّ، ويخلف ابنته، فبكت الابنة وقبضت على أبيها
وقالت: اقنع بما أباك، واصبر على محن الزمان ونوائب الدهر، والزم
الوطن، وارحم وحدتي وضعفي وقلّة حيلتي أو اذبحني فلا أبتلى
بفراقك، فبكى الشيخ وقال:

نقول ابنتي لما أردت وداعها وقد حضرتني نية ورحيل
لعل المنايا في رحالك تنبري لنفسك ختلاً أو تغولك غول
فتتركني أدعى اليتيمة بعدما تبين وعزّي بعد ذاك ذليل
أفي طلب الدنيا وربك بالذي تشير له راع عليك كفيل
اليس ضعيف القوم يأتيه رزقه يساق إليه والبلاد محول
ويحرم جمع المال من قد يرومه يكذّ عليه رحله ويجول
فلو كنت في طود على رأس هضبة لها نجف^(٢) فيها الوعول ثقيل^(٣)
مصقّدة لا يستطيع ارتقاؤها ولا لمنزل يستطيع سبيل
إذاً لأنك الرزق يحدوه سائق حثيث ويهديه إليك دليل

قال: فنمي الخبر إلى المأمون فدعا بالشيخ واستنشدته شعره
فأنشده فرق له وأمر برد جميع ما أخذ منه، وأعاده إلى مرتبته وزاده من

(١) المحاسن والمساوي، ٣٧٨/٢ - ٣٧٩.

(٢) النجف: التل أو المرتفع من الأرض.

(٣) ثقيل: القائلة: نصف النهار، والفعل: قال: بقل (اللسان/قل).

عنايته . . ولا يعنيها من الخير صحته أو عدمها إلا أننا يمكننا أن نستنتج من النص الشعري مكانة الابنة في نفس أبيها الشاعر وكونها تتمتع بالعقل والحكمة في معالجة الأمور بحيث استطاعت أن تقنع أباهما وتصرفه عن تنفيذ ما كان قد قرره بشأن عقده العزم على الضرب في الأرض لطلب الرزق .

ولم تقتصر المواقف الإيجابية التي سجلها الأدب تجاه البنات في المجتمع العباسي على ما أوردناه فقط وإنما تعدته لدى البعض إلى السرور الذي يستدعي التهنئة بميلادها أو التعزية بوفاتها أو رثائها بقصائد وأبيات من أرق الشعر وأصدق، فمن ذلك ما قاله الشريف الرضي في مدح أخيه وتهنئته بمولوده^(١) .

الآن جاءت خيول السعد راكضة تجري بيوم مضيء الوجه مجدود
بمولد صقل الآباء حليته فطوق المجد أعناق المواليد
كانت شهاباً كسا ظلماء وضحا والليل يدخل في أثوابه السود
جاءت بها ليلة تشني سوافها في صدر يوم رشيق القد أملود
لله شمس علا جاءت بجوهرة غراء عن قمر بالمجد مسعود
ما عدت منك إلا نطفة سلكت إلى الأمان طريق الماء في العود

التعزية بوفاتهن :

وقال في تعزية أخيه عن وفاة ابنة له^(٢) :

ألا إن هذا الشاكل الحسب الذي به ثكل المجد التليد المناقبا
رمى في يمين الدهر درة سؤدد فأحج بها يحنو عليها الرواجبا

(١) ديوان الشريف ٣١٥ .

(٢) نفس المصدر، ١٥٧ .

وقد شئتَ فيها حادث الموت غارة ثنتنا ولم تطلع إلينا كتائب
 فلا تحسبن رزء الصغائر هيتنا فإن وجى الأخفاف ينضي الغواربا
 وواضح أننا لا نلحظ في هذه الأبيات تلك النظرة التي سبق أن
 تحدثنا عنها تجاه البنت والتي ذهب أصحابها إلى اعتبار ولادة البنت
 بلاءً وهمّاً، ووفاتها سترّاً وصوناً ونعمةً ومكرمةً وإنما هو موقف
 مختلف، فالمصائب بالبنت مصاب بعزيز. . وفقدانها مورث للحزن
 والألم والحسرة لأنها ركن من أركان العائلة وثمرة من ثمارها.
 قال ابن الرومي في عزاء عن ابنة^(١):

تمزيت عمن أثمرتك حياته ووشك التعزي عن ثمارك أجدر
 تعذر أن نعتاض من أمهاتنا وآبائنا والنسل لا يتعذر
 فلا تهلكن حزناً على ابنة جنة غدت وهي عند الله تحبى وتحبر
 وما هذه الدنيا بدار إقامة ولكنما الدنيا مجاز ومعبر
 ومن التعزية بالبنت ما قاله سلم الخاسر بين يدي المهدي معزياً
 إياه بابنته البانوك^(٢):

أودى ببانوك ريب الزمان مؤنسة المهدي والخيزران
 لم تنطو الأرض على مثلها مولودة جن لها الوالدان
 بانوك يا بنت إمام الهدى أصبحت في زينة أهل الجنان
 بكت لك الأرض وسكانها في كل أفق بين أنس وجان
رثاؤهن:

أما الرثاء فقد حظيت البنات منه بشيء غير يسير. فالشاعر بشار بن

(١) ديوان ابن الرومي ١/ ١٠٤.

(٢) الأغاني ١٩/ ٢٨٨.

برد رغم أنه لم يكن يهوى بنتاً - على حد قوله - استطاعت ابنته حينما بلغت الخامسة أو السادسة أن تحل في حشاه ففتت قلبه من الجوى حين ماتت، واستطاعت أن تحمله على الإقرار بأنه يفضلها على الغلام الذي لا نفع فيه ولا فائدة. قال^(١):

يا بنت من لم يك يهوى بنتاً ما كنت إلا خمسة أو ستا
حتى حلت في الحشى وحتى فتت قلبي من جوى فانفتا
لأنت خير من غلام بنتا يصبح سكران ويمسي بهتا
ولعل من أرق الرثاء وأصدق وأكثره دلالة على عمق العاطفة
وصدق اللوعة رثاء الشاعر الصنوبري لابنته ليلي. . وله في ذلك
قصائد^(٢) طوال تدل على شدة تعلقه بها وحبها لها ووحشته لفقدائها،
ولهفته عليها نذكر منها قوله في إحدى مرثياته يصف فيها حاله وقد
أصبح بعد وفاتها يجد الشفاء في إراقة الدموع إثر الجنائز. . ويرى
الأنس في المفاز والمقابر. . ويذكر لوعته لموتها وهي في عز الصبا
وتركها إياه يكابد هزاهز الشيب وآلامه. ثم يبين أن قدحه كان خائباً لأنه
كان يتمنى أن يقدم عليها وتبقى ويمتد بها العمر حتى تحسب في
العجائز. قال^(٣):

وأصبح مذ أصبحت ليلي جنازة أبوك مراق الدمع إثر الجنائز
يرى الأنس إلا بالمقابر وحشة ويعتد أن الفوز سكنى المفاز
مضيت بأثواب الصبا وتركتني تهزهنني للشيب أيدي الهزاهز
وكان سروري أن أكون مقدماً وتبقي إلى أن تحسبي في العجائز
كذا كان قدحي فائزاً حين كنت لي فأصبح قدحي خائباً غير فائز

(١) الأغاني ٢٢٤/٣ وديوان بشار.

(٢) ديوان الصنوبري: ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥، ١٤٣، ٢٦٤، ٥١٤.

(٣) المصدر نفسه، ١٤٣.

وقال من قصيدة أخرى يصف وقوفه على قبرها وبكاءه حوله
وحده عليه حذب الممرض للمريض، وكيف أنه يترك مضجعه آخر الليل
لتذكره خشونة مضجعها، ثم يصبر نفسه ويواسيها بأن موتها قدر لأنها
كانت قرصاً لا بد أن يسترده الدهر، وهيئات له أن يصبر:

أدور على جوانب قبر ليلي وأبكي حوله بدم فضيض
أراعي قبرها حذباً عليه مراعاة الممرض للمريض
ويترك مضجعي أخرى الليالي قضياً ذكر مضجعها القضيض
أواحدتي رددت وكنت قرصاً وهذا الدهر مردود القروض
فكم أقرحت من قلب قريح عليك وهضت من عظم مهيض
وكم غادرت من طرف كليل وكم غادرت من طرف غضيض
وبعض الصبر ينهض حين يكبو وصبري عنك ليس بذئ نهوض^(١)

وقال يذكرها في شهر رمضان واصفاً كيف كانت أنسه في الليل
والنهار، وكيف كانت تقضي الليل عاكفة على الدعاء وقراءة القرآن...
ثم يعود ليقول والحسرة تملأ نفسه بأنها ماتت فلا صيام ولا فطور ولا
سحور ولا أهبة للعيد...

قال^(٢):

يا ابنتي أين غبت عن رمضان وقد حضر
فلقد كنت أنسنا في عشاياه والبكر
ولقد كنت بعثت نورم لياليه بالسهر
واعتكاف على الدعاء أو الدرس للسهور
يا أبي ليس عند من مات علم ولا خبر

(١) ديوان الصنوبري ٢٦٤.

(٢) نفس المصدر، ١٠٣.

لا هلال الصيام ير عى ولا الفطر ينتظر
لا فطور ولا سحر ر لنا إن ذنا السحر
لا ولا أهبة لميد حلا العيد أو أمر
درست يا أبي المحر ماسن وانمحت الصور
لقد ملأت عليه فكره وشغلته عن كل شيء وعصاه الصبر فيها،
فصار لا يفكر إلا بها، ولا يتحدث إلا عنها.

ولعل من المفيد أن نشير إلى وصفه لها بالورع والتقوى فهي فيما
صور لنا حريصة على الصيام تبيع النوم في ليالي رمضان بالسهر
والاعتكاف على الدعاء وقراءة القرآن ودراسة سوره... وهي صورة تمثل
نموذجاً من النماذج النسوية التي عرفت في العصر العباسي.

الشمم بالبنات:

ونال البنات من ظلم الشعراء أنهن اتخذن غرضاً للهجاء والشمم
إذا ما وقعت الخصومة وكان آباؤهن طرفاً فيها.

فقد هجا ابن الرومي رجلاً يدعى خالداً بابنته وزوجته فقال إنها
مجهولة الأب وأن ميلادها فاسد مدخول^(١):

انظر إلى بنتك يا خالد يخبرك عن غائبك الشاهد
معروفة الأم ولكنها لم يتركك لم يعرف لها والد
إلا فراش غير ما طاهر ينتابه الصادر والوارد
وهجا أبا يوسف بقبح ابنته حتى لكأنها القرد أو الشيطان.
وبمزاولتها الرذيلة ومساومة أبيها عليها، وامتناع ابن الرومي عنها لأنه
لم يرد أن يجمع بين الخنزير والميتة، وكلاهما محرم مذموم، فقال^(٢):

(١) ديوان ابن الرومي ٤٥٥/٣.

(٢) المصدر نفسه ١٧٤/٢.

لأبي يوسف بنت لبيته أعقم لبيته
تشبه القرد أو الشيد طان إن كنت رأيت
قلت لما سامنيها بعض من يالف بيته
أزنا وابنة يعقوب أخنزيرومبيته؟
وهكذا رأينا الموقف من البنت مختلفاً متبايناً تؤثر فيه وتوجهه
الظروف والمجتمعات المحلية المختلفة . . . وتلونه أحوال الأشخاص
الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية وغيرها .

الفصل الثاني

الأم في الأدب

ولقد بدت صورة الأم في أدب العصر العباسي مختلفة السمات والملامح تبعاً لاختلاف الظروف وتباين النظرة إليها وتباعد مواقف القائلين فيها . .

ولعل أهم الأغراض التي بدت فيها صور الأم هي الرثاء والمديح والهجاء .

الرثاء :

وأكثر ما وردت الأمهات على السنة الشعراء في الرثاء، ولعل من أصدق الرثاء وأجمل الوفاء للأمهات قصيدة الشريف الرضي في والدته السيدة فاطمة بنت الناصر التي قال فيها^(١) :

أبكبك لو نقع الغليل بكائي وأقول لو ذهب المقال بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل تعزياً لو كان بالصبر الجميل عزائي
طوراً تكاثرتني الدموع وتارة أوي إلى أكرومتني وحيائي
كم عبرة مؤهتها بأناملي وسترتها متجملاً بردائي
أبدي التجلد للعدو ولو درى بتململي لقد اشتفى أعدائي
ما كنت أذخر في فداك رغبة لو كان يرجع ميت بفداء

ثم يستمر في وصف حزنه وعدم تماسكه وتحمله، ونسيانه التعزز والإباء وثلمة الوقار من شدة الأسى . ويصف أمه بالعفة والزهادة

(١) ديوان الشريف الرضي ٢٦/١، وبتمة الدهر ٣/١٥٠.

فيقول :

أنضيت^(١) عيشك عفة وزهادة وطرحت مشقة من الأعباء
بصيام يوم القبط تلهب شمس وقيام طول الليلة الليلاء
ما كان يوماً بالغيبين من اشترى رغد الجنان بعيشة خشناء
وهو يفضلها عن الآباء لأن أمثالها يغنين عنهم بالفضل والمعروف
والعمل الصالح الذي بقي ماثلاً في الحياة يقرّ عيني الشاعر ويثير حنينه
إليها . . . يقول :

لو كان مثلك أم برة غني البنون بها عن الآباء
كيف السلو وكل موقع لحظة أثر لفضلك خالد بإزائي
فعلات معروف تقرّ نواظري فتكون أجلب جالب لبكائي
ما مات من نزع البقاء وذكره بالصالحات يعدّ في الأحياء
ثم يعدد مواقفها معه وكيف كانت تقيه النوائب وتموله إن ضاقت
ذات يده وتعوله في أدوائه وتواسيه في نكباته :

فبأي كيف استجن^(٢) وأتقي صرف النوائب أم بأي دعاء
ومن الممول لي إذا ضاقت يدي ومن المعلن لي من الأدواء
ومن الذي إن ساورتني نكبة كان الموقفي لي من الأسواء
شهد الخلائق أنها لنجيبة بدليل من ولدت من النجباء
في كل مظلم أزمة أو ضيقة يبدو لها أثر اليد البيضاء
ثم يمدح آباءها فيقول :

أباؤك الفرّ الذين تفجرت بهم ينابيع من النعماء

(١) أنضيت : أخلقت وأبليت ، اللسان : نضا .

(٢) استجن : استتر ، وكل شيء ستر عنك فقد جنّ عنك ، اللسان / جنن .

من ناصر للحق أو داع إلى سبل الهدى أو كاشف الغمّاء
 نزلوا بعرعر السنام^(١) من العلى وعلوا على الأنباج^(٢) والأمطاء
 من كل مستبق اليدين إلى الندى ومسدد الأقوال والآراء
 يرجى على النظر الحديد تكرماً ويخاف في الإطراق والإغضاء
 درجوا على أثر القرون وخلفوا طرقاً معبدة من العلىاء
 ولا يخفى أن الشريف الرضي برثائه، وبتعداده لمناب أمه يكشف
 لنا عن هذا النموذج الأصيل للمرأة العربية التي حسن منبتها وحسنت
 رعايتها فكانت كما قال امرأة ذات صلاح وفعال وسداد .

ولا يمكن أن تكون هذه السيدة وحيدة عصرها بهذه الصفات
 والمنزلة . . ولا بدّ أن لها مثيلات في المجتمع العباسي وإنما أتيح لها
 ولداها الشريف الرضي ليكشف لنا عنها . .

وشاعر آخر بثّ أحزانه بموت أمه، وهو ابن الرومي، إلا أنه لم
 يبلغ مبلغ الشريف الرضي في ذلك . . قال^(٣) :

رأيت طويل العمر مثل قصيره إذا كان مفضاه إلى غاية تؤم
 تضععه الأوقات وهي بقاؤه وتغتاله الأوقات وهي له طعم
 يريد المعزي براء كلمي بوعظه ولم يك غير الله يبريء ما كلم
 هو الواهب السلوان والصبر وحده لذي الرزء والمهدي الشفاء لذي السقم
 ولست أراني مذهلي عنك مذهل يد الدهر إلا أخذه الموت بالكظم
 طوى الموت أسباب المحابة بيننا فلست وإن أطنبت فيك بمتهم
 رجعنا وأفردناك غير فريدة من البر والمعروف والخير والكرم

(١) عرعر السنام (بالضم): رأسه وأعلاه وغاريه (اللسان/عرعر).

(٢) الأنبا: جمع نبع ونبع كل شيء: وسطه وأعلاه (اللسان/نبع).

(٣) ديوان ابن الرومي ٣١/١.

فلا تعدمي أنس المحل فطالما عكفت فأنست المحاريب في الظلم
ويبدو أن خالة له كانت قد ماتت قبل أمه فرثاها بقوله^(١) :

ألا ليست الدنيا بدار فلاح بعينيك صرعاها مساء صباح
لنا من كلا العصرين ساق كلاهما يدور فيسقيننا بكأس ذباح
أراني وأمي بعد فقدان أختها وإن كنت في رفه بها وصلاح
كفرخ قطاة الدوّ بان جناحها فبات إلى خفق بغير جناح
أما الصنوبري^(٢) فيرثي أمه ويذكر معاناتها للمرض قبل وفاتها ..
وكيف أن أناتها كانت تودع قلبه جمرة محرقة وإن كان يتمنى لو حمل
عنها شكواها لأنه كان يحمل أسهم الشكوى في كبده .. وقد كشف لنا
في أبياته عن عمق حبه وصدق وفائه، قال :

قد صوّحت روضتي المونقة وانتزعت دوحتي المورقة
باب إلى الجنة ودعته مذرأيت الموت قد أغلقه
لا يبعدن مشواك يا أم ما أبعد مشواك وما أسحقه
قد صدق الموت الذي لم أزل أحذره فيك وقد حَقَّقَه
يقلق أحشائي على مضجعي تذكري أحشاءك المقلقة
وحملك السقم وأعباءه في جسد أضعف من بروقه
لله أم ما ينني حزنها مجدداً أحزاني المخلقة
كم أودعت أذني من أنثة تودع قلبي جمرة محرقة
ومن تشكُّ كنت أولى به أسهمه في كبدي مطلقه
أقول والأنفاس قد صاعدت في الصدر منها وهي كالمطرقة
يا للمنايا كيف أنجو بها من كربها وهي بها محدقة

(١) ديوان ابن الرومي ٨٠/١.

(٢) ديوان الصنوبري ص ٤٤٢.

من تتحامي أن ترى ظلمة أسكنتها في ظلم مطبقه
ومن تضيق الأرض في عينها أهديتها للحفرة الضيقة
ما مهجة جرت فضمنتها من الثرى غير الضمين الشقه
ورغم أن شعر الصنوبري وابن الرومي صادق في عاطفته، إلا أنه
لم يستطع أن يقدم لنا صورة للمرأة الأم كالصورة الرائعة التي قدمها لنا
الشريف الرضي. . ولا شك أن لكل منهم شأنًا، فأم الشريف شريفة
جليلة في قدرها ونسبها ومكانتها وعملها. وأما أم الصنوبري وابن
الرومي فليس هناك كما يبدو إلا عاطفة الوفاء والمحبة للأمم ليس
إلا. .

وهناك ذكر للأمهات ورثاء لهن وتعداد لفضائلهن على السنة
الشعراء في مجال التعزية والمواساة لا في مجال الإصابة بأمهاتهم. .
فمن ذلك قصيدة المتنبي^(١) في رثاء والده سيف الدولة الحمداني، حيث
يصفها بالصفات السامية كالكرم، فيقول:

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال
على المدفون قبل التراب صوناً وقبل اللحد في كرم الخلال
سقى مشواك غاد في الفوادي نظير نوال كفك في النوال
وينعتها بالمجد^(٢):

أسائل عنك بعدك كل مجد وما عهدي بمجد عنك خالي
يمرّ بقبرك العافي^(٣) فيبكي ويشغله البكاء عن السؤال

(١) شرح ديوان المتنبي ١٤٤/٣.

(٢) شرح ديوان المتنبي ١٤٦/٣.

(٣) العافي: السائل وطالب المعروف.

ثم يصفها بالعفة والصدق والكتمان فيقول^(١) :

حصان مثل ماء المزن فيه كتوم السرّ صادقة المقال^(٢)

ثم يميزها عن الإناث ويضعها في صف الرجال . . بل يفضلها عليهم فيقول :

وليست كالإناث ولا اللواتي تعدّ لها القبور من الحجال^(٣)
إلى أن يقول :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضّلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال
فهو يرى أنه لو كانت النساء كهذه المرثية في الكمال لفضلن على
الرجال ولم تزر بها الأنوثة كما لا يزري بالشمس تأنيث اسمها ولا يزيد
الهلال فخراً تذكير اسمه .

وممن عزى بوفاة الأم وقال شعراً في رثائها أبو أحمد يحيى بن
علي المنجم الذي عزى الموفق بأمه (إسحق الأندلسية) حيث قال^(٤) :

عزاء فإن الدهر يعطي ويسلب وصبراً فللدنيا صروف تقلّب
وما جازع إلا كآخر صابر إذا لم يكن مما قضى الله مهرب
على أنه لا يملك القلب لوعة الـ فراق كما لا تملك العين تسكب
إذا كان سهم الموت لا بد صائباً فللصبر أولى بالكريم وأصوب
ثم قال :

(١) شرح ديوان المتنبي ١٤٧/٣ .

(٢) الحصان: العفيفة .

(٣) الحجال: جمع حجلة، وهو بيت صغير في جوف البيت يسر النساء .

(٤) معجم الأبناء ١٣٥/٦، ونساء الخلفاء ٨٣، والمستطرف من أخبار الجوّاري ١٠، والرواني بالوفيات ٤٣٢/٨ .

لقد أظلمت بغداد عند وفاتها كإظلامها للشمس ساعة تغرب
 فولت وولى الحمد يتبع نعشها ويصدق من يشني عليها ويندب
 وما مات من أبقي الأمير ومن له من الفضل ما يعزى إليها وينسب
 تقدّمها إياك بعد بلوغها المند في فيك ما كانت من الله تطلب
 فقد أعطيت في ذا وذلك سؤلها وباتت كما بات الحيا المتحلب
 فأحسن عزاء وابق فينا مسلماً مفدى من الأسواء ترجى وترهب
 فإن الرزايا ما تخطاك سهمها ليسهل مأتاها وإن كان يصعب
 وعن المبرد أنه لما توفيت والدته القاضي إسماعيل رأيت من وجهه
 ما لم يقدر على ستره وكان كل يعزیه وقد كان لا يسلو فسلمت عليه ثم
 أنشدته:

لعمري لئن غال ريب الزمان نساء لقد غال نفساً حبيبه
 ولكن علمي ما في الشواب عند المصيبة ينسي المصيبة
 ففتفهم كلامي واستحسنه ودعا بدواة وكتبه ثم انبسط وزالت عنه
 الكآبة.

المديح:

وورد ذكر الأمهات في مجال المديح، ولعل الخليفة الأمين هو
 أكثر من مدح بأمه زبيدة ابنة جعفر المنصور فيما بين يدينا من شعر...
 وقد علمنا فضلها وشرفها وبعد نظرها حتى لقد عدها الجاحظ^(١) من
 ضمن الأمور التي اجتمعت للرشد ومما لم يجتمع لغيره.
 وقال سلم الخاسر في العهد للأمين^(٢):

(١) تاريخ الخلفاء/٢٨٦.

(٢) تاريخ الخلفاء ٢٩١.

قل للمنازل بالكثيب الأعفر أسقيت غادية السحاب الممطر
 قد بايع الثقلان مهديّ الهدى لمحمد بن زبيدة بنة جعفر
 قد وفق الله الخليفة إذ بنى بيت الخلافة للهجان الأزهر
 فهو الخليفة عن أبيه وجده شهدا عليه بمنظر وبمخير
 ويبدو أن الدافع إلى مدح الأمين بأمه إضافة إلى كونها حرة كونها
 من بني هاشم وإلى ذلك أشار الشاعر أبو الغول إذ يقول^(١):

ملك أبوه وأمّه من نبعة منها سراج الأمة الوهاج
 شربت بمكة من ذرى بطحائها ماء النبوة ليس فيه مزاج
 ولما حجت أم جعفر زبيدة لقيها النصيب فترجل عن فرسه وأنشأ
 يقول^(٢):

سيستبشر البيت الحرام وزمزم بأم ولي العهد زين المواسم
 ويعلم من وافى المحضّب أنها ستحمل ثقل الغرم عن كل غارم
 بنو هاشم زين البرية كلها وأم ولي العهد زين لهاشم
 سلبية أملاك تفرعت الذرا كرام لأبناء الملوك الأكارم
 يظن الذي أعطته منها رغبة يقص عليه الناس أحلام نائم
 قيل . . فأمرت له بعشرة آلاف درهم وفرس فأعطيه بلا سرج -
 فتلقاها لما رحلت وقال:

لقد سادت زبيدة كلّ حي وميت ما خلا الملك الهماما
 تقى وسماحة وخلوص مجد إذ الأنساب أخلصت الكراما
 إذا نزلت منازلها قريش نزلت الأنف منها والسناما

(١) مروج الذهب ٣/٣٩٦ وقد ورد البيتان على لسان أشجع في الأغاني ١٨/١٥٦.

(٢) الأغاني ٢٢/٤١٩.

بلغت من المفاخر كل فخر وجاوزت الكلام فلا كلاما
وأعطيت ألها لكن طرفي يريد السرج منكم واللجاما^(١)
فأمرت له بسرج ولجام.

وواضح أن الشاعر قد مدحها بصفات لو نسبت إلى سادة الرجال
لشرفتهم. فهي سليلة المجد والسؤدد والسماحة والتقى، وهي التي
تحمل الغرم عن الغارمين وتمنح الهبات والعطايا التي تفوق حدود
التصور، بل هي سيدة الأحياء - خلا الملك - وسيدة الأموات قد بلغت
من المفاخر غايتها وجاوزت صفاتها ما يسعه الكلام.
وقال أبو نواس يمدح الأمين ويذكر أمه^(٢):

إن الخليفة لم تزل تزهو وتفخر بالأمين
جاءت به ابنة جعفر قمر جلا ظلم الدجون
مهدية خير النساء كذا ابنها خير البنين
فاله يبقيه ويبقيها لنا حقب السنين
وقال مروان بن أبي حفصة وكأنه قد جعلها في كفة ميزان وجعل
النساء جميعاً في الكفة الأخرى رجحت عليهن بالتقى^(٣).
رجحت زبيدة والنساء شوائل والله أرجح بالتقى ميزانها
ومدح ابن هرمة محمد بن عبدالله بن الحسن المعروف بالنفس
الزكية بكون أمه حرة فقال^(٤):

(١) ألها: جمع اللهوة وهي العطية، والطرف: الفرس الكريم.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٤١١.

(٣) المحاسن والمساوىء ١٥٣/٢.

(٤) ديوان ابن هرمة، ص ٢٣٥.

ما غيرت وجهه أم مقصرة إذا القتام تغشى أوجه الهجن
المواساة:

وتجري الأمهات على السنة الشعراء في أشد حالات المحنة
والضيق فقد كتب أبو فراس إلى والدته من الأسر وقد ثقلت جراحه^(١)
بيها أشجانه ويواسيها ويصبرها على مصابها به قصيدة جاء فيها قوله:

وإن وراء الستر أمًا بكأوها عليّ وإن طال الزمان طویل
فيا أمتًا لا تعدمي الصبر إنه إلى الخير والنجع القريب رسول
فيا أمتًا لا تحبطي الأجر إنه على قدر ذي الصبر الجميل جزيل
تأسي كفاك الله ما تجدينه فقد غال هذا الناس قبلك غول
وكتب إليها قوله^(٢):

لولا المعجوز بمنبج ما خفت أسباب المنية
ولكان لي عما سألت من الفدى نفس أبيه
لكن أردت مرادهما ولو انجذبت إلى الدنية
أمت بمنبج حرة بالحزن من بعدي حرة
فيها التقى والدين مجموعان في نفس زكية
لا زال يطرق منبجاً في كل غادية تحيه
يا أمتًا لا تحزني وثقي بفضل الله فيّه
يا أمتًا لا تيأسي لئه الطاف خفيه
أوصيك بالصبر الجميل ل فإنه خير الوصية

(١) البيمة ٧٨/١ ٧٩.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

الشتم بالأم:

وقد تقع الخصومة بين الشعراء وتشتد وتقوى فتكون المرأة هي الضحية في ذلك وتكون حصيلتها سباً وشتماً وكلاماً فاحشاً ينسب إليها حقاً أو باطلاً. . وربما كانت الأم أكبر مجال للشتم والهجاء فمن ذلك قول ابن الرومي يهجو الأخفش^(١):

ألا قلّ لنحويك الأخفش أنت فاقصر، ولا نوحش
وما كنت عن غية مقصراً وأشلاء أمك لم تنبش
تحديث صلاً وفي نفسه نذير فاقلع ولم تنهش
ثم يقول:

وما أحد جاء من أمه بأعجب من ناقد أخفش
أسيود جاءت به قرده سويداء غادية المفرش
كان سنا الشتم في عرضه سنا الفجر في السحر الأغيش
أنت بك أمك من أمة فإن كنت أعمى فلا تطرش
ويختتم قصيدته في هجائه بقوله:

وما كل من أفحشت أمه تعرّض للقذع الأفحش^(٢)
وقال في هجاء أبي بكر الحريشي يهجو^(٣) بضعف نسبه وبكذبه في
انتمائه إلى العرب أو العجم. . ويأن أمه كتمت عليه آباءه لكثرة من كان
يغشاها من القوم. . وهو هجاء مقذع وسيلته هذه الأم المشؤومة التي
تفنن ابن الرومي في نسبة الخزي والعار إليها:

(١) الأخفش: التحوي من أهل بغداد كان كثير المزاح والمجون في كلامه ونظمه، الأعلام ٧/ ١٣.

(٢) ديوان ابن الرومي ٢٦٧/٢ - ٢٦٩ و ٢٩١/٢.

(٣) ينظر هجاؤه له في ديوانه وذكره لأمه ٩٢/١ و ٩٣/١.

للحريثي أبي بكر غيب وله قرنان أيضاً وذنب
 فإذا ما قال: أنا عجم قال قرناه جميعاً قد كذب
 وإذا ما قال: أنا عرب دفعت ذاك ولم ترض العرب
 ما ترى لابن حريث حسباً أترأه جاء من بيض الترب
 كنمنه أمه آباءه فلهذا أنكر القوم النسب
 لينها أنبتته عن آبائه فلقد صور في خلق عجب
 لم تزل عرس حريث مركباً لجميع الناس تحنى للركب
 لك وجه محكم صنعتته ما ترى عَقَب إلا بعقب
 جثة الكشحان تنبي أنها جمعت نطفتها من ألف أب^(١)

ويستمر في سبه بأفحش الكلام ثم يقول:

أنا لا أشتتم إلا أمه فليزدني غضباً فوق غضب
 وليقل ما شاء في شتمي له إن طبعي شتمة لا مكتسب
 ما لمن يفخر في أنسابه ولعيب الشعر من أهل الأدب
 إن يكن يطلب شتمي أمه فلقد نال الذي مني طلب
 كلكم آل حريث عرة لعن الله حريشاً وكنب^(٢)

وهجا خالد القحطبي^(٣) وإبراهيم البيهقي^(٤) وغيرهما^(٥) بأمھاتھم
 هجاء فاحشاً مقذعاً لا يتسع المجال لذكره وإنما نكتفي بالإشارة إليه.

ومن شعراء الهجاء الذين اتخذوا من الأمهات موضوعاً للسب

(١) ديوان ابن الرومي ٣/٣٢٨.

(٢) المصدر نفسه ٣/٣٢٩.

(٣) ينظر ديوان ابن الرومي ١/١٢٩ و ٣/٣٣٦.

(٤) ينظر ديوان ابن الرومي ٣/٣٣٧ و ٢/٢٠٣.

(٥) ينظر ديوان ابن الرومي ٢/٢٠٢ و ١/١٤٤ و ١/١٢٩.

والشتم الحكم الخضري^(١) والرماح بن أبرد^(٢) المعروف بابن ميادة .

قال الحكم الخضري في هجاء ابن ميادة^(٣) :

وما لك فيهم من أب ذي دسيعة^(٤) ولا ولدتك المحصنات الكرائم
وما أنت إلا عبدهم إن تربهم من الدهر يوماً تشتريك المقاسم
ثم يسب أمه سباً فاحشاً لا يسمح المجال بذكره .

وقيل إن ابن ميادة وكان محرّضاً للشعر طالباً لمهاجاة الشعراء
ومسابة الناس ، كان يضرب بيده على جنب أمه ويقول^(٥) :

اعرنزمي^(٦) مباد للقفوافي واستسمعيهن ولا تخافي
وقد هجا الحكم الخضري ابن ميادة بأمه في بعض قصائده بأمر
كانت وما تزال مستهجنة في المجتمع وهي الإضرار بالجيران والشح
والبخل فقال^(٧) :

يا بن النسي جيرانها تضر وتبغ الشول^(٨) وكانت تمتصر^(٩)

(١) الحكم الخضري : شاعر معاصر لابن ميادة .

(٢) الرماح بن أبرد : واشتهر بابن ميادة . شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية . وقيل
إنه عاش في أيام هشام بن عبد الملك وبقي إلى زمن المنصور ، الأغاني ٢/٢٣٦ .

(٣) الأغاني ٢/٢٢٨ .

(٤) الدسيعة : كرم الفعل ، وقيل مائدة الرجل إذا كانت كريمة .

(٥) الأغاني ٢/٢٢٩ والشعر والشعراء ٢/٦٥٥ وطلقات ابن المعتز ص ١٠٧ .

(٦) أعرنزمي : اعرنزم : تجمع وتقبض ، واعرنزم الشيء : اشتد وصلب . اللسان/اعرنزم .

(٧) الأغاني ٢/٢٥٦ .

(٨) الشول من اللبن : البقية في الضرع : اللسان/شول .

(٩) التمر : حلب بقايا اللبن في الضرع بعد الدر ، وصار مستعملاً في تتبع القلة/اللسان/
شول .

ومما هجا به عبدالرحمن بن جهيم الأسدي^(١) ابن ميادة بأمه كثرة عملها فقال بأنها مدامة الكعبين خشنة الأطراف غليظتها لم تعرف كفاها خضاباً ولم تشرق ثيابها بعطر... .

ولا شك في أن الشاعر يشير بذلك إلى أنها ليست من المخدمات المرفهات، قال^(٢):

لقد كذب العبد ابن ميادة الذي ربا وهي وسط الشول تدمى كعابها
شربثة^(٣) الأطراف لم يقن^(٤) كفها خضاب ولم تشرق بعطر ثيابها
وقال أبان بن عبد الحميد اللاحق في أبي نواس ثلاثة أبيات سارت في الدنيا يهجو فيها بأمه^(٥):

أبو نواس بن هاني وأمه جـلـبـان
والناس أفطن شيء إلى حروف المـمـاني
إن زدت بيتاً على ذي ما عشت فاقطع لساني

ومن المظاهر الاجتماعية الواضحة في العصر العباسي كره التزوج بالأرامل . . وقد امتدت هذه الظاهرة إلى أبناء الأرامل فأثرت فيهم بمواقفهم السلبية من أزواج أمهاتهم . . فبعد أن كان المجتمع يسيغ للأم أن تتزوج بعد وفاة زوجها . . فيجتمع أبناء الأرملة الواحدة لعدة آباء

(١) عبد الرحمن بن جهيم الأسدي: شاعر عباسي .

(٢) الأغاني ٢/ ٢٩٤ .

(٣) الشربث: الغليظ الكفين، وفي الصحاح والرجلين، وفي المحكم والقدمين لخشنهما .
اللسان/ شربث .

(٤) يقن: يصبغ .

(٥) طبقات ابن المعتز ٢٤١، والعصر العباسي الأول/ ٣٣٣، وطبقات ابن المعتز، وقيل إن هذه الأبيات قالتها عنان في هجائه .

وورد له في الأغاني ٢٣/ ٢٢ هجا أبان في أبي نواس بأمه، وهو من الهجاء الفاحش .

فيفخر كل منهم أمام أخيه بنسب أبيه وصفاته وأعماله فلا يشير ذلك أي شعور في نفوسهم بل ولا يشير أي امتعاض حتى في نفس زوجها الأخير الذي وقف ابنه أمامه يفخر إخوته به^(١).

نرى أن الأبناء في العصر العباسي صاروا يخجلون من زواج أمهاتهم وصار الناس يعزرونهم بذلك ويجعلون منهم مواطن التندر والسخرية، فمن ذلك رسالة الخوارزمي إلى مسكويه وقد تزوجت أمه^(٢).

(وبلغني ما اختارته الوالدة صانها الله تعالى فحمدت الله تعالى الذي رزقك والدأ لا يلزمك حق أبوته، ووعدك أخأ لا يحملك حمل أخوته، وقد كنت أسأل الله تعالى أن يبارك لك في حياتها، والآن أسأله أن يعجل لك بوفاتها فإن القبر أكرم صهر، وإن الموت أستر ستر، ولا تذهب نفسك حشرات على ما سبقك عليه الدهر وغلبك عليه الرزق فلا حمية فيما أحل الله ولا مضايقة من حيث وسع الله، وللإنسان أباء والحمد لله الذي كان العقوق من جهتها، ووقع الجفاء من جنبتها، فإنك بررتها صغيراً وبلغت مرادها كبيراً، فاجتمع لك برآن ووقع لك على الله أجران).

وواضح أن الرسالة تنطوي على التندر والسخرية وعدم استساغة زواج الأم^(٣).

وقال أبو الفرج البيهقي^(٤):

(١) كانت أسماء بنت عميس قد تزوجت ثلاثة من سراة المسلمين هم جعفر بن أبي طالب وأبو بكر وعلي بن أبي طالب وولدت من كل منهم ألف باء البلوى ٥٧٨/٢.

(٢) رسائل الخوارزمي ص ١٧٣.

(٣) قال الخوارزمي في ذم شخص: (يا نظر إلى زوج الأم على الريق).

(٤) أبو الفرج البيهقي: عبدالواحد بن نصر بن محمد المخزومي.

(وجرى بحضرة الأمير سيف الدولة ذكر رجل تزوجت أمه من أصحابه، وحديث الترسل والكتابة فقال لي: اكتب الساعة على البريد رقعة عن نفسك إلى هذا الرجل تعزیه بتزويج أمه. فكتبت رقعة^(١) بين يديه ارتجالاً وحفظتها:

(من سلك سبيل الانبساط، لم يستوعر مسلكاً في المخاطبة فيما يحسن الانقباض في ذكر مثله، واتصل بي ما كان من أمر الواجبة الحق عليك المنسوبة بعد نسبتك إليها، إليك، ومن الله صيانتها في اختيارها ما لولا أن الأنفس تتناكره، وشرع المروءة يحظره لكنت في مثله بالرضا أولى وباعتداد بما جده الله من صيانتها أخرى. فلا يسخطنك من ذلك ما رضيه موجب الشرع، وحسنه أدب الديانة فمباح الله أحق أن يتبع، وإياك أن تكون ممن إذا عدم اختياره سخط اختيار القدر له والسلام).

والذي يشير إليه الكاتب بوضوح وصراحة أن الأنفس تتناكر لزواج الأم، وأنه رغم إباحة الله وتحسين الشرع له فإن شرع المروءة يحظره ويأباه...

ومما قيل في زواج الأم قول صاحب بن عباد في رجل تزوجت أمه^(٢):

عذلت لتزويجه أمه فقال فعلت حلالاً يجوز
فقلت حلال كما قد زعمت ولكن سمحت بصدع العجوز
وقال أيضاً^(٣):

زوجت أمك يا فتى وكسوتني ثوب القلق

(١) نشوار المحاضرة ٢/ ٢٦٤.

(٢) أخلاق الوزيرين ص ٢٨٣.

(٣) يتيمة الدهر ٣/ ٢٧٣.

والحرّ لا يهدي الحرّ م إلى الرجال على طبق
وستناول خلال حديثنا عن موقف المجتمع من زواج الأرملة
بصورة عامة هذه الظاهرة الاجتماعية بصورة أوفى وأوسع . . .

الفصل الثالث

الزوجة في الأدب

الموقف من الزواج:

وتباينت المواقف واختلفت الأقوال في الزواج والزوجات فكانت النظرة المتعلقة التي تحرص على الحياة الزوجية وتقدس الزواج وتؤكد على حسن الاختيار وتنظر إلى الزوجات نظرة الاحترام والود . . وكانت تقابلها في ذلك الجانب الصاخب العايب من المجتمع النظرة التي ترى في الزواج عبثاً ثقيلاً وهماً مستديماً وترى في الزوجات شريكات مستقبحات الشركة مستكراهات العشرة سيما بعد مرور السنين ونضوب سمات الجمال والشباب . . وما حاجة أمثالهم إلى الزوجات ومجتمعهم يعج بالإماء الحسان ويزخر باللذة الرخيصة المبذولة . .

وقد بدت آثار هذين الموقفين المتباينين في أقوالهم وأشعارهم وأخبارهم . . فهناك إشارات كثيرة إلى تفضيل التزوج بالحرائر على التسري بالجواري ننقل منها قول بعضهم^(١): (لا تغترس من تداولتها أيدي النخاسين ووقع ثمنها في الموازين) أو قولهم: (لا خير في بنات الكفر وقد نودي عليهن في الأسواق ومرت عليهن أيدي الفساق) وكانوا يقولون في أمثالهم: (الجواري كخبز السوق والحرائر كخبز الدور)^(٢) وقال الشاعر يحث على التزوج من الحرائر ونبد الجواري:

إذا لم يكن في منزل المرء حرة رأى خللاً فيما يولى الولائد

(١) المحاسن والأضداد ص ٣٠٠.

(٢) المحاسن والأضداد ص ٣٠٠.

فلا يتخذ منهم حر قعيدة فهن لعمر الله شر القعائد^(١)
أما أولئك الذين كانوا يرون في الزواج غلاً ووثاقاً وعبثاً فقد
كانت دوافعهم إلى ذلك متعددة مختلفة نستفيد منها بين أيدينا من
نصوص... منها المهر الغالي الذي يرهق كاهل طالب الزواج، ومنها
صعوبة توفير أسباب المعيشة للعيال، ومنها الانغماس في العبث
والتحلل والاستهتار.

يحدثنا صاحب الأمالي عن أعرابي من ضبة قدم البصرة فخطب
امراًة من قومه فشطوا عليه في المهر فأنشأ يقول^(٢):

خطبت فقالوا هات عشرين بكرة ودرعاً وجلباباً فهذا من المهر
وثوبين مرويين في كل شتوة فقلت الزنى خير من الجرب القشر^(٣)
فواضح أن الذي صرف هذا الأعرابي من الزواج إلى الزنى هو
غلاء المهر وكثرة تكاليف الزواج.

ولما قيل للشاعر العتابي^(٤) لو تزوجت! أجاب: (إني وجدت
مكابدة العفة أيسر علي من الاحتيال لمصلحة العيال)^(٥) فقد أثر العتابي
مكابدة العفة على الاحتيال لمصلحة العيال لأنها أيسر عنده وأهون
عليه.

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٩٩ وفي البيت (أقواء).

(٢) الأمالي ١/ ٢٨٣.

(٣) الجرب: بثر يعلو أبدان الناس والإبل: اللسان/ جرب.

وقشره: سحا لحاهه أو جلده، وفي الصحاح نزعته عنه قشره وهو كتابة عن كثرة الطلبات إلى حد
تعريته من المال.

(٤) العتابي: شاعر محسن وكاتب في الرسائل مجيد عاصر الخليفة المأمون، ترجمته الأغاني
١٠٧/١٣.

(٥) الأغاني ١٣/ ١١٤.

أما أبو نواس الشاعر العايب فإنه يرفض الزواج لا لمهر أو عيال وإنما لأنه استطاب حياة التحلل والمجون والعبث فلا يريد أن يرعوي أو يرتدع، قيل إن أهله دسوا عليه امرأة^(١) لترغبه في الزواج فعرضت عليه فتاة ذات جمال ومال فكان جوابه لها^(٢):

أقول لها لما أتتني تدلني على امرأة موصوفة بجمال
أصبت لها يا أخت فحلاكما اشتهدت إذا اغتفرت مني ثلاث خصال
فمنهن فسق لا ينادى وليده ورقة إسلام وقلعة مال
ولو أنها في الحسن كانت كيوسف وبلقيس أو كانت كخط جمال
وقالت تزوجني على مهر درهم لقلت أغربي عني فمهرك غالي
وقيل إن أهله ما زالوا به حتى زوجه^(٣) جارية جميلة من أهل بيته
إلا أنه طلقها بعد ليلة وأنشأ يقول فيها:

صاحبة القرقر لا تشغبي^(٤) تحملي طالقة واذهبني
مري فكم مثلك من حرة رائحة لم تك من مطلبي
وربما شاع مثل موقف أبي نواس من الزواج لدى الكثيرين من
أمثاله ممن يفضل المتعة العابرة بالنفقة الخفيفة والمؤونة القليلة فكانوا
يقولون: (من أراد قلة المؤونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع
الحشمة فعليه بالإماء دون الحرائر) وكان بعضهم يقول: (عجبت لمن
استمتع بالسراري كيف يتزوج المهائر، ويقول: السرور باتخاذ
السراري)^(٥).

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ١٠٧/١ - ١٠٨.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٣١٢، وأخبار أبي نواس (لأبي هفان) ص ٢٧، وألحان الحان ٢٨٥.

(٣) ألحان الحان ص ٢٨٤، وأخبار أبي نواس (لابن منظور) ١٠٦/١.

(٤) القرقر: لباس خاص بالنساء: تشغبي: تهبي الشر.

(٥) المحاسن والأضداد ص ٢٩٩.

ومع ذلك فإننا نلاحظ أن أبا نواس عندما يشعر بذنبه ويرجو الرحمة والغفران يقف موقف المتعقل يدعو إلى اتخاذ الزوجات الصالحات فيختلف موقفه من الزواج ربما خلال ومضات طارئة من الإيمان تمس قلبه ثم لا تلبث أن تهرب من واقعه الأليم، فقد قال^(١):

أية نار قدح القادح وأي جسد بلغ الممازح
للّه در الشيب من واعظ وناصح لو سمع الناصح
يأبى الفتى إلا اتخاذ الهوى ومنهج الحق له واضح
فاسم بعينيك إلى نسوة مهورهن العمل الصالح
لا يجتلي الحوراء من خدرها إلا امرؤ ميزانه راجح
من اتقى الله فذاك الذي سيق إليه المتجر الرابع
وربما أقبل بعضهم على الزواج مكرهاً لأنه رآه أمراً لا بد منه
كالذي وقع للعباس بن الأحنف الذي يوضح ذلك في مخاطبته لحبيته
فوز حينما حالت عن عهدها القديم له بعد زواجه لأنها اعتبرت ذلك ذنباً
قال^(٢):

إلى الله أشكو أن فوزاً تغيرت وحالت عن العهد القديم فأنهجا
وقد حسبت ذنباً علي تزوجي فقلت كلانا مذنب قد تزوجا
كلانا على ما كان من ذاك مكره يحاول أمراً لم يجد منه مخرجاً
كلانا مشوق أنضج الشوق قلبه يعالج جمرأ في الحشا متأججا
وقد حفل الشعر في العصر العباسي بالكثير من المشاعر المختلفة
المتباينة تجاه الزوجات، فتعددت المواقف، وبدت صور ذلك في
الأغراض الشعرية المختلفة.

(١) ديوان أبي نواس ص ٦١٨، وزهديات أبي نواس ص ٣٧.

(٢) ديوان العباس بن الأحنف ص ٧١.

إلا أن من المفيد أن نبين أن ما بين أيدينا منه لم يستطع أن يكشف لنا عن تلك العاطفة الجياشة القوية من الحب الخالص التي كانت تربط بين الزوج وزوجته في العصر الأموي، لقد كانت صورة الزوجة في الشعر بصورة عامة متأثرة إلى حد بعيد بالتيارات والأحوال الاجتماعية، ولهذا لاحظنا أن صفة الإشراق والوضوح والقدرة على التأثير قد خفت كثيراً في العصر العباسي مما كانت عليه صورة الزوجة الحرة في العصر الأموي، فلم نعد نستمع إلى أناشيد الوفاء والثبات على العهد للزوجة في حياتها بالنعمة التي أسمعنا إياها الطرماع عندما فارق زوجته حولاً كاملاً مؤكداً وفاءه لها زاعماً أنه منذ فارقها، لم يعط قلبه وحبه لغيرها^(١):

كفى حزناً يا سلم أن كنت داعياً بكرمان بي حول ولم أتسرح
 أنام لألقى أم سلم وريما رماني الكرى بالزائر المتزحزح
 ويا سلم ما أربحت إن أنا بعثكم بدنيا وكم من تاجر غير مربح
 ثم يصف لها ما تفعله الذكرى به وكيف أنها كانت تصرفه عن
 غيرها من النساء اللاتي يتحبن إليه:

كأن فؤادي بين أظفار طائر إذا سنحت ذكراك من كل مسنح
 وذكراك ما لم تسعف الدار بيننا تباريح من عيش الحياة المبرح
 أغار على سلمى لسلمة خاليا ولو عرضت لي كل بيضاء بيدح
 تملح ما استطاعت ويغلب دونها هوى لك ينسي ملحة المتملح
 وما وصلكم بالثرى يا سلم فانعمي صباحاً ولا بالمستعمار الممنح
 وإنما صرنا نستمع إلى لون آخر من أناشيد السلو وإثارة الغيرة مما
 انعكست فيه ألوان المجتمع بكثرة غلمانة وجواريه وبتفشي روح التحلل

(١) ديوان الطرماع ٩٧٠.

وعدم الثبات، وقد بدأت هذه الظاهرة بالتوسع منذ توسع الفتوحات في العصر الأموي وما فتئت تقوى وتشتد كلما تقدمنا إلى العصر العباسي .

فقد خرج رجل مع قتيبة بن مسلم^(١) إلى خراسان وخلف امرأة جميلة يقال لها (هند) ولبت هناك مدة طويلة فاشتري جارية اسمها (جمانة) فوَقعت الجارية منه موقِعاً فأنشأ يقول^(٢) :

ألا لا أبالي اليوم ما فعلت هند إذا بقيت عندي الجمانة والورد^(٣)
شديد مناط المنكبين إذا جرى وبيضاء صنهاجية، زانها العقد
فهذا لأيام الحروب وهذه لحاجة نفسي حين ينصرف الجند
كما تغير الصوت إلى حد ما لدى المرأة الزوجة نفسها فبعد أن كنا
نستمع إلى صوتها الذي أسمعنا إياه عمر بن أبي ربيعة لامرأة بلغها أن
زوجها قد تزوج بأخرى^(٤) :

خبروها قد تزوجت فظلت تكاتم الغيظ سرا
ثم قالت لأختها ولأخرى جزعاً: لبتّه تزوج عشرا
وأشارت إلى نساء لديها لا ترى دونهن للسرسرا
ما لقلبي كأنه ليس مني وعظامي كأن فيهن فترا
من حديث نما إليّ فظيع خلّت في القلب من تلظيه جمرا
استمعنا إلى صوت (هند) التي سلا زوجها واستعاض عنها

(١) قتيبة بن مسلم: أمير فاتح له الفتوحات كثيرة، كخوارزم وسمرقند وغزا أطراف الصين، تولى إمارة خراسان زمن عبد الملك بن مروان وأقام بها ثلاث عشرة سنة (الأعلام ٢٨/٦ ووفيات الأعيان ٨٦/٤).

(٢) دولة النساء ٥٩٨.

(٣) الورد: اسم لفرس.

(٤) ودولة النساء/ ٦٠١.

(بجمانة) الجارية، فقالت حينما نمي إليها شعر زوجها^(١):

ألا أقره مني السلام وقل له غنينا بفتيان غطارفة^(٢) مرد
بمحمد أمير المؤمنين أقرهم شباباً وأغزاكم حواقله^(٣) الجند
إذا شئت غناني غلام مرجل ونازعني من ماء معتصر ورد
فما كنتم تقضون من حاج أهلكم شهوداً قضيناها على النأي والبعد
فعجل علينا بالسراح فإنه منانا ولا ندعو لقلوبك بالرد
فلا قفل الجند الذي أنت فيهم وزادك رب الناس بعداً إلى بعد
وأكبر الظن أن (هنداً) هذه لم تكن صادقة في دعواها باتخاذها
الغلام المرجل - على حد قولها - في غياب زوجها، وإنما قصدت بذلك
إلى إثارة غيخته وحميته^(٤)، إلا أنها مع ذلك أباحت لنفسها أن تدعي
هذه الدعوى، وإني لألمح حتى في مجرد الادعاء على هذه الصورة شيئاً
من آثار التحلل الاجتماعي...

ولكن هذا لا يعني اختفاء غيرة النساء على أزواجهن... وفي كتب
التاريخ إشارات إلى أن المرأة قد تبلغ بها الغيرة من الجوارى إلى حد
الجنون بقتل الزوج^(٥) والتوصل بأنواع المكائد والحيل لصرف الرجل
عن التعلق بجارية.

(١) دولة النساء/٥٩٨.

(٢) غطارفة: الغطريف: السيد الشريف والسخي السري، ج الغطارفة (القاموس المحيط).

(٣) حواقله: الحوقل: الشيخ الضعيف.

(٤) وتمة الخبر أنه: (لما ورد كتابها لم يزد الزوج على أن ركب فرسه وأردف الجارية ولحق
بها، فكان أول شيء بدأ به بعد السلام أن قال: بالله هل كنت فاعلة، قالت: الله أجل في
قلبي وأعظم وأنت في عيني أذل وأحق من أن أعصي الله فيك؟ فكيف ذقت طعم الغيرة؟
قيل: فوهب لها الجارية وانصرف - دولة النساء/٥٩٨.

(٥) تاريخ الطبري ٢٤٦/٨.

ورغم ذلك فقد كانت هناك بعض المواقف التي صورها شعر العصر تعبر عن تأصل العلاقة الزوجية وصدق المحبة، وقد بدأ أكثر ذلك في رثاء الزوجات:

رثاء الزوجات:

ولعل من أجود ما رثيت به النساء وأشجاء وأشدّه تأثيراً في القلب وإثارة للحزن قول محمد بن عبد الملك الزيات في زوجته (سكرانة أم عمر) مصوراً في رثائه لها لوعته وهو يرى طفله تسيل دموعه ويبحث بعينيه عن أمه في هدأة الليل وقد رأى الأمهات يناجين أطفالهن فقال^(١):

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تبتدران^(٢)
رأى كل أم وابنها غير أمه يببتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تحشه^(٣) بلابل قلب دائم الخفقان
ثم قال:

ألا إن سجلاً^(٤) واحداً إن أرقته من الدمع أو سجلين قد شفياني
فلا تلحيانني إن بكيت فلنما أداوي بهذا الدمع ما تريان
وإن مكاناً في الشرى خط لحده لمن كان في قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى فهل أنتما إن عجت منتظران^(٥)

(١) العمدة ١٥٦/٣ وديوان محمد بن عبد الملك الزيات ص ٦٧.

(٢) تبتدران: تسيلان بالدموع، اللسان/بدر، وقد وردت في الديوان تنسكان.

(٣) تحشه: في ديوانه: تجنه.

(٤) السجل: الدلو الضخمة المملوءة ماء (اللسان/سجل).

(٥) ديوان محمد بن عبد الملك الزيات ص ٦٧ والعمدة ١٥٦/٣.

ومن أشجى الشعر قوله في هذه القصيدة:

فهبني عزمت الصبر عنها لأنني جليد فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الأجر حسبة ولا يأتسي بالناس في الحداث
ألا من أمنيته المني فاعده لعشرة يا أمي وصرف زماني
ألا من إذا ما جئت أكرم مجلسي وإن غبت عنه حاططني ورعاني
فلم أر كالأقدار كيف تصيبني ولا مثل هذا الدهر كيف رماني
ولا مثل أيام فجمعت بمعدها ولا مثل يوم بعد ذاك دهاني
أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتي فبئس إذن ما في غد تعداني
أعيني أن أنع السرور وأمله وعهد الرضى عندي فقد تغياني
أعيني إن أبك البشاشة والصبا فقد أذنا مني وقد بكياني
ألا إن ميتاً لم أزره لشد ما تلبس من قلبي به وعناني
ألا إن ميتاً لم أزره لعز ما تضمن منه في الثرى الكفنان
ولعل البيتين اللذين قالهما في زوجته أم عمر من أصدق وأروع ما
 قيل في الوفاء للزوجة والإخلاص لها . . قال^(١):

يقول لي الخلان لو زرت قبرها فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر
على حين لم أحدث فأجهل قدرها ولم أبلغ السن التي معها الصبر
ومن جيد الرثاء أيضاً قول مسلم بن الوليد في زوجته وكان قد
جزع على موتها جزعاً شديداً أو تنسك مدة طويلة وعزم على ملازمتها
ذلك، فأقسم عليه بعض إخوانه أن يزوره ففعل فأكلوا وقدموا الشراب،
فامتنع منه مسلم وأباه وأنشأ يقول^(٢):

بكاء وكأس كيف يتفقان سبيلهما في القلب مختلفان

(١) ديوانه ص ٢٨ - ٢٩ والأغاني ٤٧٣/٢٢.

(٢) الأغاني ٣٤٢/١٨.

دعاني وإفراط البكاء فلأنني أرى اليوم فيه غير ما تريان
غدت والشرى أولى بها في وليها إلى منزل ناء لعينك داني
فلا حزن حتى تذرف العين ماءها وتتعترف الأحشاء للخفقان
وكيف بدفع اليأس للوجد بعدها وسهماهما في القلب يعتلجان

أما ابن الرومي فيرثي امرأته رثاء المحب الوفي، ولكنه حائر بين
البكاء والصبر والإمساك عنه، لأنه يعلم أن الأسى والبكاء كالداء
والدواء فهو يرى أن من صدق الوفاء وصحته أن يترك داءه وحزنه بوفاء
زوجته لأنه لا يريد دواء لدائه ولأنه لا يريد العيش بعدها فيقول^(١):

عينني سحا ولا تسحا جل مصابي عن البكاء
ترككما الداء مستكناً أصدق عن صحة الوفاء
وما ابتغى الدواء إلا بغيا سبيل إلى البقاء
ومبتغي العيش بعد خل كاذبة خلة الصفاء

إلا إنه لا يلبث في أبيات أخرى أن يستدر دموع عينيه عليها لأنه
يستكف أن يزيد عليه غيره في البكاء، ولأنه حريص على أن يذيب عينيه
أسى وبكاء. قال^(٢):

عينني جودا على حبيبكما بالسجل فالسجل من صبيبكما
فاستغزرا درة الشؤون على بدركما بل على قضيبكما
هذا فؤادي والرزء رزؤكما يبكي له غير مستثيبكما
فاستنكفا أن يكون غيركما أبكى لما فات من نصيبكما

(١) ديوان ابن الرومي ٣٠٥/٢.

(٢) ديوان ابن الرومي ٣٠٥/٢.

ولديك الجن^(١) في رثاء زوجته^(٢) قصائد كثيرة^(٣) اخترنا منها قوله في مناجاتها وبيان لوعته وحسرتة على وفاتها . . مشيراً إلى لوم الناس له ببيكانها بعد قتلها ، مشبهاً فعلته هذه بصياد الطيور يذبحها ثم يبكي عليها . . قال^(٤) :

أساكن حفرة وقرار لحد مفارق خلة من بعد عهد
أجبنني إن قدرت على جوابي بحق الود كيف ظللت بعدي
وأين حللت بعد حلول قلبي وأحشائي وأضلاعي وكبدي
أما والله لو عاينت وجددي إذا استعبرت في الظلمات وحدي
وجد تنفسي وعلا زفيرتي وفاضت عبرتي في صحن خدي
إذاً لعلمت أنني عن قريب ستحفر حفرتي ويشق لحدي
ويعذلني السفيه على بكائي كأنني مبتلى بالحزن وحدي
يقول قتلنها سفهاً وجهلاً وتبكيها بكاء ليس يجدي
كصياد الطيور له انتحاب عليها وهو يذبحها بحد
وكان أبو حية النميري^(٥) تزوج ابنة عم له فتوفيت عنه وكاد يخرج

(١) ديك الجن: هو عبدالسلام بن رغبان. شاعر مجيد من شعراء العصر العباسي سمي بديك الجن لأن عينيه كانتا خضراوين (الأعلام ٤/١٢٨).

(٢) كان ديك الجن قد اشتهر بجارية نصرانية اسمها (ورد) هويها وتنادى به الأمر حتى دعاها إلى الإسلام ليتزوج بها فأجابته وتزوجها . . وقيل إن خصومة بينه وبين ابن عم له حملت ابن العم على إذاعة خيانة ورد لزوجها مع غلام خلال سفر زوجها لبعض أعماله، فلما عاد الزوج من سفره وعلم بالخبر قتلها . . ثم بلغه الخبر على حقيقته واستيقنه فندم ومكث أكثر حياته يتحسر على فعلته ويرثيها بالقصائد الكثيرة.

(٣) الأغاني ١٤/٥٣ ٥٨.

(٤) الأغاني ١٤/٥٧.

(٥) توفي عام ١٦٠هـ.

عليها من الدنيا، وقد ذكر ابن المعتز^(١) أن (أشعاره الجياد كلها فيها وفي وصفها في حياتها، ومراثيها بعد مماتها).

ومما يستحسن له قوله فيها^(٢):

ألا حي من بعد الحبيب المغانيا لبسن البلى مما لبسن الليالي
إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاء شيء لا يمل التقاضيا
وقوله متحسراً على ذكرياته الماضية معها:

تجود لك العينان من ذكر ما مضى إذا ضن بالدمع العيون الغوارز
الوفان ينهلان من غصص الهوى كما انهل شق غيبته الجوارز^(٣)
يهيج لي نوح الحمام صباة ونوح مرنات سجتها الجنائز
لتفريق آلاف كأن عيونها عيون المها جازت بهن الأماعر
أولئك من بعد اجتماع من الهوى تصدع شعب بينهم فتمايزوا
تركن بقلبي إذ ناين حرازة أبت أن تجلى إذ تجلى الحزازز
ولا حاجة بنا إلى أن نشير إلى ما في هذه الشواهد من حرارة
العاطفة وحدثها وقوتها، وما في لغتها من أصالة وابتعاد عن التكلف
فالعواطف والألفاظ تنساق انسياقاً طبيعياً كتدفق الماء الصافي من
الينبوع العذب.

وتردد ذكر الزوجات في مجال التعزية بوفاتهن إلا أن الشعراء لم
يزيدوا على ما قيل في التعزية بالمرأة الأم أو الأخت أو الأبنة، فإن أهم

(١) طبقات ابن المعتز ص ١٤٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٤٤.

(٣) المصدر السابق ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٤) الجوارز: الأرض الجرز: التي لا نبات بها كأنه انقطع عنها المطر اللسان/ جرز.

الصفات التي تنسب إليها لا تتعدى العفة والبر والزهد والتقوى^(١)، فمن ذلك قول الصنوبري يعزي أبا الحسين الهاشمي بفقد زوجته بقصيدة طويلة نذكر منها قوله^(٢):

كريمة ضمننتها بقعة كرمت أكرم بها بقعة تشناقها البقع
تلك التي شيعتها في خلائقها إلى البلى شيع ما مثلها شيع
ناحت على البر والتقوى نوائحها وكفن الزهد في الأكفان والورع

التعاطف مع الزوجات:

ومن المواقف التي صورها الشعر في العصر العباسي ما يدل على قوة الأصالة في العلاقة الزوجية التي تفصح عن العواطف التي يبثها الشاعر حين يذكر زوجته . . فمن ذلك ما قاله القاسم بن يوسف^(٣) في رثاء أولاده مشيراً إلى أن سلوته الوحيدة التي بقيت إلى جانبه تشاركه الحزن الطويل والعزاء هي زوجته لبابة . . قال^(٤):

هلك البنون محمد ومحمد ومحمد
وردوا موارد سبلهم ولكل نفس مورد
واستأثرت بهم المنية والمنية موعود
تأبى المنية أن يكسو ن على الزمان مخلص
إلى أن يقول:

(١) وقد ينسب إليها العلم والمجد كما رأينا ذلك في رثاء المتنبى لأخت الأمير سيف الدولة الحمداني (انظر ص ١٤٦).

(٢) ديوان الصنوبري ص ٣٤١.

(٣) القاسم بن يوسف: هو أخو أحمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون توفي في نحو (٢٢٠هـ) عرف من بين شعراء عصره بكثرة رثائه للبهائم، الأوراق ص ١٦٤ والأعلام ٢٢/٦.

(٤) الأوراق ص ٢٠٤.

هل لي على الحزن الطو يل سوى لبابة مسعد
 ثكلي بواحدما فليس لها ا عليه تجلد
 وكان بين ضلوعها جمر الغضا يتوقد
 الباب إن الصبر أنفع في الأمور وأحمـد
 الباب كيف بقاء نفس كل يوم تكـمـد
 الباب إن الصبر أبقي لـلـلـه وأرشد

ويعصور الشعر مواقف بين المرأة وزوجها يتبين منها حرص المرأة
 على أن لا يفرط زوجها بالمال أو أن يسعى إليه ويبذل جهده لكسبه من
 موارد، فتكون محاورة لطيفة بين الرجل وامرأته هذه تحته على الإمساك
 عن الكرم خشية على أطفالها من الحاجة وهذا يريد أن يفرق ماله في
 الحقوق ليحصل على المجد والثناء فلا يحتمل أن يمر به ضيف فلا يلقي
 عنده ما يستحقه حتى ولو ترك أطفاله في أمس الحاجة . . ثم ينتهي إلى
 أن يصبر على التمسك بطبعه . . فإن شئت الزوجة بقيت عنده على هذه
 الحال وإلا فلا يهمه أن تكون من بعض الغاضبين عليه . .

وهذه المحاورة ليست جديدة على الشعراء، وتكاد تكون لازمة من
 لوازم الفخر عند الكرماء منذ العصر الجاهلي . . وكثيراً ما ردها
 الشعراء الجاهليون ولا سيما حاتم الطائي . . وقد ظلت ملازمة
 لموضوعات الفخر عبر العصور . . قال دعبل الخزاعي في ذلك^(١):

قالت سلامة أين المال قلت لها المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
 الحمد فرق مالي في الحقوق فما أبقيين ذماً ولا أبقيين لي نشبا
 قالت (سلامة) دع هذي اللبون لند ا لصبية مثل أفراخ القطا زغبا
 قلت: احبسيها ففيها متعة لهم إن لم ينخ طارق يبغي القرى سغبا

(١) ديوان دعبل ٥٦/١.

لما احتبى الضيف واعتلت حلوبتها بكى العيال وغنت قدرنا طربا
هذي سبيلي وهذا فاعلمي خلقي فارضي به أو فكوني بعض من غضبا
أما امرأة العتابي - الذي يبدو أنه قد طلق عفة العزوبة المزعومة
فتزوج - فتحت على كسب المال والسعي وراء الغنى لأنها تريد أن ترفل
بالثراء إلا أن الشاعر لا يريد أن يقدم على المخاطر لأنه يخشى نتائجها
فيضرب لها مثلاً بجعفر ويحيى بن خالد، وما نالاه من مال وعز وجاء،
ثم ما انتهى إليه أمرهما من غضبة أمير المؤمنين والقضاء عليهما . .
ولهذا فهو حريص على أن تغيثه ميته مطمئنة دون أن يتجشم الأهوال
والمخاطر قال^(١):

تلوم على ترك الغنى باهلية زوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رات حولها النسوان يرفلن في الثرا مقلدة أعناقها بالقلائد
أسرك أني نلت ما نال جعفر من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنين أغصني مخصهما بالمشركات البوارد
رايت رفيعات الأمور مشوبة بمستودعات في بطون الأساود
دعيني تجشني ميتتي مطمئنة ولم أتجشم هول تلك الموارد
وقد يقع الزوج في ضائقة فتشير عليه زوجته بأن يستعين بإخوانه
على تحسين حاله كالذي حصل لأبي شراة^(٢) حيث سقطت دار له فلما
عجز عن بنائها أشارت زوجته بأن يستعير مالا من إخوته إلا أنه رفض
وأبى أن يريق ماء وجهه فقال^(٣):

تلوم ابنة البكري حين أووبها هزبلاً وبعض الأنبيين سمين

(١) الأغاني ١٣/١٢٢.

(٢) الأغاني ٢٢/٤٣٩.

(٣) الأغاني ٢٢/٤٣٥.

وقالت لحاك الله تستحسن العرا عن الدار إن النائبات فنون
 وحولك إخوان كرام، لهم غنى فقلت لإخواني الكرام عيون
 ذريني أمت قبل احتلال محلة لها في وجوه السائلين غضون
 سأفدي بمالي ماء وجهي إنني بما فيه من ماء الحياة ضنين
 ومثله حديث مفداة إلى زوجها عمارة بن عقيل^(١) حينما رأت أرقه
 وكثرة همومه لما وقع به من عدم بعد أن فرق أمواله في الأقربين
 والأباعد... فأشارت عليه بأن يطلب منهم أن يردوا إليه بعض ما كان
 يسديه إليهم... إلا أنه رفض مشورتها وقال^(٢):

قالت مفداة لما أن رأت أرقى والهم يعتادني من طيفه لم
 نهبت مالك في الأدينين آصرة^(٣) وفي الأباعد حتى حفك العدم
 فاطلب إليهم ترى ما كنت من حسن تسدي إليهم فقد باتت لهم صرم^(٤)
 فقلت عدلك قد أكثرت لائمتي ولم يمت حاتم هزلاً ولا هرم

التزوج طمعاً بالمال:

ويكشف لنا الشعر عن الكثير من الصور الاجتماعية التي لم يكن
 العصر العباسي خلواً منها، كالتزوج بالمرأة الموسرة طمعاً بالمال. أو
 التزوج بائنتين وبيان مشاكل الرجل في هذا الزواج، ولوم من يقدم على
 التزوج بالأرملة أو الخصومات التي تحدث بين الزوجين والتي قد تنتهي
 في بعض الأحيان إلى الطلاق... أو همسات الضجر من عشرة بعض
 الزوجات وصيحات الكره والسخرية من بعضهن الآخر... وغيرها من

(١) عمارة بن عقيل: طبقات ابن المعتز: ٣١٦ والأغاني ١٨٣/٢٠، ٤٢٤/٢٣.

(٢) الأغاني ١٨٤/٢٠.

(٣) الآصرة: الرحم (اللسان/أصر).

(٤) صرم: جمع صرمة، وهي القطعة من النخل أو القطعة من الإبل. (اللسان/صرم).

المواقف والمشاعر التي حفل بها الأدب في العصر العباسي ننقل منها النماذج التي توضح هذه الصور .

فمن ذلك قول السري الرفاء في هجاء رجل يدعى (ابن حسان) من عدول الموصل وكان قد تزوج امرأة موسرة بإرث ملكته فاستولى على ذلك الإرث وراح رخي البال يعث بأموالها . . وراحت هي تعاني العوز والحرمان قال^(١) :

ومالكة إرثاً حوى الإرث دونها وقد أملكته النائبات قيادها
فراحت وما امتدت إلى الزاد كفها وراح رخي البال يأكل زادها
أو قول أبان اللاحقي في هجاء رجل جار له من ثقيف يسمى (محمد بن خالد) وكان شديد العداوة له . . ويبدو أنه حسده لتزوجه من عمارة^(٢) بنت عبد الوهاب الثقفي وكانت كثيرة المال . . فقال قصيدته يصف فيها ما أعد للعرس من زينة وفرش وحلوى ومن مغنين وموسيقيين . . ثم أخذ يحذرهما منه ويصف لها قبحه وبخله ويحجب إليها الفرار منه^(٣) .

لما رأيت البز والشارة والفرش قد ضاقت به الحارة
واللوز والسكر يرمى به من فوق ذي الدار وذو الدارة
وأحضروا الملهين لم يتركوا طبلاً ولا صاحب زماره
قلت لماذا قيل أعجوبة محمد زوج عماره

(١) ديوان السري الرفاء ص ١٠٠ .

(٢) عمارة بنت عبد الوهاب الثقفي وهي مولاة جنان التي يشبب بها أبو نواس ويقول فيها :

خرجت تشهد الزفاف جنان فاستمالت بحسنها النظارة

قال أهل العروس لما رأوها ما دها نابها سوى عماره

(٣) الأغاني ٢٣/ ٣١ - ٣٢ والأوراق ص ٢٤ والعصر العباسي الأول ص ٣٣١ .

لا عمر الله بها بيته ولا رأتته مدركاً ثاره
 ماذا رأت فيه وماذا رجت وأسود كالسفود ينسى لدى
 وهي من النسوان مختاره التنور بل محراك قياره^(١)
 يجري على أولاده خمسة أرغفة كالريش طياره
 وأهله في الأرض من خوفه إن أنرطوا في الأكل سيّاره
 ويحك فري واعصبي ذاك بي فهذه أختك فراره
 إذا غفا بالليل فاستيقظي ثم اطفري إنك طفاره

وفي كتب الأخبار إشارات إلى مثل ذلك منها ما يذكره ابن
 الجوزي عن القاضي (أبو الحسين بن عتبة) أنه قال: (كانت لي ابنة عم
 موسره وتزوجتها فلم أوثرها لشيء من الجمال ولكنني كنت أستعين
 بمالها وأتزوج سرّاً... إلخ)^(٢).

تعدد الزوجات:

وظاهرة اجتماعية أخرى نقلها لنا أحد الأعراب وكان قد اغتر
 بقول سمعه من أحدهم وهو أنه من لم يتزوج بامرأتين لم يذق حلاوة
 العيش فتزوج ثم ندم فأنشأ يقول^(٣):

تزوجت اثنتين لفرط جهلي بما يشقى به زوج اثنتين
 فقلت أصير بينهما خروفاً أنعم بين أكرم نعتين
 فصرت كنعمجة تضحي وتمسي تداول بين أخبث ذئبتين
 رضا هذي يهيج سخط هذي فما أعزى من إحدى السخطتين

(١) القيارة: ما يوضع فيها القار.

(٢) الأذكياء ص ١٢٢.

(٣) الأمالي ٣٥/٢.

وألقي في المعيشة كل ضرر كذاك الضر بين الضرّتين
لهذي ليلة ولتلك أخرى عتاب دائم في الليلتين
فقد حسب بعد أن أغري بالزواج من اثنتين أنه سيعيش خروفاً
منعماً بين نعتين - على حد قوله - إلا أنه صار بعد أن تزوج كالخروف
يداول بين أخبت ذئبتين، فهو مسخوط عليه دائماً إذا أرضى هذه سخطت
تلك وإذا أرضى تلك لامته الأخرى، ثم ينهي أبياته بقوله: إنك إذا
أردت أن تبقى كريماً مملوء اليدين من الخيرات فما عليك إلا أن تصرف
النظر عن الزواج وتعيش عازباً مرتاحاً..

كره الزوج من الأرملة:

ومن الصور الاجتماعية التي اتضحت في الأدب عدم الرغبة في
التزوج من الأرملة، وقد لاحظ الجاحظ^(١) هذه الظاهرة واستغرب من
أبناء عصره أنهم صاروا يعافون المرأة الحرة إذا فارقت زوجاً واحداً،
ويلزمون من خطبها العار ويلحقون به اللوم ويعيرونه بذلك بينما يتحفظون
الامة وقد تداولها من لا يحصى عدده من الموالي فيكون منهن أمهات
الأولاد حظايا الملوك..

وقد مرت بنا خلال الحديث عن (الأم) وصورتها في الأدب كيف
كان الأبناء يعيرون بزواج أمهاتهم ويكونون مواضع للتندر والسخرية..
وكثيراً ما أرسلت إليهم رسائل التعزية لأنهم كانوا يرون زواج الأمهات
مصائب لا تحتمل.

ويحدثنا صاحب الأغاني أن (سعيد بن المهلب) تزوج بنتاً
لسفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب وكانت قد تزوجت قبله رجلين ماتا

(١) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٦٢.

عنها، فكتب أبو عينة^(١) يعنفه على اختياره لها وأنه إنما اختارها بسبب مالها.. فقال^(٢):

رأيت أئاثها فطمعت فيه وكم نصبت لغيرك من أئاث
فصير أمرها بيدي أبيها وسرح من حبالك بالثلاث
وإلا فالسلام عليك مني سأبدأ من غد لك بالمرائي

الخصومات والطلاق:

ومما صورته الأدب في العصر العباسي الخصومات التي تحدث بين الزوجين والتي تؤدي إلى الطلاق. وقد تعددت دواعي الطلاق كما بدا لنا من الشعر.. فقد يكون كرهاً عميقاً وتنافراً في الصفات والطباع، وقد يكون داعي الطلاق عبثاً وتحلاً من قيود الزوجية واستخفافاً بها، وقد يكون الدافع رغبة في التمتع بالصبا والجمال بعد أن نضب ماء الصبا في الزوجة وتلاشت معالم الجمال فيها.. وقد بدت تلك الصور جلية في الشعر ننقل منها ما يوضح لنا معالمها، فمن ذلك ما قاله (عمار ذو كبار)^(٣) في زوجته وكانت كما يبدو قبيحة الشكل سليطة اللسان كثيرة العراك..^(٤):

إن عرسي لا هداها الله بنت لرباح
كل يوم تفزع الجلاس منها بالصباح
ولها لون كداجي الليل من غير صباح
ولسان صارم كالسيف مشحوذ النواحي

(١) أبو عينة المهلي: وهو عبدالله بن محمد بن أبي عينة بن المهلب بن أبي صفرة، ترجمته في الأغاني ١٩/٢٠ وطبقات ابن المعتز ٢٨٨ - ٢٩١ والشعر والشعراء ٧٥٠/٢.

(٢) الأغاني ١٩/٢٠ والمحاسن والأضداد ص ١٩٢ والشعر والشعراء ٧٥٤/٢.

(٣) عمار بن عمر بن عبد الأكبر، يلقب ذا كبار.

(٤) الأغاني ٣٧١/٢٣.

يقطع الصخر ويفريه كما تفري المساحي
عجل الله خلاصي من يديها وسراحي
تتعب صاحبة الجار وتبغي من تلاحي

ثم إنه طلقها واشترى جارية حسناء، فثارت ثائرة الزوجة وتجنّت
على زوجها بالصياح والضرب، إلا أنه لم يهتم بذلك لأنه كان مصراً
على بينها، ولأنه شعر بالحرية المريحة من إساره بزواجه منها ولأنه كان
سعيداً بجاريته الحسنة قال:

ثم غارت وتجنّنت وأجدت في الصياح
لابتباعي أملح النسوان من فسيء السرماع
دمية المحراب حسناً وحكت بيض الأداحي
هي أشهى لصدى الظمآن من برد القراح
قلت يا دومة بيني إن في البين صلاحي
لست ممن ظفرت كفي بها اليوم بصاح
أنا مجنون بريم مخطف الخصر رداح
مشبع الدمليج والخلخال جوال الوشاح

وقد يطلق أحدهم زوجته بشرب نبيذ، فيستطيب اعتياضه الكأس
عن زوجته قال سوار بن أبي شراة^(١): حلف أبي ألا يشرب نبيذاً
بطلاق امرأة كانت عنده فهجره حولين، ثم حنث فشرب وطلق امرأته
وأنشأ يقول^(٢):

فمن يك لم يسمع عجيباً فإني عجيب الحديث يا أميم وصادقه
وقد كان لي إنسان يا أم مالك وكل إذا فتشتني أنا عاشقه

(١) سوار بن أبي شراة: شاعر بصري من شعراء الدولة العباسية.

(٢) الأغاني ٤٣٩/٢٢ - ٤٤٠.

عزيزة والكأس التي من يحلها تخادعه عن عقله فتصادقه
 تحاربنا عندي فعمطت دنها وأكوابها والدهر جرم بوائقه
 وحرمتها حولين ثم أزلني حديث الندامى والنشيد أوافقه
 فلما شربت الكأس بانت بأختها فبان الغزال المستحب خلائقه
 فما أطيب الكأس التي اعتضت منكم ولكنها ليست بريم أعانقه
 فالشاعر وإن كان متأسفاً على طلاق امرأته ذات الخلائق المستحبة
 إلا أنه لم يستطع الثبات أمام إدمانه الخمر فضحى بامرأته في سبيلها .

ومن مظاهر التسرع بطلاق الزوجات لغير ما سبب اللهم إلا العبث
 واللهو والمجون ما يذكره علي بن دعبل . قال حدثني أبي قال: خرجت
 ومعى أعرابي ونبطي إلى موضع يقال له بطيائنا من أمصار دجلة متنزهين
 فأكلنا وشربنا ، فقال الأعرابي: قل بيت شعر فقلت:

لننا لذى العيش في بطيائنا

فقال الأعرابي:

لما حدثنا أقدحاً ثلاثاً

فأرتج على النبطي حتى قال:

وامراتي ذي طالق ثلاثاً

ثم جلس يبكي حتى الصباح . . فسأله دعبل: ما يبكيك؟ فقال:
 ذهبت امرأتي بقافية^(١) .

ويبدو أن الحلف بالطلاق كان خفيفاً على الألسن يكثر دورانه
 وكثيراً ما كان يقع الطلاق فعلاً لأن أحدهم رأى قينة - مثلاً - فأعجبته
 فقال: امرأتي طالق إن كنت رأيت مثلها ، فيقع الطلاق ، وما كان

(١) المحاسن والأضداد ص ١٩١ - ١٩٢ وأخبار الحمقى والمغفلين ص ٨٠.

أسهل ذلك لدى أمثال هؤلاء الأزواج من الحمقى .

وصور لنا الأدب كذلك فرحة بعض الأزواج لطلاق زوجاتهم وعدم تأسفهم على فراقهم، وشعورهم بالراحة من غل الوثاق - على حد قولهم - لغير علة أو ذنب .

عن أبي النضر^(١) قال : (دخلت على الفضل بن الربيع فقال : هل أحدثت بعدي شيئاً؟ قلت نعم، قلت أبياتاً في امرأة تزوجتها وطلقتها لغير علة إلا بغضي لها، وإنها ليضاء بضة كأنها سبيكة فضة، فقال لي وما قلت فيها؟ فقلت قلت :

رحلت سكينه بالطلاق فأرحت من غل الوثاق^(٢)
رحلت فلم تألم لها نفسي ولم تدمع مآقي
لولم تبين بطلاقها لأبنت نفسي بالإيق
وشفاء ما لا تشفيه النفس تعجيل الفراق
فقال : يا غلام : الدواة والفرطاس ، فأتي بهما ، فأمرني فكتبت له الأبيات ثم قلت له : أنت والله تبغض بنت أبي العباس الطوسي - زوجته - فقال : اسكت ، أخزأك الله ثم ما لبث أن طلقها .

انصراف الأزواج إلى الجواري :

أما أبو دلامة فقد خرج إلى الخيزران حينما حجت فقال لها : أيتها السيدة إني شيخ كبير وأجرك مني عظيم ، قالت : فمه؟ قال : تهبين لي جارية من جواريك تؤنسني وترفق بي ، وتريحيني من عجز عندي ، قد أكلت رفدي وأطالت كدي ، وقد عاف جلدي جلدها وتمنيت بعدها ،

(١) الأغاني ١١/٢٧٣ .

(٢) وردت الأبيات في العقد الفريد ٣/٤٧١ ، وشرح ديوان الحماسة ٤/١٨٦٨ رقم ٨٦٥ وفيها اختلاف في اللفظ .

وتشوقت فقدها، فضحكت ووعدته بتحقيق طلبه عند عودتها . فلما رجعت بعث إليها برقعة كتب فيها^(١) :

أبلغني سيدتي بالله يا أم عبيده^(٢)
إنها أرشدها الله وإن كانت رشيدة
وعدتني قبل أن تخرج للحج وليده
فتأنيت وأرسلت بعشرين قصيده
كلما أخلقن أخلفت لها أخرى جديده
ليس في بيتي لتمهيد فراش من قعيده
غير عجفاء عجوز ساقها مثل القديده
وجهها أقبح من حوت طري في عصيده
ما حياة مع أنثى مثل عرسي بسعبيده

فأبو دلامة يريد جارية فنية لأنه ستم الحياة مع العجوز التي أكلت رفته وأطالت كده وعاف جلده جلدتها فتمنى بعدها وتشوق فقدها والتي يشبه ساقها بالقديده^(٣) ووجهها بالحوت الطري في العصيدة .

وربما كان أبو دلامة يتكلف مثل هذه المواقف الهزلية على سبيل النكتة والإضحاك . . . وربما كان الرواة والقصاص قد وضعوا أمثال هذه النوادر . . . إلا أنها تدل على أي حال على صحة ما ذكرناه . . . ولعلها على ما فيها من خفة النوادر تطف الشواهد الجادة التي ذكرناها .

على أنني لا أشك أن الدوافع إلى أمثال هذه المواقف من الزوجة كانت بسبب ما يشعر به أصحابها من التحلل والتخفف من الوفاء للعشرة والإخلاص للحليلة بعد السنوات الطوال ولابتذال الجواري وسهولة

(١) نهاية الأرب ٤٥/٤ والأغاني ٢٧٣/١٠ - ٢٧٤ .

(٢) أم عبيدة: حاضنة موسى الهادي وهارون .

(٣) القديدة: انقد اللحم والجلد: انشق .

الحصول عليهن .

وقد صرح بذلك (محمد بن يسير) في رسالة كتبها إلى زوجته وكانت تعاتبه في هوى قينة من قيان أبي هاشم بالبصرة^(١) :

لا تذكرني لوعة إثري ولا جزعاً ولا تقاسن بعدي الهم والهلعا
بل انتسي تجدي أني انتسيت أسا بمثل ما قد فجعت اليوم قد فجعا
ما تصنعين بعين عنك قد طمحت إلى سواك وقلب عنك قد نزعا
إن قلت قد كنت في خفض وتكرمة فقد صدقت ولكن ذاك قد نزعا
وأي شيء من الدنيا سمعت به إلا إذا صار في غاياته انقطعا
ومن يطيف خليعاً عند صبوته أم من يقوم لمستور إذا خلعا

ويدور مثل ذلك كثيراً في كتب الأدب والأخبار :

قال محمد بن المنتشر^(٢) : إذا أيسر الرجل ابتلي به أربعة : مولاة
القديم ينتفي منه ، وامراته يتسرى عليها ، وداره يهدمها ويبني غيرها ،
ودابته يستبدل بها^(٣) .

ومما هو شبيه بما أوردناه من سأم الزوج من زوجته العجوز
ورغبته في اتخاذ جارية شابة قول امرأة لزوجها وكان قد طلقها (أبعد
صحبة خمسين سنة؟) فقال لها : (ما لك عندنا ذنب غيره) .

كره الزوجات وهجاؤهن :

ومن الصور التي نقلها لنا الأدب همسات الشكوى وصرخات
الكره والهجاء والسخرية من الزوجات وأشكالهن وطباعهن .

(١) الأغاني ٢٥/١٤ - ٢٦ .

(٢) محمد بن المنتشر : من ثقات المحدثين .

(٣) البيان والتبيين ٣/ ١٨١ .

ولنستمع إلى همسة خافتة مريرة من الشاعر محمد بن كناسة وكان قد مرّ في طريق بغداد فنظر إلى مصلوب على جذع وكانت عند الشاعر امرأة يبغضها وقد ثقل عليه مكانها فقال ملمحاً بها^(١) :

أيا جذع مصلوب أتى دون صلبه ثلاثون حولاً كاملاً هل تبادل
فما أنت بالحمل الذي قد حملته بأضجر مني بالذي أنا حامل

ومن صيحات هجاء الزوجات، : ما قاله أعرابي وقد تزوج امرأة في البصرة فلما دخل بها وأغلقت الأبواب عليه ضجر بها وطالت ليلته حتى إذا أصبح الصبح وأراد الخروج منع من ذلك وقيل له : لا ينبغي لك أن تخرج إلا بعد سبعة أيام فقال^(٢) : وقد ضاقت أنفاسه :

أقول وقد شدوا عليها حجابها ألا حبذا الأرواح والبلد القفر
ألا حبذا سيفي ورحلي ونمرقي ولا حبذا منها الوشاحان والشذر
أتوني بها قبل المحاق بليلة فكان محاقاً كله ذلك الشهر
وما غرني إلا خضابٌ بكفها وكحل بعينيها وأثوابها الصفر
تسألني عن نفسها هل أحبها فقلت ألا لا والذي أمره الأمر
تفوح رياح المسك والعطر عندها واشهد عند الله ما ينفع العطر

أما صيحات الكره والسخرية من أشكال الزوجات والذم لطباعهن فكثيرة ننقل منها هجاء ابن أبي الزوائد^(٣) لامراته التي طال لبثها عنده حتى ملها وأبغضها فصار يشبهها بالغول والسعلاة فيقول^(٤) :

(١) الأغاني ١٣/٣٤٠.

(٢) عيون الأخبار ٤/٣٢.

(٣) ابن أبي الزوائد: سليمان بن يحيى بن زيد بن معبد من مخضرمي الدولتين، الأغاني ١٤/١١٧.

(٤) الأغاني ١٤/١١٧.

يا رمل أنت الغول بين رمال لم تغفري بتقى ولا بجمال
يا رمل لو حدثت أنك سلفع^(١) شوهاء كالسعلاة بين سمالي
ما جاء يطلبك الرسول بخطبة مني ولا ضمت عليك حبالي
ولقد نهى عنك النصيح وقال لي لا تفرنن بذية بعيالي
ثم ينتهي بهجائها بأفحش الكلام وأقذعه، ورسم البعض لزوجاتهم
صوراً شعرية ساخرة مضحكة لو كان أتيح لرسام أن يصورها على ما
عرضوها عليه من صفات لكانت غاية في القبح والسخف والتشويه . .
فمن ذلك ما قاله دعبل الخزاعي في هجاء زوجته وقد أبدته في إظهارها
في أتبج الصور قال^(٢):

يا ركبتني خزر^(٣) وساق نعامة وزبيل كناس ورأس بعير
يا من أشبهها بحمى نافض قطاعة للظهر ذات زفير
صدغاك^(٤) قد شمطا ونحرك يابس والصدر منك كجوجو الطنبور^(٥)
يا من معانقها يبيت كأنه في محبس قمل وفي ساجور^(٦)
قبلتها فوجدت لدغة ريقها فوق اللسان كلسعة الزنبور
وقال آخر^(٧):

الام على بغضني لما بين حية وضبع وتمساح تغشاك من بحر

(١) سلفع: الصخابة البذينة السيئة الخلق.

(٢) ديوان دعبل ١١٦/١.

(٣) الخزر: هو الذكر من الأرانب.

(٤) الصدغ: هو ما بين اللحاظ إلى أسفل الأذن (الأساس/ صدغ/ ٥٢٤).

(٥) الطنبور: الذي يلعب به، معروف وقد استعمل في لفظ العربية (اللسان/ طنبور).

(٦) ساجور: القلادة أو الخشبة التي توضع في عنق الكلب (اللسان/ سجر).

(٧) شرح ديوان الحماسة ١٨٧٦/٤ رقم ٨٧٣.

تحاكي نعيماً زال في قبح وجهها وصفحتها لما بدت سطوة الدهر
هي الضربان في المفاصل خاليا وشعبة برسام ضمنت إلى النحر
إذا سفرت كانت بعينك سخنة وإن برقعت فالفقر في غاية الفقر
وإن حدثت كانت جميع مصائب موفرة تأتي بقاصمة الظهر
حديث كقلع السن أو نتف شارب وغنج كحطم الأنف عيل به صبري
وتفتر عن قلع عدمت حديثها وعن جبلي طي وعن هرمي مصر
فالشاعر لم يقف عند وصف قبح وجهها وطبعها وإنما وصف
حديثها ووقعه على نفسه وشدة ألمه وتوجهه منه . . فهي إن حدثت
جاءت بجمع من المصائب التي تقصم ظهره فكأنه يقاسي أثناء تحدثها
ما يقاسيه من يقلع سنه أو ينتف شاربه أو يحطم أنفه . . وهي أشد ما
يؤلم من الأوجاع .

وقال إسماعيل بن عامر^(١) في هجاء أم ولد له^(٢) :

منيت بز نمردة كالعصا ألص وأخبت من كندش
تحب النساء وتأبى الرجال وتمشي مع الأخبت الأطيـش
لها شعر قرد إذا ازينت ووجه، كبيض القطا الأبرش
وثدي يجول على نحرها كقربة ذي الثلة المعطش
لها ركب مثل ظلف الفزال أشد اصفراراً من المشمش
وساق مخلخلها حمشة كساق الجراداة أو أحـمش
كأن الثآليل في وجهها إذا سفرت بدد القشمش^(٣)

(١) شاعر مخضرم من شعراء الدولتين .

(٢) الأغاني ١٠/ ١٣١ (التقدم) وقد وردت في شرح ديوان الحماسة منسوبة إلى (أبي الغطمش الحنفي). شرح ديوان الحماسة ٤/ ١٨٨١ رقم ٨٧٩.

(٣) البدد: القطع المتفرقة .

لها جمعة فرعها جثلة كمثل الخوافي من المرعش^(١)
الشمم بالزوجات:

وكما سبق أن رأينا أن المرأة الأم أو الأخت أو الابنة قد تكون الضحية فيما إذا وقع الخلاف بين شاعرين حيث يكون الشمم بهن والهجاء لهن نرى الشمم بالزوجات كان من أمر الهجاء.. ولا شك أن الدافع الذي دفع الشعراء بصورة عامة إلى الهجاء بالنساء هو الموقع الحساس الذي تقعه المرأة في المجتمع وشدة الحرص على شرفها وعفتها ولهذا رأينا أن أشد الشمم بابتذال شرف النساء وانعدام عفتهم، ولعل ابن الرومي من أكثر من هجا بهن وقال فيهن أقذع الشمم ونسب لهن فاحش الكلام، فقد هجا أبا حفص الوراق بزوجه فقال^(٢):

قالوا هجاك أبو حفص فقلت لهم لا شب قرن أبي حفص ولا زرعاً
لشن هجاني وفرط الجهل أوقعه لقد تزوج أيضاً بعد ما صلعا
قد قلت إذ قيل قد زفت حليلته صبراً كأنني بقرن الشيخ قد طلعا
طلقتها منه أن عفت له أبداً ما أبصرت منه ذاك المنظر الشنعا
أقبح بوجه أبي حفص وعفتها هذان شيثان لا والله ما اجتماعا
وزاد على ذلك بتفصيل قصة زواجه منها بعد أن شاخ وضعف وقل
كسبه، وعرض في تلك القصة الكثير من الغمز والتشهير به وبزوجته
فقال^(٣):

وقائل إن أبا حفص أحرق محتاج إلى ضرب

(١) الجمعة من الشعر: دون اللمة في الطول، الجثلة: الكثيرة الأصول، المرعش: الحمام الأبيض.

(٢) ديوان ابن الرومي ٣/ ٣٧٣.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٢٧٠.

لم يتزوج حدثاً ناشئاً يهنز مثل الفصن الرطب
تزوج المائق لا سيما في مثل هذا الزمن الصعب
أحوج ما كان إلى كاسب يجدي عليه جاء بالأدب
زاد على عيلته زوجة يا لك من نكب على نكب
يحمل كلاً وهو من ضره كلّ فيا لئله من خطب
فقلت لا تعجل على شيخنا باللوح والتعنيف والعتب
لعل ما تحسب من أمره وأمرها بالعكس والقلب
هو الذي يرتع في كسبها فافطن له يا نانم القلب
ما مثله من سوء تدبيره هيهات إن الشيخ ذو إرب
لما رأى أقلامه أصبحت ترعى رياض المحل والجذب
تزوج المسكين ليلية أضحى بها في الرفه والخصب
وقال في هجاء خالد القحطبي^(١):

لخالد بيت سوء مثل ساكنه بلعنة الله محفوف التوابيع
يأوي إليه نسيات له مجن سلين بالفسق هم العري والجوع
وقال يهجو البيهقي^(٢):

فاغضب على عرسك التي تركت عرضك عهداً لكل نفاش
ومن الشتم بهجاء الزوجات قول السري الرفاء في رجل يدعى
جعفراً ذكر فيه كيف أن الزمان أتاح للزوج سفرة سرّ لها الزوجان لأن
كلّاً منهما كان يصبو إلى غير قرينه . . حتى لقد ودا بعد أن أتبع لهما
الفراق أن لا يلتقيا إلى يوم الحساب فقال^(٣):

(١) ديوان ابن الرومي ٣/٣٣٦.

(٢) المصدر نفسه ٢/٢٠٣.

(٣) ديوان السري الرفاء ص ٥٨.

تباعد عن عرسه جعفر فسرهما البعد بعد اقتراب
وكانت تصب إلى غيره وكان إلى غيرها ذا تصاب
فبيناهما يتبعان الهوى على حذر منهما وارتقاب
أتاح الزمان له سفرة معجلة لم تكن في الحساب
فودًا وقد وفقا للفراق بأن التلاقي يوم الحساب
وهكذا نأتي إلى نهاية الحديث عن الزوجة في الأدب وقد وضحنا
صورتها فيه والمواقف المتباينة والنظرات المختلفة إليها بين من يقدر
الزوجة ويحترمها وبين من تحلل منها فكان موقفه من الزواج والزوجات
موقف الكاره المستريب ولا شك في أن شخصية الرجل ونفسيته وظروفه
الاجتماعية هي التي توجه النظرة العامة إلى المرأة وتعين الموقف منها .
وهكذا رأينا التباين والاختلاف في صورة المرأة في الأدب .

الفصل الرابع

الأخت في الأدب

وكان للأخت مكان في النفوس واختلف الأفراد بين معبر عن تلك المكانة ومصرح بفضل الأخت وصلاحتها وعلمها وعفتها، وبين كاتم لصفاتها مضمحل عاطفة الأخوة لأنه كان يرى أنها لا تستحق أن تذكر في حضرات الرجال أو أنه يغار في ذكرها أمامهم..

وربما كان العرف الاجتماعي في العصر الأموي أو قبله يدعو إلى عدم التعزية بالنساء، ويدل على ذلك ما ذكر عن عمر بن عبدالعزيز أنه لما عَزِيَّ بأخت له بعد دفنها لم يرد على المعزين.. فلما شعر الناس منه بذلك أمسكوا عن تعزيته.. فأقبل على الناس بوجهه وقال: (أدركت الناس وهم لا يعزّون في المرأة إلا أن تكون أماً)^(١).

أما أبو بكر الخوارزمي فإنه يغار لجنبه الوزير بن عباد - على حد قوله - أن يذكر النساء في حضرته ويتطير لنعمته من ذكر التعازي والمراثي، ويأنف من أن يقف منه موقف الواعظين المنبهين، فيكتفي بسرد محاسن الوزير ويشير إشارة خفيفة إلى وفاة أخته، وليس ذلك لعجز منه، فإن قريحته متدفقة وخواطره مجيبة وشاعريته معروفة فيقول^(٢): (فإني أغار لجنبه الوزير من ذكر النساء أولاً، وأتطير لنعمته تتجللها التعازي والمراثي ثانياً، وآنف له من أن أقيمه مقام من يوعظ وينبه ثالثاً، وإلا فالقريحة بحمد الله تعالى متدفقة والخواطر مجيبة والشعر ليس بعازب).

(١) العقد الفريد ٣/ ٣١٠.

(٢) رسائل الخوارزمي ٨٤.

إلا أن هناك من لم ير ذلك فعزى بالأخت فأجاد ونسب إليها من الصفات ما قد يعز وجوده في سادة ذلك العصر، ولعل أفضل شاهد على ذلك قصيدة أبي الطيب المتنبي في تعزية سيف الدولة عن أخته خولة إذ قال^(١):

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب
أجل قدرك أن تسمي مؤبنة ومن يصفك فقد سمالك للعرب
ويبدو أنه كان متألماً مشاركاً لسيف الدولة في أحزانه على الفقيده
فقد التهب فؤاده وانسكبت دموعه أسى عليها . . وعدد فيها في المكارم
والصنائع الجميلة ما يدل على أنها كانت ذات قدر ومنزلة وعلم وأدب
وأنها كانت تقصد للنوال . . ثم نعتها بعلو الهمة وكبر العقل وبانشغالها
عما كان يهم أترابها من لهو ولعب فقال^(٢):

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت فكيف ليل فتى الفتيان في حلب
يظن أن فؤادي غير ملتهب وأن دمع جفوني غير منسكب
بلى وحرمة من كانت مراعية لحرمة المجد والقصاد والأدب
ومن مضت غير موروث خلائقها وإن مضت يدها موروثه النسب
وهمها في العلى والمجد ناشئة وهم أترابها في اللهو واللعب
ولم ينس المتنبي رغم تعداده للكثير من الصفات الحميدة التي
نسبها إليها أن يذكر شيئاً ربما كان من أهم ما توسم به المرأة وهو الستر
فقد كان دونها كل حجاب، وكانت رؤيتها عصية على الأعين لا تكاد
تدركها فقال:

قد كان كل حجاب دون رؤيتها فما قنعت لها يا أرض بالحجب

(١) شرح ديوان المتنبي ١/ ٢١٥.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢١٧.

ولا رأيت عيون الإنس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهب
ثم اختتم رثاءه لها بقوله : إنها وإن خلقت أنثى فقد تميزت على
بنات جنسها بالعقل والأدب كما تميزت على قبيلتها كلها :

وإن تكن خلقت أنثى لقد خلقت كريمة غير أنثى العقل والحسب
وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها فإن في الخمر معنى ليس في العنب

أفلا يحس القارئ أن المتنبي قد أدرك أن الظروف المحيطة
بالفرد هي التي تخلق منه شخصاً كاملاً كريماً عظيماً أو تخلق منه ضعيفاً
تافهاً .

تلك والدة سيف الدولة التي قال فيها المتنبي كما سبق أن مر بنا :
ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر لللهلال
وهذه أخته، ربيتا على النبل والكرم والمجد والعقل والعفة فكانتا
خيراً من الرجال في نظر المتنبي ذلك الشاعر الحكيم الأريب .

ورثى أبو الطيب الأخت الصغرى لسيف الدولة . . إلا أن مصابه
فيها - كما بدا في شعره - لم يكن كمصابه في (خولة) لأن جل ما قاله
فيها لم يكن ليتجاوز ما كان سائداً في التعزية بالمرأة (الأخت أو البنت)
إنها زفت إلى القبر واتخذت الموت بعللاً لها . . قال^(١) :

لعمري لقد شغلت المنايا بالأعادي فكيف يطلبين شغلا
وكم انتشت بالسيوف من الدهر رأسيراً وبالنوال مقللا
خطبة، للحمام ليس له رد وإن كانت المسماة ثكلا

(١) ديوان المتنبي وريثة الدهر ٢٢٩/١ .

وإذا لم تجد من الناس كفوا ذات خدر أرادت الموت بعلا
وقد علق الثعالبي على هذه الأبيات بقوله: هذا أحسن ما قيل في
مرثية حرم الملوك.

أما الشريف الرضي فقد رثى بعض أخواته ونعتها أيضاً بما يحسن
أن تنعت به المرأة من المجد والعفة والصون فقال^(١):

يا دين قلبك من به ارق ينير ويخبر
على سريقي نجد مرعى لعبينيك جذب
كما تليح ذراع فيها من النضر قلب
كأنه نار عليا للضيوف تشب
قضيت نحباً قضى بعده من المجد نحب
ولم يك لك إلا من المقادير خطب
ودون كل حجاب من العفافة حجب
وقبرك الصون من قبل أن يضمك ترب

وهكذا وجدنا أن الأخت قد نالت قسطها من الأدب لدى هذه
الطبقة المتميزة على غيرها بالعلم والأدب والشرف والخلق..

(١) ديوان الشريف الرضي ص ١٥٩.

الفصل الخامس

الحبيبة في الأدب

ومما لا شك فيه أنه لم يكن للحرائر نصيب كبير في الغزل في هذا العصر، وذلك لأن الحجاب الذي فرض عليهن والذي كان يزيد كلما تقدم العصر، ويشتد بازدياد التفسخ الاجتماعي نتيجة لتغلغل التأثير الأجنبي في المجتمع العربي أدى إلى إبعادهن تماماً عن الأعين، في الوقت الذي كانت فيه الجوارى والقينات يرتعن في ذلك المجتمع وقد تسلحن بأمضى أسلحة الفتنة والجمال ليعشن بقلوب الرجال ويحظين منهم بالحب والرعاية والاهتمام داخل الأسرة وخارجها . .

وقد ظهر نوع من الغزل بالحرائر القريبات لم يصلنا منه إلا القليل . . وكان غزلاً عفيفاً . . إذ لا يعقل للقريب أن ينسب إلى قريته ما يمكن أن يسيء إلى سمعتها .

وكان ممن تغزل بإحدى قريباته من الحرائر: محمد بن أبي العباس وكان محباً (لزينب بنت سليمان)^(١) وله فيها أشعار كثيرة ننقل منها قوله^(٢):

قولا لزينب لو رأيت تشوقي لك واشترافي^(٣)
وتلفتي خوف الوشاة وكان حبك غير خاف

(١) زينب بنت سليمان: أميرة عباسية من ذوات الرأي والفصاحة توفيت بعد سنة ٢١٨ هـ. الأعلام ١٠٧/٣ وأعلام النساء ٦٨/٢.

(٢) أشعار أولاد الخلفاء ص ٥.

(٣) اشترافي: تطلمي.

وقوله فيها وهو يذكر ما بينهما من صلة القربى والنسب، ويشير إلى أنها لم تكن ممن يواصل الحبيب، فهي لا تنصف ولا تسعف، فعليه أن يكتم حبه جاهداً رغم أنه يفضح بما يجن:

أحببت من لا تنصف ورجوت من لا يسمف
نسب تليد بيننا وودادنا مستطرف
بالله أحلف جاهداً ومصداق من يحلف
إنني لأكتم حبها جهدي لما أتخوف
والحب ينطق إن سكنت بما أجنُّ ويُـمـرّف؟

وقال واصفاً حبه لها وهيامه بها.. وكيف أنه أحبها منذ طفولتهما، وأن مولدها قريب من مولده وأن جدها هو جده^(١).

يا قمر المريد قد هجت لنا شوقاً فما أنفك بالمريد
أراقب الفرقد من حبكم كأنني وكلت بالفرقد
أهيم ليلي ونهاري بكم كأنني منكم على موعد
علقتها ريتا الشوى^(٢) طفلة قريبة المولد من مولدي
جدي إذا ما نسبت جدها في الحسب الشاقب والمحتد
سوف أوافي حفرتي عاجلاً يا منيتي إن أنت لم تسعدي
والله لا أنساك في خلوة يا نور عيني ولا مشهد

وقال مشيراً إلى أنه لا يكاد يستطيع عنها صبراً، بينما لا يجد منها غير الهجر:

زينب مالي عنك من صبر وليس لي منك سوى الهجر
وجهك والله وإن شفني أحسن من شمس ومن بدر

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص ٦.

(٢) الشوى: اليدان والرجلان، يقال عبل الشوى (اللسان شوا).

لو أبصر العاذل منك الذي أبصرته أسرع بالعدو
ولما أراد محمد بن أبي العباس الخروج من البصرة، وقف لوداع
زينب فقال^(١):

أيا وقفة البين ماذا شببت من النار في كبد المفرم
رميت جوانحه إذ رميت بقوس مشددة الأسهم
وقفنا لزينب يوم الوداع على مثل جمر الغضا المضرم
فمن صرف دمع جرى للفراق وممتزج بدمه بالدم
ومن الغزل بالقربيات ما قاله أبو عينة المهلب^(٢) في ابنة عمه
(فاطمة بنت عمر بن حفص المهلب) وكانت إلف الطفولة والصبا،
فشغفته حباً، إلا أنها لم تكن من نصيبه، فتزوجت بغيره فجن جنونه
وطار صوابه وظل حياته ينظم فيها الشعر، إلا أنه كان يخشى زوجها
(عيسى بن سليمان) وأهله، فاضطر إلى التكنية عنها بمولاة لها كانت
تدعى (دنيا) فقال^(٣):

وكنمت اسمها حذاراً من الناس ومن شرهم وفي الناس شر
يقولون: بح لنا باسم دنيا واسم دنيا سر على الناس دخر
وكان أكثر شعره فيها في تصوير ذكرياته معها قبل زواجها، وكيف
كانا يجتمعان في رياض قصرهما المتجاورين في لعبان سوية دون خوف

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص ٩ - ١٠.

(٢) أبو عينة المهلب: من سلالة بني المهلب بن أبي صفرة، ولد وعاش في البصرة جعله ابن
المعتمر في طبقاته. (أحد المطبوعين الذين لم ير في الجاهلية والإسلام أطبع منهم وهم بشار
وأبو العتاهية والسيد الحميري وأبو عينة ترجم له ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٧٥٠،
وابن المعتمر في الطبقات ص ٢٨٨.

(٣) الأغاني ٣٥/ ٢٠ والعصر العباسي الأول ص ٣٦٤.

من أعين الوشاة أو رقابة البعل قال^(١):

وملعبنا في النهر والماء زاخر قرنين كالغصنين فرعين في أصل
ومن حولنا الريحان غصنا وفوقنا ظلال من الكرم المعرش والنخل
إذا شئت مالت بي إليها كأنني إلى غصن بان بين دعصين من رمل^(٢)
فيا طيب طعم العيش إذ هي جارة وإذ نفسها نفسي وإذ أهلها أهلي
وإذ هي لا تعتل عني برقبة ولا خوف عين من وشاة ومن بعل
فقد عفت الآثار بيني وبينها وقد أوحشت مني إلى دارها سبلي
وقال فيها، وقد بلغه أنها ستزف إلى زوجها^(٣):

أرى عهدها كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد
وعهدي لها كالآس حسناً وبهجة له نضرة تبقى إذا ما انقضى الورد
فما وجد العذري إذ طال وجده بعفراء حتى سلّ مهجته الوجد
كوجدني غداة البين عند لقائها وقد شف عنها دون أترابها البرد
فقلت لأصحابي هي الشمس ضوؤها قريب ولكن في تناولها بعد
وإني لمن تهدي إليه لحاسد جرى طائري نحساً وطائره سعد
وذهب البعض^(٤) إلى أن (دنيا) التي تغزل بها أبو عيينة كانت أمة
مغنية لبعض مغني البصرة إلا أن أبا الفرج يؤكد أنها ابنة عمه (فاطمة
بنت عمر بن حفص هزار مرد بن عثمان بن قبيصة أخي المهلب) ويورد
لأبي عيينة آياتاً تصرح بالنسب الذي يجمعهما يقول فيها^(٥):

(١) الأغاني ٣٥/٢٠.

(٢) الدعص: كتيب الرمل.

(٣) الأغاني ٤٠/٢٠.

(٤) الأغاني ٤٠/٢٠.

(٥) المصدر نفسه ٤١/٢٠.

ولأنت إن مت المصابة بي فتجنبي قتلي بلا وتر
فلئن هلكت لتلطمن جزعاً خديك قائمة على قبري
ثم يورد قوله مكنياً عنها بدنيا ومخاطباً إياها حينما ولي عمه عمر
البصرة^(١):

هنيئاً لدنيا هنيئاً لها قدوم أبيها على البصرة
على أنها أظهرت نخوة وقالت لي الملك والقدرة
فيا نور عيني كذا عاجلاً علي تطاولت بالأمره
ويبدو أن الشاعر كان يصرح حينما يرى مناسبة للتصريح باسمها
فقد قال^(٢) مخاطباً ابنة عمه فاطمة حاجياً زوجها:

أفاطم قد زوجت عيسى فأبشري لديه بذل عاجل غير أجل
فلإنك قد زوجت عن غير خبرة فتى من بني العباس ليس بعامل
فإن قلت من رهط النبي فإنه وإن كان حر الأصل عبد الشامل
وقد قال فيه جعفر ومحمد أقاويل حتى قالها كل قائل
وما قلت ما قالاً لأنك أختنا وفي البيت منا والذرا والكواهل
لعمري لقد أثبتته في نصابه بأن صرت منه في محل الحلائل
إذا ما بنو العباس يوماً تنازعوا عرا المجد واختاروا كرام الفضائل
رأيت أبا العباس يسمو بنفسه إلى بيع بياحاته^(٣) والعبائل

(١) المصدر نفسه ٤٨/٢٠.

(٢) المصدر نفسه ٣٠/٢٠.

(٣) البياح: ككتاب وكتاب: ضرب من السمك صفار وكان عيسى بن سليمان مبخلاً قبل كانت
له محابس يحبس فيها البياح ويبيعه، وكانت له ضيعة تعرف بدالية عيسى يبيع فيها البقول
والرياحين، وكان أول من جمع السجاد بالبصرة وباعه فقال فيه أبو الشعمق:
إذا زرت العباد فلإن عيسى له رزق من استاء العباد
الأغاني ٢٩/٢٠. وإلى هذا أشار أبو عينة في هجائه.

ومن الغزل بالحرائر ما أورده صاحب الأغاني عن (تويت)^(١) أنه كان يهوى امرأة من أهل اليمامة يقال لها سعدى بنت أزهر وقال فيها الشعر الكثير من الغزل العفيف . . لم تبادل الحب لدمايته، إلا أنها كانت ترق عليه أحياناً . . قيل إنه اجتاز يوماً بفنائها فلم تتوار عنه وأرته أنها لم تره . . فلما وقف ملياً سترت وجهها بخمارها فقال في ذلك^(٢) :

ألا أيها الساري الذي ليس نائماً على ترة إن مت من حبها غدا
خذوا بدمي سعدي فسعدي منيتها غداة النقا صادت فؤاداً مقصدا
بأية ما ردت غداة لقبيتها على طرف عينيها الرداء الموردا
وقال فيها وقد لقيها راحلة نحو مكة حاجة فأخذ بخطام بعيرها
وقال :

قل للتي بكرت تريد رحيلاً للحج إذ وجدت إليه سبيلاً
ما تصنعين بحجة أو عمرة لا تقبلان وقد قتلت قتيلاً
أحيي قنيلك ثم حجي وانسكي فيكون حجك طاهراً مقبولاً
ثم تزوجها أبو الجنوب يحيى بن أبي حفصة فحجبها وانقطع ما
كان بينها وبين تويت فطفق يهجو يحيى فقال :

عناء سيق للقلب الطروب فقد حجبت معذبة القلوب
أقول وقد عرفت لها محلاً ففاضت عبرة العين السكوب
ألا يا دار سعدي كلميناً وما في دار سعدي من مجيب
ولما ضمها وحوى عليها تركت له بعاقبة نصيبي

(١) وهو أحد الشعراء اليمامين لم يقد إلى خليفة ولم يوجد له مدح في الأكابر والخلفاء، فأخمل ذلك ذكره.

واسمه عبد الملك بن عبد. الأغاني ٣٩/٢٣.

(٢) الأغاني ٤٠/٢٣.

وقلت زواج^(١) مثلك مثل يحيى لعمرك ليس بالرأي المصيب
فما لك مثل لمنته تدرى ومالك مثل بخل أبي الجنوب
إذا فقد الرغبة بكى عليه وأتبع ذاك تشقيق الجيوب
يعذب أهله في القرص حتى يظلموا منه في يوم عاصيب

ويلاحظ أنه هجا غريمه بالبخل والشح . . وقد سبق أن رأينا ابن
أبي عيينة حينما هجا زوج ابنة عمه (فاطمة التي كنى عنها بـ (دنيا) هجاه
بالبخل كذلك ويبد وأن هذه الصفة كانت من أمر ما يهجي بها المهجو .

وقال (تويت) واصفاً منعة حبيبته وعفتها وميناً أنها ليست ممن
يمكنها أن تقضي سؤال عاشق أو تشفي سقم محب^(٢) .

لقيت سَعِيدَ تمشي في جوار بجرعاء النقا فلقيت حيناً^(٣)
سلبن القلب ثم مضين عني وقد ناديتهن فما لوينا
فقلت وقد بقيت بغير قلب بقلبي يا سعيدي أين أيننا
فما تجزين يا سعيدي محباً يهيم بكم ولا تقضين ديننا
فقالت إذا شكوت المظل منها لعمرك من سمعت له قضينا
ومن هذا الذي إن جاء يشكو إلينا الحب من سقم شفيينا
فهن فواعل بي غير شك ما قبلي فعلمن بصاحبينا
بعروة والذي بسهام هند أصيب فما أقدن ولا ودينا
ولا بدّ لنا ونحن في ختام الحديث عن صورة المرأة في الأدب أن
نقف وقفة قصيرة نقول فيها :

رغم أننا صورنا الكثير من أحوال المرأة في العصر من خلال ما

(١) أوردت في الأغاني ٤١/٢٣ زحام وربما كان الصحيح ما أثبتناه .

(٢) الأغاني ٤٤/٢٣ .

(٣) الحين : حان الرجل يعين حيناً : هلك (اللسان/حين) .

كان بين أيدينا من أدب . . ورغم ما وقفنا عليه من النظرات الإيجابية عن المرأة في الأسرة فقد بقيت الصورة التي استقرت في نفوس بعض أهل العصر وهي صورة متأثرة إلى حد بعيد بالموروثات الشعبية . . إذ لم يكونوا بقادرين على تجاوز الموروث المستقر في نفوسهم الذي ربما يغطي بالمظاهر الثقافية والحضارية إلا أنه لا يلبث أن يظهر على حقيقته عند أول إثارة . فالأنوثة بحد ذاتها كانت مسبة عندهم ومنقصة وعبأ . . ألم نر إلى المتنبي يصرح بذلك في رثائه لخولة أخت سيف الدولة فيقول^(١):

وإن تكن خلقت أنثى لقد خلقت كريمة غير أنثى العقل والحسب
ويقول في رثائه لأم سيف الدولة:

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهِلال^(٢)
أليس معنى هذا أن المستقر في نفسه عن المرأة أنها عيب ولكنه لما أراد تجاوز هذا مع أم سيف الدولة أو أخته اضطر إلى مناقشة الأمر بعقله وإلى تأييده بواقع النساء الجليلات فقال:

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
ثم ألم نر إلى أبي العتاهية حينما أراد أن يثار لنفسه من عبدالله بن معن بن زائدة لأنه كان جلده مئة سوط، كنى عنه بالمرأة، فقال^(٣):

جلدتني بكفها بنت معن بن زائدة
جلدتني فأوجعت بأبي تلك جالده
وتراها مع الحظي على الباب قاعده

(١) شرح ديوان المتنبي ١/ ٢١٧.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٤.

(٣) الأغاني ٤/ ٢٧.

تكنى كنى الرجا ل بممد مكايده
جلدتني وبالفنت مائة غير واحده
وقال:

ضربتني بكفها بنت معن أوجعت كفها وما أوجعتني
ولعمري لولا أذى كفها إذ ضربتني بالسوط ما تركتني
ولعل قصيدته اللامية التي قالها فيه كانت من أمر وأقذع ما هجي
به عبدالله، إذ إنها سارت على السنة الخاصة والعامة حتى قيل إن الرشيد
كان إذا رأى عبدالله ابتسم وتمثل قول أبي العتاهية فيه^(١):
أخت بني شيبان مرّت بنا ممشوطة كوراً^(٢) على بغل
وقد جعل أبو العتاهية المهجو في هذه القصيدة جارية همها زيتتها
وفجورها فقال:

قال ابن معن وجلا نفسه على من الجلوة يا أهلي
أنا فتاة السحي من وائل في الشرف الشامخ والنبيل
ما في بني شيبان أهل الحجا جارية واحدة مثلي
أخت بني شيبان مرت بنا ممشوطة كوراً على بغل
تكنى أبا الفضل ويا من رأى جارية تكنى أبا الفضل
قد نقطت في وجهها نقطة مخافة العين من الكحل
إن زرتموها قال حجابها نحن عن الزوار في شغل
مولاتنا مشغولة عندها بعمل ولا إذن على العمل
يا بنت معن الخير لا تجهلي وأين إقصار عن الجهل

(١) الأغاني ٢٤/٤.

(٢) كور: مكور.

وكانوا إذا ما أرادوا ذم الدنيا شبهوها بالغانبة التي لا تثبت على حال ولا تفي لصاحب، أو بالمرأة المزواج، فقد شبهها المتنبي بالغانيات بقوله^(١):

شيم الغانيات فيها فلا أدري لذا أنت اسمها الناس أم لا
وشبهها الشريف الرضي بالمرأة كثيرة الأزواج فقال^(٢):

إنني إذا حلب البخيل لبانها أمسيت أحلبها دم الأوداج
خطبتني الدنيا فقلت لها ارجعي إنني أراك كـشـيرة الأزواج

أما ابن الرومي فقد جانس بين تسمية النساء بالنسوان وبين النسيان وقال على لسانهن في الرد على من يطالبهن بالذكر بأنهن لا يقدرن عليه لأن النسيان - على حد قوله - صفة غالبية فيهن، قال^(٣):

تغدو الفتاة لها خل وإن غدرت راحت ينافس فيها الخل خلان
ما للحسان مسيحات بنا ولنا إلى المسيحات طول الدهر تحنان
فإن تبعن بعهد قلن معذرة إنا نسينا وفي النسوان نسيان
يكفي مطالبنا بالذكر ناهية وأن اسمنا الغالب المشهور نسوان
لا نلزم الذكر إنا لم نسّم به ولا منحناه بل للذكر ذكران
فضل الرجال علينا إن سميتهم جود وبأس وأحلام وأذهان
وأن فيهم وفاء لا نقوم به ولن يكون مع النقصان رجحان

(١) يتيمة الدهر ٢٢٧/١.

(٢) ديوان الشريف ٢٣٩.

(٣) ديوان ابن الرومي ٢١/١.

الباب الثاني

الجواري في الأدب

الفصل الأول: الجواري والشعراء

الفصل الثاني: الجواري والخلفاء

الفصل الثالث: الجواري والقبان

الفصل الرابع: جمال المرأة وزيتها

الجواري في الأدب:

ولما راجت سوق الجواني وكثر إقبال الناس عليهن رأينا كيف أن النخاسين عنوا بإعدادهن لحياة العصر خير إعداد، فعلموهن الرواية والشعر والإجازة والمطارحة والغناء وغير ذلك من آداب المفاكهة والمجالسة... وكلما نبغت الجارية في هذه الضروب غالى صاحبها في الثمن واشتط في التقدير... وراجت - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - تجارة الرقيق، فكان في بغداد شارع يسمى (شارع دار الرقيق) انتهب في الفتنة بين الأمين والمأمون وبكاه أحد الشعراء في قصيدة ختمها بقوله:

ومهما أنس من شيء تولى فلنسي ذاكر دار الرقيق

واشتهر في ذلك العصر كثير من النخاسين وسبب شهرتهم ما كان لديهم من جوار حسان، فكانت دورهم أو محلاتهم مواطن أنس وطرب يجتمع فيها طلاب اللهو واللذة... من شعراء وأدباء وقواد وأعيان وغيرهم... وكان منهم نخاس يكنى (أبا عمير) كان له جوار قيان لهن ظرف وأدب، وكان من جواريه جارية تسمى (عبادة) هويها (عبدالله محمد بن البواب) فقال فيها^(١):

لو تشكى أبو عمير قليلاً لأتينا من طريق العيادة
فقضينا من العيادة حقاً ونظرنا في مقلتي عبادة
ومنهم أبو الخطاب النخاس، كان له جارية تعرف بذات الخال

(١) الأغاني ٤٥٦/٢٢.

كان يهواها إبراهيم الموصللي وقيل إن الخليفة الرشيد تعلق بها وأهداها هدايا ثمينة.

ومنهم (حرب بن عمرو الثقفي) كان نخاساً وكان له جارية مغنية وكان الشعراء والكتاب وغيرهم يختلفون إليها يسمعونها وينفقون في منزله النفقات الواسعة ويهدون إليه الهدايا وفيه يقول أشجع:

أشكر الذي لاقيت من حبها وبغض مولاهما إلى الرب
من بغض مولاهما ومن حبها سقمت بين البغض والحب
فاختلجنا في الصدر حتى استوى أمرهما فاقترسما قلبي
تعجل الله شفائي بها وعجل السقم إلى حرب

ومنهم (إسماعيل القراطيسي) الذي كان أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم وطبقتهم يقصدون منزله وفي ذلك قال أبو العتاهية^(١):

لقد أمسى القراطيسي رئيساً في الكشاكين
وكانت قصور الخلفاء تعج بالأعداد التي تفوق حدود الحصر
ويليهم في ذلك الأمراء والقواد والحكام ثم عامة الناس.

ونتج عن ذلك شيوع عشق الجواري والولوع بهن ويدل على ذلك ما وصلنا من أشعار لعدد كبير من الشعراء الذين تغزلوا بهن، فبشار أحب (عبدة)^(٢) وأبو العتاهية اشتهر (بعتبة)^(٣) وأبو نواس يحب (جنان)^(٤) وحماد ومطيع بن إياس أحبا (جوهر) والعباس بن الأحنف

(١) الأغاني ٧٣/٢٣.

(٢) المصدر نفسه ٢٣٣/٦.

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتمر ص ٢٣٠ وزهر الآداب ٣٥/٢ وتاريخ بغداد ٦/٢٥٤.

(٤) ديوان أبي نواس ٢٣٤.

عرف بحبه فوز^(١) وغيرهم كثير ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاک ودعبل وأبي الشیص .

الجواري والشعراء :

ومعلوم أن العصر العباسي كان عصرأ تجلی فيه الحس المرهف بالجمال والإدراك الدقيق لنواحي الفن والإبداع، كما اتضحت فيه من جانب ثان القدرة على التعبير عن ذلك الحس وذلك الإدراك، ولهذا وجدنا العصر كله ينهض للتعبير عن المظاهر الحضارية والجمالية والفنية متخذاً نواحي شتى في ذلك التعبير نقف فيها عند الأدب .

وكان حب الجواري في العصر العباسي مظهراً من مظاهر تحسس الجمال ورد فعل مباشر له، ولهذا فقد خف التحرج في الإفصاح عنه والتصريح به، وصار الحديث عن العشق مظهراً من مظاهر العلم والمعرفة والحكمة والفلسفة، حتى لقد كان يطرق في مجالس الخلفاء والوزراء والأعيان أو في حلقات الفلسفة وعلم الكلام .

يروى عن الأصمعي^(٢) أن الرشيد سأله عن العشق وطلب إليه أن يصفه وصفاً يجسده له بقوله : (صفه لي حتى أخاله جسماً مجسماً) . فقال الأصمعي : إذا تقادحت الأخلاق المتشاكلة وتمازجت الأرواح المتشابهة ألهمت لمح نور ساطع يستضيء به العقل وتهتز لإشراقه طباع الحياة، ويتصور في ذلك النور خلق خاص متصل بجوهريتها يسمى (العشق) .

وعن المأمون أنه سأل ثمامة : ما العشق؟

فقال له ثمامة : العشق جليس ممتع وأليف مؤنس وصاحب ملك

(١) ديوان العباس بن الأحنف ص ٢٠٧ والأغاني ٨/ ٣٥٩ .

(٢) ذم الهوى، ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

مسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها والعقول وآراءها، وأعطى عنان طاعتها وقود تصرفها توارى عن الأبصار مدخله وعمي في القلوب مسلكه^(١).

ومن ذلك ما أورده المسعودي^(٢) عن يحيى بن خالد، وكان ذا بحث ونظر، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده: (قد أكثرتم في الكلام في الكمون والظهور والقدم والحدوث، والإثبات والنفي، والحركة والسكون، والمماساة والمباينة، والوجود والعدم... إلخ فقولوا الآن في العشق على غير منازعة، وليورد كل واحد منكم ما سنع له فيه وخطر بباله.

فقال علي بن الهيثم^(٣): أيها الوزير: العشق ثمرة المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين، وهو من بحر اللطافة ورقة الصنوعة وصفاء الجوهر، والزيادة فيه نقصان في الجسد.

وقال أبو مالك الحضرمي^(٤): وهو خارجي المذهب: أيها الوزير: العشق^(٥) نفث السحر وهو أخفى وأحر من الجمر، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين وامتزاج الشككين، وله نفوذ في القلب كنفوذ صيب المزن في خلل الرمل تنقاد له العقول وتستكين له الآراء.

وقال أبو الهذيل^(٦)، وهو معتزلي: أيها الوزير: العشق يختم على

(١) ذم الهوى ص ٢٩٠.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٢٨٦.

(٣) علي بن الهيثم: من متكلمي الشيعة المشهورين في عصر الرشيد.

(٤) أبو مالك الحضرمي: خارجي المذهب من الشراة.

(٥) مروج الذهب ٣/ ٢٨٧.

(٦) أبو الهذيل: (العلاف) من أئمة المعتزلة اشتهر بعلم الكلام (ت ٢٣٥هـ) الأعلام ٧/ ٣٥٥.

النواظر ويطبع على الأفئدة، مرتقى في الأجساد ومسرعه في الأكباد، وصاحبه متصرف الظنون متغير الأوهام لا يصفو له موجود ولا يسلم له موعود تسرع إليه النواذب، وهو جرعة من نقيع الموت وبقيّة من حياض الشكل غير أنه أريحية تكون في الطبع وطلاوة توجد في الشمائل، وصاحبه جواد لا يصفو إلى داعية المنع ولا يسبح به نازع العذل.

وقال النظام إبراهيم بن يسار المعتزلي^(١): العشق أرق من الشراب وأدب من الشباب وهو من طينة عطرة عجنّت في إناء الحلي، حلوا المجتنى ما اقتصد، فإذا أفرط عاد أصلاً قاتلاً، وفساداً معضلاً، لا يطمع في إصلاحه، له سحابة غزيرة على القلوب، فتعجب شغفاً، وتثمر كلفاً، وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفس، مشارف الزمن، طويل الفكر، إذا جنّه الليل أرق، وإذا وضحه النهار قلق، صومه البلوى وأفكاره الشكوى. ثم قال الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر، ومن يليهم حتى طال الكلام في العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب، وفيما مرّ دليل عليه...^(٢).

وممن تحدث في العشق وأخضعه لأقوال الحكماء ونظريات الفلاسفة جماعة (إخوان الصفا)^(٣) فقد بحثوا في ماهيته وكمية أنواعه

(١) النظام: إبراهيم بن سيار بن هاني البصري وأبو إسحق النظام، من أئمة المعتزلة قال الجاحظ: (الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له فإن صبح ذلك فأبو إسحق من أولئك) (ت ٢٣١هـ) الأعلام ١/ ٣٧.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٢٨٧.

(٣) إخوان الصفا: جماعة سرية تألفت في القرن الرابع الهجري، كان موطنها البصرة ولها فرع في بغداد لم يعرف من أشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك وكانوا قد تألقوا بالعبادة وتضافحوا بالصدقة واجتمعوا على القدس والطهارة والتضحية، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، وذلك أنهم قالوا: إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالفضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة (رسائل إخوان الصفا ١/ ٥) والموسوعة الميسرة ص ٦٦.

وكيفية نشوئه ومبدئه وعلله الموجبة لكونه، فنقلوا ما ذهب إليه بعض الحكماء في ذمه وذكر مساوئه، وما ذهب إليه بعضهم الآخر من أن العشق فضيلة نفسانية ومدحة^(١)، ونقلوا مذهب غيرهم (ممن لم يقف على أسرارهِ وعلله وأسبابه بحقائقها ودقة معانيها في أنه مرض نفساني أو جنون إلهي، وأنه همة النفوس الفارغة، وفعل البطالين الفارغي الهم الذين لا شغل لهم)^(٢).

وصاروا يحللون المبررات التي حدث بكل طائفة إلى اتخاذ ذلك الرأي دون سواه ولقد انتهى إخوان الصفا في رسائلهم إلى أن العشق هو شدة الشوق إلى الاتحاد واستشهدوا بقول ابن الرومي^(٣):

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تداني
والثم فاهها كي تزول صبابتي فيزداد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين تمتزجان

ورأوا أن هذا القول هو أرجح ما قيل في العشق وألطف ما أشير به إليه، وقالوا: (لما كان الاتحاد هو نفسانياً وتأثيراً روحياً احتجنا إلى أن نذكر أنواع النفوس وأنواع معشوقاتها وعلل تلك وأسبابها). ثم يستمرون في ذكر ذلك وتعليقه وتحليله متخذين الفلسفة وسيلتهم إلى ذلك.

ويلغ من ترفهم في الحب والغزل أنهم تفتنوا فيه وفي فنونه.. فهم مرة يعشقون البيض ومرة يعشقون السوداوات.. ومرة يعشقون

(١) رسائل إخوان الصفا ٣/ ٢٧٠.

(٢) رسائل إخوان الصفا ٣/ ٢٧٠.

(٣) ديوان ابن الرومي ١/ ٢٧ ورسائل إخوان الصفا ٣/ ٢٧٠.

الدكتور طه حسين في الأسس الفنية للنقد الأدبي، ص ٩٨.

الغلمان . . وقد اختلف الكتاب والأدباء في تبرير ذلك، فمنهم من رأى أن هذا الغزل نوع من العبث والمجون أو نوع من التسلية والتسرية . .

ولعل كثرة المبدول في المجتمع العباسي من الجواري والقيان ومن الجمال بأشكاله المتعددة المختلفة أدى إلى اعتياد النساء والجمال وإلى التخمّة منهما فصاروا يبحثون عن شيء جديد فأحب بعضهم الغلمان . . وتغزل بعضهم بالسوداوات طلباً للتنويع .

إذن فقد اتسم العصر بكثرة الحديث عن العشق ووفرة أشعار الحب والغزل . . وأخبار ما كان يدور من ذلك في مجالس الخلفاء^(١) والأمراء^(٢) والأعيان^(٣) كثيرة جداً منبثة في كتب السير والأخبار والتاريخ والأدب، وصار أغلب أبناء العصر لا يجدون حرجاً في الإفصاح عنه والتصريح به . فرأينا الخلفاء يتغزلون ويبدون تسليمهم لسلطان الحب ورضوخهم لحكمه، ورأينا سادات القوم وعلماءهم ومن عرف بالورع والتقوى منهم يفصحون به ولا يجدون في ذلك منقصة لهم . .

ورغم أن الرجل كان السيد المطاع والحاكم المالك لأمر المرأة في الغالب، حرة كانت أم أمة . . فقد رأينا الكثير منهم يكشف عن أن سلطان المرأة هو الأقوى . . قال هارون الرشيد^(٤) :

(١) محاضرات الأدباء ٤٢/٣ وتزيين الأسواق، ص ١١، والعقد الفريد ٤٦/٦ والديارات ص ٢٢٥ والمستظرف من أخبار الجواري ص ٥٥، ٥٧، ٦٠، ٧١، ٣٦، والبيان والتبيين ٣٧٠/٣ ونساء الخلفاء ص ٩٢ وذم الهوى ص ٣٤٣.

(٢) الديارات ص ٧٧ وأعلام النساء ٣٥٩/٢، وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٢٧، ٢٣٨، ٢٤١.

(٣) زهر الآداب ٦٤٤/٣، ومعجم الأدباء ٧٩/٥.

(٤) العقد الفريد ٤٦/٦، ومحاضرات الأدباء ٤٢/٣.

ملك الثلاث الأنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
 ما لي تطاو عنني البرية كلها وأطيعهن وهنّ في عصياني
 ما ذاك إلا إن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني
 وقد ترددت تلك الفكرة على ألسنة الشعراء، فقال ابن الرومي^(١):

أقول إذ غصبتني كف جارية الله أكبر من وذو من هبل
 إن الغواني بما أتلن من أمل فما يبالين ما لاقين من أجل
 متى غلبن رجال الجد في زمن كما غلبن رجال اللهو والغزل
 وإن أعجب شيء أنت مبصره في كل ما حملته الأرض من ثقل
 كف خضيب من الحناء غاصبة كفا خضيباً من الأبطال والنصل
 يا حسرتا لي ويا لهفا ويا عجباً إن هذه الحال لم تنكر ولم تنزل
 وصرح العباس بن الأحنف بأن سلطان الهوى قد جعل من الرجال
 عبيداً للنساء فقال^(٢):

من يلمني على النساء ألمه أنا والله للنساء ودود
 ثم قال:

ريح هذا الهوى لقد ملك النـ اس وصارت له عليهم بنود
 فلئن قادني هواي لقد كا ن تصابي إلى الهوى داود
 وقال:

نحن في محبس الهوى قد قررنا وعلينا سلاسل وقيود
 لا يكاد الهوى يفارق صباً بل أراه في كل يوم يزيد
 أما الإمام الشافعي وهو من عرف بالورع والتقوى فقد كشف عن

(١) ديوان ابن الرومي ٤٦٩/٣.

(٢) ديوان العباس بن الأحنف ص ٧٨.

رأيه في حب النساء فقال^(١) :

أكثر الناس في النساء وقالوا إن حب النساء جهد البلاء
ليس حب النساء جهداً ولكن قرب من لا تحب جهد البلاء
وسمع عند قوله^(٢) : اشتريت جارية مرة وكنت أحبها فقلت لها :
أليس شديداً أن تحب فلا يحبك من تحبه
فقلت الجارية :

ويصد عنك بوجهه وتلح أنت فلا تغبّه
ولم يتورع الناس في الاستشارة وأخذ الفتاوى في الحب . . فقد
روى ياقوت الحموي^(٣) ، فقال :

بلغني أن رجلاً جاء الشافعي برقعة فيها :
سل المفتي المكي من آل هاشم إذا اشتد وجد بامريء كيف يصنع
قال : فكتب الشافعي تحته :

يداوي هواه ثم يكتنم وجده ويصبر في كل الأمور ويخضع
فأخذها صاحبها وذهب بها ثم جاءه وقد كتب تحت الجواب :
فكيف يداوي والهوى قاتل الفتى وفي كل يوم غصة يتجرع
فكتب الشافعي رحمه الله :

فإن هو لم يصبر على ما أصابه فليس له شيء سوى الموت ينفع
ولسنا في مجال تحقيق صحة الخبر أو عدمه ، إلا أن الذي يعيننا

(١) ديوان الشافعي ص ٢٥ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ١/ ٢٩٧ .

(٣) ديوان الشافعي ص ٥٨ - ٥٩ .

منه أنه دليل على مدى الاهتمام بالعشق وعدم التخرج من التصريح به .
على أن هذا لا يعني عموم الخضوع لهذه الظاهرة والعمل بها . .
فقد وجدنا في العصر العباسي من الشباب والشيوخ من يتصدى للإقبال
على الحب والانسحاق وراء اللهو والعبث . .

قيل إن عبدالله بن المعتز كان (يعيب العشق كثيراً، وكان يقول إنه
طرف من الحق، فإذا ما رأى من أصحابه مطرقاتاً أو ساهماً قال له:
وقعت يا فلان وقلّ عقلك وسخفت)^(١).

ويذكر عن إسحق بن إبراهيم أنه كان يعمد إلى مغالبة نفسه وقهره
لها ومنعها عما تحب من أنس ولذة ولهو رغم توفر أسبابها له . . ليفرض
على نفسه سلطان العقل والإرادة لئلا تفوقه إلى ما تريد^(٢).

وكان الشافعي الإمام يقول مبيناً أن سهره لتنقيح العلوم الذّ له من
وصل الغواني وأن صرير أقلامه على الصفحات أحلى عنده من أفانين
الموسيقى والغناء، وأن نقره على أوراقه ليلقي عنها الرمل الذّ لديه من
نقر الفتاة على دفها، وأن تمايله لحل مسألة عويصة أشهى عنده من
تمايله من مدامة ساق . . قال^(٣):

سهرى لتنقيح العلوم الذّ لي	من وصل غانية وطيب عناق
وصرير أقلامي على صفحاتها	أحلى من الدوكاء والمستاق
والذّ من نقر الفتاة لدفها	نقري لألقي الرمل عن أوراقى
وتمايلي طرباً لحل عويصة	في الدرس أشهى من مدامة ساق
وأبيت سهران الدجى وتبيتة	نوماً وتبغى بعد ذاك لحاقى

(١) الديارات ص ٧٧.

(٢) الديارات ص ٤٢ - ٤٤.

(٣) ديوان الشافعي ص ٦٣ - ٦٤.

الفصل الأول

الجواري والشعراء

الجواري الحبيبات :

وتترأى لنا صور مختلفة في الأدب للجواري، أكثرها وضوحاً واتساعاً صورة (الجارية الحبيبة) . . وقد ظهرت هذه الجارية المعشوقة في أحوالها المتعددة . . فهي مرة شريفة عفيفة محصنة لا يطمع محبوبها في وصالها لمنعتها وعزتها . . وهي مرة متقلبة لا تثبت على ود ولا تدوم على حال . . تمنح وصلها وودها لمن تشاء، لا تحفظ عهداً ولا تصون ودّاً إنما هو لهو الساعة وكسب الفرصة . .

وقد أكثر شعراء العصر من التحدث عن أمثال هذه الجواري وتنزلوا بهن غزلاً حسيّاً ماجناً بل فاحشاً أحياناً . . تحدثوا عن طبايعهن وصلاتهن ووصفوا أجسامهن وأسهبوا في عرض جوانب الفتنة والجمال فيهن .

العفيفات :

أما ما أورده الشعراء من مزايا وصفات نعتوا بها الجواري العفيفات فتكاد تكون تقليدية إلّا في طريقة تناولها، وأكثر ما دار في هذا النوع من الغزل يكاد يتمثل بمعاناة الشاعر من اللوعة والهجر والفراق وانقطاع الرجاء من لقاء الحبيبة . .

وقد يرى المحب حبيبته عن بعد بين رفيقاتها فما يكون إلّا اضطراب النفس واختلاط اللب فيصرف نظره عنها إلى غيرها لئلا يعرف

الحب في عينيه، وقد يرسل إليها الكتب . . فيكثر حديثه عن الرسل . .
إلى غير ذلك من المعاني التي دارت في الغزل العفيف .

فالعباس بن الأحنف^(١) وهو إمام الغزل العفيف في العصر يحدثنا
كيف يبدأ الحب وكيف يوقع صاحبه في لجج لا تطاق من الهوى،
وكيف تنفذ دموعه لكثرة بكائه فلا يكتفي بعينه لعدم صلاحها للبكاء
فيسأل عمن يعيره عينين دمعهما مدرار ليكي بهما . . قال^(٢) :

الحب أول ما يكون لجاجة تأتي به وتسوقه الأقدار
حتى إذا سلك الفتى لجج الهوى جاءت أمور لا تطاق كبار
نزف البكاء دموع عينك فاستعر عيناً لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرايت عيناً للبكاء تعار
وقال^(٣) :

عيون العائدات تراك دوني فبا حسدي لعيني من يراك
أريدك بالكلام فأنقبيهم فأعمد بالكلام إلى سواك
وأكثر فيهم ضحكي ليخفي فسني ضاحك والقلب باك
وقال واصفاً كيف أنه يغض طرفه إذا ما رأى حبيبته ليستر حبه لها
عن الناس، وكيف أن الدموع تفضحه فتبيح ما أضر:

هبوني أغض الطرف إذا ما بدت وأملك فلا أنظر
فكيف استتاري إذا ما الدموع نطقن فبحن بما أضمر
فيا من سروري به شقوة ومن صفو عيشي به يكدر
لعلك جربتني بالصدو دعداً لتنظر هل أقصر

(١) الأغاني ٨/٣٥٤.

(٢) الأغاني ٨/٣٥٤.

(٣) ديوان العباس بن الأحنف ص ٢٠٧ والأغاني ٨/٣٥٩.

فلا تكذبن فإن السلو للقلب موعده الحشر
وأشهد أنك بي واثق وإن كنت تظهر ما تظهر
وأنتك تعرفني بالوفاء وستر الحديث ولا تنكر^(١)
وقال أبو نواس^(٢) إلا أنه سبق وأجاد:

زهدت جنان في الذي رغبت إليها فيه نفسي
فزهدت في الدنيا وصارت منيتي في زور رمس
وطويت عيني أن تراني عينها وأمت جرسى
كيلا يروّع ذلك الوجه المليح سماع حسي
وقال الشريف الرضي^(٣)، في المعنى نفسه:

أقل سلامي إن رأيتك خيفة وأعرض كيما لا يقال مريب
وأطرق والعيان يومض لحظها إليك وما بين الضلوع وجيب
يقولون مشغوف الفؤاد مرقع ومشغوفة تدعوه فيجيب
وما علموا أنا إلى غير ريبة بقاء الليالي نغتدي ونؤوب
عشقت وما لي يعلم الله حاجة سوى نظري والعاشقون ضروب
وما لي يا لمياء بالشعر طائل سوى أن أشعاري عليك نسيب
ورغم اشتها العباس بن الأحنف في العصر العباسي بهذا النوع
من الغزل ورغم كثرة الشهادات بذلك حيث قال أبو الفرج
الأصفهاني^(٤): (كان العباس شاعراً غزلاً ظريفاً مطبوعاً وله مذهب
حسن ولديباجة شعره رونق ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٤٧.

(٣) ديوان الشريف الرضي ص ١٧٥.

(٤) الأغاني ٣٥٤/٨ والعصر العباسي الأول ص ٣٧٦.

الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني).
ووصفه أبو العباس المبرد في كتابه الروضة^(١) فقال فيه : (كان العباس
من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً ورغم
المادية التي عرف بها الشعراء الأعلام في العصر العباسي كبشار بن برد
وأبي نواس فقد رأينا لهما شعراً يكاد يقرب من الشعر العفيف . ويمكننا
أن نرجع الأمر مع بشار إلى أنه ربما عمد إلى القول في هذا الغرض
للتدليل على قدرته على التفوق فيه أسوة بقدرته على التفوق في الغزل
الحسي الذي شهر به .

أو ربما كان الذي استدعى منه هذا النوع من الغزل حصانة وعفة
بعض الجواري اللاتي تعرف بهن كعبدة وحمدة المكناة (بأم محمد).
فقد قال في عبدة شعراً يعتبر من الشعر العفيف منه قوله^(٢) :

يا عبد إنني قد ظلمت وإنني مبدد مقالة راغب أو راهب
وأتوب مما تكرهين لتقبلي واللّه يقبل حسن فعل التائب
ويحس القارئ في غزله بعبدة احتراماً وإجلالاً وحرصاً على
إظهار التوبة مما عرف عنه قال^(٣) :

يا عبد حبي لك مستور وكل حب غيـره زور
إن كان هجري سرکم فاهجروا إنني بما سرك مسرور
وقال^(٤) :

يا عبد بالله فرجي كربى فقد براني وشفني نصبي

(١) العصر العباسي الأول ص ٣٧٦.

(٢) الأغاني ٦/ ٢٣٣.

(٣) المصدر نفسه ٦/ ٢٣٦.

(٤) المصدر نفسه ٦/ ٢٣٤.

وضقت ذرعاً بما كلفت به من حبكم والمحب في تعب
ففرّجي كربة شجيت بها وحرّ حزن في الصدر كاللهب
ولا تظني ما أشتكي لعباً مبهات قد جلّ ذا عن اللعب
فهو يعترف صراحة أن حبه مع غيرها كان لعباً أما حبه لها فقد جلّ
عن أن يكون كذلك .

وقال في (حمدة) المكناة بأم محمد وقد وصفها أيضاً بالمنعة
والعفة :

سقياً (لأم محمد) سقياً لها إذ نحن في لعب الشباب اللاعبين
بيضاء صافية الأديم ترعرعت في جلد لؤلؤة وعفة راهب
ولا أشك في أن لمكانة الجارية ولمستواها الخلقي أثره في موقف
الشاعر منها . . و فرق كبير بين قول الشاعر في خطاب جارية مبتذلة
تتناقلها الأيدي ، وبين قوله في جارية محترمة لذاتها صائنة نفسها حافظة
لشرفها . . وكذلك كان الحال في غزل أبي نواس بجنان الجارية
المحصنة التي كانت تعيش في دار عبدالوهاب الثقفي . . فهو يختلف عن
غزله بجواري الحانات أو القينات الرخيصات .

وقد اتّسم حبه لجنان بالعمق والصدق ، واتّسمت معانيه في غزله
بها بالركة واللفظ . . فكان نموذجاً للشعر العفيف الذي يعبر فيه صاحبه
عن الألم والحرمان والصدق قال^(١) مبيتاً تحايله في رؤيتها :

اعتل بالماء فادعوبه لعلها تنزل بالماء
ويعلم الله على عرشه ما طربي الماء ولا دائي
إلا لما ألقى بإنسانه مختالة في نعل حسناء

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٣٤ .

ولدت في حبك يا منيتي بطالع ليس بمعطاء
هذا وريحي منكم صرصر تجف دوني كل خضراء
ولعل من أروع ما قيل في كتمان الهوى خشية الناس قوله فيها^(١):

زهدت جنان في الذي رغبت إليها فيه نفسي
فزهدت في الدنيا وصارت مُنَيَّبِي في زور رمسي
وطويت عيني أن تراني عينها وأمتُ جرسِي
كيلا يروع ذلك الوجه المليح سماع حسي
وعبر عن قناعته في حبه بمجرد الإيماء والتسليم فقال:

قلبي بخاتم حبكم مختوم ما في هواك له الغداة قسيم
أخذت مودتكم هواه بقدره قلباً به أبدأ عليه مقيم
من كان أعطى منك قلبي حظه ممن أحب فلأنني محروم
يا ليت حظي حين تجتهد المني من نيلك الإيماء والتسليم
وقد اختلف الباحثون في الوقوف من هذا الشعر فمن قائل إنه شعر
متكلف مصطنع وإن أبا نواس ما أحب حباً عفيفاً قط، ومن قائل إنه كان
عفيفاً في حبه صادقاً مخلصاً فيه.

وواضح أن جنان كانت أول امرأة شغفته حباً وهو لا يزال فتى
يختلف إلى المربد وحلقات العلماء. ويبدو أنه كان لا يزال نقي النفس
إلى حد ما رغم قذارة منشئه ودناءة مرباه. . كان لما يزل غير مطلع على
المفاسد والمبازل التي انغمس فيها فيما بعد. . وربما كان للمثل الشريفة
لشعراء الغزل العذري في العصر الأموي أثرها في طبع غزله بجنان بهذا
الطابع العفيف، ثم ما لبث أن لفه تيار المجتمع بالمجون والتحلل

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٤٧ .

والخلاعة فصار حديثه عن المرأة حديثاً حسياً فاحشاً بعد أن خالط
المبتذل والمتحلل من الجوّاري والقيان . . فلا غرابة إذن في صدور مثل
هذا الغزل العفيف منه في جنان .

ومما يؤكد هذا أنه حينما جذبتَه بغداد فيمن جذبت من الشعراء
غير النغمة الشعرية التي كان يغني بها وحول موقفه من جنان فقال^(١):

أيا من كنت بالبصرة أصفى لهم الود
ومن كانوا موالئ ومن كنت لهم عبدا
ومن قد كنت أرحاه وإن ملل وإن صـدا
شربنا ماء بغداد فأنساناكم جدا
فلا ترعوا لنا عهدا فما نرعى لكم عهدا

وربما عمد بعض الشعراء كأبي العتاهية إلى الإعلان عن بعض
الأسماء يكثرّون التغزل بها قصد الشهرة في الأوساط الأدبية . . فقد شهر
بحبه لعتبة جارية رائطة بنت السفاح زوجة المهدي ، وكانت هي تزدرية فلما
أكثر فيها القول شكته إلى سيدتها فحدثت المهدي بشأنه فغضب عليه
لتعرضه لحرمة وجوّاري قصره وأمر بضربه مائة سوط وسجنه إلا أنه شفع له
فأطلق سراحه . . ويقول بعض الرواة إنه لم يكن يحبها حباً صادقاً^(٢) .

وكان شعره فيها غاية في الرقة حتى قال فيه ابن قتيبة^(٣) : (وغزله
ضعيف مشاكل ، لطبايع النساء ، ومما يستخفن من الشعر) وذلك لفرط
تذلل لعتبة ورقة كلامه معها قال^(٤):

(١) العصر العباسي الأول ص ٢٣٢ .

(٢) انظر قصته مع عتبة في طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٣٠ وزهر الآداب ٣٥/٢ وتاريخ
بغداد ٢٥٤/٦ .

(٣) الشعر والشعراء ٢/٦٧٥ .

(٤) الشعر والشعراء ٢/٦٧٥ ووفيات الأعيان ١/٢٢٣ وديوانه ص ٦١٦ .

يا إخواني إن الهوى قاتلي فيسروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتباع الهوى فإنني في شغل شاغل
وقال وقد تذلل حتى لكأنه يستعطي:

عينني على عتبة منهلة بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل
بسطت كفي نحوكم سائلاً ماذا تردون على السائل
إن لم تنيلوه فقولوا له قولاً جميلاً بدل النائل
أو كنتم العام على عسرة منه فمنوه إلى القابل^(١)
ومن لطيف شعره فيها:

ولقد صبوت إليك حتى صرْتُ من فرط التصابي
يجد الجليس إذا دنا ربح التصابي في ثيابي
وممن اشتهر بغزله العفيف في العصر العباسي (عكاشة العمي)^(٢)
وكان قد هوي جارية لبعض الهاشمين يقال لها (نعيم) ويبدو أن مرامها
كان مستصعباً عليه فكان يكتفي منها بالنظر من بعيد أو بالكلام اليسير،
ثم قدم قادم من أهل بغداد فاشتراها من مولاتها ورحل بها إلى بغداد،
فعظم أسفه وحزنه عليها، واستهيم بها طول حياته، فكان أكثر همه
وشغله أن يقول فيها الشعر وينوح عليها ويبكي^(٣)، ومما قاله فيها^(٤):
نعيم هل بكيت كما بكيت وهل بعدي وفيت

(١) وفيات الأعيان ١/ ٢٢٣.

(٢) هو عكاشة بن عبد الصمد العمي من أهل البصرة، شاعر مقل من شعراء الدولة العباسية ليس
من شهر وشاع شعره في أيدي الناس ولا من خدم الخلفاء ومدحهم. الأغاني ٣/ ٢٥٢.

(٣) الأغاني ٣/ ٢٥٦.

(٤) المصدر نفسه ٣/ ٢٥٧.

ألا ليت شعري كيف بعدي اصطبارك إذ نأيت وإذ نأيت

فكم من عبرة ذرفت فلما خشيت عيون أهلي واستحييت
نهضت بها مكاتمة فلما خلوت ذرفت لها حتى اشتفيت
وقلت لصحبتني لما رمانني هواك بدائه حتى انطويت
أراني من هموم النفس ميتاً ولم أر في نعيم ما نويت
فليت الموت عجل قبض روحي جهاراً فاسترحت وأين ليت
وبقي الشاعر يعيش على ذكرها ويردد حبها نغمات حزينة شجية
تخفف عنه بعض لوعته فقال^(١):

أنعيم في قلبي عليك شرار وعلى الفؤاد من الصبابة نار
وعلى الجفون غشاوة وعلى الهوى داع دعت له لحيني الأقدار
بمضلة لب الحلیم إذا رنت بالمقلتين كأنها سحار
طالبتها حولين لا ليلى بها ليل ولا هذا النهار
حتى إذا ظفرت يداي بكاعب كالشمس تقصر دونها الأبصار
وثلجت صدرأ بالفتاة وصارتا كالنفس نفسانا وقرّ قرار
بلغ الشقاء أشاء ما يستطيعه فينا وفرق بيننا المقدار

المتقلبات:

ومن الصور التي ردها شعراء العصر مما يوضح لنا جانباً من
جوانب صفات الجوّاري ويكشف لنا عن علاقتهن بالصورة التي رسموها
لتقلب الجوّاري في الحب وعدم الثبات عليه أو في الإكثار من العشاق
والإشراك في الحب . . ولعل بشاراً وأبا نواس من أكثر من ردّوا هذه
المعاني:

(١) الأغاني ٢٥٨/٣.

قال أبو نواس في وصف جارية^(١):

ومظهرة لخلق اللّه ودًا وتلقى بالتحية والسلام
أتيت فؤادها أشكو إليه فلم أخلص إليه من الزحام
فيا من ليس يكفيها خليل ولا ألفا خليل كل عام
أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام
ومثله قول العباس بن الأحنف في حبيته فوز في هجره إياها حينما
وقف على خيانتها له وعلى تلونها وإشراكها غيره بحبها . . قال^(٢):

كتبت تلوم وتستريث زيارتي وتقول لست لنا كعهد العاهد
فأجبتها ودموع عيني جمّة تجري على الخدين غير جوامد
يا (فوز) لم أهجركم لملاّلة مني ولا لمقال واش حاسد
لكنني جريتكم فوجدتكم لا تصبرون على طعام واحد
وقال أبو نواس في الشركة في الحب^(٣):

كفاك ما مر على راسي من شادن هيّج وسواسي
أفضل ما أبلغ من نعمته تحدثني عن قلبه القاسي
أغار أن أنعمت منها الذي ينعمته الناس من الناس
كل أحاديثي سوى ذكرها منكشف مني لجلاسي
لا حبذا الشركة في حبها وحبذا الشركة في الكاس
أما بشار فيعاتب (حبي العامرية) في قلبها في حبها وإشراكها غيره
في قلبها فيقول^(٤):

(١) ديوان أبي نواس ص ١٠٦ والشعر والشعراء ٦٩٨/٢.

(٢) ديوان العباس ص ١٠٦.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٢٨٤.

(٤) ديوان بشار ١/٢ - ٢.

إن تكوني غنيبت عنا فلنا عنك أغنى فيممي حيث شئت
من يرجيك بعد بيع محب كان يهوى بجهده ما هويت
لم تكوني لتصلحي لوداد لكريم كحلة العنكبوت
قد شبعنا من ودك المرطعماً وروينا إن كنت منا رويت
ثم يقول بأنها ستندم عليه إذا ما عاشرت غيره:

يا ابنة العامري قد كان عهد بيننا في الهوى ولكن نسيت
فاذكري وذنا وذوقي سوانا تذكرينا وتندمي ما بقيت
أو أفبقي من داء ما يصنع الحب بصب فطالما قد دهيت
إلى أن يقول وقد ندم على هجرها ورضي منها أن تصبر عمن
صاحبت:

كيف صبري وأنت عندي كنفي بمكان المبعاد المقوت
فارجعي إن رجعت عن رأي سوء بهوى لسين الحواشي ثبيت
وإذا ما أردت ودي هنيناً فصليني بالصبر عمن لقيت
أنت ياقوتة قدرت عليها لا أحب الشريك في الياقوت
وقد أوردنا خلال حديثنا عن الجواري صوراً عديدة لتقلبهن
وخداعهن لمحبيهن ووسائلهن في اقتناصهم وسلب أموالهم وذكرنا
الكثير من أقوال الأدباء والشعراء فيهن . . . ولهذا فسكتني بهذا القدر .

الجواري الساقيات :

وأكثر الشعراء من ذكر حانات الخمر فوصفوا مجالسها وتحدثوا
عن الشاربين والساقيات ووصفوا الأباريق والزقاق والكؤوس .
وقد حظيت الساقيات بالجزء الأكبر من حديثهم . . لاكتمال

صفات الجمال فيهن غالباً.. إذ كن يخترن اختياراً.. ولا يكتفى في اختيارهن بتوفر صفات الرقة والنعومة والجمال.. وإنما كان يشترط فيهن الأدب وحسن الطاعة والظرف.

روى كاتب الرشيد إسماعيل بن صبيح^(١): (قال لي الرشيد: وأبلغني وصيفة مليحة مقدودة شكلة، حلوة متكلمة، ظريفة عالمة، تسقينني، فإن الشرب يطيب من يد مثلها) فقلت: (يا سيدي علي الجهد)، فقال: (اجعل أمامك قول هذا العيَّار، يريد أبا نواس وامثل فيها ما حد في مثلها لك) قلت: (يا سيدي فما قوله؟) فقال الرشيد^(٢):

من كف ساقية ناهيك ساقية وفي حسن قد وفي ظرف وفي أدب
كانت لرب قيان ذي مغالبة بالكشخ محترف بالكشخ مكتسب^(٣)
فقد رأت ووعت عنهن واختلفت ما بينهن ومن يهوين بالكتب
حتى إذا ما غلى ماء الشباب بها وأفعمت في تمام الجسم والقصب
وجمشت بخفي اللحظ فانجمشت وجرت الوعد بين الصدق والكذب
تمت فلم ير إنسان لها شبةاً فيمن برا الله من عجم ومن عرب
تلك التي لو خلعت من عين قيمها لم أقض منها ولا من حبها أربي

وبرعت جوارى الحانات في إظهار مفاتهن وإبراز ملاحظتهن وكن يتفنن في ملابسهن ومناطقهن وفي تصفيف شعورهن ويعقربن أصداغهن ويزين سوافهن، وقد يتحلين بالحلى المختلفة فيجعلن الخلاخيل في أرجلهن والأقراط في آذانهن والأسورة في معاصمهن، وكن إلى ذلك بارعات في الغناء والرقص، ملبيات لرغبات الشاربين وطلباتهم..

(١) ألحان الحان ص ٢٩٢.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٧٢.

(٣) الكشخ: جمع النساء والرجال لرية.

وربما كان الشاربون شعراء تبلغ بهم اللذة إلى أن يطلقوها أشعاراً في وصف الأنس والبهجة وحديثاً بديعاً عن المجالس والساقيات... وكانوا يرون أن أحسن الشعر ما قيل أثناء الشرب، فمن ذلك قول محمد بن عبدالله بن طاهر:

إن أحسن الشعر ما دام الإنسان يشرب، وما كان مكسوراً لحناً حسناً تغني به منوسة^(١) وأشباهها^(٢)... وهكذا تتعاون قرائح الشعراء وحناجر القيان ودبيب الخمرة في خلق جوٍّ زاخر بالطرب والأدب والجمال وتتحول تلك المجالس إلى حلقات تختلط فيها ألحان المغنيات بعزف المزامير ودق الطنابير مع صخب السكارى وضجيجهم وتبقى ذكرى تلك الحانات والأنس فيها عالقة في أذهان الشعراء... فنراهم يحنون إليها ويتمنون العودة إليها... فمن ذلك قول أبي الشبل البرجمي^(٣) في دير أشموني^(٤):

شهدت مواقع اللذات طراً وجبت بقاعها بحرراً وبراً
فلم أر مثل أشموني محلاً الذلحاضريه ولا أسراً
به جيشان من خيل وسفن أنساخا في ذراه واستنقرا
كأنهما زحوف وغى ولكن إلى اللذات ما كراً وفرأ
سلاحهما القواقز والقناني وأكواب تدور هلمّ جرأ
وضربهما المثالث والمثاني إذا ما الضرب في الحر استحرأ

(١) منوسة: قينة.

(٢) الأغاني ٦٢/٢٣.

(٣) من شعراء الدولة العباسية عاش أيام المأمون وقد أدرك المتوكل ومدحه وعمر طويلاً... كان من الطيِّاب وله شعر لطيف وكان معتكفاً على الشرب لا يفارقه ولا يوجد إلا سكران. الديارات ص ١٧..

(٤) أشموني: امرأة بني الدير على اسمها ودفنت فيه وهو بقطربل غربي دجلة، الديارات ص ٤٦.

وأسرهما ظباء الدير طوعاً إذا أسد الحروب أسرن قسراً
لقد جرّت لنا الهيجاء خيراً إذا ما جرّت الهيجاء شراً^(١)

فقد شبّه الشاعر كثرة رواد هذا الدير بالجيش الزاحف الذي يكر
على اللذات ويفر منها، وجعل سلاحه: القواقز والقناني
والكوّوس، وضربه: المثاني والمثالث في الغناء والموسيقى، والأسر
عنده هو أسر الظباء طوعاً لا قسراً..

إنها حرب في حركتها واشتداد ضجيجها وعجيجها وكثرة سلاحها
وضربها وفي أسرها للظباء.. إلّا أنها هجاء تجر الخير على المحاربين -
على حد قول الشاعر - لا الشر.

وقال أبو نواس متشوقاً إلى أيام قصف وسرور وعزف قضاها مع
ندمائه، وذاكراً أيامه بالسدير^(٢):

عاد لي بالسدير شادن قصف وسرور مع الندامي وعزف
وعيون الظباء ترنو إلينا منعمات بكل بر ولطف
فطردنا الصدود أتبع طرد وعطفنا الوصال أحسن عطف
ورخيم الدلال كاد من الرقة يدمي أديمه وقع طرف
حلّ منه الصليب في موضع الجيد فقد خضّه على كل ألف
فأدركنا رحي السرور ثلاثاً ووصلنا الحضور كفاً بكف
وقال متغزلاً بساقية^(٣):

تأخذها من كف ذي غنة كأنما خط بتمثال

(١) الديارات ص ٥٠.

(٢) السدير: اسم موضع.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٣٦٤ والديارات ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

يسقيك بالعينين خمرأ إذا ناغاك بالكأس بإعجال
ليس بمحتاج إلى مكحل ولا دماليج وخلخال
خال به في خده واضح وا بأبي ذلك من خال
ولكشاجم في السماع والسكر وفي وصف العود وبراعة المسمعة
في الضرب عليه، قوله^(١):

ومسمعة تحنو على مترنم له زجل عال وليس له سحر^(٢)
إذا ما تأملت الحشا منه خلته تضمن شبعأ وهو منخرق صفر
له نغم يفضين من كل سامع إلى حيث لا تفضي بشاربها الخمر
إذا طرقت به بالأنامل والتنقي على جسمه من جسمها النحر والصدر
بكى طرباً فاستضحك اللهو نحوه وفقت عرى الأسباب واستلب الصبر
وتمنحه اليمنى حساباً مفصلاً فتحمل فيه الخمس والست والعشر
فمث صريع السكر أطيّب ميتة وما الحل إلا أن يسفك السكر

فصورة الجارية الساقية في هذا النوع من الشعر هي صورة الشابة
الجميلة التي اكتملت محاسن جسمها ووجهها ولسانها وصوتها
وبيانها . . إنها تغني عن النقل بل عن الخمر فوجهها متنزه للعيون وفي
طرفها الخمر وتحت لسانها السحر . . قال مسلم بن الوليد في ذلك^(٣):

وساقية كالريم هيفاء طفلة بعيدة مهوى القرط مفعمة الحجل
تنزه طرفي في محاسن وجهها إذا احتثت الطاسات يغني عن النقل

(١) ديوان كشاجم ص ٩٨ والديارات ص ٢٦١.

(٢) الزجل: رفع الصوت وخص بالتطريب (اللسان/زجل)، السحر: الرقة (اللسان/سحر)
والشخر: سواد القلب ونواحيه.

(٣) ديوان صريع الغواني ص ٤٢.

وقال^(١):

وهات استقني من طرفها خمر طرفها فلاني امرؤ آليت لا أشرب الخمر

رثاء الجوّاري:

وكان للجوّاري نصيب من وفاء أصحابهن ومحبيهن فقد رأينا الكثير من الشعر في رثائهن وإبداء الحسرة على موتهن، فمن ذلك ما قيل إنه وجد على قبر جارية إلى جنب قبر أبي نواس ذكر أن أبا نواس قالها وهي^(٢):

أقول لقبر زرتة متلثماً سقى الله برد العفو صاحبة القبر
لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجى وشمس الضحى بين الصفائح والقفر
عجبت لعين بعدها ملت البكا وقلب عليها يرتجي راحة الصبر

وقال حبيب الطائي يرثي جارية أصيب بها^(٣):

جفوف البلى أسرع في الغصن الرطب
وخطب الردى والموت أبرحت من خطب
لقد شرقت في الشرق بالموت عادة تبدلت عنها غربة الدار في الغرب
والبسني ثوباً من الحزن والأسى هلال عليه نسج ثوب من الترب
وكنّت أرجي القرب وهي بعيدة فقد ثقلت بعدي عن البعد والقرب
لها منزل تحت الثرى وعهدتها لها منزل بين الجوانح والقلب
وقال يرثيها^(٤):

(١) المصدر نفسه ص ٤٦.

(٢) العقد الفريد ٣/ ٢٨٠ (لم أجدها في ديوانه).

(٣) في الديوان (وقال يرثي امرأة محمد بن سهل) ولا أظنه قالها إلا في جاريته لأنه عبر في الأبيات عن عاطفة الحب وهذا ما لا يمكن أن يكون فيما لو رثى امرأة لغيره.

(٤) في الديوان: (يرثي جارية له) والعقد الفريد ٣/ ٢٨٠ - ٢٨١.

ألم ترني خلّيت نفسي وشأنها ولم أحفل الدنيا ولا حدّثانها
 لقد خوفتني النائبات صروفها ولو أمنتني ما قبلت أمانها
 وكيف على نار الليالي معرّسي إذا كان شيب العارضين دخانها
 عنان من اللذات قد كان في يدي فلما قضى الألف استردت عنانها
 منحت المها هجري فلا محسناتها أود ولا يهوى فؤادي حسانها
 يقولون هل يبكي الفتى لخريده إذا ما أراد اعتاض عشرين مكانها
 وهل يستعيض المرء من خمس كفه ولو صاغ من حر اللجين بنانها
 ويلاحظ في هذه الأبيات مدى عمق العاطفة وحرارتها وصدق
 الشعور.

وكان لمعلّى الطائي^(١) جارية يقال لها وصف، وكانت أديبة
 شاعرة.. قيل إنه أعطي فيها أربعة آلاف دينار فباعها. فلما دخل عليها
 قالت له: بعثني يا معلّى؟ قال: نعم، قالت: والله لو ملكت منك مثل ما
 تملك مني ما بعثك بالدنيا وما فيها، فرد الدنانير واستقال صاحبه
 فأصيب بها إلى ثمانية أيام فقال يرثيها^(٢):

يا موت كيف سلّبتني وصفا قدمتها وترككتني خلفا
 هلا ذهببت بنا معاً فلقد ظفرت يداك فسمتني خسفا
 وأخذت شق النفس من بدني فقبرته وترككت لي النصفاً
 فعليك بالباقي بلا أجل فالموت بعد وفاتها أعفى
 يا موت ما أبقيت لي أحداً لما زففت إلى البلى وصفا

وهكذا رأينا نماذج مختلفة في مواقف الشعراء من الجوّاري، فمن
 محب عفيف لجارية عفيفة ومن محب عابث لجارية متقلبة، ومن وفّي

(١) معلّى الطائي: شاعر من مصر.

(٢) العقد الفريد ٢٧٩/٣.

مخلص لا ينسى حبه للجارية حتى بعد وفاتها . .

وقد مرّت بنا صور عدة تمثل لنا جوانب مختلفة من ميول الشعراء ونزعاتهم ومن صفات الجوّاري وأحوالهن في حياتهن وعلائقهن بالشعراء وغيرهم .

ونكتفي بهذا القدر لأننا سنتناول القيان وهنّ صنف من أصناف الجوّاري المغنيات كما سنتناول الحديث عن جوّاري القصور فنكون بذلك قد أعطينا فكرة لا بأس بها عن صورة الجوّاري في الأدب .

الفصل الثاني

الجواري والخلفاء

جواري القصور:

وكان للجواري اللاتي تميزن على سواهن في الجمال والأدب أن يكن من المختارات لأهل القصور . . ولهذا رأينا النخاسين أو مالكي الجواري يتسابقون ويتفننون في صقل أذهانهم وتطوير السنتهن ويتنافسون في إظهار براعتهم والإعلان عنها لتصل أخبارهن إلى أسماع الخلفاء أو الأمراء أو القواد أو الموسرين . .

وكان لأصحاب هؤلاء الجواري المثقفات الجميلات أن يفخروا بهن كما يفخرون بشمين المتاع أو بما يتفردون به من النفائس والطرف وكثيراً ما ياذنون لهن بالظهور على الأصدقاء والاختلاط بهم لتجاذب الأحاديث وتناشد الشعر والتسامر بالقصص والأخبار، لتشيع براعتهم ويعرف تفوقهن فينالون بذلك الخير كل الخير .

وكان أصحاب الجواري يتفننون في الإعلان عن براعة جواريتهم فقد يتغزل أحدهم إذا كان شاعراً بجاريته ليعلن عن جمالها وكمالها وأدبها . . كالذي فعله إبراهيم بن إسحاق الموصلي حينما أكثر من التغزل بجاريته ذات الخال حتى وصل خبرها إلى هرون الرشيد فاشتراها^(١) بسبعين ألف درهم .

وكان البعض يدعون الشعراء^(٢) إلى بيوتهم ليطلعوا بأنفسهم على

(١) الأغاني ١٦/٢٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ٢٢/٥٢٢ .

براعة الجارية . . وكثيراً ما كانوا يلقون عليها البيت لتجيزه بيت أو بأبيات فينتشر خبر ذلك حتى يصل إلى أسماع الخليفة أو أصحاب القصور . كالذي كان يفعله الناطفي حينما كان يدعو مروان بن حفصة^(١) أو العباس بن الأحنف^(٢) أو أبا نواس^(٣) أو غيرهم ليلقوا على عنان بعض الأبيات وليتحدثوا بعد ذلك بما كان منها معهم .

وقد تكتب الجواري رسائل شعرية أو نثرية إلى بعض الشخصيات المقربة من الخليفة لتسعى لديه بشرائها . . ، كالذي كان من عنان حينما كتبت إلى الفضل بن الربيع كتاباً تستحثه فيه أن يشفع لها لدى الرشيد لشرائها فقالت^(٤) :

كن لي هديت إلى الخليفة شافعاً بوركت يا ابن وزيره من معلم
حث الإمام على شرائي قل له ربحانة دخرت لأنفك فاشمم
كما أنها كتبت إلى يحيى بن خالد قصيدة تمدحه فيها وتطلب إليه
أن يذكرها للرشيد ليشتريها فقالت^(٥) : ويبدو أنه كان قد شفع لجاريتين
قبلها لدى الرشيد بشرائهما .

مننت على أختي بمنك نعمة صنعت لهما منها عذاب الموارد
فمن^(٦) لي بما أنعمت منك عليهما وراك إله الناس كيد المكاييد

(١) المصدر نفسه .

(٢) الأغاني ٢٢ / ٥٣٠ .

(٣) المصدر نفسه ٢٢ / ٥٢٥ ونساء الخلفاء ص ٤٨ .

(٤) المحاسن والأضداد ص ١٥٦ .

(٥) طبقات الشعراء لابن المعتر ص ٤٢١ .

(٦) هكذا في الأصل ولا يستقيم الوزن إلا بتخفيف النون وقد تكون فمر لي أو: فمن بما أنعمت .

ومثل ذلك ما وقع لسكن جارية محمود الوراق^(١) أنه لما أراد محمود بيعها كتبت إلى المعتصم قصة تسأله أن يشتريها فلما نظر في قصتها خرقها ورمى بها لأنه - كما قيل - أراد مرة ابتياعها فأبت، فقالت^(٢):

ما للرسول أتاني منك بالياس أحدثت بعد وداد جفوة القاسي
فهبك ألزمتني ذنباً بظلمك لي ماذا دعاك إلى تخريق قرطاسي

أو قد تعرض الجارية على الخليفة فيجري لها امتحان أمامه في أمور مختلفة، فيرضى عنها ويشتريها أو يرفضها . . وفي ذلك أخبار كثيرة نذكر منها ما رواه علي بن الجهم إذ قال^(٣): إني لعند المتوكل يوماً، والفتح بن خاقان^(٤) حاضر إذ قيل له: فلان النحاس، فأذن له فدخل ومعه وصيفة، فقال له المتوكل: ما صناعة هذه؟ قال: تقرأ بالألحان. فقال الفتح: أقرأي لنا خمس آيات فاندفعت تقول:

قد جاء نصر الله والفتح وشقّ عنا الظلمة الصبح
خدين ملك ورجا دولة وهمه الإشفاق والنصح
وكل باب للندى مفلق فإنما مفتاحه الفتح
فأمره المتوكل بشرائها، وكانت أحظى جوارى الفتح.

وقيل إن جارية شاعرة عرضت على المتوكل وكان أبو العيناء جالساً فقال يستجيزها^(٥): أحمد الله كثيراً فقالت: حيث أنشاك

(١) محمود الوراق: طبقات ابن المعتز ٣٦٧ والبيان والتبيين ١٩٧/٣.

(٢) المستظرف من أخبار الجوّاري ص ٣٢.

(٣) المستظرف من أخبار الجوّاري ص ٧٣.

(٤) الفتح بن خاقان: أديب شاعر فصيح، ذكي فطن، تركي الأصل، اتخذه المتوكل العباسي صاحباً ووزيراً. . قتل معه عام ٢٤٧هـ (الأعلام ٥/٣٣١).

(٥) المستظرف من أخبار الجوّاري ص ٤١.

ضريراً . . فقال : يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشترائها .

وقد تصل الجارية إلى القصور في هدية تقدم إلى الخليفة أو غيره . . فتكتب لها الحياة الوادعة والعيش الرضي . . وربما تستطيع بجمالها وذكائها وحسن أدبها أن تنال قلوب ساداتها فتكون المحظية الأثيرة أو الزوجة أو أم الأولاد .

ومما لا شك فيه أن هؤلاء الجواري بما اتصفن به من صفات الرقة والحسن والأدب استطعن أن يثرن في نفوس ساداتهن الحب والإعجاب . . مما بدا أثره شعراً أو نثراً على ألسنتهم .

التغزل بهن :

وتداول كتب الأدب، الكثير من شعر الخلفاء والأمراء والقواد في جواريهم . . غزلاً أو وصفاً أو مدحاً أو رثاء . . واستطاعت الجواري الأثيرات أن يملأن المجالس أنساً وبهجة وفناً وشعراً . . فمن ذلك قول المهدي في جارية له تدعى (جوهر) ويبدو أنه كان معجباً بجمالها وحسن صوتها فقال^(١) :

ألا يا جوهر القلب لقد زدت على الجوهر
وقد أكملت لك الله بحسن الدل والمنظر
إذا ما هلت يا أحسن خلق الله بالمزهر
وغنيت ففاح البيت من ريحك بالعنبر
فلا والله ما المهدي أولى منك بالمنسبر
فإن شئت ففي كفك خلع ابن أبي جعفر
وقيل إن المهدي دخل في بعض دوره يوماً، فإذا جارية نصرانية،

(١) البيان والتبيين ٣ / ٣٧٠ - ٣٧١ .

وإذا جيبها واسع قد انكشف عما بين ثدييها وإذا صليب معلق فمدّ يده إليه فجذبه وأخذه، فولولت الجارية الحسناء على صليبيها، وسر الخليفة من المنظر ولم يلبث أن قال فيه :

يوم نازعتها الصليب فقالت (ويح نفسي أما تخلي الصليباً)
فأرسل إلى بعض الشعراء فأجاز البيت وأمر بالشعر فغني فيه صوت ولم يزل معجباً بهذا الصوت^(١).

ولعل من أكثر من رددت كتب الأدب أشعاراً لهم في الجواري الخليفة هرون الرشيد، ولا بدّ لنا قبل استعراضنا لهذه النماذج أن نقف وقفة قصيرة لعرض بعض الأمور:

لا نشك في أن الرشيد كان أكثر الخلفاء تأثيراً وأبعدهم ذكراً.. فقد طال حكمه ثلاثة وعشرين عاماً (١٧٠ - ١٩٣هـ)، وكان عصره أزهى العصور العباسية، وقد بلغت الحضارة والمدنية العربية والرفاه الاجتماعي أوجها على عهده، وكان الرشيد بالذات من بين الخلفاء محط الأنظار، وقد رأيناه بطلاً للكثير من القصص الخيالية في ألف ليلة وليلة وغيرها.. أفلا يمكن أن تكون هذه الأشعار كلها أو بعضها من ضمن ما نسج حول هذه الشخصية الفذة، أم أن الرشيد الخليفة الذي ذكر عنه أنه تزوج وتسرى العديد من الجواري، هو إنسان قبل كل شيء لا يمنعه سلطانه ولا تحول مشاغله دون أن يأخذ قسطه من مباحج العصر ولذا نلّذه.. فكان شعاره وشعار المعتدلين من الخلفاء:

وللّه مني جانب لا أضيعه وللهم مني والصبابة جانب
ثم إننا وقفنا على مدى تذوق الخاصة والعامة للشعر وشيوعه على الألسنة حتى لقد رأينا الرجل يعترض إحداهن ببيت شعر فتجيبه في

(١) الحان الحان ص ٢٩٦.

الحال بيت ملائم من حفظها أو نظمها لما قال

أفلا يمكن أن يكون الرشيد رجلاً ذا قلب كبير ولسان شاعر يحب ويتغزل سيما وقد سبق أن رأينا أن العصر لم يكن ليجد حرجاً في التحدث عن العشق والغرام والحب والغزل . . . وإن الحديث في هذه الأمور كان مظهراً حضارياً عندهم وموضوعاً مهماً دار في حلقات الفلاسفة والمتكلمين وفي مجالس الأدباء والعلماء . . وقد مرت بنا بعض النصوص الشعرية الغزلية حتى لمن عرف بالورع وانصرف عن الحياة الدنيا ومباهجها إلى العبادة والتقوى .

ألا يجوز أن يكون هذا الخليفة رغم سلطانه وجبروته كسائر أبناء عصره رقيقاً مرهف الحس في حياته الخاصة مع نسائه وجواريه يعجبه منهن ما يعجب غيره فيصدر عنه ما يصدر ويقول فيهن شعراً من رقيق الغزل . . . ؟

ولقد ذكرت أسماء عديدة للجواري اللاتي يروى أنهن شغفن الرشيد بحبهن، منهن: ماردة ودنانير وسحر وضياء وخنث وهيلانة . . وتواترت كتب الأخبار والأدب بذكر قوله في جواريه الثلاث سحر وضياء وخنث (ذات الخال):

ملك الثلاث الأنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
ما لي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهنّ في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني^(١)

ويذكر صاحب الأغاني أن حب الرشيد لجواريه الثلاث أمر تناقله الركبان وتحدث به الناس في الحل والترحال حتى أن فتية العرب

(١) الأغاني ٢٦٩/١٦، وقيل إن العباس بن الأحف قالها على لسانه، ومحاضرات الأدباء ٣/٤٢، والعقد الفريد ٤٦/٦، وتزيين الأسواق ص ١١.

وفتياتهم كانوا يتناشدون حين حجّ الرشيد هذه الأبيات^(١):

ثلاث قد حللن حمى فؤادي ويعطين الرغائب في ودادي
نظمت قلوبهن بخيط قلبي فهن قرابتي حتى التنادي
فمن يك حلّ من قلبي محلاً فهن من النواظر والسواد
وقيل إن الرشيد بعث إلى جاريته (سحر) لتصير إليه فاعتلت عليه
ذلك اليوم بعلّة، ثم جاءته من الغد، فقال^(٢):

أيا من ردّ ودي أمس لا أعطيكه اليوما
ولا والله لا أعطيك إلا الصد واللوما
وإن كان بقلبي منك حب يمنع النوما
أيا من سمته الوصل فأغلى المهر والسوما

وله في ماردة^(٣) قوله^(٤) يصف محاسنها وفعل تلك المحاسن
بقلوب من يبصرها:

وإذا نظرت إلى محاسنها فلكل موضع نظرة نبيل
وتنال منك بحمد ناظرها ما لا ينال بحمد النصيل
شغلتك وهي لكل ذي بصر لاقى محاسن وجهها شغل
فلقلبها حلم يباعدنا عن ذي الهوى ولطرفها جهل
ولوجهها من وجهها قمر ولعينها من عينها كحل
وقيل إن عتباً وقع بين الرشيد وماردة مرة فطال تهاجرهما، هذا
يأبى التواصل بعزة الخلافة وشرف الملك، وتلك تتمتع بعزة دالة

(١) الأغاني ١٦ / ٢٧٠.

(٢) الأغاني ١٦ / ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٣) وقيل (مارية) المستظرف من أخبار الجوّاري ص ٥٩، وأكثر المصادر على أنها ماردة.

(٤) الديارات ص ٢٢٥.

المعشوق، وثقل ذلك على الرشيد، فبعث يحيى بن خالد البرمكي في طلب العباس بن الأحنف وعرض عليه أن يقول شعراً ينشده أمام الرشيد فقال^(١):

العاشقان كلاهما متغضب وكلاهما مسترحد متجنب
صدت مغاضبة وصد مغاضباً وكلاهما مما يعالج متعب
راجع أحبتك الذين هجرتهم إن المتيم قل ما يتجنب
إن التجنب إن تطاول منكما دب السلو له فعز المطلب
وحلف الرشيد أن لا يدخل إلى جارية له أياماً وكان يحبها فعضت
الأيام ولم تسترضه، فقال^(٢):

صد عني إذ رأني مفتتن وأطال الصبر لَمَّا أن فطن
كان مملوكي فأضحى مالكي إن هذا من أعاجيب الزمن
وقيل إنه طلب من أبي العتاهية أن يجيزهما فقال^(٣):

عزة الحب ارثه ذلتي في هواه وله وجه حسن
فلهذا صرت مملوكاً له ولهذا شاع ما بي وعلن
وكثر ترديد هذا المعنى في شعر الرشيد بالجواري... وهو المعنى
الذي يبين أن سلطان الهوى قوي لا يقف أمامه سلطان...، فقال في
بعض جواريه^(٤):

تبدي صدوداً وتخفي تحته مقه فالنفس راضية والطرف غضبان

(١) المستظرف من أخبار الجواري ص ٦٠.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

(٤) وألحان الحان ص ٢٩٧.

يا من وضعت له خدي فذلله وليس فوق سوى الرحمن سلطان
ويطول الحديث إذا أردنا استتمام الحديث عن غزل الرشيد، ولسنا
في مجال الدراسة والتفصيل وإنما نكتفي بهذا القدر منه على أنه نموذج
لغزل الخلفاء بالجواري... وننتقل بعد ذلك إلى استعراض أمثلة
أخرى.

وكان المأمون معجباً بعريب جاريته التي سميت باسمه فكانت
تعرف بـ (عريب المأمونية)، قال متغزلاً بها^(١):

أنا المأمون والملك الهمام على أني بحبك مستهام
أترضي^(٢) أن أموت عليك وجداً ويبقى الناس ليس لهم إمام
وقيل إنها قالت له حين سماعها البيتين منه: يا أمير المؤمنين أبوك
الرشيد أعشق منك، حيث يقول:

ملك الثلاث الأنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهنّ في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

فقدم ذكرهن على ذكر نفسه، وأنت قدمت نفسك على من تزعم
أنك تهواها. قال لها المأمون: غير أني منفرد لك، والرشيد مقسم بين
ثلاث. قالت: أعرفهن الواحدة المقصودة وهي فلانة، والثتان محبوبتان
لها فأحبهما لحبها إذ ذاك مما يسرها كما قال خالد بن يزيد بن معاوية
في رملة:

أحب بني العوام طراً لأجلها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

(١) محاضرة الأبرار ١/١٢٦.

(٢) الصواب: أترضين.

وقال الآخر:

أحب لأجلها السودان حتى أحب لأجلها سود الكلاب
فهؤلاء أحبوا القبيلة من أجلها، هذا هو المخرج لأمير المؤمنين
الرشد، فأين المخرج لأمير المؤمنين... فسكت وعظم وجده... ويعبر
المأمون عما في نفسه لجارية أخرى فيقول^(١):

لها في لحظها لحظات حثف تميّت بها وتحبي من تريد
فإن غضبت رأيت الناس قتلى وإن ضحكت فأرواح تعبد
وتسبي العالمين بمقلتيها كأن العالمين لها عبيد

وقال المأمون في يوم السعانيين من أعياد النصارى وقد خرجت بين
يديه عشرون وصيفة جلب روميات، وقد تزين بالدباج الرومي مزنرات
الأوساط وقد علقن في أعناقهن صلبان الذهب، وفي أيديهن جميعاً
سعات الخوص وأغصان الزيتون فأعجبه منظرهن^(٢):

ظباء كالذنانير ملاح في المقاصير
جلاهن السعانيين علينا في الزنانير
وقد زرفن أصداغاً كأذناب الزراذير
وأقبلن بأوساط كأوساط الزنابير
ويقول المتوكل في جارية له^(٣):

أمازحها فتغضب ثم ترضى فكل مقالها حسن جميل
فإن غضبت فأحسن ذي دلال وإن رضيت فليس لها بديل

(١) المرأة في حضارة العرب ص ٢١٧.

(٢) ألحان الحان ص ٢٩٨.

(٣) الموشى ص ٦٧.

وللمعتصم في بعض جواريه قوله^(١):

ايا منقذ الغرقى أجرنى من التي بها نهلت روحي شعاعاً وعلت
لقد بخلت حتى لو اني سألتها قذى العين من سافي التراب لضنت

رثاؤها:

ولم يقف ذكر الخلفاء جواريه عند الغزل وإنما وصلتنا قصائد
ومقطوعات في رثائهن . . يذكرون فيها لوعتهم على فقدانهن فقد كنَّ
يملأن عليهم حياتهم أنساً وبهجة وسعادة فالرشيد أقسم بأنه سوف لا
يسر بشيء بعد (هيلانة) فكأنه قد فارق العيش بفراقها لأنها كانت دنياه
التي يحياها . . قال^(٢):

قد قلت لما ضمنوك الشرى وجالت الحسرة في صدري
أذهب فلا والله ما سرنني بمدك شيء آخر الدهر
وأورد له الصولي في رثائها^(٣):

قاسيت أوجاعاً وأحزاناً لما استخص الموت هيلانا
فارقت عيشي حين فارقتها فما أبالي كيف ما كانا
كانت هي الدنيا فلما ثوت في قبرها فارقت دنيانا
قد كثر الناس ولكنني لست أرى بمدك إنسانا
والله لا أنساك ما حركت ريح بأعلى نجد أغصانا
وقال العباس بن الأحنف في رثائها على لسان الرشيد^(٤):

(١) الموشى ص ٦٧. المصدر السابق.

(٢) نساء الخلفاء ص ٥٤ - ٥٥ والمستظرف في أخبار الجوارى ص ٧٢ وتاريخ بغداد ٩٨/١.

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٥.

(٤) ديوان العباس ص ٢٠٨، وتاريخ بغداد ٩٨/١ والمستظرف من أخبار الجوارى ص ٧٢.

يا من تباشرت القبور بموتها قصد الزمان مساءتي فرماك
أبغى الأنيس فلا أرى لي مؤنساً إلا التردد حيث كنت أراك
ملك بكاك وطال بعدك حزنه لو يستطيع بملكه لفداك
يحمي الفؤاد عن النساء حفيظة كيلا يحل حمى الفؤاد سواك
وللعباس في رثاء ضياء جارية الرشيد على لسانه^(١):

ألا إن صفو العيش بعدك أكر وكل نعيم سوف يُقلى ويهجر
لعمري لنعم المستغاث به البكا إذا فني الصبر الذي كان يذخر
سأبكي ضياء مستقلاً لها البكا ويسعدني يحيى وفضل وجعفر
وللمأمون في رثاء جارية له كانت من أحظى جواريه لديه قوله^(٢):

اختلفت ريحانتي من يدي أبكي عليها لآخر الأبد
كانت هي الأنس إذا استوحشت نفسي من الأقرب والأبعد
وروضة كان بها مرتعي ومنهلاً كان بها موردي
كانت يدي كان بها قوتي فاختلف الدهر يدي من يدي
وممن رثى جاريته الخليفة المعتضد وكان قد جزع جزعاً شديداً
على وفاة (دريرة) فقال^(٣):

يا حبيباً لم يكن يعدله عندي حبيب
أنت عن عيني بعيد ومن القلب قريب
وخيالي منك مذ غبت خيال ما يغيب
ليس لي بعدك في شيء من اللهو نصيب

(١) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٥٢.

(٢) المرأة في حضارة العرب ص ٢١٧.

(٣) المتظم ١٣٧/٥ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٧٢.

لي دمع ليس يعصيني وصبر ما يجيب
لك من قلبي على قلبي وإن بننت رقيب
لو تراني كيف لـ بي بمدك عول ونحيب
وفؤادي حشوه من حرق الحزن لهيب
لتيقنت بأنني بك مسحزون كئيب
ما أرى نفسي وإن وطأتها^(١) عنك تطيب

وقال عبدالله بن المعتز يعزي المعتضد بهذه الجارية:

يا إمام الهدى بنا لا بك الغم أفنيتنا وعشت سليما
أنت علمتنا على النعم الشكر وعند المصائب التسليما
فاصل عما مضى فإن التي كا نت سروراً صارت ثواباً عظيما
قد رضىنا بأن تموت وتحيا إن عندي في ذاك حظاً جميما
من يمت طامعاً لديك فقد د أعطي نوراً ومات موتاً كريما

والملاحظ في ما مرّ من نماذج أن رثاء الجوّاري لم يكن ليدور إلاّ على أنهم كن الأنس والسرور والنعيم لأوليائهم وإنهم قد فقدوا بفقدن رونق الحياة وبهجتها . . ولم تتجاوز المراثي الواردة تلك المراثي وهذا ما يصور لنا الصلة التي كانت تجمع بين الجوّاري وأوليائهم لا تتعدى أداء دورهن في الترفيه .

وقد شدّ عن ذلك المراثي التي رثى بها تميم بن المعز لدين الله الفاطمي جارية له توفيت فجاء بجيد الشعر وصادقه^(٢):

(١) في تاريخ الخلفاء: (وإن سلتها) ويضيف بيتاً آخر:

(لي دمع ليس يعصيني وصبر ما يجيب)

(٢) ديوان تميم ص ٤٠٦ - ٤٠٧.

لله ما بان به يومها من رقة الظرف وحسن الوسام
كانت رضا النفس ونيل المنى ولذة العيش وطيب السدام
ريحان سمعي وسنا مقلتي وسؤل قلبي من جميع الأنام
لهفي على ما فات من قربها لهفأ له في كل عضو سقام
لهفي على تلك الطبايع التي قد خلصت من كل عيب وذام
فهو يفصل في وصف مكانتها في نفسه فهي رضا نفسه ونيل مناه،
ولذة عيشه وهي ريحان سمعه وسنا عينيه وسؤل قلبه . ثم يصور خلقها
غاية في النبل واللفظ وحسن العشرة فيقول^(١):

وما تجنت قط مذ أيقنت اني بها ذو كلف مستهام
ولا دعاها التيه يوماً إلى أن تظهر الدل وتبدي الملام
خلائق كالشهد معسولة وعشرة كالروض غب الغمام
أنعى إلى الاطراب أخلاقها ولذة الإيناس يوم السدام
أنعى إلى العود أوتاره ذاك الغنا الجائز حد التمام
أنعى إلى الإحسان إحسانها وشدوها العذب كسجع الحمام
يا حبذا وصلك لو لم تبين وحبذا قريبك لو كان دام
ما كنت إلا كبدي قطعت ومقلتي بانن وقلبي استهام
وكنت قد دافعت عنها العدا فكيف لي عنك بدفع الحمام
لو كان غير الموت لم يستطع رميك دوني بجليل العظام
ولعل من أصدق الرثاء وأجمله وأعمقه تصويراً لعاطفة الحزن
والألم قوله وقد ذكرها حينما رأى جمعاً من المغنيات والزامرين فتنبت
عيناه شخصها فيهم فلما خابت ظلت دموعه تترقرق . . وصار يشكو
إلى الله فقدها شكوى العطشان الحبيس الذي لا حول له ولا قدرة على

(١) ديوان تميم ص ٣٠٣.

احتمال ما به فكان قلبه بعد فقدها جناح وهت أجزاءه فظلّ خافقاً لا يهدأ، قال:

ذكرتك بالريحان والراح ذكرة مرددة كادت لها النفس تزهق
فلما تناولن الغناء شوادياً واتبع مزموماً من الضرب مطلق
تتبع العينان شخصك فيهم فلما نأى ظلت دموعي تفرق
إلى الله أشكو فقدها مثل ما شكا إلى الله فقد الماء عطشان موثق
كان فؤادي منذ بان بها الردى جناح وهت أجزاءه فهو يخفق
وهكذا رأينا الصورة التي رسمها الخلفاء لجواريهن في القصور،
صورة توضح علاقتهن بهن ودورهن في الإمتاع والمؤانسة التي رددوها
في أشعارهم سواء شعر الغزل أو الرثاء.

وكان للأمراء والقواد وسائر الأعيان أدب في جواريهن كثير لم نرد
أن نفصل في استعراضه لكوننا قد ثبتناه في مواضع كثيرة من البحث
حسب المناسبات التي استدعت ذكره ولأن نشاط الأدب في قصور
الخلفاء كان أكثر تجلياً وأبعد أثراً.

الفصل الثالث

الجواري القيان

وقد شغف العرب بالغناء شغفاً كبيراً، ولم يعدوه ضرباً من اللهو والتسلية فحسب، وإنما جعلوه جزءاً من حياتهم المعنوية والمادية، وجعلوا له أصولاً وقواعد لا تنقص في أهميتها عن أصول الشعر وقواعده، وكان للمغنين أبحاث في أصول هذا الفن توضح الخصائص الأساسية للغناء العربي.

وقد أسهبوا في الصوت الحسن، وأثروا في النفوس، (فزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يسري في الجسم ويجري في العروق فيصفو له الدم ويرتاح له القلب، وتهش له النفس وتهتز الجوارح وتخف الحركات)^(١).

(وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقي من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجها فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس وحنّت إليه الروح)^(٢).

ورأوا أن الألحان الحسان قد يتوصل بها إلى خير الدنيا والآخرة، فهي تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الأرحام والذبّ عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب)^(٣).

وكره البعض الغناء لزهدهم في الدنيا ولذاتها، فقالوا إنه (ينفر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم، ويبعث على اللهو ويحضر

(١) العقد الفريد ٤/٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) العقد الفريد ٥/٦.

على الطرب وهو باطل في أصله^(١).

وردّهم من شغف بالغناء، فقالوا: (إن هناك فرقاً بين الغناء على أنه لحن جميل وصوت مؤثر وبين الشعر والكلام الذي يتغنى به، فالأثر الذي يتركه اللحن والصوت لا يكاد يتعد عمّا رآه أهل الطب والفلسفة من أنه يدعو إلى الخير، وقالوا: أليس القرآن يرتل ويلحن حرصاً على زيادة التأثير. . . فالغناء إذن كلام ولحن، ولا يخفى أثر الكلام في النفوس خيره وشره، فالأثر والحالة هذه للكلام، لا للحن. . . والأثر إذن للمعنى الذي يصبّ في اللحن فإن كان صلاحاً وخيراً كان باعثاً على الخير، وإن كان تهتكاً وفسقاً كان باعثاً على الشر.

ويوضح هذا ما جاء عن أبي يوسف القاضي^(٢): أنه قال لإبراهيم بن سعد الزهري: (ما أعجب أمركم يا أهل المدينة في هذه الأغاني! أما منكم شريف ولا دنيء يتحاشى عنها؟ قال: فغضبت وقلت: قاتلكم الله يا أهل العراق! ما أوضح جهلكم وأبعد عن السداد رأيكم! متى رأيت أحداً سمع الغناء فظهر منه ما يظهر من سفهائكم هؤلاء الذين يشربون المسكر فيترك أحدهم صلاته ويطلق امرأته، ويقذف المحصنة من جاراته ويكفر بربه، فأين هذا من هذا، من اختار شعراً جيداً ثم اختار له جرماً حسناً فردده عليه فأطربه وأبهجه فعفا عن الجرائم وأعطى الرغائب. فقال أبو يوسف: قطعني، ولم يحر جواباً^(٣).

وكان يهمهم الصوت الحسن والآداء الجيد والبراعة في الغناء قبل كل شيء. . . وكانوا يستمعون إلى المغني شاباً أو شيخاً، جميلاً أو

(١) العقد الفريد ٨/٦.

(٢) أبو يوسف القاضي رجل من الأنصار ولي القضاء سنة ١٦٦هـ أيام الهادي وأقام على القضاء إلى أن مات سنة ١٨٢هـ.

(٣) العقد الفريد: الجزء السادس.

قبيحاً، وإلى المغنية سوداء أو بيضاء، جميلة أو قبيحة.. إلّا أننا لاحظنا في العصر العباسي عصر الترف والنعومة والجمال أنهم صاروا يحرصون على أن يكون الغناء من وجه حسن.. ويجذون في كثير من الأحيان أن يسمعه من جارية مكتملة الحسن والأدب..

قال ثمامة بن أشرس^(١): كنت عند المأمون يوماً فاستأذن الغلام لعمير المأموني فكرهت ذلك، ورأى المأمون الكراهية في وجهي، فقال: يا ثمامة ما بك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إذا غنانا عمير ذكرت مواطن الإبل وكشبان الرمل، وإذا غننتا فلانة انبسط أمني وقوي جذلي وانشرح صدري وذكرت الجنان والولدان.. كم بين أن تغنيك جارية عادة كأنها غصن بأن ترنو بمقلة وسنان، كأنما خلقت من ياقوتة أو خرطت من فضة بشعر عكاشة العمي حيث يقول:

من كف جارية كأن بنانها من فضة قد طرقت عنابا
وكان يمناها إذا ضربت بها تلقي على الكف الشمال حسابا
وبين أن يغنيك رجل كثر اللحية غليظ الأصابع خشن الكف بشعر
ورقاء بن زهير حيث يقول:

رأيت زهيراً تحت كل كل خالد فأقبلت أسعى كالعجول أبادره
وكم بين أن يحضرك من تشتهي النظر إليه وبين من لا يقف الطرف
عليه.. فتبسم المأمون وقال: الفرق بينهما واضح والمنهج فسيح. يا غلام لا تأذن له وأحضر أطيب قيناته، فظللتنا في أمتع يوم^(٢).
ورغم كثرة وجود المغنين في العصر العباسي وإتقانهم فن الغناء

(١) ثمامة بن أشرس: من كبار المعتزلة وأحد الفصحاء والبلغاء، كان له اتصال بالرشيد ثم بالمأمون، وكان ذا نواذر وملح، توفي ٢١٣هـ.

(٢) زهر الآداب ٦٢٦/٣ - ٦٢٧.

واشتهارهم به، إلا أن هناك أقوالاً كثيرة تؤكد إشارتهم سماع الغناء من النساء واستطابته منهن.

سئل حكيم عن فرق ما بين غناء النساء والرجال فقال: ما خلقت الأغاني إلا للغواني^(١).

وقال الجاحظ: كم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن تقبله وبين أن تسمعه من فم تشتهي أن تصرف بصرك عنه، وأيهما أملح أن يغنيك فحل ملتف اللحية وشيخ منخلع الأسنان متغضن الوجه أو تغنيك جارية كطاقة نرجس أو آس^(٢).

وقال ابن بطلان^(٣): إذا اجتمع للغناء أن يكون مطبوعاً سليماً في الخروج والنفور وكانت الجارية شحورية الصوت جيدة الصنعة والضرب صحيحة التأدية للشعر قد أخذت عن الحذاق وتزيدت في نفسها بجودة الطباع، فهي الغاية القصوى في هذا الشأن.

أما ابن عبد ربه فلا يرى من خلق الله شيئاً أوقع في القلوب وأشد اختلاساً للمعقول من الصوت الحسن (لا سيما إذا كان من وجه حسن)^(٤).

وكانت القيان تتمتع بثقافة أدبية واجتماعية واسعة، فكانت تحفظ الكثير من الشعر وتحسن وضع المعنى في مكانه والغناء به عند الحاجة، وربما كانت قادرة على نظم بعض المعاني تبعاً للمناسبات والمواقف. قيل إن مغنية تدعى سُنين غنت أمام دعبل الخزاعي فقالت^(٥):

(١) محاضرات الأدباء ٧١٨/٢.

(٢) المصدر نفسه ٧١٨/٢.

(٣) رسالة جامعة لفنون نافعة ص ٣٨٥.

(٤) العقد الفريد ٥/٦.

(٥) الأغاني ١٠٩/٢٠.

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
ثم غنت بعده :

لقد عجبت سلمى وذاك عجيب رأت بي شيباً عجلاً خطوب
فقال لها دعيل : ما أكثر تعجب سلمى هذه ، فعلمت أنه يعبت بها
ليسمع جوابها فقالت متمثلة غير متوقفة :

فهلك الفتى ألا يراح إلى ندى والآن يرى شيئاً عجيباً فيعجبا
قيل : فتعجب من جوابها وحدته وسرعته ، وقال لمن حضر : والله
لو أجاب الجاحظ هذا الجواب لكان كثيراً مستظرفاً .

وقيل إن الخليفة هارون الرشيد اعترض قينة فغنت :

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
فلما ابتدأت به تغير وجه الرشيد وعلمت أنها قد غلطت وأنها إن
مرت فيه قتلت ، فغنت :

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يجهلون إن غضبوا
وأنهم معدن النفاق فما تفسد إلا عليهم العرب
فقال الرشيد ليحيى بن خالد : أسمعت يا أبا علي؟ فقال : يا أمير
المؤمنين تبتاع وتسني لها الجائزة ويعجل لها الإذن ليسكن قلبها . .
قال : ذلك جزاؤها^(١) .

وتكثر الإشارات في كتب الأدب إلى سعة اطلاع القيان في الشعر
والغناء نذكر منها قول الجاحظ^(٢) : (وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف

(١) الأغاني ٧٦/٥ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١٨٣/٢ .

صوت فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت).

وقد حفل العصر العباسي بعدد كبير من القيان، كان لهن الأثر الكبير في توجيه حياة المجتمع عامة والشعراء خاصة وجهة ناعمة لاهية، وجهة ترهف الحس بالفن والجمال.

قال أبو حيان التوحيدي^(١): مدلاً على كثرة المغنيات من الجواري والحرائر. (وقد أحصينا - ونحن جماعة في الكرخ - أربعمائة وستين جارية في الجانبين، ومائة وعشرين حرة وخمسة وتسعين من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة، هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرمه ورقبائه وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت أو ثمل في حال وخلع العذار في هوى قد حالفه وأضناه وترنم وأوقع، وهز رأسه وصعد أنفاسه وأطرب جلase واستكتمهم حاله وكشف عندهم حجابهم وادعى الثقة بهم والاستئانة إلى حفاظهم).

فقد تأثر الشعراء بها وبجمال صوتها، فأسهبوا في وصفها ووصف آلات الغناء التي تستعملها، وفي وصف غنائها بترديداته وتوقعاته وعمقه وصفائه وحلاوته وأثر فعله في النفوس. وأثرت القيان في عامة المجتمع... وكثيراً ما كان يحصل منافسة بين قيتين ويكون لكل منهما جماعة وأنصار كالذي وقع بين شارية وعريب، جاء في الأغاني^(٢): (وكان أهل سر من رأى متحازبين، فقوم مع شارية وقوم مع عريب... لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء ولا أصحاب تلك).

(١) رسالة القيان ص ٧٣.

(٢) الأغاني ٣٢٠/١٥.

ويتمثل أثر القيان في الشعر بوجهات مختلفة متعددة^(١) نقف منها عند الشعر الذي نظم في وصف القيان والتغزل بهن وذكر مجالسهن وآلات الطرب . . وقد يكون الوصف استقصاء لبراعة القينة وجودة أدائها، وتغزلاً بجمالها ومحاسنها . . وقد يكون العكس فيعرض الشاعر إلى هجائها ووصف قبح صوتها وشكلها . .

ولا بد لنا من استعراض بعض النماذج الشعرية للتدليل على أثرهن في أدب العصر العباسي . . . وربما كان ابن الرومي أكثر شعراء العصر العباسي تأثراً بهنّ وقولاً فيهنّ واستقصاء لوصف محاسنهنّ وأصواتهنّ جمالاً وقبحاً، ويرجع ذلك بلا شك إلى رهافة حسه وقدرته الفائقة على الوصف . . فمن ذلك قوله^(٢) يصف المغنية (بدعة):

غنت فلم تحوج إلى زامر هل تحوج الشمس إلى شمعه
كأنما غنت لشمس الضحى فالبستها حسناتها خلعه
كأنما رنة مسموعها رقة شكوى سبقت دمه
تهدي إلى قلبك ما يشتهي كأنها قد أطلعت طلعه
يجتمع الظرف لجلالها والحسن والإحسان في بقعه
طفل على من حصلت عنده فبعض تطفيل الفتى رفعه
ربيع غيث فانتجع روضه فلن يعاب الحرّ بالنجعه^(٣)

والشاعر في هذه الأبيات يشير إلى عادة اجتماعية وهي عادة جلب المغنيات في الأفراح، فهو يريد أن يتطفل على من يأتي بهذه المغنية إلى بيته، وقد صرح بذلك في قصيدة قال فيها^(٤):

(١) اتجاهات الغزل ص ١١٤.

(٢) زهر الآداب ٢٦٩/١ وديوانه.

(٣) النجعة: المذهب في طلب الكلأ في موضعه/اللسان: نجع.

(٤) ديوان ابن الرومي ٢٤٩/٢.

وزخرف البيت كما زخرفت روضة حزن جادها هاضب
 واجلب لهم حسناء في شدوها لكل ما سرهم جالب
 ومن أحسن ما قيل في صفة القيان وغنائهن قول ابن الرومي، وقد
 تخيل القيان أمهات حنون على أطفالهن وألقمنهم ثديهن وصرن يترجمن
 عنهن بالضرب والغناء.. فقال^(١):

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيتها حواني
 مطفلات وما حملن جنيناً مرضعات ولسن ذات لبان
 ملقمت أطفالهن ثدياً ناهدات كأحسن الرمان
 مفعمات كأنها حافلات وهي صفر من درة الألبان
 كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
 أمه دهرها تترجم عنه وهو بادي الغنى عن الترجمان
 ولعل من أروع ما قيل في وصف القيان وغنائهن قوله في وصف
 المغنية وحيد، فهو يبدأ بإعلان حبه لها.. ثم يسرد محاسنها: جمال
 قدها وعينيها وخديها وجيدها وشعرها فيقول^(٢):

يا خليلي تيمتني وحيد ففزادي بها معنى عميد
 غادة زائها من الغصن قد ومن الظبي مقلتان وجيد
 وزهاها من فرعها ومن الخد ين ذاك السواد والتوريد
 فهي برد بخدها وسلام وهي للعاشقين جهد جهيد
 ما لما تصطليه من وجنتيها غير ترشاف ريقها تبريد
 مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الوجد لولا الإباء والتصريد

إلى أن يقول:

(١) ديوان ابن الرومي ٨٤/١.

(٢) ديوان ابن الرومي ٩٨/٣.

وغرير بحسنها قال صفها قلت أمران بيّن وشديد
يسهل القول إنها أحسن الأ شياء طرا ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين إليها فشقيّ بحسنها وسعيد
ثم يصف صوتها وجماله وبراعة المغنية في الغناء، ويغوص في
عرض مالم يقف عنده غيره من وصف الصوت. . فهو يصور لنا كيف
أنها تمدّه حيناً مدّاً طويلاً كأنفاس عاشقها الدافئة المديدة. . وكيف أنها
ترققه حيناً آخر بالدلال والغنج وتخفته حتى ليكاد يبيد فيراه السامع
وكأنه يموت طوراً ويحيا طوراً آخر. . قال^(١):

تتغنى كأنها لا تغني من سكون الأوصال وهي تميد
لا تراها هناك تجحظ عين لك منها ولا يدور وريد
من هدوّ وليس فيه انقطاع وسجوّ وما به تبليد
مدّ في شأو صوتها نفس كـ ف كأنفاس عاشقها مديد
وأرقّ الدلال والغنج منه وبراء الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشي وفيه حلي من النغـ م مصوغ يختال فيه القصيد
طاب فوها وما ترجع فيه كل شيء لها بذاك شهيد
وكان بشار ممن أجاد في وصف غناء القيان، إلّا أنه لم يبلغ -
عندي - مبلغ ابن الرومي في الغوص إلى عرض دقائق جمال الصوت.
قال في وصف قينة^(٢):

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً
فقلت أحسنت أنت الشمس طالعة أضمرت في القلب والأحشاء نيراناً

(١) ديوان ابن الرومي ٩٨/١.

(٢) الأغاني ١٥٩/٣ وديوان بشار ١٩٤/٤ - ١٩٧.

فاسمعيني صوتاً مطرباً هزجاً يزيد صباً محباً فيك أشجانا
يا ليتني كنت تفاحاً مفلجة^(١) أو كنت من قضب الريحان ريحانا
حتى إذا وجدت ريحي فأعجبها ونحن في خلوة مثلت إنسانا
فحركت عودها ثم انشنت طرباً تشدو به ثم لا تخفيه كتمانا
فقلت أطربتنا يا زين مجلسنا فهات إنك بالإحسان أولانا
لو كنت أعلم أن الحب يقتلني أعددت لي قبل أن القاك أكفانا
فغئت الشرب صوتاً مؤنقاً رملأ يذكي السرور ويبكي العين أحياناً
لا يقتل الله من دامت مودته والله يقتل أهل الغدر أحياناً

أما أبو نواس شاعر المجون والغزل فلم يبلغ في وصفه القينة مبلغ
ابن الرومي رغم إجادته في قوله^(٢):

طفلة خرد رداح هام قلبي بهواما
قدما أحسن قد فاسألوا من قد رآها
ما براها الله إلا فتنة حين براها
تنشر الدر إذا غئت ت علينا شفتاها
وأرى للعود زهوا حين تحويه يداها
ربما أغضيت عنها بصري خوف سناها
هي همي ومنايا ليتني كنت منهاها

وقال إسحاق الموصلي في مغنية^(٣) تدعى ملاحظ:

سأشرب ما دامت تغني ملاحظ وإن كان لي في الشيب عن ذاك واعظ
ملاحظ غنينا بعيشك وليكن عليك لما استحسنته منك حافظ

(١) مفلجة: مقسومة نصفين/اللسان/فلج.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٦٨.

(٣) ديوان إسحاق ص ١٤٧.

فأقسم ما غنى غناءك حاذق مجيد ولم يلفظ كلفظك لافظ
وفي بعض هذا القول مني مساءة وغيظ شديد للمغنين غائظ
وكما برع ابن الرومي في وصف القيان والتغزل بهن، فقد برع في
هجائهن وشخص مواطن القبح فيهن ورسم لهن ولأصواتهن صورة بارعة
في التنفير وإثارة الاشمزاز، قال في وصف غناء قينة^(١):

غنت فمس القلب كل كرب واستوجبت منا أليم الضرب
لها فم مثل اتساع الدرب بقبابة كبقبقات الحب^(٢)
هدارة مثل مدير النجب^(٣) وهي على ما أظهرت من عجب
وتدعيه من شجا وحب وتشتكيه من رياح الجنب
نافرة الصوت خروج الضرب حسبي منها يا نديمي حسبي
قد أصدأت سمعي وغنت قلبي

ووصف صوتاً قبيحاً لقينة فقال: إن صوتها لا يتاح له أن يخرج
ندياً مرسلأ غصة تعترضه في حلقها فتضغطه، فإذا ما غنت وكابدت من
ذلك الضغط بدت عروق جيدها ممتدة بارزة في عنقها حتى وكأنها بيوت
الأرضة. وهو استقصاء بديع لوصف صورة قبيحة للغناء والمغنية
قال^(٤):

قينة ملعونة من أجلها رفض اللهو معاً من رفضه
تضغط الصوت الذي تشدو به غصة في حلقها معترضه
فإذا غنت بدا في جيدها كل عرق مثل بيت الأرضه

(١) ديوان ابن الرومي ص ١٤٧.

(٢) الحب: الزير.

(٣) النجب: الإبل.

(٤) ديوان ابن الرومي ٧١/١.

وهذه صورة أخرى لمغنية قبيحة الصوت يصف فيها ثقل اليوم الذي سمع فيه غناها، وثقل ذلك الغناء حتى وكأنه اللوم الثقيل تأباه الأسماع. . ويقول فيها: إن الله يشيب سامعها ضعفي ثواب من يصوم ويصلي الليل ثم يقول: إنه قضى يومه يشرب الخمرة أرتالاً لا طرباً على صوتها، وإنما طلباً للسكر والنوم هروباً من سماع صوتها. . . فقال^(١):

شاهدت في بعض ما شاهدت مسمعة كأنما يومها يومان في يوم
تظل تلقى على من ضم مجلسها قولاً ثقيلاً على الأسماع كاللوم
لها غناء يشيب الله سامعه ضعفي ثواب صلاة الليل والصوم
ظللت أشرب بالأرطال لا طرباً عليه بل طلباً للسكر والنوم
وله في شنطف المغنية وصف من أبرع الوصف، فقد نعتها بالقذارة والقبح وسوء الغناء فقال^(٢):

إذا ما شنطف نكهت أمانت فمن ندمائها قتلى وصرعى
يلاقي الأنف من فمها عذاباً وترعى العين منها شر مرعى
وإن سكوتها عندي لبشرى وإن غناها عندي لمنعى^(٣)
فقرطها بعقر شهور^(٤) وإذا غنت وطوقها بأفمى
فإن جاءت فلا أهلاً وسهلاً وإن رجعت فلا حفظاً ورجعى

(١) ديوان ابن الرومي ٤٢٧/٣.

(٢) ديوان ابن الرومي ١٠٥/١ ومحاضرات الأدباء ٧٢٠/٢.

(٣) وردت في محاضرات الأدباء ٧٢٠/٢ (لمعنى) والصواب ما جاء في الديوان (لمنى).

(٤) يشير الشاعر إلى منطقة شهزور في شمال العراق، ولا تزال تدعى بنفس التسمية وهي منطقة ينفر منها الأهليون ولا يرغبون في الإقامة فيها لاشتهارها بمقاربها الصفر، وفيها ناحية تدعى (عريد) تشتهر بكثرة الأفاعي.

وقال^(١):

شنطف يا عوذة السموات والأر ض وشمس النهار والقمر
إن كان إبليس خالقاً بشراً فأنت عندي من ذلك البشر
صورك المارد اللعين فأعط تك يدها مقابح الصور
ولم تعافي من البغاء ولا الـ جر وخبت النسيم والذفر^(٢)
بل أنت فوق المنى إذا ذك ر القبح وفحش العيوب والقذر
لم تقطعي قط ذا مكايده بل تقطعين الوتين^(٣) بالبخر
ترمين آنا فنا بأسهمه عن شر قوس وشر ما وتر
والطير عند الغناء مختلج تضحك أشداه إلى الكمر
شنطف يا سوء ما منيت به ما كنت إلا فريسة القدر
ونخلص من هذا إلى أن نقول إن ابن الرومي كان أكثر شعراء
العصر العباسي قولاً في القيان^(٤).

ولابن المعتز في غناء المغنيات وهجائهن بأشكالهن وأصواتهن
قوله في هجاء بدعة جارية ابن حمدون^(٥):

حدثونا عن بدعة فأتينا فتغنت فظن في البيت بوق
وإذا شوكة تقصف يمساً فوقها وجه فأرة مخلوق

(١) ديوان ابن الرومي ٣/ ٣٧٠.

(٢) الذفر: بالتحريك: شدة ذكاء الريح من طيب أو تن، وخص اللحياني بهما راتحة الإبطين المتتين. اللسان/ ذفر.

(٣) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه (اللسان: وتن).

(٤) ينظر ديوان ابن الرومي ج ١ ص ٧١، ٧٤، ٧٥، ٩٩، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٥، ج ٢ ص ٢٣٢، ٢٦٦، ٢٤٩. ج ٣ ص ٤٣٣ ر ٤٦٥، ٤٢٧، ٣٧٠.

(٥) أشعار أولاد الخلفاء ص ١٤٠.

وقال^(١):

ودبستة في اللفظ لكن حلقها كحلق حمار قطع النهق ملجما
يلامس منها الكفت عيدان مشجب كنباش ناووس^(٢) يقلب أعظما
وله في هجاء القيان غير ذلك^(٣) نكتفي منه بهذا القدر.

وقد يهجو الشاعر القينة أحياناً فتشيع أبياته فيها فتكسد القينة
ويكون بذلك القضاء عليها . . منه هجاء الصمد بن المعذل لقينة في
البصرة قيل إنها كسدت على أثره فلم تدع ولم تستتبع حتى أخرجت من
البصرة^(٤) . . قال^(٥) فيها وقد أفحش:

تفتّر عن مضحك السدري إن ضحكت
يفروح ربح كنيف من ترائبها سوداء حالكة دهماء كالقار
أو هجاء الحسين بن الضحاك لمغنية بعد أن عبث بها فصاحت
عليه واستخفت به، فقال^(٦) فيها:

لها في وجهها عكن وثلثا وجهها ذقن
وأسنان كريش البط بين أصولها عفن
وقيل إن المغنية قد بكت حين سماعها الأبيات بكاء مرّاً حتى ظن
أنها عميت . . وشاع هذان البيتان فكسدت من أجلهما، وكانت إذا
حضرت في موضع أنشدوا البيتين فتجنّ . . ثم هربت من سر من رأى

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص ١٤٢.

(٢) الناووس: مقابر النصارى (اللسان: نوس).

(٣) أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣٢، ١٣٣.

(٤) الأغاني ٢٣٥/١٣.

(٥) الأغاني ٢٣٥/١٣.

(٦) الأغاني ٢١٨/٧.

حتى لم يعرف لها بعد ذلك خبر^(١).

وكان للقيان نصيب في رثاء الشعراء، فقد رثى ابن الرومي مغنية تدعى (بستان) بقصيدة نقل منها قوله^(٢):

بستان يا حسرتا على زهر فيك من اللهب بل على ثمر
بستان لهفي لحسن وجهك والإحسان صاراً معاً إلى الحفر
بستان أضحى الفؤاد في وله يا نزهة السمع منه والبصر
بستان ما منك لامرئ عوض من البساتين لا ولا البشر

ذم القيان بفعالهن:

لقد أكثر الكتاب والشعراء في القول في القيان، وصوروا هذا الصنف من النساء الذي يبتز من الرجال أموالهم ويستلب منهم قلوبهم وعقولهم ويجعلن منهم ألوبة في أياد لا ترحم.

فقد كن يتفنن في إلقاء حباثلهن للصيد حتى إذا ما وثقن من وجدهم بهن وعدم الصبر عليهن أظهرن براعتهن في طلب الهدايا المتواترة.. وتدوم العلاقة ويستمر الوصل ما دامت العطايا والهبات كثيرة ثمينة.. حتى إذا ما نفذ اليسار وأحسن بإفلاسهم أظهرن الملل وصرن يتبرمن بكلامهم ويتبعن الهفوات والسقطات.. ثم لا يلبث أن ينصرفن عن هواهم ويملن إلى صيد جديد سواهم^(٣).

وقد كثر الحديث عن أمثال هذه الأعمال في كتب الأدب، ونظم الكثير من الشعراء في فضح حيلهن في الصيد وفي تصوير تفننهن في الكسب والابتزاز فأفاض الجاحظ فخص لذلك رسالته الموسومة

(١) الأغاني ٢١٨/٧.

(٢) ديوان ابن الرومي ٧٤/١.

(٣) الموشى ص ١١٩ ورسالة القيان ص ٧٢.

بـ (رسالة القيآن) عرض فيها لصفاتهاهن وطباعهن وبين وسائلهن في إيقاع صيدهن في شرك العشق فقال^(١): (إن القينة لا تكاد تخالص في عشقها ولا تنتصح في ودها لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحباله والشرك للمتربطين ليقعوا في أنشطوتها^(٢)، فإذا ما شاهدها المشاهد رامته باللحظ وداعبته بالتبسم وغازلته في أشعار الغناء...) ثم يستمر في تعداد وسائلها في اصطلياد المعجبين بها وإيهامهم بحبها وإخلاصها ثم يقول^(٣): (وأكثر أمرها قلة المناصحة واستعمال الغدر والحيلة في استنطاف ما يحويه المربوط والانتقال عنه) ويبرر سلوكها هذا ويعطيها العذر فيه فيقول^(٤): (وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهر الحديث وصنوف اللعب والأخانيث وبين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة).

وكان أبو الطيب الرشاء متفقاً مع الجاحظ في نظرتة إلى القيآن ووصفه لهن.. وزاد عليه بإيراده الكثير من القول المنظوم والمنثور في ذمهن وبيان وسائلهن في المكر والخداع والخيانة.. قال^(٥):

(اعلم أنه لم يبتل أحد من أهل المروءات والأدب وأهل الظرف والأرب، ولا امتحن سراة الفتيان ببلية هي أعظم من هوى القيآن، لأن جبهن حب كذوب وعشقهن عشق مشوب، وهواهن منسوب إلى الملل

(١) رسالة القيآن ص ٧٠.

(٢) أنشطوتها: شراكها.

(٣) رسالة القيآن ص ٧٣.

(٤) رسالة القيآن ص ٧٤.

(٥) الموشى ١١٦/٢ - ١١٧.

ليس بثابت ولا متصل وإنما هو لطمع وعرض، وهن سريعات الغرض يستدل على ذلك بأفعالهن الردية وأخلاقهن السيئة، وأنهن لن يقصدن إلا أهل النشب^(١) ويصدفن عن ذوي الحسب وأن محبتهن تظهر ما ظهرت علامات اليسار، وتنقل عند الإفلاس والإقلال، وليس إظهارهن للمحبة مما ينعقد عليه منهن ذوو الآداب، ولا بما ينخدع به لهن ذوو الألباب، وكل ذلك منهن غرور وخداع وزور).

ولعل من المفيد أن ننقل بعض ما قاله الشعراء في ذم فعالهن وبيان حيلهن. قال بعض المحدثين^(٢):

صحوت فأبصرت الغواية من رشدي وأيقنت أنني كنت جرت عن القصد
فلا يعشقن من كان يعشق قبينة فما هو منها في سعيد ولا سعد
توذك ما دامت هداياك جمّة ورفدك عشق ما بقيت أخا رfd
إذا ما رأت في مجلس من تخاله غنيًا حبته بالتحية والود
وغنت على أقداحه كلّ ما اشتهى وقالت له ماذا تريد أنا أفدي
وتومي إليه اشرب الرطل واسقني فقد حزت قلبي واشتملت على ودي
فيمتلئ المغرور عند مقالها سروراً يرى أن المقال على جدّ
فإن جاء وقت الانصراف تحازنت لفرقة حتى يقوم على وعد
ويغدو إليه في الفراش رسولها تسائله ما كان حالك من بعدي
ويا ليت شعري كيف بثّ فإنني رعت نجوم الليل كفي على خدي

ثم يواصل الشاعر حديثه عن هذه القينة وعن حيلها وألاعيبها في اقتناص الهدايا الثمينة حتى إذا ما أحست بإفلاسه تجنت له وأبدت جانب الهجر والصد وانقلبت عنه إلى فريسة جديدة غيره.

(١) النشب: العقار والمال.

(٢) قال الوشاء ص ١١٩: (وقد أنشدني بعض الأدباء لبعض المحدثين).

كما يورد لنا شاعر آخر من شعراء العصر العباسي^(١) قصة (ابن أحمر) الذي زار قينة يوماً في مجلس سادتها . . لما غنتهم وسقتهم التفتت إلى أول الجلاس فسألت: (أما لك ضيعة، فلما أجابها بأنه سمسار طلبت منه أن يهدي إزاراً لأبي فلان لأنه محتاج إليه، ثم التفتت إلى ثان وسألته فأجابها بأنه عطار، فطلبت منه أن يزودها بالآدهان والقسط^(٢) والأظفار^(٣)، وإذا (بابن أحمر) ينبري لها بقوله: إنه حفار مستعد لحفر قبرها، فإذا احتاجته إلى ذلك فلتبعث إليه بمقدار ليعرف سعة قبرها . .

فخجلت وطأطأت رأسها . قال^(٤):

زار ابن أحمر ذات يوم قينة في فتية لهم ندى ووقار
حتى إذا غنتهم وسقتهم وتجاوبت في كفها الأوتار
قالت لأولهم أما لك ضيعة فأجابها إنني فتى سمسار
قالت فاهد لنا إزاراً معلماً فأبو فلان ما عليه إزار
ثم انشئت لسؤال آخر منهم أصدق فقال مجيبها: عطار
قالت فليس يهتنا ما زرتنا أدهاننا والقسط والأظفار
وإذا ابن أحمر قد أعدّ جوابها جذر السؤال كأنه قسطار
ثم انشئت لسؤاله فأجابها لا شوق لي لكنني حقار
فإذا هممت بحفر قبرك فابعثي بقضيّب كي أعرف المقدار
فتلجلجت خجلاً وطأطأ رأسها وأصابها عند الجواب حصار
وكذا القيان ولا أقول جماعة فالناس في أخلاقهم أطوار

(١) الموشى ص ١٢٤.

(٢) القسط: عود يتداوى به .

(٣) الأظفار: أظفار تشبه الأظفار عطرة الرائحة .

(٤) الموشى ص ١٢٤ - ١٢٥.

وواضح أن الحديث في هاتين القصيدتين عن القيان جاء مفعماً بالتهكم والاستهزاء وبفضحهن بفعالهن بأسلوب سردي يبين علاقة القيان في الاستحواذ على أموالهم وثرواتهن.

وبعد فهذه لمحة سريعة تكشف لنا عن صورة الجواري في الأدب العباسي . نعرف منها أن الجواري كان لهن الفضل الأكبر في نهضة الأدب عامة والشعر بصورة خاصة . . ففيهن قال الشعراء ، فوصفوا وأبدعوا وتغزلوا ومجنوا فأرونا ألواناً جديدة من فنون الشعر وعرضوا لنا أروع المشاهد في انفعالات النفوس وبقطة الوجدان .

وكان للجواري والقيان أثرهن العظيم في تهذيب الأذواق وإرشاد النفوس إلى مواطن الجمال وأسراره وإرهاف الحس في إدراك معالم الترف والأناقة في كل ما يحيط بهم . .

وهكذا عاش العباسيون يغترفون من الجمال ما ملأ عصرهم فناً وأدباً وظرفاً حتى كان أزهى العصور الأدبية العربية على الإطلاق .

الفصل الرابع

جمال المرأة وزينتها

جمال المرأة:

تختلف معايير الجمال في المجتمعات من عصر إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى. . . ولذلك عوامله ودوافعه الحضارية والاجتماعية والنفسية.

فالمعايير العامة لجمال المرأة في العصرين الجاهلي والإسلامي، كانت عبارة عن مجموعة القيم المتوارثة عن الأسلاف على أنها عناصر للجمال مضافاً إليها ما انتزعوه من محيطهم وما أثرته مجتمعاتهم فيها.

فكان بقر الوحش^(١) والظباء^(٢) والعاج^(٣) والفضة^(٤) والماء البارد الصافي^(٥) والشمس^(٦) والقمر. . . وغيرها موارد يقتبسون منها عناصر الجمال^(٧)، وكانت الكشبان الرملية التي تترجرج للوطء الخفيف، ولهبات الريح الخفيفة مظهراً من مظاهر الجمال يشبهون به أوراك حبيباتهم^(٨).

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص ٦٢.

(٢) شرح القصائد العشر، ص ٨٤، ١٦٦.

(٣) شرح القصائد العشر (معلقة عمرو بن كلثوم) ص ١٣٩.

(٤) ديوان الأعشى، القصيدة ٧٧.

(٥) ديوان الحماسة ج ٢ ق ٣، وديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٤٣٥، والجمان في تشبيهات القرآن ص ١٢٦.

(٦) المفضليات ج ١ ص ٣٣.

(٧) المرأة في الشعر الجاهلي (الهاشمي) ص ٩١.

(٨) جمال المرأة عند العرب ص ٢٦ وديوان امرئ القيس ص ٣٦.

وكانت الصفات المستملحة المستحبة في الغالب واضحة تتمثل بالبياض^(١) والطول^(٢) والسمنة^(٣) غير المفرطة، وسواد الشعر^(٤) وسعة العينين وغيرها .

أما في العصر العباسي فقد ازدهرت الحضارة، وعمت المدنية أرجاء المجتمع الحضري بصورة خاصة، فتغير الكثير من معايير جمال المرأة في نظر الرجل، فصار أغلب الناس يزدرون المعايير السابقة، ولا يقتصرون على تشبيه المرأة بالمهابة والظبية والشمس والقمر والمصباح، ومنهم من لا يرى وجهاً لذلك، إذ لا يرونها قادرة على التعبير عن جمال المرأة، لأن الجمال في نظرهم أبعد غوراً وأوسع أفقاً، وأروع من ذلك كله . . قال الجاحظ^(٥) :

وقد تعلم أن الجارية الفائقة الحسن أحسن من البقرة، وأحسن من الظبية، وأحسن من كل شيء شبيهت به، كذلك قولهم: كأنها القمر، كأنها الشمس، فالشمس وإن كانت حسنة، فهي شيء واحد، وفي وجه الإنسان الجميل وفي خلقه ضروب من الحسن الغريب، والتركيب العجيب، ومن يشك أن عين الإنسان أحسن من عين الظبي والبقرة وأن الأمر بينهما متفاوت؟

وهكذا رأينا الشعراء يجدون في وجه المرأة الجميلة ضروباً من الحسن، فتهافتوا على محاسنها يصفونها بما أوتوا من إبداع، ويجسدون ألوان الجمال فيها، ويضفون عليها من السحر ألواناً يستنفدون في

(١) معلقة امرئ القيس ديوانه ص ١٣٠ .

(٢) ديوان النابغة ص ٦٣ .

(٣) جمال المرأة عند العرب ص ٢٦ ، ٣٤ .

(٤) شرح القصائد العشر ص ٨٤ وديوان امرئ القيس ص ١٣٠ ، ١٠٤ .

(٥) الجاحظ : مفاخرة الجواري والغلمان ، ص ٤٤ وجمال المرأة عند العرب ، ص ٣٦ .

وجهبها وقدها، وضحكتها، وحركتها آيات الفن والجمال.. وكلمها
أوغلوا في وصفها تجلت لهم عن ألوان جديدة.. فكأن الجمال لا
ينتهي.. ذلك أن عيونهم النفاذة وحسهم المرهف، وذوقهم الفني.. لا
تفتأ تطمح أبداً إلى الاستزادة لاستجلاء المفاتن، وإبداء المحاسن. قال
أبو نواس في مثل ذلك:

وذا ت خـد مـرـد فـتـانـة المـتـجـرد
تأمل العين فيها محاسناً ليس تنفد
الحسن في كل جزء منها معاد مرد
فبعضه في انتهاء وبعضه يتولد
وكلمما عدت فيه يكون بالعود أحمد^(١)

وقال الواواء الدمشقي مشيراً إلى تنزهه في وجه الحبيبة:

فتأملت وجهه فتنزهت به في حدائق الأزهار
وتعجّلت جنة الخلد لما صغ عزمي على دخول النار^(٢)
وقال ابن الرومي^(٣):

لا شيء إلا وفيه أحسنه فالعين منه إليه تنتقل
فوائد العين منه طارفة كأنما أخرياتها الأول
وقال أيضاً مبدياً إيمانه بتجدد الجمال وخلوده^(٤):

ليت شعري إذا أدام إليها كرة الطرف مبدئ ومعيد

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٣٢، وأخبار أبي نواس ص ٨٩، مع اختلاف.

(٢) ديوان الواواء الدمشقي ١٠٢ - ١٠٣.

(٣) ديوان ابن الرومي ١٨/١.

(٤) نفسه ص ١٠٠.

أهي شيء لا تسأم العين منه أم لها كل ساعة تجديد
بل هي العيش لا يزال متى استعرض يملئ غرائباً ويفيد
منظر مسموع معان من اللهور عتاد لما يحب عتيد
ورغم ذلك فقد جعلوا للمرأة في العصر العباسي معايير معينة
للجمال المادي، . . فقد صدفوا عن النساء السمينات، وفضلوا عليهن
المتناسقات الأعضاء الكاسيات العظام.

وقال أبو الفرج بن الجوزي^(١) في حديثه عما يفضل به البصراء
بجواهر النساء الذين هم جهابذة النقد، أنهم كانوا يقدمون المجدولة
التي بين السميكة والممشوقة، ولا بد أن تكون كاسية العظام، ولذلك
قالوا: (خمصانة) و (سيفانة) و (كأنها جان) و (كأنها جدل عنان)
و (كأنها قضيب خيزران)^(٢).

ومعنى هذا أن الذوق العام قد تحول عن شبهات عائشة بنت
طلحة والثريا وعبد، ومال إلى المتناسقات الأعضاء الكاسيات العظام
اللواتي لا سمنة في أجسامهن ولا ترهل.

ويوضح الدكتور صلاح الدين المنجد^(٣) الفروق التي طرأت على
الأنموذج الإسلامي بما يلي:

١ - صدفوا عن النساء السمينات وفضلوا المجدولات، وقولهم
مجدولة: يريدون جودة العصب وقلة الاسترخاء^(٤)، قال بشار مشبهاً
عظام من يصفها بالخيزران:

(١) أبو الفرج بن الجوزي: كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ. مات سنة
سبع وتسعين وخمسمائة هـ.

(٢) مفاخرة الجوارى والغلمان، ص ٥٠.

(٣) جمال المرأة عند العرب ص ٣٦.

(٤) مفاخرة الجوارى والغلمان ص ٥٠.

ودعجاء المحاجر من معدّ كأن حديشها ثمرة الجنان
إذا قامت لمشيتهما تثنت كأن عظامها من خيزران^(١)
وقال الصنوبري^(٢) واصفاً جمال القوام ورشاقة القد وجمال
المشي:

فهو يخفي تحت الغلائل غصناً وهو يبدي فوق الغلائل بدرأ
لبق في الرداء يرفع شطراً حين يمشي به ويسحب شطراً
٢ - أعرضوا عن البطون ذات العكن^(٣) وهي من مستلزمات السمعة
وفضلوا الضامرات البطون. قال أبو نواس^(٤):

ذات حسن نسجي بأردافها الإز ر وتطوي في قمصها الأحشاء
قد طوى بطنها على سعة العيش ضمور في حقوها^(٥) وانطواء
٣ - صدفوا عن النهود الضخمة الكبيرة^(٦) وفضلوا النهود
الكواعب. وقد أبان عليّ بن الجهم عن القدر الذي ينبغي أن يكون عليه
الثدي، فقال:

يملاً الكف ولا يفضله وإذا أثنيته لا ينثني^(٧)

(١) ديوان بشار، ٤/ ١٩٨.

(٢) ديوان الصنوبري، ص ٢٤.

(٣) العكن: العكن والأعطان: الإطواء في البطن من السمن (اللسان/عكن).

(٤) ديوان أبي نواس، ص ٢٨٦.

(٥) الحقو: الخصر.

(٦) كتب الحجاج إلى الحكم بن أبوب: (اخطب على عبد الملك بن الحجاج امرأة جميلة من
بعيد مليحة من قريب، شريفة في قومها ذليلة في نفسها، أمّا لبعلمها). فكتب إليه يقول: (قد
أصبتها لولا عظم ثديها) فكتب إليه الحجاج: (لا يحسن نحر المرأة حتى يعظم ثديها)
العقد الفريد ح ٦ ص ١٠٧، البيان والتبيين ج ٤ ص ٨، عيون الأخبار ج ٤ ص ٣.

(٧) ديوان علي بن الجهم، ص ١٨٨ وديوان المعاني ح ١ ص ٢٥٣.

وقال علي بن جبلة المعروف بالعكوك في وصف محاسن المرأة في وصف شعرها ذي الغدائر الفاحمة الجعدة، ووجهها الأبيض بياض الصبح الذي تجلى جماله حينما قرن إلى سواد شعرها، وفي وصف جبينها الواضح الأبيض، وحاجبها الدقيق الأزج الممتد وزندها البض وبنانها الرخص . . والحقين اللذين في صدرها وبطنها المطوي كما تطوى ملس الرياط، وخصرها الأهيف الرقيق، وساقها المنعمة التي يسدها طوق الحجل، وكعبها الأدرم الذي لا يبين له حجم وقدميها الصغيرتين الليتين^(١):

ويزين فودبها إذا حسرت صافي الغدائر فاحم جعد
فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود
وجبينها صلت^(٢) وحاجبها شحت^(٣) المحط أزج ممتد
والمعصمان فما يرى لهما من نعمة وبضاضة زند
ولها بنان لو أردت له عقداً بكفك أمكن العقد
ويصدرها حقان خلتهما كافورتين علامان ند
والبطن مطوي^(٤) كما طويت ملس الرياط تزينها الملد
وبخصرها هيف يحسنها فإذا تنوء يسكاد ينقد
والساق خرعبة^(٥) منعمة عبلت فطوق الحجل منسد
والكعب أدرم^(٥) لا يبين له حجم وليس لرأسه حد

(١) شعر علي بن جبلة العكوك، ص ١٠٩.

(٢) الصلت: الأملس الأبيض الواضح، يقال: صلت الجبين (اللسان/ صلت).

(٣) الشحت: قد يكون صوابه الشخت، والشخت: الدقيق (اللسان: شخت).

(٤) خرعبة: امرأة خرعبة، وخرعوبة: رقيقة المعظم كثيرة اللحم ناعمة، الأصمعي الخرعبة: الجارية اللينة القصب، الطويلة (اللسان/ خرعب).

(٥) الدرهم في الكعب: أن يوازيه اللحم حتى لا يكون له حجم (اللسان/ درهم).

ومشت على قدمين خصرنا وألبننا فتكامل القد
وقد كثر القول في الصفات الجسمية المراد توفرها في الجارية ليتم
لها الجمال. ووضعت لها رسائل توضح ما يجب أن يلحظه مشتري
الجارية لئلا تجوز عليه الحيل في تغطية عيوبها وإظهار صفاتها بالشكل
الذي يتفق بلا شك مع المعايير العامة للجمال في ذلك العصر. قال ابن
بطلان في رسالته^(١):

(كن على حذر من شرى الرقيق في المواسم، ففي مثل تلك
الأسواق يتم للنخاسين الحيل، فكم من قطيفة بيعت بخصة وسمراء
كمدة بيعت بصفراء مذهبة، وممسوح العجز بثقل الروادف، وبطين
بمجدول الحشا، وأبخر الفم بطيب النكهة، وكم صفروا البياض
الحادث عن القروح في العين والبرص والبهق في الجلد، وجعلوا العين
الزرقاء كحلاء، وكم من مرة حمروا الخدود المصفرة، وسمنوا الوجوه
المقعقة، وكبروا الفقاخ الهزيلة، وأعدموا الخدود شعر اللحي وأكسبوا
الشعور الشقر حالك السواد، وجعدوا الشعور السبطة، وبيضوا الوجوه
المسمرة، ودملجوا السيقان المعركة ورطلوا الشعور المموهة، وأذهبوا
آثار الجدري والوشم والنمش والحكة).

نستخلص مما سبق أنهم كانوا يستملحون البياض أو الصفرة
وسواد الشعر وتجعيده وسواد العينين ورشاقة القوام وجدل الحشا
وضمور الخصر وثقل الروادف.

ونتبين من رسالة ابن بطلان أنهم كانوا يحتالون على تغيير الصفات
وتمويهها فهم كما يبدو لا يحبون العيون الزرقاء ويخفون زرقتها
فيجعلونها كحلاء، وكانوا يتطيرون من رقة العيون وينسبون إليها الشر

(١) رسالة جامعة ص ٣٥٦.

والخبث، وفي كتب الأدب أقوال تشير إلى هذا. ولعل سبب هذا أن العرب كانوا في صراع مستمر وحروب مستمرة ضد الروم والترك وغيرهم من الشعوب الشريرة.

ويؤيد هذا قول السري الرفاء^(١) مشيراً إلى اعتبار زرقه العينين شيئاً:

وقالوا بمقلته زرقه تشين فظل لها مطرقا
وهل يقطع السيف يوم الوغى إذا لم يكن متنه أزرقا
وقال آخر^(٢) في المعنى ذاته:

يقولون نصرانية أم خالد فقلت دعوها كل نفس ودينها
فإن تك نصرانية أم خالد فقد صورت في صورة لا تشينها
أحبك إن قالوا بعينيك زرقه كذاك عتاق الطير زرق عيونها
كما أنهم لا يحبون من الشعور إلا الفاحم الجعد. (وستفصل هذا في الحديث عن الشعر) وذلك ما أشارت إليه رسالة ابن بطلان حيث قال: (وأكسبوا الشعور الشر حالك السواد، وجعدوا الشعور البسطة).

أما نظرة الأعراب إلى الجمال فكانت شبيهة إلى حد بعيد بالأنموذج الجاهلي أو الإسلامي. . قيل إن خالد بن صفوان قال يوماً: خير النساء التي خمص بطنها وعظمت عجيزتها وملأت حضن معانقها، فسمعه أعرابي كان بحضرته فأنشد:

عليك أبا صفوان إن كنت ناكحاً فتاة أناس ذات ثوب ومشر
لها كفل واف وبطن معكن وأخشم ثل الصعب غير منور

(١) يتيمة الدهر ج١ ص ٢٩٧، ونسب البيتان إلى الواواء الدمشقي في ديوانه ص ١٧٠. وديوان السري الرفاء/ ١٩٣.

(٢) عيون الأخبار م ٤ ص ٥٨.

ولم تقتصر العناصر الجمالية ومعاييرها في العصر العباسي على المظاهر الجسمية فقط، وإنما أضافوا إليها مقاييس أخرى، وزاد الاهتمام بمحاسن المرأة الروحية كخفة الروح ودقة الفطنة وسحر الحديث ورهافة الحس وحلاوة النكتة وبراعة الجواب وحسن النادرة وظرف اللسان وقوة البيان والبراعة في الشعر.

فهذا ابن سلام يذكر في طبقات الشعراء الأوصاف المستحبة في الرقيق، فيقول^(١): (وكذلك بصر الرقيق، فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون، جيدة الشطب، نقية، حسنة العين والأنف، جيدة النهود، ظريفة اللسان، واردة الشعر فتكون هذه الصفة بمئة دينار وبمئتي دينار، وترى أخرى بألف دينار وأكثر لا يجد وأصفها مزيداً على هذه الصفة). قال ابن الرومي يصف حديث امرأة^(٢):

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يملل وإن هي أوجزت ودّ المحدث أنها لم توجز
شرك العقول ونزعة ما مثلها للمطمئن وعقلة المستوفز
وعن الأصفهاني قال^(٣):

(كتب رجل إلى محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وكان كريماً سخياً يلقب فتى العسكر يستهديه جارية رقعة فيها:

(حفظك الله وحفظ النعمة عليك، إن بين كل أمر يطالبه الرجل وبين المطلوب إليه ذريعة يتوسل بها إلى معروفه، ولي بارتجائك درجة توجب قضى الحقوق، وحاجتي أبقاك الله - ظريفة من الجواري، لم

(١) طبقات الشعراء، المقدمة.

(٢) ديوان ابن الرومي ج ٣ ص ٤٠٩.

(٣) ينظر التحف والهدايا للخالدين ص ١٠١.

تداولها أيدي التجار، ولم تمتنعها خدمة الموالي ولي فيها شريطة
أعرضها عليك وأذكرها لك لترى رأيك فيها.

وهي أنه كان يقال: إذا اتخذت جارية فاستجد شعرها فإن الشعر
أحد الوجهين، وتكون رائعة البياض تامة القوام، فإنه أول ما تستجلب
به المرأة المودة وتعتقد الحظوة، وتكون جيداء العنق، غيداء الليت^(١)،
كحلاء العين، لها طرف أدعج وحاجب أزج، موردة الخدين سهلتها،
واضحة الجبين، قنواء الأنف، حماء الشفتين، مفلجة^(٢) الثنايا، مشرقة
النحر، ولست أكره الانكسار في الثديين لأنه ليس للنهود عندي إلا لذة
المنظر، وهي أيضاً تحول بين المعانق وبين إرادته، وليست من قول
الشاعر^(٣):

مال الوشاح على قضيب زانه رمان صدر ليس يقطف ناهد
وأكره المعجزة الضخمة، ولا أحب الرسحاء^(٤)، بل أريدها وسطاً
لأن خير الأمور أوسطها).

ثم يقول: (وأريدها رخيمة الصوت، شبيهة النغمة عذبة الألفاظ بها
غنة الحدائث وبيحة الاحتلام، أشجى حلقاً من الغريض^(٥) وأنغم كلاماً
في الأذان من نغم مخارق^(٦))، وأثبت حجة من (أبي الهذيل العلاف)
وأبين معنى من النظام^(٧). ظريفة المجون، حسنة الوقار، إن أردتها دنت

(١) الليت: بالكسر: صفحة العنق (اللسان: ليت).

(٢) مفلجة: متباعدة الأسنان وكانت صفة مستحبة عندهم. (اللسان: فليج).

(٣) الشاعر هو العباس بن الأحنف (ديوانه ص ٨٢).

(٤) الرسحاء: الرشح: خفة الإليتين ولصوقهما أو قلة لحم المعجز. (اللسان: رشح).

(٥) الغريض: المغني الحجازي المشهور في القرن الأول.

(٦) مخارق: من كبار المغنين في عصر الرشيد والمأمون.

(٧) النظام: من رجال علم الكلام.

وإن كرهتها نأت، أطوع من الرداء، وأذل من الحذاء .

وقدرك - أيدك الله - يحتمل اقتراحي عليك، وشكري لك يستوجب ما سألتك منك، وأنا بالإسعاف جدير، وأنت بالأفضال ممتن والسلام) .

فأجابه محمد بن منصور: (سألت - أعزك الله - عن هذه الصفة، وطلبت هذا النعت فأعيتني في الدنيا وما أراني أجدها في الآخرة، وقد بعثت إليك ألف دينار، لتلتمسها أنت، وتسأل إخوانك معاونتك على ذلك فمتى وجدتها أو وجدها لك أحد دفعت الدنانير إليه عربون الدلالة وعرفتني مقدار الثمن حتى أنفذه إليك)^(١) .

زينة المرأة في العصر العباسي:

التجمل:

ولم تقف المرأة على امتداد العصور عند سمات الجمال التي وسمت بها، وإنما سعت إلى الوسائل المختلفة للتجمل والتبرج، وهي طبيعة قد نجد مبررها عند المرأة في كثير من المجتمعات أكثر منها عند الرجل . .

وكانت المرأة تسعى إلى التجمل في الجاهلية والإسلام، وهناك إشارات كثيرة في القرآن الكريم^(٢) والشعر الجاهلي^(٣) والإسلامي^(٤)، تدل على أن المرأة كانت تمارس وسائل مختلفة لإظهار مفاتها وزيادة

(١) التحف والهدايا ١٠١ - ١٠٣ .

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣ .

وسورة النور، الآية: ٣١ .

(٣) شرح المعلقات العشر معلقة زهير ص ١١٢، وشرح ديوان امرئ القيس، ص ١١٥،
وص ٤٣ ومعلقة طرفة ص ١٠٤ .

(٤) الأغاني ح ٧ ص ٥٩ وح ١٦ ص ٩٤، وأخبار النساء لابن قيم، ص ١٠٤ .

محاسنها كالوشم والخضاب والتكحل والتزجيج والتعطر، وكالتفنن في تصفيف الشعر وزركشة الملابس ولبس الحلي.

ومما لا شك فيه أن العصر العباسي كان عصر الترف والثروة والحضارة والذوق والفن والأدب والتأنق والجمال. . وقد بدت آثار هذه السمات في جميع الظواهر الاجتماعية، كالمسكن والمأكل والمشرب والملبس. .

والمرأة جزء من ذلك المجتمع، بل هي الجزء الذي كانت تصبو إليه القلوب وتهفو له النفوس وتريده رقيقاً حلواً عبقاً يثير السحر واللفظ حيثما حل.

ومصادق ذلك قوله الجاحظ: (والفلك وما تحويه أقطار الأرض وكل ما ثقله أكنافها للإنسان حول ومتاع إلى حين، إلا أن أقرب ما سخر له من روحه، وألطفه عند نفسه، الأنثى، فإنها خلقت له ليسكن إليها وجعلت بينه وبينها مودة ورحمة)^(١).

ورأينا المرأة في العصر العباسي تبالغ في الأناقة وتتنفن في التزين، وتأتي من ذلك بضروب ربما لم تكن قد خطرت للمرأة في المجتمعات السابقة على بال.

وقد صور الأدب العباسي شعره ونثره «تجمل المرأة وزينتها» وسنعرض لأهم ما جاء في هذا المجال.

الشعر:

وقد استجادوا الشعر الأسود الغزير شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من جاهليين وإسلاميين، ويبدو أنهم لم يتذوقوا الجمال في

(١) رسالة القيان للجاحظ ص ٥٦.

الشعور الذهبية . ولهذا رأينا النخاسين في رسالة ابن بطلان (يكسبون
الشعور الشقر حالك السواد ويجعدون الشعور السبطة)^(١) .

قال ابن الرومي في وصف فتاة:

غيداء من ماء الشباب الأغيد كأنما ترنو بعيني فرقد^(٢)
تضرب متنيها بوحف أسود دافعتها فما اتقتني باليد
ويبدو أن النساء كن يتفنن في تصفيف شعورهن وتسريحها وتزيينها
وتعطيرها .

فقد يجعلن غدائر جعدة كالذي وصفه الشاعر علي بن جبلة
العكوك حيث قال^(٣):

ويزين فودبها إذا حسرت صافي الغدائر فاحم جعد
فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا والشد يظهر حسنه الضد
أو كقول الصنوبري في وصف الشعر الطويل الفاحم السواد:

جارية شعرها ملاحفها تعجز عن حمله وصائفها
تنال أطرافه إذا سقطت في المشي ما لم تنل مطارفها
مفترق الشمل ها هنا وهنا قد فرقت شمله روادفها
ليل فجر يسر منظره وليلها فجره سوالفها^(٤)
وقد يترك الشعر مسدولاً من الخلف وترصف الأصداغ بعناية ودقة

(١) رسالة ابن بطلان ص ٣٥٦ .

(٢) ديوان ابن الرومي: ٤٠٨/٢ .

(٣) شعر علي بن جبلة العكوك ص ١٠٩ .

(٤) ديوان الصنوبري ص ٣٨٦ .

كقول أبي نواس^(١):

بنفسي من يعذبني هواه كذاك وليس لي أمل سواه
يئيه على العباد بحسن وجه وشعر قد أطيل على قفاه
وأصدغ يرصفها أميري على خد تلالاً وجنتاه
براه الله من ذهب ودر فأحسن خلقه لما براه

وقد كثر القول في الأصدغ وهيئة تصفيفها وربما كانت ظاهرة
جديدة في تصفيف الشعر، فمن ذلك قول الصنوبري^(٢):

بتعصفر الخد المعصفر بتكسر الصدغ المكسر
أو كقول الشاعر^(٣):

صدغ على خده أبكاني ورد لي همّي وأحزاني
كأنما قومه صائغ وخطه كاتب ديوان

كما تفنن الشعراء في تشبيهها فهي مرة تشبه العقارب كقول ابن
المعتمر^(٤):

مكحولة الحاظه بسحر في خده عقارب لا تسري
أو كقول أبي نواس في وصف شعر جارية:

يدور بها ساق أغن ترى له على مستدار الأذن صدغاً معقرباً^(٥)
أو قوله:

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٤٩.

(٢) ديوان الصنوبري ص ٢١.

(٣) أدب الكتاب ص ٦٠.

(٤) أشعار أولاد الخلفاء ص ١٩٢ وأدب الكتاب ص ٦٠.

(٥) ديوان أبي نواس ص ٨٧.

معقرب الرأس كالمسراج صنعته سحر وما منه تعقيد سخار^(١)
وقال علي بن الجهم واصفاً سواد الشعر وعقربة الصدغين^(٢):

في الرأس منها نبت جثل قاحم وأنامل في اللين منها تعقد
ومعقرب الصدغين يشكو طرفه مرض الذي حنت عليه العود
وقد يشبهون الأصداغ بالنون المعجمة بالخال، كقول ابن
المعتز^(٣):

غلالة خده ورد جنني ونون الصدغ معجمة بخال
أو كقوله الصنوبري^(٤):

لها من الصدغين نونان قد أجاد من خطهما خطه
إحداهما بالخال منقوطة تقرأ والأخرى بلا نقطه
أو يشبهونها بالقاف كقول ابن المعتز^(٥):

بكف غزال ذي عذار وطرة وصدغين كالقافين في طرفي سطر
وقوله وقد شبهها بالحلقي السود التي نظمت فوق صفحة العاج:

وطاف بالذن ساق وجهه قمر فشكّه بسرّيع الحدّ مسنون
ذو طرة نظمت في عاج جبهته من شعره حلقاً سود الزرافين^(٦)

ويعرض ابن المعتز للون آخر من تصنيف الشعر فيصف لنا

(١) ديوان أبي نواس ص ٨٧.

(٢) ديوان علي بن الجهم ص ٨٦.

(٣) أشعار أولاد الخلفاء ص ١٩٢، وأدب الكتاب ص ٦٠.

(٤) ديوان الصنوبري ص ٢١.

(٥) التزئين والحلي ص ٤٩.

(٦) أشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٥.

الخصال المنسدلة المستدقة ويشبهها بأذنان الأفاعي أو إبر القرون،
فيقول:

قد أطلعت إبر القرون كأنها أخذ المراد من سحيق الإثم^(١)
وبلغ من تغن المرأة بشعرها وعنايتها به أنها كانت تزينه بالسلاسل
والحلي المختلفة:

تغمس في العبير قمصها حتى شكا الفرقا
وسالت من عقيصتها سلاسل كسرت حلقا^(٢)
أو كقول بشار بن برد^(٣):

وعلى الترائب درة فيها الزبرجد والفريد
ونقارس قد زانها حلق غدائرها تصيد
وظهر في العصر العباسي نوع آخر من تصفيف الشعر، يبدو أن
الريق هم الذين ابتدعوه وهو قص الشعر أو (طمه)، وقد شاع هذا النوع
بين الجواري بصورة خاصة.
قال أبو نواس^(٤):

ومطمومة لم تتصل بذؤابة ولم تعتقد بالتاج فوق المفارق
وقال^(٥):

وناهدة الشديين من خدم القصر مزرفة الأصداع مطمومة الشعر

(١) ديوان ابن المعتز ص ١٥٩.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٧٨ وديوان المعاني ج ١ ص ٢٤٥.

(٣) ديوان بشار ج ٢ ص ٢١٥.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٥٨.

(٥) أخبار أبي نواس ص ٣٠ - ٣١ والحن الحان ص ٣٠٤.

غلامية في زيها برمكية مناطقها قد غبن في رقة الخصر
وربما كانت هذه التسمية خاصة (بالغلاميات) من الجواري تشبهاً
بهم في قص الشعور . . وسرى في مجال الحديث عن الملابس أن
الجواري الغلاميات تشبهن بالغلمان في لباسهم أيضاً، ومما يؤكد أن
قص الشعر كان (للغلاميات)، قول عكاشة يصف شعر إحداهن:

مطمومة الشعر في قمص مزررة في زي ذي ذكر سيماء سيماء^(١)
ولهذا وجدنا ربطة بنت العباس بن علي زوجة المتوكل ترفض أن
تطم شعرها وتأبى على المتوكل طلبه إليها، رغم أنه كان قد هددها إن
لم تفعل بالفراق . . . فاختارت الفرقة على أن تطم شعرها . .
وطلقها^(٢)! . .

وقد تعقص المرأة شعرها كما قال علي بن الجهم:

فمنهن عاقصة شعرها ومصلحة عقد زناها^(٣)
أو تجمع ذوائبها بوقاية، ربما طرزتها بالذهب والدر أو زينتها
ببعض الأبيات الشعرية المنقوشة بالحرير أو غيره . ويذكر لنا الوشاء^(٤)
أن شادن جارية خنت قيمة جواري المأمون كتبت على وقاية تجمع بها
ذوائبها:

بيضاء تحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو جثل أسحم
فكأنها فيه نهار مشرق وكأنه ليل عليها مظلم
وكانت الموسرات من الحرائر والجواري يطيبن شعورهن بأنواع

(١) مفاخرة الجواري والغلمان ص ١٦.

(٢) المحاسن والأضداد ص ١٨٦.

(٣) ديوان علي بن الجهم ص ٣٠ وعبون الأخبار ج ١ ص ٣١٤ مع اختلاف.

(٤) الموشى ج ٢ ص ٢٢٣.

الطيب، أو قد يغسلنه بالمسك والعنبر أو البان.

جاء في كتاب الأغاني^(١) أن ابن المعتز قال: (وحدثني أبو العباس بن الفرات قال: قالت لي تحفة جارية عريب: كانت عريب تجد في رأسها برداً فكانت تغلف شعرها مكان العلة بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً، وتغسله من جمعة إلى جمعة، فإذا غسلته أعادته، وتقتسم الجواري غسالة رأسها بالقوارير، وما تسرحه منه بالميزان. .).

وأشار أبو نواس إلى أن الجارية نبت كانت تغسل شعرها بالبان في قوله^(٢):

أما نبات فقد أضحت مخضبة والشعر مفترق بالبان مغسول
وهكذا رأينا المرأة في العصر العباسي تتفنن في تصفيف شعرها وتطيبه وصبغه وعقسه بمختلف أنواع الوقيات المزركشة المنقوشة بالحرير أو الذهب أو الجواهر، وربما زينته بالأمشاط أو التيجان الذهبية المرصعة بالدر والأحجار المختلفة.

ولا أظن أن المرأة في العصر العباسي قد تخلفت عنها في عصرنا في أفانين التبريحات الرائعة التي تدل على الأناقة والذوق والبراعة في إسباغ الجمال وتجسيده. .

الملابس:

ولما كان العصر العباسي عصر حضارة وترف، فمما لا شك فيه أن يلحق الملابس الشيء الكثير من التفنن والتجديد، وأن تتسم بالذوق والأناقة والبذخ. . وقد بولغ في اختيار أنواعها وألوانها، وفي تزيينها وتطريزها بالدر والذهب واللؤلؤ وغيرها، وصاروا يأتون بالأقمشة

(١) الأغاني ج ٢١ ص ٨٨.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٣٠٩.

الشمينة النادرة والأردية الرشيديّة والطبرية والنيسابورية والخراسانية^(١)، ويلبسون الألوان المختلفة الزاهية..

وجعلوا اللباس مظهراً لتمييز طبقة عن طبقة وصنف عن صنف وجنس عن جنس، فجعلوا للرجال ألواناً معينة وللنساء غيرها مما تعارفوا عليه، فقالوا: (إن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللاتي يتزين للرجال ثم العبيد والخول^(٢)) وإن الأحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه^(٣).

ويؤيد هذا ما ذكره الوشاء^(٤) (وليس يستحسن لبس الثياب الشمعة الألوان المصبوغة بالطيب والزعفران مثل الملمح^(٥) الأصفر والديقي^(٦) المعنبر، لأن ذلك من لبس النساء ولبس القينات)...

اختلفت ألوان ملابس النساء تبعاً للمناسبات وللمركز الاجتماعي لكل منهن فالمتظرفات - الطبقة الراقية - لا يلبسن من الثياب ما كان مصبوغاً فلا يلبسن الأصفر والأسود والمورد والأخضر والأحمر إلا ما كان جنسه التزيق والخضرة والتوريد والحمرة يتخذنه من اللاذ والحريير والديباج والقز والخز والوشى، فما كان اللون من أصله غير مكتسب، وكان اللون الأسود دليل الترميل والحداد، وكذلك اللون الأزرق، فقد كانت الأرامل يلبسن الأسود والأزرق في حين كان اللون الأحمر آية الفرح والطرب والسرور، وكن يخترن منه ما راقهن لأن الشديد الحمرة

(١) الموشى للوشاء ص ١٦٣.

(٢) الخول: العبيد والإماء وغيرهم (اللسان: خول).

(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٩٦، وتهذيب الأخلاق ص ٤٩.

(٤) الموشى: ١٦١/٢.

(٥) الملمح: نوع من الثياب.

(٦) الديقي: نوع من الثياب.

والتوريد من لبس النساء النبطيات والإماء.

أما البياض فكان لبس المهجورات، وربما لبسهن للمتسلب والحزن. فقد ذكروا أن^(١) وصيفاً لما أمر بإحضار جوارى المتوكل بعد قتله حضرن وعليهن الثياب الملونة والمذهبة والحلي وقد تزين وتعطرن إلا محبوبة فقد جاءت متسلبة عليها ثياب بيض غير فاخرة حزناً على المتوكل، إلا أنه ربما كانت الساقيات في الأديرة يلبسن البياض ولا يرين فيه مظهراً من مظاهر التسلب والحزن، فقد وصف ابن المعتز فتاة ساقية في دير تمشي ساحبة وراءها ذبول ثيابها البيض فقال^(٢):

جرت ذبول الثياب البيض حين مشت كالشمس مسبلة أذيال لألاء
وقد وردت في الشعر إشارات كثيرة إلى تلوين ملابس النساء
وتصنيفها وجاء في الشعر العباسي الكثير من الشواهد التي تدل على ولع
النساء بالملابس الملونة، وهم يعتبرون ذلك من أهم وسائل الزينة
وخاصة في المناسبات التي تحسن بها الزينة، حتى لقد ذكر أن الرجال
أيضاً كانوا يلبسون الملابس الملونة في ساعات الأنس والتبذل، (فيذكر
عن أبي علي بن الرشيد أنه كان يتبذل في دير (مديان) في ثياب مصبغة
وهو مضمخ بالخلق)^(٣).

وهو من وسائل الإغراء عند النساء تلبسه القيان وغيرهن.
قال ابن المعتز في مغنية^(٤):

وقمرية الأصوات حمر ثيابها تهين ثياب الوشي جرأً وتسحابا
وقال في وصف جارية وأشار إلى تعدد الألوان التي تلبسها وإلى

(١) المستظرف من أخبار الجوارى ص ٦٦ - ٦٧، وأخبار الخلفاء ص ١٤٠.

(٢) ديوان ابن المعتز ص ١٣.

(٣) الديارات ج ٣ ص ٥٩.

(٤) ديوان ابن المعتز ص ٣٨.

صفحتها في كل لون^(١):

بيضاء إن لبست بياضاً خلقتها كالياسمين منضداً في مجلس
وإذا بدت في حمرة فكأنها ورد من الرازي حسناً مكتسي
وإذا بدت في صفرة فكأنها نسرين بستان كريم المغرس
وإذا بدت في خضرة في صفرة فكأنها للحسن طاقة نرجس
وقال أعرابي^(٢) في هجاء مغنية عابته:

يا جعفر يا جعفر يا جعفر إن أك ربعة فأنت أقصر
أو أك ذا شيب فأنت أكبر غرك سريال عليك أحمر
ومقنع من الحرير أصفر وتحت ذاك سواة لو تذكر
وقال آخر في امرأة غره منها الخضاب بكفها والكحل في عينيها
وغرته الصفر من ثيابها:

أتوني بها قبل المحاق بليلة فكان محاقاً كله ذلك الشهر
وما غرني إلا خضاب بكفها وكحل بعينيها وأثوابها الصفر^(٣)
وكانوا يتفنون في خياطة الملابس وتفصيلها . . فمعها الطويلة التي
تسحب على الأرض والتي ذكرها أبو نواس بقوله^(٤):
مقرطقة لم يحنها سحب ذيلها ولا نازعتها الريح فضل البنات^(٥)

(١) شعر ابن المعتز ٦٠٤/٢.

(٢) رغبة الأمل من كتاب الكامل ج ٢ ص ٣١.

(٣) عيون الأخبار م ٤ ص ٣٢.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٥٨.

(٥) البنات: قيل إنها رقة تكون في الثوب كاللينة وقيل إنها العرى التي تدخل فيها الأزرار، وربما كان القول الثاني أقرب إلى المعنى.

وقوله يذكر السداسي^(١) الطويل :

فطلب بحديث عن نديم مساعد وساقية من المراهق للحلم
إذا هي قامت والسداسي طالها وبين التحيف الجسم والحسن الجسم^(٢)
ومنها القصيرة التي تنصف الساق كالأنتب^(٣)، وقد ذكره بشار
بقوله^(٤) :

يوم قامت تنهادى بين إتب وسخاب
أو قوله^(٥) :

ما على النوم لو تعرضت فيه فبلوناك في سخاب وإتب
وقوله^(٦) :

قامت تراءى لي لتقتلني في القرط والخلخال والإتب
وربما كانت الإتب نوعاً من الملابس الداخلية التي تلبسها المرأة
في نومها أو في خلوتها . . ومثله الصدر والقرقر والقلقل والمجول
والشؤذر، وهي كلها عبارة عن قمص متقاربة في الشكل من حيث الطول
والعرض وعدم وجود الأكمام فيها^(٧) .

ولقد رغبنا في الوشي رغبة شديدة فانتشر بينهن، وكانت زبيدة

(١) السداسي: السدوسي: الطيلسان، يقال لك ثوب أخضر سدوسي. (اللسان: سدس).

(٢) ديوان أبي نواس ص ٨٧ ومفاخرة الجواري والغلمان ص ١٥ وفيه اختلاف.

(٣) الأنتب: برد يؤخذ فيشق في وسطه ثم تلقى المرأة في عنقها من غير جيب ولا كمين، قال أحمد بن يحيى: هو الأنتب والعلقة والصدر والشؤذر والجمع الأنتوب. (اللسان: أنتب).

(٤) ديوان بشار ح ١ ص ٢٧٣.

(٥) نفسه ص ٢٦٧.

(٦) نفسه ص ٢١٤.

(٧) العامة ص ١٦٢ عن المخصص لابن سيده (اللباس).

تلبسه دائماً حتى صنع لها من الوشي الرفيع ما بلغ ثمن الثوب منه خمسين ألف دينار^(١)، كما استعملته الموسرات من النساء حرائر وإماء . قال ابن المعتز يصف قينة :

وقمرية الأصوات حمر ثيابها تهين ثياب الوشي جرّاً وتسحاباً^(٢)
وقال :

غصن يهتز فيقمر راكضاً للوشي سخاباً
ويمكننا أن نخلص إلى أن ملابس المرأة في العصر العباسي كانت تتمثل بما تلبسه في الرأس من عصائب ومقانع^(٣) ومعاجر^(٤) وقلانس^(٥) وكرزان^(٦) وبراقع وأزر . أما ملابسها فهي الأردية والغلائل والمجاسد والقراطق والمناطق والبنائق والقمص والأقيبة والدراريع والسراريل ، وكانت تلبس الخفاف والنعال^(٧) والجوارب^(٨) الخز .

ولعل من المفيد أن نورد بعض الأبيات الشعرية التي نصت على هذه الملابس وأوصافها . فمن ذلك قول ابن المعتز في المقانع والأزر :
سقى الله شمساً بالمخرم دارها يهون عليها مني العتب والهجر
جلتها علينا الريح بين كواعب وقد كتمتهن المقانع والأزر^(٩)

(١) المسعودي ح ٢ ص ٣٦٦ .

(٢) ديوان ابن المعتز ص ٣٨ .

(٣) المقانع : المقنعة : التي تغطي بها المرأة رأسها (المخصص ص ٣٨) .

(٤) المعاجر : أثواب تشدها المرأة على رأسها .

(٥) القلانس : القلنسوة : نوع من ملابس الرأس .

(٦) الكرزان : الكرزان : تاج ملوك فارس وهو مرصع بالذهب والجواهر .

(٧) الموشى للوشاء ح ٢ ص ١١٨ .

(٨) الموشى للوشاء ح ٢ ص ١٦١ ، وينظر الحضارة الإسلامية ح ٢ ص ٢٢٤ .

(٩) ديوان ابن المعتز ص ٢٢٠ .

أو قوله في البراقع:

تأبى العيون النجل إلا نعيمة بما كتمت من خدهن البراقع^(١)

وقال أبو نواس يصف فتاة بالرشاقة:

يا صاح أشكو حلوة العينين جائلة الوشاح^(٢)

وقال صريع الغواني^(٣):

قد أقصدت فؤادي خمصانة خريد
بهنانة لمعوب غرثى الوشاح رود
وقال الصنوبري ذاكراً الغلائل وواصفاً جمال فتاته ورشاقتها
وحسن مشيتها:

فهو يخفي تحت الغلائل غصناً وهو يبدي فوق الغلائل بدرا
لبق في الرداء يرفع شطراً حين يمشي به ويسحب شطراً^(٤)
وقال العباس بن الأحنف^(٥) يصف حسن القوام والرشاقة مشيراً
إلى أن وشاحي فتاته أبكاهما الجوع، كناية عن رقة خصرها ورشاقة
جسمها:

حتى إذا ما حاولت خطوة والصدر بالأرداف مدفوع
بكى وشاحاها ولم يشكيا وإنما أبكاهما الجوع
وقال:

(١) ديوان ابن المعتز ص ٣٠٧.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٣١.

(٣) شرح ديوان صريع الغواني ١٩٤.

(٤) ديوان الصنوبري ص ٢٤.

(٥) ديوان العباس بن الأحنف ص ١٧٣.

جال الوشاح على قضيب زانه رمان صدر ليس يقط ناهد^(١)
ويذكر ابن المعتز في شعره القراطق والمناطق الذهبية، فيقول^(٢):

جاءت إليّ تهادي عشية شاطرية
في قرطق خصرته مناطق ذهبية
ويقول في فتاته التي زارته في يوم عيد بقبائها الفاختي اللون^(٣):

ما رأت عيني كظبي زارني في يوم عيد
في قباء فاختي اللون في لبس جديد
على أن من المفيد أن لا نغفل طرازاً من اللباس شاع في العصر
العباسي عند طبقة معينة من الجوّاري هنّ (الغلاميات)، مما بدت صورته
في الأدب العباسي، فقد قال ابن الرومي^(٤) واصفاً فتاة في زي غلام:

رب فتاة حرة المقلد تختال في زي غلام أمرد
حين بدا للحلم أو كأنّ قد ان لا تيسر في مشية التأود
غيداء من ماء الشباب الأغيد كأنما ترنو بعيني فرقد
وقال الصنوبري^(٥) في وصف زي فتاة:

غلامية مسبل صدغها لها وجنة مشبع صبغها
وثغر به مضغت مهجتي فيا ليتني دام لي مضغها

(١) ديوان العباس بن الأحنف ص ٨٢.

(٢) ديوان ابن المعتز ص ٤٦٦.

(٣) نفسه ص ١٧٣.

(٤) ديوان ابن الرومي ج ٣ ص ٤٠٨.

(٥) ديوان الصنوبري ص ٣٦١.

تعاف الطرار وتصميفها وكم طرة عيبها صمفها
وربما ظهرت الجارية في زي فارس فتقلدت السيف واعتقلت
الرمح واتخذت المنطقة على خصرها والقلنسوة فوق رأسها^(١).

ومما كتبه إحداهن على قلنسوتها :

تأمل حسن جارية يحاربوصفها القمر
مذكرة مؤنثة فهي أنثى وهي ذكر
وعلى حمائل سيفها :

لم يكفه سيف بعينه يقتل من شاء بحديه
حتى تردى مرهفاً صارماً فكيف أبقى بين سيفيه
فلو تراء لابساً درعه يخطر فيها بين صفيه
علمت أن السيف من طرفه أقتل من سيف بكفيه
وربما كان هذا الأمر مقبولاً من الجواري (الغلاميات).

إلا أن الغريب أن يروى عن البانوقة بنت المهدي أنها كانت تنزيا
بزي الغلمان وتسير إلى جانب أبيها المهدي.
فذكر علي بن محمد عن أبيه، قال^(٢) :

(رأيت المهدي وقد دخل البصرة من قبل سكة قريش، فرأيته يسير
والبانوقة بين يديه بينه وبين صاحب الشرطة عليها قباء أسود، متقلدة
سيفاً في هيئة الغلمان).

وازدهر فن التزين في العصر العباسي أي ازدهار، حتى لقد كان
في النساء من اختصت به، فكان عند جعفر بن يحيى جارية خاصة تمشط

(١) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ص ١٤.

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٧٦.

شعور جواريه وتزينهن له كل ليلة^(١)، ولا نشك في وجود الكثيرات ممن احترفن حرفة التجميل والتزيين، وهي حرفة تروّجها حاجة العصر. وشدة النهم إلى الجمال بكل معانيه وألوانه وبكل فنونه وإبداعاته وقد سبق أن رأينا في رسالة ابن بطلان مهارة وبراعة النحاسين في تغطية العيوب وإبداء المحاسن.

ومن وسائل التزين المعروفة:

الخضاب:

وهو التلوين بحمرة أو صفرة أو غيرهما^(٢). وكان الخضاب معروفاً لدى العرب منذ العصر الجاهلي، وقد وردت إشارات كثيرة في الشعر الجاهلي والإسلامي تدل على ذلك^(٣).

أما في العصر العباسي فقد زادت الحاجة إليه لزيادة الحرص على التجميل، وكان النحاسون يقولون: (ربع درهم حناء يزيد في ثمن الجارية مائة درهم فضة)^(٤).

وقد تردد ذكر الخضاب كثيراً في الشعر العباسي. فمن ذلك قول عمار^(٥) ذي كبار يصف كفاً مخضوبة وأنامل مصبوغة:

تومي بكف رطبة خضبت وأنامل ينطفن كالعنم^(٦)

(١) أعلام الناس للإقليدي ص ٨١.

(٢) اللسان/خضب.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٣٤٠، وديوان علقمة ص ٤٠ وديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٥١.

(٤) رسالة جامعة لابن بطلان ص ٣٥٦.

(٥) عمار ذو كبار: شاعر نشأ في دولة بني أمية وعاش في دولة بني العباس، وكان هو وحماد الراوية ومطيع بن إياس يتنادمون ويجتمعون على شأنهم كلهم متهم بالزندقة. عرف بالشعر الطريف المضحك. الأغاني م ٢٣ ص ٣٦٧ وهو عمار بن عمر بن عبد الأكبر يلقب ذا كبار.

(٦) الأغاني م ٢٣ ص ٣٨٣.

وقول دعبل^(١):

يا سلم يا ذات الرضح العذاب وربة المعصم ذي الخضاب
أو قوله:

كأنما كفها إذا اختضبت مخالبا الباز ضرجت بدم^(٢)
وورد ذكر الحناء على لسان أبي نواس إذ قال:

مقرطق وافر الأرداف ذي خنث إن ماس في راحتيه وسم حناء
وقال في وصف بنات الجارية:

أما بنات فقد أضحت مخضبة والشعر مفترق بالبان مغسول
قالت تعللت بالحناء قلت لها ما بالتطاريف بالحناء تعليل^(٣)

وتفننت النساء في نقش الحناء في الأكف وفي تشكيل الزخارف
والنقوش التي تدل على الفن والذوق . . وقد شبه حمزة بن أبي سلامة
الكوفي خط جارية بنقش الحناء في كف عذراء فقال^(٤):

جاء خط كأنه عشرات وسط خط ولم يصله عذار
أو كنقش الحناء في كف عذراء أباحتك لمحه الأستار

وبلغ من براعة النساء في نقش الحناء أنهن كن يكتبن بمهارة ودقة
على راحات الأيدي أو على الأقدام أشعار الحب والغزل فتختار
الجواري ما يلائم هواها ويعبر عن عواطفها وما يكون وسيلة لاستمالة
القلوب ولفت الأنظار واصطياد المحبين .

(١) ديوان دعبل ق ١ ص ٥٨ .

(٢) المصدر نفسه ق ١ ص ١٨٨ .

(٣) ديوان أبي نواس ص ٣٠٩ .

(٤) أدب الكتاب ص ٤٨ .

قال الماوردي: رأيت على راحة (قائد) جارية لبعض جواري
المأمون اليمنى بالحناء^(١):

فديتك قد جبلت على هواكا فقلبي ما ينازعني سواكا
وعلى اليسرى:

أحبك لا ببعضي بل بكلي وإن لم يبق حبك من حراكا
وكتبت الماهانية على كف جارتها (شماريح) بالحناء^(٢):

أبى الحب ألا أن يكون معذبا ونيرانه في الصدر ألا تلهبا
فواكبدا حتى متى أنا واقف بباب الهوى ألقى الهوان وأنصبا
وكتبت (ذويت) جارية حمدونه على قدمها اليمنى^(٣):

إعلمي يا أحب مني إليا أن شوقي إليك يقضي عليا
وعلى اليسرى:

إن قضى الله لي رجوعاً إليكم لم أعد للفراق ما دمت حيا
وبلغ من ترفهم أنهم استعملوا البسك والعنبر والمسك والغالية
للكتابة على الجبين والخد.

وقال الجاحظ^(٤): وقرأت على جبين قينة بالعسكر مكتوباً بالغالية
والعنبر:

يا قمرأ لاح في الظلام عليك من مقلتي السلام
وسياتي الحديث عن الكتابة على الخد في مجال الحديث عن

(١) الموشى للوشاء ص ٢٣٨ ج ٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٩ ج ٢.

(٣) المصدر نفسه ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٤) المصدر نفسه ٢٤٠.

ومن وسائل الخضاب الأخرى التي شاع استعمالها في العصر العباسي صبغ الأظافر^(١) بمواد مختلفة حمراء اللون كالعلم والشناذر، والعناب وغيرها. ويؤيدنا في ذلك ابن الجوزي إذ يقول:

(إن رجلاً رأى امرأة قد خضبت رؤوس أصابعها وشذرنها)^(٢).

وقال الناشئ^(٣) واصفاً كف جارية ومشبهاً بنانها بالفضة قد طرفت بالعناب:

من كف جارية كأن بنانها من فضة قد طرفت عناباً
وقال أيضاً^(٤):

لنا قينة ترنو بناظرتين بما في قلوب الناس عالمتين
تخال تطاريف الخضاب بكفها فصوص عقيق فوق قضب لجين
وكانت النساء يخضبن حدودهن وشفاههن^(٥) بالحمرة ويطلين
وجوههن بالبياض^(٦). قال الصنوبري^(٧) ذاكراً صبغ الخدود المشبع:

غلامية مسبل صدغها لها وجنة مشبع صبغها

(١) التزين والحلي ص ٥٦ الشكل (٢٥) وتبدو في الشكل أظافر يد المرأة وهي طويلة ومدببة ومشبعة بالخضاب وكما تبدو أظافر رجلها مصبغة أيضاً.

(٢) أخبار الظرف والمتاجنين ص ١٠٠.

(٣) ديوان المعاني ج ١ ص ٢٥٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ومختصر تاريخ العرب، ص ٣٨٠.

(٦) التزين والحلي ص ٦٣.

(٧) ديوان الصنوبري ص ٣٦١.

الخال:

وكان الخال ينبت على خد الحسناء طبيعة أو يوضع اصطناعياً
مصدراً مهماً لوعي الكثير من شعر الشعراء . وقد يكون نقطة واحدة أو
نقاطاً^(١) توضع على الخد أو في أي جزء من أجزاء الوجه بمواد ذوات
ألوان مختلفة وتزال بعد انتهاء الغاية منها .

وكان اصطناع التنقيط معروفاً قبل العصر العباسي . ويؤيد ذلك
قول الشاعر:

ومجامر ومكاحل جعلت ومعازف ويخدها نقط^(٢)
واستمر كما يبدو في العصر العباسي ، وكان يعمل أحياناً
بالمسك ، قال الشاعر مجد الدين^(٣) :

آه من ورد على خديك بالمسك منقط
بين أجفانك سلطاً نضعفي مسلط
وقال عبدالله بن المعتز^(٤) :

نقطت صدغك ذالاً فالويل من شكل ذالك
لو أن ذالك ذالكي سجدت من أجل ذالك
وربما توسعوا في التنقيط حتى جعلوه كتابة حروف أو كلمات قيل
إن المتوكل حينما دخل مرة على قبيحة ورآها وقد كتبت اسمه (جعفر)
على خدها بالغالية فأعجبه سواد الغالية على بياض خدها فطلب إلى

(١) التزين والحلي عند المرأة وتلاحظ الأشكال رقم ١ ، ٢ ، ٣ ص ٢٦ ، ٢٨ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ، الطبري ج ٨ ص ١٦٦ حوادث سنة ١٠٢ .

(٣) هو أبو سعيد تاج الملوك بدر بن أيوب أخو صلاح الدين الأيوبي .

(٤) ديوان ابن المعتز ص ٣٥٤ وشعر ابن المعتز ٢/٦٢٧ .

علي بن الجهم أن يقول شعراً في ذلك وكان جالساً في مجلسه حينذاك وكانت محبوبه الجارية الشاعرة جالسة من وراء الستار تسمع الكلام، فإلى أن دعي لعلي بالدواة والدرج . . وإلى أن فكر بشعر قالت محبوبه على البديهة^(١):

وكتابة بالمسك في الخد جعفرأ بنفس مخط المسك من حيث أثرا
لئن كتبت في الخد سطرأ بكفها لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
قل . . فبقي علي بن الجهم واجماً لا ينطق بحرف وأمر المتوكل
(عريب) فغنت في هذا الشعر.

أما الخال، فكان زينة مستحبة لدى الرجال أكثرها من ذكرها والتغزل بها فمن ذلك قول ابن المعتز:

آيات حسن بخديه مسطرة لها من الخال أخماس وأعشار^(٢)
وقال^(٣):

ونـون أذ ريـونـه يلوح في ميمـنته
وخال حسن حبشي اللـ ون فسي مـيـرته
وله صور حلوة صوّر الخال بها من ذلك قوله^(٤):

له طرة كجناح الغداف تلوح على غمرة مقمره
وفي عطفة الصدغ خال له كما استلب الصولجان الكره
وقال^(٥):

(١) الأغاني ج ٢٢ ص ٢٠٢ والمستظرف من أخبار الجواني ص ٦٤ ونساء الخلفاء ص ٩٤.

(٢) ديوان ابن المعتز.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ديوان المعاني ج ١ ص ٢٤٧.

(٥) شعر ابن المعتز ٦٢٤/٢.

وكان خالاً فوق صفحة خده من تحت صدغ كالظلام الغاسق
أثر الشرارة في قميص أحمر أو نقطة بالمسك فوق شقائق
وقال:

كان أرواح أهل العشق سائرة إلى جمالك بالتقريب والعنق
تؤم كعبة حسن خالها حجر في الخد أسوده في أبيض يقق
أما الجاحظ فقد روى^(١) له قوله في فتاة سوداء وهو صورة طريفة
غريبة للخال:

يكون الخال في وجه ملبح فيكسوه الملاحاة والجمالاً
ولست تمل من نظر إليه فكيف إذا رأيت الوجه خالاً
وهناك من الجواري الحسان من سميت بذات الخال لوجود خال
لها فوق شفتها العليا واسمها (خنث) . . ذكرها العباس بن الأحنف
وتغزل بها كثيراً ومن ذلك قوله^(٢):

أتحسب ذات الخال راجية ربا وقد قتلت صباً يجن بها حبا
وربما كان بعض الفتيان يستعملونه، فقد أشار إلى ذلك ابن
قتيبة^(٣) في بيت أورده لبعض المحدثين قال فيه:

الخال يقبح بالفتى في خده والخال في خد الفتاة ملبح
والشيب يحسن بالفتى في رأسه والشيب في رأس الفتاة قبيح

(١) ديوان المعاني ج ١ ص ٢٤٧.

(٢) ديوان العباس بن الأحنف ص ٤٧، وقد روي البيت لإبراهيم الموصلي على الشكل الآتي:

أتحسب ذات الخال راجية ربا وقد سلبت قلباً يهيم بها حبا

وما عذرها نفسي فداها ولم تدع على أعظمي لحماً ولم تبق لي لباً

الأغاني ج ١٦ ص ٢٢٦.

(٣) عيون الأخبار م ٤ ص ٢٢.

التكحل والتزجيج :

ونالت العينان والحاجبان من المرأة عناية خاصة في مختلف العصور، واعتبر التكحل بصورة خاصة أزين الزينة^(١) حتى لقد كان الآباء والأمهات حينما يوصون بناتهم قبل الزفاف يؤكدون على استعماله لأنه أزين الزينة - على حد قولهم -.

وقد ورد ذكر التكحل والعيون الكحيلة كثيراً في الشعر العباسي وقبلة^(٢)، فمما ورد على لسان المعتر قوله^(٣) :

ومقلتها سائل كحلها وقد جليت سبجاً من ذهب
وقوله^(٤) :

كحولة الحافظه بسحر في خده عقارب لا تسري
أو قول أبي نواس في بنات الجارية متغزلاً^(٥) بها :

هذي التطاريف من غنج ومن عبث كما زعمت فما للطرف مكحول
قالت كحلت بعذر العين من رمد فقلت عذراً فما للشعر مبلول
وقد دارت تشبيهات كثيرة لابن المعتر ولغيره من الشعراء حول الكحل فقال في وصف ليلة ممطرة :

جاءت بجفن أكحل وانصرفت مرهاء من أسباب دمع منسكب^(٦)

(١) عيون الأخبار م ٤ ص ٧٤.

(٢) ينظر ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٢٢٦ وديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٥٧٣.

(٣) ديوان ابن المعتر ص ٦٥.

(٤) أشعار أولاد الخلفاء ص ١٩٢.

(٥) ديوان أبي نواس ص ٣٠٩.

(٦) ديوان ابن المعتر ص ٤٤.

ومثله قول الشاعر الأخطل في وصف شقائق النعمان :

هذي الشقائق قد أبصرت حمرتها مستشرفات على قضبانها الذلل
كانها دمة قد مسحت كحلاً جالت به وقفة في وجنتي خجل^(١)

أو قول أبي هلال العسكري^(٢) :

وشقائق نقش الربيع ثيابها فبرزن بين مكحل ومجسد
كالخد يصبغه الحياء بحمرة وجرى عليه الدمع خلط الأثمد

وقد وصف أحد الشعراء جارية سوداء مكتحلة فقال^(٣) :

كانها والكحل في مرودها تكحل عينيها ببعض جلدها

أما الحاجبان فقد حظيا كذلك بالكثير من العناية والاهتمام
فاستعملت طريقة تدقيق الحاجبين وإطالتهما أو تزجيجهما بالإثمد ويبدو
أن الحف أو (التميص) كان معروفاً منذ صدر الإسلام^(٤).

وجاء في شعر عمر بن أبي ربيعة قوله :

وجبين وحاجب لم يصبه نشف خيط كأنه خط نون^(٥)

واستمر التنف والحلق والتخطيط والتزجيج (الصبغ) وسيلة المرأة
لتجميل حاجبيها في العصر العباسي . قال دعبل في جاريته غزال :

تخطط حاجبها بالمداد وتربط في عجزها مرفقه^(٦)

(١) ديوان المعاني ج ٢ ص ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) عيون الأخبار م ٤ ص ٤١ وم ٢ ص ١٨٩ .

(٤) الطبقات لابن سعد ج ٨ ص ٨٧ .

(٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٥٧٣ .

(٦) ديوان دعبل ق ١ ص ١٥٨ .

وقال الشاعر علي بن جبلة المعروف بالعكوك مشيراً إلى تطويل
الحاجبين وتزجيجهما :

وجبينها صلت وحاجبها شحت المحط أزج ممتد^(١)
ويشير المتنبى إلى صبغ الحواجب بقوله :

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجب^(٢)
ويبدو أن المرأة كانت تزيل حاجبها بأكملها لترسم بدلها
بالإثمد الحاجبين بالشكل الذي تريده ولا تزال هذه الطريقة في تجميل
الحاجبين موجودة لدى البعض من النساء اللاتي يبالغن في التزين، قال
أعرابي^(٣) في ذم امرأة له :

ولا تستطيع الكحل من ضيق عينها فإن عالجت صارت فوق المحاجر
وفي حاجبها حزة لغرارة فإن حلقا كانا ثلاث غرائر

وقد ظهر في العصر العباسي ضرب جديد من التزين وهو نقش
الشوارب وربما كان هذا الضرب من الزينة مقصوراً على الجواري
الغلاميات. وقد سبق أن رأينا كيف أنهن كن يلبسن ملابس الغلمان
ويتزين بأزيائهم ويظمن شعورهن. فلا غرابة إذن إذا ما رأيناهن يرسمن
الشوارب أو اللحي بطريقة مثيرة للإعجاب بهن. ويبدو أنهن كن يتفنن
في اختيار اللون والمادة التي ينقشن بها الشوارب فقد تصبغ بالمسك أو
العبر أو غيرها ويؤيد ما ذهبنا إليه قول أبي نواس^(٤) :

أصداغهن معقربات والشوارب من عبيس

(١) شعر علي بن جبلة ص ١٠٩.

(٢) ديوان المتنبى ص ٢٩٢.

(٣) عيون الأخبار م ٤ ص ٣٦.

(٤) الديوان ص ٨٣ والأغاني ج ١٣ ص ١٢٨.

وقال بعض المدنيين: أتيت منزل ابن رامين فوجدت عنده جارية قد رفع ثديها قميصها لها شارب أخضر ممتد على شفتيها امتداد الطراز وكأنما خطت طرتها وحاجباها بقلم، لا يلحقها ضرب من ضررب حسنهما وصف واصف، فسألت عن اسمها ف قيل: الزرقاء.

وقول التنوخي^(١) في وصف شقائق النعمان:

شقائيق مثل خدود نقشت شوارب بالمسك فيها ولحي
التطيب:

واستدعت الأناقة في الحياة والترف فيها والتفنن في التمتع بكل ما يلذ للحواس . . الاهتمام بالطيب بأنواعه المتعددة فاستعملوا منه المسك وهو أغلى أنواع الطيب حتى لقد انحصر استعماله في الطبقة العليا^(٢)، وكانت له أسماء كثيرة منها المسك التبي^(٣) نسبة إلى التبت التي يستورد منها . . ونوع آخر عرف بالمسك الذبيح ذكره أبو نواس بقوله:

فكان القوم نهبي بينهم مسك ذبيح^(٤)

ونوع ثالث عرف بفأر المسك قال فيه ابن المعتز:

فكأنما سطعت مجامر عنبر أوفت فأر المسك فوق ثراك^(٥)

وتطيبوا بالعنبر والعبير والتد والكافور والبان والزعفران وغيرها . .

ويذكر لنا الوشاء أنواع الطيب في حديثه عن القيان وعن الهدايا التي تبعث إليهن في المناسبات (من اللخالخ المعجونة ومخائق الكافور

(١) ديوان المعاني ج ٢ ص ٢٥.

(٢) المرأة في الشعر الجاهلي (الهاشمي) ص ٨٥.

(٣) التزين ص ٧٨ عن الجاحظ: التبصر بالتجارة ص ١٢.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٦٩.

(٥) ديوان ابن المعتز ص ٣٥٤.

المنظومة، ومراسل القرنفل المجمرة، والمسك الأذقر، والعنبر الأشهب، والعود الهندي، والنذ الخزائني والماورد الجوي (من القصص المعنبرة، والغلائل الممسكة، والأردية المرشوشة)^(١).

ويبين لنا زي المتطرفات من النساء في الطيب فيقول: (ومن زيهن أيضاً في الطيب الذي ليس للرجال فيه نصيب، استعمال اللخالخ والصندل، والصباح والقرنفل، والساهرية والأدقال، والمعجونات والزعفران، والخلوق وماء الخلوق والكافور وماء الكافور، والمثلثة الخزائنية، والبرمكية السلطانية، وسائر صنوف الأدهان من البنفسج والزئبق والبان).

وقد ورد ذكر الطيب بأنواعه المختلفة في الشعر العباسي، نورد منه قول أبي نواس^(٢):

لها من ذكي المسك ريح زكية ومن طيب ريح الزعفران نسيم
وقوله في تعطير القميص بالعير:

تغمس في العبير قميصه ما حتى شكها الغرقا^(٣)

وقول ابن المعتز وقد يحدد أنواعاً من الطيب:

يقطر مسكاً على غلائله شعر نقا بالعبير قد وكفا
أفرغ من دره وعنبره حسناً وطيباً في خلقه ائتلفا
يطيب الريح حين يمسحه فما بريح هبت عليه خفا^(٤)
وقوله مشيراً إلى تطيب الشعر بالمسك:

(١) الموشى للشواه ج ٢ ص ١٩٢.

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٣١.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧٨.

(٤) ديوان ابن المعتز ص ٣٢١.

حشيت عقارب صدغه بالمسك في خديه حشوا^(١)
وقول أبي الشبل متغزلاً بجارية سوداء اسمها تبر:

لم تنصفي يا سميّة الذهب تتلف نفسي وأنت في لعب
يا بنت عم المسك الذكي ومن لولاك لم يجنب ولم يطب
ناسبك المسك في السواد وفي الطيب فأكرم بذاك من نسب^(٢)

وقول مطيع بن إياس في جوهر وهي جارية من جوارى امرأة تدعى
(بربر) كانت تقفني الجواري:

خافي اللّه يا بربر لقد أفسدت ذا العسكر
إذا ما أقبلت جوهر يفوح المسك والعنبر^(٣)
وقد جمع الشاعر ذكر أنواع من الطيب في قوله^(٤):

فما ريح ريحان بمسك وعنبر بند وكافور بدهنة بان
بأطيب ريا من حبيبي لو انني وجدت حبيبي خالياً بمكان
الحلي:

وهي كل ما يتزين به من مصوغات معدنية وحجارة^(٥) وضرب من
ضروب الزينة عرفت المرأة واهتمت به منذ أقدم العصور^(٦)، وكان من
المهمات في مناسبات الأفراح والأعياد والزواج خاصة.

وتشير كتب التاريخ والأخبار والأدب إلى كثرة استعمال الحلي في

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٤.

(٢) الديارات ص ٥٢ - ٥٣.

(٣) الأغاني ج ١٦ ص ٣٢٥.

(٤) الموشى ج ٢ ص ٢٤٢.

(٥) المخصص ٤٠/٤.

(٦) ينظر التزين والحلي عند المرأة ص ٩٣ - ٢٠١.

العصر العباسي، العصر الذي ارتبطت حضارته بمظاهر الترف والجمال إلى أبعد الحدود فعكس ذلك مبلغ العناية بمستلزماتها، فقد ذكر لنا الشافعي ما أعده الخليفة الرشيد عند زواجه من السيدة زبيدة ما لم يعد لامرأة من قبل من الجواهر والحلي والتيجان وقباب الفضة والذهب^(١) وذكر عن عثابة أم جعفر البرمكي أنه كان لها مائة جارية تلبس كل جارية منهن من الحلي والجواهر ما يختلف عن الأخرى^(٢).

وأخبار كثرة اقتناء السيدات العباسيات للحلي كثيرة^(٣) جداً تدل على اهتمامهن بها وحرصهن على حيازتها، فإن لم تكن المرأة قادرة على التحلي بالحلي في المناسبات لعدم توفرها لديها لجأت إلى استعارتها أو تأجيرها.

ومن طريف ما ذكره الأصفهاني في هذا الصدد عن ابن هرمة قوله: (مرت بي صفراء مليحة كنت أستحسنها أبداً وأكلمها إذا مرت بي، فمرت اليوم فرأيتها وقد ورم وجهها وتغير خلقها فسألتها عن خبرها فقالت: استعار لي أهلي حلياً وثقبوا أذني لألبسه فورم وجهي وأذناي كما ترى فردوه ولم أشهد العرس فقال ابن هرمة في ذلك^(٤)):

كنقابة لحلي مستعار بأذنيها فشانهما الثقوب
فردت حلي جارتها إليها وقد بقيت بأذنيها ندوب
وذكر الأصفهاني أيضاً أن حمويه استأجر لجارته ذات الخال من بعض الجوهرين بدنة^(٥) وعقود ثمنها اثنا عشر ألف دينار فلما رآها

(١) الديارات ص ١٠٠.

(٢) الوزراء والكتاب ص ١٩٢.

(٣) الذخائر والتحف ص ١٨٤، ٢٣٥ والفخري ص ١٩٢.

(٤) الأغاني ٣٨/٥ ط الخديوية ١٢٢٣ هـ.

(٥) البدنة: الدرع القصير على قدر الجسد (اللسان/ بدن).

الرشيد أعجبه وسأل عن حقيقتها فأخبر بأنها حلي مستاجرة فأمر بشرائها ووهبها للجارية^(١).

وقد سجل الأدب العباسي أنواعاً مختلفة من الحلّي التي استعملت في حينها. وسنذكر منها ما اتخذته النساء من مجوهرات بين خلاخل ومناطق ذهبية وأقراط أو شنوف أو دمالج ومخانق وعقود وأسورة وتيجان مما ورد ذكره في الأدب.

ولقد أسهب الوشاء في كتابه الموشى في ذكر أنواع كثيرة من الحلّي التي كانت تهدي للنساء، وأوردها في ذم القيان باصطناعهن العلة أو الفصد للحصول على الهدايا المختلفة من عشاقهن من حلّي وملابس وعطور فقال^(٢):

فتفصد لا من حاجة لفصاها ولكن لتكليف الهدية في الفصد
فمن بين خلخال يصاغ وخاتم ومن دملج يهدي على أثر العقد
وقد تناول الشعراء خلال إشاراتهم إلى أنواع الحلّي ذكر سمات الجمال ومعاييرها في نظرهم، فكانوا يرون في الساق أن تكون ممثلة تخرس الخلاخل فتمنعها من أن تجول وتصوت فيها، وقد أكثروا من الإشارة إلى ذلك قال العباس بن الأحنف مشيراً إلى امتلاء ساقِي حبيته^(٣):

ما بال خلخالك ذا خرسه لسان خلخالك مقطوع
وقال الصنوبري^(٤):

(١) الأغاني ٢٢٦/١٦.

(٢) الموشى ٢/ ١٢٠ - ١٢١.

(٣) ديوان العباس ص ١٧٣.

(٤) ديوان الصنوبري ص ٨٠.

شمس دجن على قضيب لجين فوق دعص أنشي من الكافور
تتشنى في ريرب يتهادين ثق بال الأرداف هيف الخصور
واضحات الخدود خرس الخلاخيل لى مراض الجفون بيض النحور
وقال ابن الرومي^(١) في خلاخل حبيبته أنها قد كذبت أسماء
الخلاخل لأنها لا تخلخل في ساقها لامتلانها .

وقال كشاجم وقد رأى امرأة كشفت سربالها عن ساقها فبصر منها
خلخالها^(٢):

قلت وقد أبصرتها حاسراً عن ساقها فاضل سربالها
لو لم يكن من برد ساقها لا احترقت من نار خلخالها
ويبدو أنهم كانوا يتفنون في صياغة هذه الخلاخيل فقد أشار أبو
نواس في شعره إلى وجود أنواع مفتولة منها إذ قال^(٣):

فسال عرق على ترائبها كأن مجراه فتل خلخال
وربما رصعت الخلاخيل بالأحجار أو جعلت مجوفة ثم تحشى
بقطع معدنية صغيرة تصوت عند المشي . وقد أشار الجاحظ إلى هذا
النوع عندما وصف جارية بقوله (قد خالط صرير نعلها أصوات
خلخالها)^(٤).

وربما كانت خلاخل صاحبة ابن المعتز من هذا النوع، فقد ذكر
بأنها قد جاءت ذوائبها من رأسها إلى القدم وكنى بذلك عن تصويت
الخلاخل وطول الشعر قال^(٥):

(١) ديوان المعاني ١/ ٢٢٧.

(٢) ديوان المعاني ١/ ٢٥٠.

(٣) ديوان أبي نواس ٣٢٠.

(٤) المحاسن والأضداد ص ٢٠٥.

(٥) أشعار أولاد الخلفاء ص ٢٣٠.

دعت خلاخيلها ذوائبها فجنن من رأسها إلى القدم
وتناول ابن المعتز وغيره ذكر المناطق ووصف جمالها على
الخصور الدقيقة فقال:

نطقت مناطق خصره بصفاته واهتز غصن البان من حركاته
وقال:

جاءت إليّ تهادى عشية شاطرية
في قرطلق خصرته منطلق ذهبية
ومن الحلي التي تشد المرأة به وسطها الحقاب. قيل إنها منطقة
محلاة بالذهب. أو شيء تشده المرأة في وسطها تعلق فيه الحلي فيسمع
لها صوت. . قال بشار في ذلك^(١):

يوم قامت مختالة في حقاب ليتني كنت بعض تلك الحقاب
واستمرت النساء في هذا العصر على لبس الشنوف^(٢) والأقراط
فقال السري الرفاء فيها^(٣):

بين الشنوف الحمر والأقراط أجياد فاترة الجفون عواط
وأشار أبو العلاء المعري إلى أنها كانت تصنع من الذهب
بقوله^(٤):

كلمع الشنوف العسجديات أو كما أشارت بأقفي سورهن العرائس

(١) ديوان بشار ١/٣٥٣.

(٢) الشنوف: حلي للأذن تعلق في أعلاها. تعلق الأقراط في أسفلها.

(٣) ديوان السري الرفاء ص ١٥٨.

(٤) سقط الزند ص ٣١٩.

أما بشار فقد وصف زينة حبيته فقال^(١):

قامت تراءى لي لتقتلني في القروط والخلخال والإتب
وقال واصفاً جمال الرقبة وبعد مهوى القروط:

والقروط في مهلوكة مجراه من جبل بعيد
ومما يلبس في العنق من حللى القلائد والعقود وقد تكون ضيقة،
تحيط بالرقبة وتسمى (بالمخائق) ويذكر الوشاء أن بعضها كانت تتخذ من
الكافور المنظوم والقرنفل وغيرهما فتسمى^(٢) (بالسخاب) وقد تنسج أو
تنظم من اللآلىء والدر^(٣) وغيرها من الأحجار الكريمة.

وممن تردد ذكر (السخاب) ذي الرائحة الطيبة في شعره بشار،
ولعله كان يختار ذكر هذا النوع من القلائد لاستمتاعه برائحتها الطيبة..
فقد قال^(٤):

ما على النوم لو تعرضت فيه فبلوناك في سخاب وإتب
وقال:

يوم قامت تنهادى بين إتب وسخاب
وقال مطيع بن إياس في ذلك^(٥):

قد دهش شادان يلبس في الجيد السخابا
وقال الواواء الدمشقي وأشار إلى المخنقة المنظومة بالجواهر^(٦):

(١) ديوان بشار ١/ ٢١٤.

(٢) الموشى ٢/ ١٢٧.

(٣) سيدات البلاط العباسي ص ١٢٦.

(٤) ديوان بشار ١/ ٢٦٧.

(٥) الأغاني ١٢/ ٨٣.

(٦) المصدر نفسه ١/ ١٢٩.

وكان مخنقة عليها جوهر ما بين نار ركبت وهواء
واستعملت النساء المسيحيات صلباناً تعلق في سلامل تتدلى من
أعناقهن وفي ذلك قال الفضل بن الربيع متغزلاً بإحداهن^(١) :
كم لثمت الصليب في الجيد منها كهلal مكلل بشموس
ولبست النساء الأسورة والدمالج في معاصمهن والخواتم في
أصابعهن وقد تجلى ذلك في وصف الشعراء لهن وفي ذكرهم لهذا النوع
من الحللي .

قال الصنوبري^(٢) في وصف زي فتاة غلامية عافت الكثير من
وسائل تجميل الفتيات فذكر المخانق ونوعاً من الأساور :
تعاف الطرار وتصميغها وكم طرة عيبها صمغها
وما من مخنقة جيدها ولا من دستيجا رسغها
وقال ابن المعتز في وصف فتاة^(٣) :

رشاً لمحنته شرب الكرى فسكر
شغلته أقرطه ودمالج وطرر
وقال أبو الشيص في وصف حبيبته وأورد في شعره أنواعاً من
الحلي^(٤) :

قل للطويلة موضع العقد ولطيفة الأحشاء والكبد
ألا وقفت على مدامعه فنظرت ما يعملن في الخد

(١) ديوان الواواء ص ٤ .

(٢) ديوان الصنوبري ص ٣٦١ .

(٣) أشعار أولاد الخلفاء ص ٢٣٠ .

(٤) الشعر والشعراء ٧٢٢/٢ .

لولا التنطق والسوار معاً والحجل والدملوج في العضد
لتزايلت من كل ناحية لكن جعلن لها على عمد
ومن ضروب حلى الرأي والشعر التي ورد ذكرها في أدب العصر
الأمشاط الذهبية . وإليها أشار ابن المعتز بقوله^(١) :

يقطع في رأسها رؤوس مـذارى ذهب
ومن الأمشاط ما كان يرصع بالأحجار الكريمة كالياقوت . . قال
كشاجم^(٢) :

ترى الخرم السمائي فيها كالياقوت نظمت في المداري
وربما زينت المرأة شعرها بالتيجان وقد أشار أبو نواس^(٣) إلى
ذلك في وصف فتاة غلامية مطمومة الشعر لم تتحل بالتاج :
ومطمومة لم تتصل بذؤابة ولم تعتقد بالتاج فوق المفارق
ونختم الحديث عن تجميل المرأة وزينتها فنقول :

لقد صور لنا العصر العباسي كثيراً من مظاهر زينة المرأة في
ملابسها وشعرها وتجميلها بمختلف الوسائل من خضاب وتكحل وتطيب
وحلي وغير ذلك مما عرف عند النساء وما زيد عليه وابتكر منه بفعل
الثراء ورقة الذوق وبفضل الحضارة الناتجة عن تطور المجتمع .

(١) ديوان ابن المعتز ص ٢١١ والمذاري : الأمشاط .

(٢) الديارات ص ١٦٧ .

(٣) ديوان أبي نواس ص ٢٥٨ .

الباب الثالث

أدب المرأة

الفصل الأول: أدب المجالس والمناظرات

الفصل الثاني: أدب المراسلات

الفصل الثالث: فنون شعرية مختلفة

الفصل الرابع: أدب الأعرابيات

الفصل الخامس: نظرة عامة في أدب المرأة وملامحه الفنية

تمهيد

ولعل أهم ما يطالعنا في دراسة أدب المرأة هو قلة ما وردنا منه بصورة عامة، وهناك أمور عديدة يمكن أن يرد إليها ذلك وهي:

الموقف السلبي لبعض أهل العصر متجلباً في صورتين متباينتين الأولى منهما: النظر إلى أدب المرأة على أنه أدب ضعيف لا يسامي أدب الرجال ولا يمكن أن يوضع في صف ما عرف لهم وأنه في الغالب ومضات تدل في أكثرها على السذاجة والقصور والضعف..

وقد وردت إشارات كثيرة عرضاً خلال الحديث عن شعر بعض النساء من الحرائر والجواري تدل على ذلك.

فالتنوشي يقول في تعليقه على أبيات رواها للشاعرة (عابدة بنت محمد الجهنية) في هجاء أحدهم (فهجته هذه المرأة بما تحقق عندي أنها صادقة فيه لأنه يليق بكلام النساء وقد كانت تنشدي أفحل من هذا الكلام...)^(١).

وقال أبو الفرج الأصفهاني في (بدعة الجارية: (وكانت تقول شعراً ليناً يستحسن من مثلها)^(٢) وفي (فضل) (وكانت أول من اشتهر بقول الشعر في الدولة العباسية وأفضل من عرف من طبقتها)^(٣).

أما الصورة الثانية تجاه المرأة فهي صورة الأمر الذي لم يكن ليرضى أن يرفع المرأة عن منزلة التابعة المملوكة التي يجب أن لا ينسب

(١) نشوار المحاضرة ٢/ ٢٢٤.

(٢) المستظرف من أخبار الجواري ص ١٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٨.

إليها أي تفوق أو تقدم في شيء . . فالشاعرية عندهم تفوق ولا يمكن أن تكون لغير الرجال . . قيل إن الفرزدق (العصر الأموي) سمع امرأة تقول شعراً فقال: (إذا صاحبت الدجاجة صياح الديك فلتذبح)^(١) ومعنى هذا أنهم كانوا يرون الشاعرية من صفات الرجولة التي يجب أن تحظر على النساء .

وعامل ثان ربما كان له أثره في قلة ما وصلنا للمرأة من شعر وهو (الجواري والقيان) فقد رأينا كيف أن النخاسين وغيرهم كانوا يحرصون على تعليم الجواري الشعر وروايته ونقده لتعملو أثمانهن ويسمو قدرهن . . ومن المحتمل أن هذه البضاعة التي تروج الجواري قد لا يرضيها الكثير من المحافظين في المجتمع لبناتهم . . فرواية الشعر أو نظمه يعنيان الاطلاع على شعر الشعراء والاتصال بهم والاتصاف بما اتصفت به الجواري، وربما كان الكثير من الآباء والأولياء لا يريدون لبناتهم أو لنسائهم مثل ذلك .

وعامل آخر هو عدم الاهتمام برواية شعر النساء اللهم إلا ما يعلق بالذهن من أبيات خفيفة وقد يكون لهذا أثره في كون أكثر ما وصلنا منه عبارة عن مقطعات شعرية خفيفة لسهولة حفظها وتناقلها في المجالس والتحدث عنها .

وكان جل الاعتماد على السهل الخفيف الذي يعلق بالأذهان . . أما ما جاء للنساء من قصائد طويلة ومعان رصينة فقليل جداً .

على أن أكثر ما وصلنا منه كان مما يتصل بالخلفاء ومجالسهم وربما جاءت العناية به بسبب العناية بأخبار الخلفاء والأمراء وذوي الشأن في العصر وما يجري في مجالسهم وما يعرف من علاقاتهم . . .

(١) مجمع الأمثال ٢٤/١ .

يضاف إلى ذلك كله أن المرأة وهي التابعة للرجل في ذلك العصر حرة كانت أو أمة، لا يمكن لها أن تقوم بما يقوم به الرجل في احتراف الشعر عملاً يختص به ولا يتعداه إلى غيره.

فقد تحكمت في المرأة الحرة الشاعرة واجبات الأمومة والزوجية ومسؤوليات الأسرة وتبعاتها، كما تحكمت في الجارية الشاعرة رغبات الأسياد ومسؤوليات التبعية في الخدمة والتسلية والترفيه ولهذا لم تجد المرأة الحرية في التصرف بوقتها أو بموهبتها واستعداداتها في حدود ما سمح لها به من الثقافة والاطلاع.

على أنني لا أود أن أذكر هذه العوامل على أنها حقائق ثابتة وإنما أعرضها كاحتمالات ربما كانت مما أدى إلى قلة ما وردنا من شعر النساء.

ورغم ذلك فقد عرض علينا ابن النديم في (الفهرست) وياقوت الحموي في (معجم الأدباء) عدداً لا يستهان به من الكتب التي ألقت عن النساء في العصر العباسي، جاء أكثرها في أخبارهن وأشعارهن وأحوالهن في الزواج والطلاق والمعاشرة، وفي محاسنهن في التزين والتحلي والتطيب، ولم يصلنا منها إلا القليل المطبوع أو المخطوط..

على أننا لاحظنا أن الصفة الغالبة على ما وصلنا منها لا يتعدى كونها عبارة عن أخبار ونوادر وطرائف كانت تقع في المجالس أو في بعض المواقف فتذكر أو تدون على سبيل التندر..، وإن ما ورد فيها من شعر لا يكاد يختلف عن المقطعات الشعرية التي سبق أن أشرنا إلى ذكرها^(١)..

(١) ينظر مقال (ما ألف عن النساء) للدكتور صلاح الدين المنجد، مجلة المجمع العلمي العربي، العدد ١٦ سنة ١٩٤١ ص ٢١٢.

ومع كل ذلك، فقد استطعت بعد كثير من البحث والتنقيب أن أعرض في الباب الثالث فصلاً متنوعاً عن أدب المرأة كان من أهمها وأوسعها (أدب المجالس والمناظرات) ثم أدب (المراسلات والتوقيعات) ثم جمعت الفنون الشعرية المختلفة في فصل واحد... تناولت بعده (أدب الأعرابيات) وألحقت بهذه الفصول فصلاً لتحليل الملامح الفنية العامة لأدب المرأة.

الفصل الأول

أدب المجالس والمناظرات

وكان الشعر من أشهى ضروب اللهو وأرقى فنون الثقافة في حياة الخاصة وفي الأوساط الثقافية، فقد أصبح ضرورة من الضرورات، ومظهراً من مظاهر الفن والجمال عندهم. . ولم يكتفوا بتناشده في كافة المناسبات والأحوال، وإنما جعلوه أجمل ما يتزين به، فصاروا لا يجدون اللذة مكتملة ولا الجمال بديعاً إلا إذا أضفي عليهما من مستظرفات الأشعار ومنتحل الأبيات ومنتخب المقطعات ونوادر الأمثال وملح الكلام^(١).

وعبروا بالشعر وهو أحلى ما يدور في مجالسهم عن نزعاتهم وأهوائهم، فكتبوه على خواتمهم وذبول أقمصتهم وأطراف أكمامهم، وعلى مناديلهم وستورهم ووسائدهم وبسطهم ومرافقهم ومقاعدهم وسررهم وكللهم وأبوابهم. . أو على الكؤوس والأقداح والأواني والمراوح والعيدان والطبول والمعازف وعلى الأقلام^(٢).

أما النساء فكن يكتبن على الخواتم والقمصان والأردية والأكمام والكرزات والقصائب ومشاد الطرر والذوائب والقلانس وعلى الزنانير والتكاك والمناديل^(٣) وكن يكتبن أحياناً بالحناء في الوطأة والأقدام والراح، أو يكتبن بالغالية والعنبر على الخد والجباه وعلى النعال بالذهب والفضة.

(١) الموشى ٢٥١/٢.

(٢) الموشى ٢١٢/٢ - ٢١٣.

(٣) الموشى ٢١٢/٢ - ٢١٣ وقد نوه بذلك بإيجاز.

ولعل من المفيد أن نورد بعض النماذج لما كان يكتبه رواد المجالس من أقوال وأشعار كانت في الغالب تعبر عن نزعة صاحبها وميوله فمما نقشه أهل الحزم على خواتيمهم: (القناعة خير من الضراعة) و (السلامة خير من الندامة)^(١) ومما نقشه أهل الهوى: (من قدّم هواه دام أساءه) و (آفة الحبيب نظر الرقيب) و (آفة الغزل سرعة الملل)^(٢).

وقد يعارض أحدهم من يريد معارضته بالكتابة على فصوص الخواتم فمن ذلك ما وقع بين عبد الملك بن الزيات وجارية من جواري القيّان كان يحبها ثم تنكر لها فكتبت على خاتم لفظاً تعرّض له بالعتاب فبلغه ذلك فكتب على خاتمه ضد ما كتبت، فبلغها فمحت ما كان على خاتمها وكتبت ضد ما كتب فكتب ذلك في أبيات قال فيها^(٣):

كتبت على فص لخاتمها من ملّ أحبابه رقدا
فكتبت في فصي ليبلغها من نام لم يشعر بمن سهدا
فمحته واكتتبت ليبلغني ما نام من يهوى ولا هجدا
فمحوته ثم اكتببت أنا واللّه أول ميت كمدّا
قالت: يعارضني بخاتمه واللّه لا كلّمته أبدا

وقد تفننت الجوّاري في إرسال الرسائل الخفيفة في المجالس عن طريق كتابتها على صدورهن أو عصائبهن أو على ما يلفت الأنظار إليهن، فتكون دعوة صريحة للراغبين فيهن قال علي بن الجهم^(٤):

حضرت مجلس بعض الظرفاء، وخرجت علينا جارية كأنها تمثال وعليها

(١) الموشى ٢/٢١٤.

(٢) المصدر نفسه ٢/٢١٥.

(٣) المصدر نفسه ٢/٢١٧.

(٤) المصدر نفسه ٢/٢٢٤.

عصابة قد أرسلت لها طرفين على صدرها مكتوب عليها :

من يكن صبا وفيًا فزمامي في يديه
خذ مليكي بعناني لا أنزعك عليه

قال : فوثبت فأخذت بطرفي العصابة وقلت : أنا والله صب وأوفى
خلق الله لمحب . قالت : إنه لا بد للفرس من سوط ، قلت : يا غلام ،
هات السوط ، قالت : هيهات : ذاك سوط الدواب ، وسوط مثلي سبيه^(١)
فضة وعلاقته ذهب .

أو قد يضمن الأبيات التي يكتبها معاني في إيداء محاسنهن كالذي
كتبته شادن جارية (خنث) على وقاية تجمع بها ذوائبها^(٢) :

بيضاء تحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو جثل أسحم^(٣)
فكانها فيه نهار مشرق وكأنه ليل عليه مظلم

أو كالذي كتبته بعض المغنيات على قلنسوة لها :

أدميت باللحظات وجنتها فاقصص ناظرها من القلب
وعلى عصابتها :

فإذا نظرت إلى محاسنها أخرجتها عطلاً من الذنب
وكتبت جارية على كرزنها مضمنة معنى لطيفاً وهي أنها تريد أن
يحرم النقاب على القباح ، وأن يجعل خطيئة لا تغتفر على الملاح^(٤) :

(١) السيب : سير السوط (لسان العرب) .

(٢) الموشى : ٢٢٣/٢ .

(٣) فرع المرأة : شعرها . جثل الشعر . الجثل : الكيف ، أسحم : أسود .

(٤) الموشى ٢٢٥/٢ .

ليت النقباب على القباح محزّم وعلى الملاح خطيئة لا تغتفر
وضمنت جارية أخرى تدعى (عارم) هواها وحبها ولهفتها على
حبيبها أبياتاً كتبتها^(١):

واني لأخلو مذ فقدتك دائباً فأنقش تمثالاً لوجهك في التراب
فأسقيه من دمعي وأبكي تضرعاً إليه كما يبكي العبيد إلى الرب
وقال علي بن الجهم^(٢): رأيت جارية في بيعة مريم في دار
الروميين بمدينة السلام كأنها فلقة قمر خارجة من الهيكل وفي وسطها
زئار عليه بيتان:

زنارها في خصرها يطرب وريحها من طيبها أطيب
ووجهها أحسن من حليها ولونها من لونها أعجب
وعن عريب جارية المأمون^(٣): كنت مع الواصل وهو يطوف على
حجر جواربه عند خروجه إلى الأنبار متنزهاً، فدخل إلى فريدة (جارية
كان يحبها جداً) وكان يهوى أيضاً وصيفة لها. لم يكن يعلم بذلك غيري
فلما رآته عند مولاتها دخلت خزانتها وخرجت وقامت على رأس فريدة
وعلى رأسها عصاة مكتوب عليها بالذهب:

عينني تبكي حذر البين ما أسخن الفرقة للعين
لم أر في الحب ولوعاته أوجع من فرقة إلفين
فقال لي الواصل: فهمت يا عريب؟ قلت: نعم يا سيدي، فكتب
على الأرض بقضيب كان في يده:

(١) الموشى ٢٢٥/٢.

(٢) المصدر نفسه ٢٢٧/٢.

(٣) نساء الخلفاء ص ٦١ - ٦٢.

ظهر الهوى وهتكت أستاره والحب خير سبيله إظهاره
فاعص العواذل في هواك مجاهراً فالذ عيش المستهام جهاره
قالت عريب: فحفظت الأبيات وتضاحكنا، ففطنت فريدة، فقال:
يا سيدي علمت ما أنتما فيه، فامنن على أمتك بقبولها، فقال الواصل: قد
فعلت..

وهكذا كانت المجالس روضاً تجتني فيه أزاهير من معاني الشعر
وفنونه، التي أبدعوا عرضها وبرعوا في تنسيقها بين منقوش بماء الذهب
أو خيوطه ومكتوب بالغالية والعنبر ومرسوم بأنواع الألوان والأصباغ..
وبين مقول يتطارحه الشعراء وتبادل الجوارى مشافهة أو مكاتبة مع رواد
المجالس وأصحابها..

وكان جل من يرتاد تلك المجالس من رجال ونساء شاعراً، أو قد
ثقف ثقافة أدبية في الأقل.. فالخليفة محب للشعر أو شاعر، والأمير
والقائد والكاتب والقاضي والطبيب أكثرهم كذلك.. والمرأة حرة كانت
أو أمة قد تكون شاعرة يجري الشعر على لسانها في التو والمناسبة، فإن
لم يكن من نظمها فمن حفظها.. وما أكثر الحفظ وما أوسع الاطلاع..

وكثيراً ما رأينا الخلفاء يجلسون في مجالسهم فإذا ما عرضت
عليهم جارية أمروا بعض الحاضرين من الشعراء بأن يلقوا عليها بيتاً
لتجيزه لتعرف شاعريتها وبراعتها.. وقد يطلب إليها أن تقول شعراً في
معنى يطلبونه ذلك أن رجلاً من أهل اليمامة قدم بجاريتين شاعرتين من
مولدات اليمامة على المتوكل فعرضهما عليه من جهة الفتح^(١) فنظر إلى
أجملهما فقال لها: فقولي في مجلسنا هذا شعراً ترتجلينه وتذكريني فيه

(١) أبو محمد الفتح بن خاقان بن أحمد بن طرغوج أديب شاعر فصيح ذكي تركي الأصل اتخذ
المتوكل العباسي صاحباً ووزيراً، قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧هـ، وأخباره معروفة في كتب
التراجم والتاريخ فلا موجب لتعدادها في هذا الهامش.

وتذكريني فيه وتذكرين الفتح فتوقفت هنيهة ثم أنشدت :

أقول وقد أبصرت صورة جعفر إمام الهدى والفتح ذي العز والفخر
أشمس الضحى أم شبهها وجه جعد غر ويدر السماء الفتح أم مشبه البدر

فقال للآخرى : أنشدي أنت ، فقالت :

أقول وقد أبصرت صورة جعفر تعالى الذي أعلاك يا سيد البشر
وأكمل نعماء بفتح ونصح فأنت لنا شمس وفتح لنا قمر

فأمر بشراء الأولى ورد الآخرى ، فقالت الآخرى : لم رددتني ،

قال : لأن في وجهك نمشاً فقالت :

لم يسلم الطربي على حسنه يوماً ولا البدر الذي يوصف
الطربي فيه خنس بين والبدر فيه كلف يعرف

وقيل إنه لما دخلت فضل الشاعرة على المتوكل يوم أهديت إليه^(١)

قال لها : أشاعرة أنت؟ قالت : كذا يزعم من باعني واشتراني^(٢) فضحك

وقال : أنشدنا شيئاً من شعرك فأنشدته قولها :

استقبل الملك إمام الهدى عام ثلاث وثلاثين
خليفة أفضت إلى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرين
إننا لنرجو يا إمام الهدى أن تملك الدنيا ثمانين
لا قدس الله أمراً لم يقل عند دعاء لك آميناً

وكانت فضل هذه تجلس في مجلس المتوكل على كرسي تعارض

(١) ذكر أبو الفرج أن (فضل الشاعرة جلبت من البصرة فاشتراها رجل من النخاسين بعشرة آلاف درهم فابتاعها محمد بن الفرج الرخجي فأهداها إلى المتوكل).

(٢) ويعلق الدكتور مصطفى جواد على ذلك بقوله : (وفي المتنظم (كذا من باعني ومن اشترى) وهو الصحيح) - نساء الخلفاء ص ٨٦.

الشعراء بحضرته^(١). قيل إنه طلب يوماً إلى علي بن الجهم أن يقول بيتاً لتجيزه فضل، فقال علي^(٢):

لاذ بها يشتكى إليها فلم يجد عندها ملاذاً
فأطرقت ثم قالت:

ولم يزل ضارعاً إليها تهطل أجفناؤه رذاذاً
فماتبوه فزاد عشقاً فمات وجداً فكان ماذا

وعن سعيد بن حميد^(٣) قال: قلت لفضل الشاعرة أجيزي:

من لمحب أحب في صغره

فقلت: فصار أحدىثة على كبره

فقلت: من نظر شفه وأرقه

فقلت: فكان مبدأ هواه من نظره

لولا الأمانى لمات من كمد مر الليالي يزيد في فكره
ليس له مسعد يساعده بالليل في طوله وفي قصره^(٤)

واتكأ المتوكل على يدي بنان وفضل الشاعرتين، وجعل يمشي
بينهما ثم قال: أجيذا لي قول الشاعر^(٥):

(١) نساء الخلفاء ص ٨٥.

(٢) بدائع البداهة ص ١١ والأغاني ٢٧١/١٩ ونساء الخلفاء ص ٨٧ وطبقات الشافعية ٢٦٣/١ والمستطرف من أخبار الجواري ص ٥٢.

(٣) ترددت أخباره في الأغاني ٩٠/١٨.. قيل إنه كان يهوى عدداً من الجواري ذكر منهم (كعب جارية أبي عكل المقين) الأغاني ٩٣/١٨ وقال فيها شعراً و (فضل) ٩٤/١٨ وقال فيها شعراً و (مظلومة جارية الدقيقي) ٩٧/١٨ وهبة المغنية...

(٤) المستطرف من أخبار الجواري ص ٥٢ ونساء الخلفاء ص ٨٨.

(٥) الأغاني ٢٦١/١٩ وبدائع البداهة ص ١٥٠ ونساء الخلفاء ص ٩١.

تعلمت أسباب الرضا خوف عتبا وعلمها حبي لها كيف تغضب
فقلت فضل :

تصد وأدنو بالمودة جاهداً وتبعد عني بالوصال وأقرب
وقالت بنان :

وعندي لها العتبي على كل حالة فما منه لي بُدٌ ولا عنه مذهب
وألقى بعضهم على فضل^(١) :

ومستفتح باب البلاء بنظرة تزود منها قلبه حسرة الدهر
فقلت :

فوالله ما يدري أتدري بما جنت على قلبه أو أهلكته وما تدري
وعن أحمد بن أبي طاهر أنه ألقى على فضل قوله^(٢) :

علم الجمال تركتني بهواك أشهر من علم
فقلت على البديهة :

وأبحثني يا سيدي سقماً يجل عن السقم
وتركتني غرضاً فديتك للعواذل والنهم
صلة المحب حبيب الله يعلمه كرم

وربما وقعت المكاتبة في المجلس فمن ذلك ما وقع للشاعرة فضل
حينما أقبلت بوجهها وحديثها على (بنان) وكان شاباً طريراً حسن الوجه
حسن الغناء^(٣) ، فاستطير سعيد بن حميد غضباً وأقبل عليها يؤنبها ثم

(١) الأغاني ٢٦٢/١٩.

(٢) الأغاني ٢٦٢/١٩ وبدائع البداهة ص ١١٢.

(٣) الأغاني ١٠٠/١٨ كذا ورد اسم الشاب ولعله تصحيف أو من سهو النساخ.

أمسك فكتبت إليه^(١) :

يا من أطلت تفرسي في وجهه وتنفي
أفديك من متدلل يزهي بقتل الأنفس
هبني أسات وما أسأت بلى أقرّ أنا المني
أحلفتنني ألا أسأ رق نظرة في مجلس
فنظرت نظرة مخطيء أتبعها بتفرسي
ونسيت أني قد حلف فت فما عقوبة من نسي

أما عنان الناطفية الشاعرة الماجنة التي سجل لها الأدب مهاراتها
مع شيخ الماجنين والخلفاء أبي نواس، والتي قيل عنها إنها كانت
تفحمة^(٢) حتى لا يحير جواباً كما قيل فيها: (وكان فحول الشعراء
يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم)^(٣).

فكثيراً ما كان مولاها الناطفي يدعو بعض الشعراء لمطارحتها^(٤)
في مجلسها في بيته... وربما كان يقصد بذلك إلى أن يدور ذكرها
وحديث شاعريتها وبراعتها على الألسنة فتشتهر فتحظى باهتمام خليفة أو
سري من الأسرياء.

فمن ذلك أنه دعا (أبا حنش)^(٥) فقال له: هلم إلى عنان فطارحها.
قال أبو حنش: فعزمت على الغدو، فبت ليلي أقول بيتين ثم غدوت
عليها فقلت:

(١) الأغاني ١٨/١٠١ والمستظرف ٥٥ - ٥٦ مع اختلاف في اللفظ، ورسائل سعيد بن حميد
ص ٢٦.

(٢) المستظرف من أخبار الجواني ص ٤٢.

(٣) الأغاني ٢٢/٥٢١.

(٤) الأغاني ٢٢/٥٢٣ ونهاية الأرب ٧٨/٥.

(٥) في نهاية الأرب ٧٨/٥ (كنيته أبو حنش).

أحب الملاح البيض قلبي وربما أحب الملاح الصفر^(١) من ولد الحبش
بكيت على صفراء في الدهر مرة بكاء أصاب العين مني بالعمش
فقالت:

بكيت عليها إن قلبي يحبها وإن فؤادي كالجناحين ذو رعرش
تعنيتنا بالشعر لما أتيتنا فدونك خذه محكماً يا أبا حنش
وعن مروان بن أبي حفصة^(٢) قال^(٣):

لقيني الناطفي فدعاني إلى عنان، فانطلقت معه، فدخل إليها قبلي
فقال لها: قد جئت بك بأشعر الناس مروان بن أبي حفصة، فقالت: إني
عن مروان لفي شغل، فأهوى إليها بسوطه فضربها وقال لي: ادخل
فدخلت وهي تبكي فرأيت الدموع تنحدر من عينيها فقلت:

بكت عنان فجرى دمعها كالدر إذ يستن من خيطه^(٤)
فقالت وهي تبكي:

فليت من يضربها ظالماً تجف يمناء على سوطه
ودخل بعض الشعراء عليها فقال لها الناطفي: عاياه فقالت:
سقياً لبغداد لا أرى بلداً يسكنه الساكنون يشبهها
فقال:

(١) وكانت عنان صفراء جميلة الوجه) الأغاني ٧٨/٢٢.

(٢) مروان بن أبي حفصة: ويكنى أبا السمط وهو مولى مروان بن الحكم. ترجمته في الشعر
والشعر ٦٤٩/٢ والأغاني في مواضع متفرقة (١٣/١٤٢ - ١٤٦، ٥٢٣/٢٢) وطبقات ابن
المنذر: ٤٢ - ٥٤.

(٣) الأغاني ٥٢٣/٢٢، ٥٢٤.

(٤) يستن: يذهب، وفي نهاية الأرب: يسبق من خيطه، وفي كتاب الورقة: كالدر قد توبع من
خيطه.

كانها فضة مموهة أخلص تمريرها مموها
فقلت:

أمناً وخصباً ولا كبهجتها أرغد عيشاً وأرفها
ودخل أبو نواس على الناطفي فأوماً إليه أن يحركها بشيء
فقال^(١):

عنان لوجدت لي فإن من عمري في آمن الرسول بما^(٢)
فردت عليه وقالت:

فإن تمادى ولا تماديت في قطعك حبلي أكن كمن ختما
فرد عليها فقال:

علقت من لو أتى على أنفس الماضين والغابرين ما ندما
فردت عليه:

لو نظرت عينها إلى حجر ولد فيه فتورها سقما
وقيل^(٣) إن العباس بن الأحنف كان يهوى (عنان) فجاء أبا جعفر
النخعي يوماً فقال: امض بنا إلى عنان، فكانت كالمهاجرة له فجلسا
قليلاً ثم ابتدأ العباس فقال:

قال عباس وقد أجهد في وجد شديد
ليس لي صبر عن الهجر ولا لذع الصدود

(١) الأغاني ٥٢٥/٢٢ ونساء الخلفاء ص ٤٩.

(٢) يعني أنه في آخر عمره لأن قوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾ في نهاية سورة
البقرة (البقرة/ ٢٨٥) وبعدها آيتان.

(٣) الأغاني ٥٣٠/٢٢، ٥٣١.

لا ولا يصبر للهجر فؤاد من حديد

فقلت عنان:

من تراه كان أغنى منك عن هذا الصدود
بعد وصل لك مني فيه إرغام الحسود
فاتخذ للهجر إن شئت فـ فؤاداً من حديد
ما رأيـناك على ما كنت تجـ نبي بجـلـيد
فقال العباس:

أو تجودين بصفح عن أخي وجد شديـد
وأخي جهل بما كان نـ تجنـى من صدود
ليس من أحدث هجراً لصديق بسديـد
ليس منه الموت إن لمـ تمـ تصليه ببـعـيد
قال: فقلت للعباس: ويحك ما هذا الأمر؟ فقال: أنا جنيت على
نفسى بتياهي عليها، فلم أبرح حتى ترضيتها له^(١).

وعن أحمد بن معاوية قال: قال لي رجل: تصفحت كتباً فوجدت
فيها بيتاً جهدت جهدي أن أجـد من يجيزه فلم أجـد. فقال لي صديق:
عليك بعنان جارية النطاف فأتيتها فأنشدتها^(٢):
فلم تلبث أن قالت:

ويبكى فابكـي رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
وعن أبي الفرج الأصفهاني^(٣) أن أبان اللاحقي^(٤) قال لعنان وقد

(١) الأغاني ٢٢/٥٣٠.

(٢) المستطرف من أخبار الجواني ص ٣٩.

(٣) نساء الخلفاء ص ٥٠، ٥١.

(٤) أبان اللاحقي: شاعر عاصر أبان نواس وهو من شعراء المجون.

رأها جالسة في الخيش^(١):

لذة عيش الصيف في الخيش

فقلت:

لا في لقاء الجيش بالجيش

فقال لها:

كل يوم بأقحوان جديد تضحك الأرض عن بكاء السماء

فقلت:

فهي كالوشى من ثياب يمان جلبتها التجار من صنعاء

فقال أبان معرضاً بها: ما أحسن قول جرير:

ظللت أراعي صاحبى تجلداً وقد علقتني من هواك علوق

فقلت غير متوقفة:

إذا عقل الخوف اللسان تكلمت بأسراره عين عليه نطوق

ولعنان مع الشعراء الخلعاء مجالس كانت تزخر بالشعر

وبالمطارحات الشعرية الماجنة^(٢)، وهي وإن كانت منافية للأخلاق إلا

أنها أغنت الأدب بالكثير من الصور العابثة المستهترة التي صورت لنا

جانباً من جوانب المجتمع في العصر العباسي بأسلوب فني جميل

وبصور شعرية جديدة هذا بصرف النظر عما تعرضت له أخبار الجواري

ومجالسهن من عبث وتزويد وما لحقها من رتوش وأصباغ قصصية^(٣).

(١) الخيش: نوع من الكتان يستعمل للتبريد.

(٢) المحاسن والأضداد ص ١٥٦.

(٣) انظر د. علي الزبيدي في الأدب العباسي، فصل القصص وغيره من القصص ومقالات العبث والانتحال في الأدب العباسي، مجلة كلية الآداب.

ننقل منها بعض المطارحات التي دارت في منزل عنان حيث اجتمع^(١)
داود بن رزين^(٢) وأبو نواس والحسين الخليع وفضل الرقاشي وعمر
الوراق والحسين بن الخياط وتناشدوا الشعر إلى وقت الظهر، فلما
أرادوا الانصراف قالوا: أين نحن العشيّة؟ فكل قال عندي، فقالت عنان
بالله ألا قلت هذا شعراً أو تراضيتم بحكمي فيكم، فأنشأ داود يقول:

قوموا إلى قصف لهُوَ وظل بيت كنين... إلخ الأبيات

وقال الخليع:

أنا الخليع فقوموا إلى شراب الخليع... إلخ

وقال الرقاشي:

لله در عَقَّار حلت ببيت الرقاشي... إلخ

وقال عمرو الوراق:

عوجوا إلى بيت عمرو إلى سماع وخمر... إلخ

وقال حسين الخياط:

قضت عنان علينا بأن نزور حمينا... إلخ

فقال عنان:

مهلاً فديتك مهلاً عنان أخرى وأولى

بأن تنالوا لديها أشهى نعيم وأحلى

فإن عندي حراماً من النعيم وحلا

(١) أخبار أبي نواس ص ٧٢ - ٧٨ والمحاسن والأضداد ص ١٥٣ والعصر العباسي الأول.

(٢) هو مولى عبد القيس، كان شاعراً محسناً، ورد بغداد وعاش بها أبو نواس وغيره من الشعراء.

لا تطمعوا في سوائي من البرية كلا
يا خيرتي خبروني أجاز حكمي أم لا
فقالوا لها جميعاً: قد أجزنا.. وأقاموا عندها.

ومن شاعرات المجالس والمناظرات من الجواري محبوبة جارية
الخليفة المتوكل التي برعت بنظم ما يحدث في المجلس شعراً في
الحال.. وربما صنعت له لحناً وغتته..

قال علي بن الجهم^(١): كنت يوماً بحضرة المتوكل إذ دفع إلى
محبوبة تفاحة مغلفة بغالية فقبلتها وانصرفت عن حضرته، ثم خرجت
جارية لها ومعها رقعة، فدفعتها إلى المتوكل فقرأها وضحك ثم رمى
بالرقعة إلينا فإذا فيها^(٢):

يا طيب تفاحة خلوت بها تشعل نار الهوى على كبدي
أبكى إليها وأشتكي دنفي وما ألقى من شدة الكمد
لو أن تفاحة بكت لبكت من رحمتي هذه التي بيدي
إن كنت لا تعلمين ما لقيت نفسي فمصادق ذاك في جسدي
فإن تأملته علمت بأن ليس لخلق عليه من جلد
قال: فما بقي أحد إلا استظرفها واستملح الأبيات؛ وأمر المتوكل
عريب وشارية فصنعتا في الشعر لحنين غني بهما باقي يومه.

ومثل ذلك ما يروى عن علي بن الجهم أيضاً أن المتوكل^(٣) قال له
وكان يأنس به ولا يكتمه شيئاً من أمره: يا علي: إنني دخلت إلى قبيحة

(١) ورد هذا الخبر في الأغاني ٢٢/٢٠٣ عن أحمد بن أبي فتن ونسب الشعر فيه إلى فضل
الشاعرة، ثم عقب أبو الفرج قائلًا، وقد رويت الأبيات الأولى لمحبوبة شاعرة المتوكل.

(٢) المستظرف ص ٦٣.

(٣) نساء الخلفاء ص ٩٤ - ٩٥ والمستظرف من أخبار الجواري ص ٦٤ - ٦٥.

الساعة^(١) فوجدتها قد كتبت اسمي على خدها بغالية، فوالله ما رأيت شيئاً أحسن من سواد تلك الغالية على بياض ذلك الخد فقل في هذا شيئاً، وكانت محبوبة جالسة من وراء الستار تسمع فإلى أن دعيت لعلني بالدواة والدرج قالت على البديهة:

وكتابة بالمسك في الخد جعفرأ بنفسي مخط المسك من حيث أثرا
لئن كتبت في الخد سطرأ بكفها لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
فيا من لمملوك لملك يمينه مطيع له فيما أسرَ وأظهرأ
ويا من مناها في السريرة جعفر سقى الله من سقيا ثناياك جعفرأ
قيل: فبقي علي بن الجهم واجماً لا ينطق بحرف، وأمر المتوكل
عريب فغنت في هذا الشعر.

ولما عرضت نبت^(٢) على الإمام المعتمد على الله امتحنها في
الغناء والكتابة، فرضي بما ظهر له من أمرها ثم قال لابن حمدون^(٣):
قارضها:

فقال: وهبت نفسي للهوى

فقلت غير متوقفة: فجار لما أن ملك

فقال: فصرت عبداً خاضعاً

فقلت: يسلك بي حيث سلك

فأمر المعتمد بشرائها، فابتيعت بثلاثين ألف درهم.

(١) وردت في نساء الخلفاء ص ٩٤ (الشاعرة) بدلاً من (الساعة).

(٢) ونساء الخلفاء ص ١٠١.

(٣) ابن حمدون: هو محمد بن حمدون ولد سنة ٢٩٧هـ نادم المعتمد وخص به وكان من ثقاته.
معجم الأدياء.

وقال أحمد بن أبي طاهر: دخلت على نبت فقلت لها^(١):

قد قلت مصراعاً فأجيزه، فقالت: قل، فقلت:

يا نبت حسنك يُغشي بهجة القمر

قد كاد حسنك أن يبتزني بصري

فتوقفت أفكر، فسبقتني فقالت:

وطيب نشرك مثل المسك قد نسمت ربا الرياض عليه في دجى السحر

فزادت فكرتي فقالت:

فهل لنا فيك حظ من مواصلة أولا فإنني راض منك بالنظر

قال: فقممت عنها خجلاً.

وحدث أبو الفرج الأصفهاني عن عرفه وكيل بدعة قال^(٢):

لما قدم المعتضد من الشام ومعه وصيف الخادم^(٣) دخلت إليه

بدعة في أول يوم جلس فيه فقال لها: يا بدعة: أما ترين الشيب كيف

اشتعل في لحيتي ورأسي؟ فقالت له: يا سيدي عمرك الله حتى ترى ولد

ولذلك قد شابوا فأنت في الشيب أجمل من القمر، وفكرت طويلاً ثم

قالت هذه الأبيات^(٤):

ما ضررك الشيب شيئاً بل زدت فيه جمالا

(١) نشوار المحاضرة ١٢٨/٧.

(٢) نساء الخلفاء ص ٦٥.

(٣) قال السمعاني في الأنساب: (الخادم: هذه اللفظة اشتهر بها الخصيان الذين يكونون في دور

الملوك على أبوابهم ويختصون بخدمة الولد) ووصيف هذا مملوك أراد الاستقلال بالبلاد

المتاخمة لبلاد الروم سنة ٢٨٧هـ فسار إليه المعتضد وحاربه فأسره في السنة عينها راجع

(الكامل/ لابن الأثير/ حوادث ٢٨٧هـ).

(٤) نساء الخلفاء ص ٦٥.

قد هذبك الليالي وزدت فيها كمالات
 فعش لنا في سرور وانعم بعيشك حالا
 تزيد في كل يوم وليلة إقبالا
 في نعمة وسرور ودولة تستعالي

وقالت فيه وكانت قد دخلت عليه بعد عودته من حرب وصيف:

إن تكن شبت يا مليك البرايا لأمر عاينتها وخطوب
 فلقد زادك المشيب جمالاً والمشيبي البادي كمال الأديب
 فابق أضعاف ما مضى لك في عز وملك وخفض عيش وطيب

وكان لأشجع^(١) الشاعر جارية يقال لها ريم، وكان يجد بها جداً
 شديداً وتجد به وكانت تحلف له دائماً أن لا تحكم إن بقيت بعده رجلاً
 عليها أبداً، فقال يخاطبها^(٢):

إذا غمضت فوقي جفون حفيرة من الأرض فابكيني بما كنت أصنع
 تعزيك عني بعد ذلك سلوة وإن ليس فيمن وارت الأرض مطمع

فأجابته ريم:

ذكرت فراقاً والتفرق يصدع وأي حياة بعد موتك تنفع
 إذا الزمن الغدار فرق بيننا فمالي في طيب من العيش مطمع
 فلو أبصرت عيناك عيني أبصرت شأبيب جدر غيشتها ليس تقشع

وقال لها مرة وأشار إلى عدم تطاول ود النساء وطلب إليها أن لا
 تبخل عليه بالدمع تبكيه به وتذكر أيامها معه، وكأنه كان قد أحس بقرب

(١) أشجع: هو أشجع بن عمرو بن بني سليم، وكان متصلاً بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة
 ترجمته في الأغاني ١٨/١٤٣ وتاريخ بغداد ٧/٤٥ وطبقات ابن المعتز ٢٥١.

(٢) أخبار النساء لابن قيم الجوزية ص ١١٧.

منيته فما دام لداته قد مضوا فلا شك عنده في أن بقاءه بعدهم قليل :

وليس لأخوان النساء تطاول ولكن أخوان الرجال يطول
فلا تبخلي بالدمع عني فإن من يضمن بدمع عن هوى لبخيل
فمالي إلى رد الشبيبة حيلة ولالي إلى دفع المنون سبيل
وإن لداتي قد مضوا لسبيلهم وإن بقائي بعدهم لقليل
فردت عليه ريم تدافع عن نفسها وتدعو عليها أشد الدعوات إن لم
تكن وفيه له، وهكذا تطمئن حبيبها بأنها سوف لا تحول عن الإخلاص
له والوفاء لعهدته فتقول :

بكى من صروف خطبهن جليل ومن ذابه عمر الحياة تطول
ومن ذا الذي ينعى على حدث الردى وللموت في أثر النفوس رسول
وكل جليل سوف يلقي حمامه وكل نعيم دائم سيزول
لي الويل إن عمرت بعدك ساعة وإن كثير الويل لي لقليل
وتزعم أني لا أجود بعبرة إذا نجمه قد حان منه أفول
ومن ذا الذي أبكي له إن فقدته سواك ومن دمعي عليه يسيل
فلا وقيت ريم إذا ما تخافه إذا ناب خطب للزمان جليل
ولا لقيت يوم القيامة ربها وميزانها بالصالحات ثقل
إذا ما سخا قلب امرئ بمودة فقلبي بود عن سواك بخيل

ووصلنا للحرائر من النساء بعض المخاطبات الشعرية والنثرية
يمكننا أن نعدّها من أدب المخاطبة، وذلك لمتانة تعبيرها وفصاحة
الفاظها وبلاغة أسلوبها . . فمن ذلك^(١) : (أن المأمون جلس يوماً
للمظالم فكان آخر من تقدم إليه، وقد هم بالقيام امرأة عليها ثياب رثة،
فوقفت بين يديه فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله

(١) العقد الفريد ٢٨/١ ونهاية الأرب ٢٧٦/٦.

وبركاته . . فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله تكلمي بحاجتك فقالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد ويا إماماً به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد القوم أرملة عدا عليها فلم يترك لها سباً^(١)
وابتز مني ضياعي بعد منعتها ظلماً وفرق مني الأهل والولد^(٢)
فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

في دون ما قلت زال الصبر والجلد عني وأقرح مني القلب والكبد
هذا أذان صلاة العصر فأنصرفي وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
فالمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا ننصفك منه وإلا المجلس الأحد
قيل ، فلما كان يوم الأحد جلس ، فكان أول من تقدم إليه تلك
المرأة فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال :
وعليك السلام ثم قال : أين الخصم ، فقالت : الواقف على رأسك يا
أمير المؤمنين وأومأت إلى العباس ابنه : فقال : يا أحمد بن خالد : خذ
بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم ، فجعل كلامها يعلو كلام العباس ،
فقال لها أحمد بن أبي خالد : يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين ،
وإنك تكلمين الأمير فأخفضي من صوتك ، فقال المأمون : دعها يا أحمد
فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه ، ثم قضى لها برد ضيعتها إليها وظلم
العباس بظلمه لها .

ومثل ذلك ما يروي الأبشيهي^(٣) (أن امرأة دخلت على هارون

(١) السبد : الشعر ، ويكنى به عن الإبل ، وقد ورد الشطر الثاني من هذا البيت في نهاية الأرب
٢٧٦/٦ هكذا : عدا عليها فما تقوى به أسد .

(٢) رواية الشطر الثاني من البيت في نهاية الأرب : لما تفرق عنها الأهل والولد .

(٣) المستطرف ص ٤٣ .

الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت: (يا أمير المؤمنين: أقر الله عينيك وفرحك بما أتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت) فقال لها من تكونين أيتها المرأة فقالت: (من آل برمك ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم) فقال: أما الرجال فقد مضى أمر الله ونفذ فيه قدره، وأما المال فمردوده إليك ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة فقالوا ما نراها قالت إلا خيراً. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك. أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها وفرحك بما أتاك فأخذته من قوله تعالى: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾. وأما قولها: أتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

إذا تم أمر بسدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم
وأما قولها: لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى: ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾. . فتعجبوا من ذلك..

وفي هذا النص دلالة على سعة اطلاع هذه المرأة وعلى براعتها في الذم بما يشبه المدح قد يقال إن دلائل الصنعة بادية فيه فهو أشبه بنادرة وضعها فقيه، ولكنه يدل على كل حال أن المرأة استطاعت أن توجد لنفسها في ذلك العصر مكاناً مرموقاً من بعض المجالس والمناظرات ودواوين المظالم بفضل ذكائها وأدبها وثقافتها.

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله بن الحسين اعترضته (أم سلمة) امرأته ومعها صبيان فقالت^(١): أنا امرأة محمد بن عبد الله وهذان ابناي منه، أيتهمما سيفك وأضرعهما^(٢) خوفك، فإن رأيت أن تعطف

(١) نهاية الأرب ١٣٧/٥ وتاريخ بغداد ٤٣٣/١٤ والبصار والذخائر ٥١٢/٢ - ٥١٣ وجمهرة خطب العرب ٤٠/٣ وزهر الآداب ٩٦/١ وفيها اختلاف في اللفظ.

(٢) أضرعهما: ضرع: خضع وذل يقال: أضرعته إليه الحاجة. اللسان/ضرع.

عليهما لشوابك القرابة وأواصر الرحم، وألا تصغر خدك لهما فتتبع الأولى الأخرى فافعل.

فقال المنصور: هكذا والله أشتهي أن يكون كلام نساء قريش، يا غلام أردد على ولد محمد ضياع أبيهما، فردت وأحسن إليهما.

والحق أن كتب الأدب تزدهم بمثل هذه الأخبار والنوادر والحكايات وكلها تدل دلالة واضحة على الدور الفعال الذي كانت تقوم به المرأة في أدب المجالس والمخاطبات والظلمات. ولم يقتصر الأمر على الجواري والإماء في قصور الخلفاء كما ذكرنا بل كان عاماً في المجتمع النسوي الذي كان له حظ من الثقافة الأدبية منذ العصر الجاهلي والإسلامي.

الفصل الثاني

أدب المراسلات

لا نقصد بأدب المراسلات هنا الرسائل الديوانية وغير الديوانية ذوات الأغراض المختلفة التي لها علاقة بشؤون الدولة كرسائل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع، ولا نعني بها أيضاً الرسائل الأدبية المتنوعة التي كتبها الجاحظ مثلاً، بل نقصد المكاتبات التي كان يدبجها يراع المرأة في الشؤون والموضوعات والمواقف ذات الصلة الوثيقة بحياتها الخاصة أو موقعها الاجتماعي المتواضع . . .

صحيح أننا قد نجد رسائل نسائية ذات علاقة بالسياسة كرسائل السيدة زبيدة وأم الشريف إلا أن الغالب على مكاتبات النساء والجواري منهن بصورة خاصة وعلى مطارحاتهن الشعرية والنثرية تحركها في دوائر الحب وما يتصل به من وصل وهجر وعتاب واستعطاف وجفاء وحنين وقطيعة ومصالحة . . إلخ. ويبدو أن إعداد المرأة الثقافي والاجتماعي وبخاصة الجواري، اهتم أول ما اهتم بتزويدها المعارف الأدبية اللازمة بطراز الحياة التي تحياها الزوجة الحرة أو الجارية المملوكة، وهو طراز معروف لا يتجاوز في الغالب حدود الحياة المنزلية لطبقة الخاصة، وهي حياة انغمرت في الترف وبماناسب حياة الترف من آداب ومواصفات أخلاقية واجتماعية . . ولهذا كان الشعر ولا سيما شعر الغزل والحب أهم ما أتقنته المرأة من معارف .

وطبيعي أن نستثني هنا حياة القيان لأن حدودها تتجاوز العلاقة بالبيت ورب البيت أو بالسيد إلى العلاقات بطلاب الأنس واللذة والحب وفي مقدمة هؤلاء الشعراء والكتاب وسائر عشاق الأدب، وأهل الظرف من المترددين على المقينين الذين كانوا أشبه بمسامرة النساء وأصحاب

الملاهي في زماننا هذا، ولذا أكثر أخبار الجواري والقيان وكثر أدبهن في كتب الظرف والظرفاء^(١).

لا نقصد إذن بـ (المراسلات) النسائية في ذلك العصر ما أطلق عليه مؤرخو النثر العرب مصطلح الرسائل، ولا نعني أيضاً أن موضوعات المكاتبة النسائية تشبه موضوعات رسائل عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ بل نعني بها الرسائل والمكاتبات القصيرة التي هي من نوع المراسلات الشخصية والمراسلات الأدبية القصيرة.

وطبيعي أن يكثر هذا النوع من المراسلات والمكاتبات في العصر العباسي لكثرة الجواري ولازدهار الحياة الاجتماعية والأدبية، ولازدياد العناية بتثقيف النساء من جوار وإماء ولانتشار الحضارة وارتفاع مستويات الثقافة بصورة عامة.

وسنلاحظ أن هذه المكاتبات من ناحية الشكل قصيرة مجملة يندر أن تخرج عن النثر الموجز وعن العبارات القصيرة، وبعض أبيات الشعر المناسبة، وهي بعيدة عن التكلف والتصنع والتصنيع في صياغة العبارة، وتغلب عليها السهولة والليونة في الأسلوب.

أما من حيث المضمون فهي لا تعدو ما تظمه دائرة العلاقة بين الرجل والمرأة من الحب والمشاعر والمواقف والأحوال المتعلقة بذلك، وقد ازداد الاهتمام بهذا النوع من المكاتبات في العصر العباسي، وعني به المصنفون والمعنيون بالتراجم والأخبار، وبخاصة أخبار النساء حيث لا يكاد يخلو كتاب أدبي كبير من نادرة أو حكاية أو رسالة نثرية وشعرية من هذا النوع.

ولا نستطيع في فصل صغير كهذا أن نستقصي أهم ما أنتجته المرأة

(١) ينظر الموشى (الظرف والظرفاء) للشوا.

أو نسب إليها لأن الإكثار منه وهو قليل التنوع قد لا يخلو من إملال . .
ولكننا نقتصر على الإشارة إلى بعض الشخصيات النسوية المهمة وإلى
بعض النماذج المختارة.

رسائل الحرائر:

وممن عرف بالرسائل البليغة: السيدة زبيدة . . ولم يصلنا للأسف
الشديد من رسائلها إلا القليل . . إلا أن هذا القليل الذي بين أيدينا
يوقفنا على قوة بيانها وفصاحة لسانها . وتمكنها من القول، إضافة إلى
عمق إدراكها وبعد نظرها ورصانة تفكيرها . . فعلى الرغم من فداحة
مصابها بما وقع بين الأمين والمأمون من خصومة وحرب انتهت بمقتل
ولدها الأمين وخلافة المأمون . . لم يقع بين أيدينا ما يشير إلى أن هذه
السيدة قد ضيعت زمام عقلها، فتصرفت تصرفاً بعيداً عن الحكمة
والوقار . . وإنما كانت دائماً جليلة في قولها، عظيمة في سلوكها بعيدة
النظر في مواقفها في الأمور والظروف المختلفة في حالتها القوة
والضعف .

فمن ذلك أنه لما نمي الشر بين الأخوين، بعث الأمين جيشاً كثيفاً
بقيادة علي بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون، فلما أراد علي
الشخص إلى خراسان ركب إلى باب السيدة زبيدة فقالت له^(١):

(يا علي أن أمير المؤمنين وإن كان ولدي، إليه تناهت شفقتي
وعليه تكامل حذري، فإني على عبدالله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه
من كروه وأذى، وإنما ابني ملك نافس أخاء في سلطانه وغارة^(٢) على ما
في يده والكريم يأكل لحمه ويمنعه^(٣) غيره، فاعرف لعبدالله حق والده

(١) تاريخ الطبري ٤٠٥/٨ - ٤٠٦، جمهرة خطب العرب ١٠٤/٣.

(٢) غاره: من الغيرة.

(٣) وردت في جمهرة خطب العرب ١٠٤/٣ (والكريم يؤكل لحمه ويمنعه غيره).

وأخوته، ولا تجبهه بالكلام، فإنك لست نظيره، ولا تقتسره اقتسار العبيد، ولا ترهقه ب قيد ولا غل، ولا تمنع منه جارية ولا خادماً، ولا تعنف عليه في السير، ولا تساوه في المسير، ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سفه عليك فلا تراه، ثم دفعت إليه قيداً من فضة، وقالت: إن صار في يدك فقيده بهذا القيد، فقال لها: سأقبل أمرك وأعمل بطاعتك).

يتضح من هذا النص رصانة تفكير السيدة، زبيدة وبعد نظرها واحترامها لإخوة المأمون للأمين وبنوته للرشد وإشفاقها على أن يصيبه أذى أو مكروه من سوء المعاملة أو التقصير في احترامه.

ومما يؤكد حكمتها وبعد نظرها أنه لما قتل محمد الأمين دخل بعض خدمها فقال لها: ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد؟ فقالت ويلك وما أصنع؟ فقال: تخرجين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت: أخساً لا أم لك، ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال.. ثم أمرت بشيائها فسودت ولبست مسحاً من شعر ودعت بدواة وقرطاس وكتبت إلى المأمون^(١):

لخير إمام قام من خير عنصر وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعيني تستهل دموعها إليك ابن عمي من جفوني ومحجري
أصبْتُ بأدنى الناس مني قرابة ومن زال عن كبدي فقل تصبري
أتى طاهر لا طهر الله طاهراً وما طاهر في فعله بمطهر
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً وأنهب أموالني وخرب أدوري
يعز علي هارون ما قد لقيته وما نالني من ناقص الخلق أعور

(١) مروج الذهب ٣/٣٢٦ وجمهرة رسائل العرب ٣/٣٧٣.

فإن كان ما أسدى لأمر امرأته صبرت لأمر من قدير مقدر^(١)

(وقيل إن المأمون لما قرأ شعرها بكى ثم قال: اللهم إني أقول
كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لما بلغه قتل
عثمان (والله ما أمرت ولا رضيت) اللهم جلل قلب طاهر حزناً)^(٢).

ولما قدم المأمون بغداد بعثت أم جعفر إلى أبي العتاهية وقالت:
أحب أن تقول أبياتاً تعطف بها أمير المؤمنين إلي فبعث إليه بهذه
الآبيات^(٣):

ألا إن ريب الدهر يدني ويبعد ويونس بالآلاف طوراً ويفقد
أصاب لريب الدهر مني يدي يدي فسلمت للآقدار والله أحمد
وقلت لريب الدهر إذ ذهبت يد فقد بقيت والله يا دهر لي يد
إذا بقي المأمون لي فالرشيد لي ولي جعفر لم يفقدنا ومحمد
فلما قرأها المأمون بكى وزاد في ألطافها ورق لها وعطف عليها
ومن الرسائل الثرية التي بعثتها السيدة زبيدة إلى المأمون بعد أن قتل
(طاهر بن الحسين) ابنها الأمين، وهي صورة بليغة من أساليب
الاستعطاف الممزوجة بالعتاب^(٤):

(كل ذنب يا أمير المؤمنين وإن عظم، صغير في جنب عفوك، وكل
زلل وإن جل حقير عند صفحك، وذلك الذي عودك الله فأطال مدتك

(١) وردت الآبيات في تاريخ الطبري: وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر (تاريخ
الطبري) ٢١٣/١٠.

ووردت في ديوان أبي العتاهية (ص ١٥٨) أن السيدة زبيدة أرسلت إليه أن يقول على لسانها أبياتاً
يستعطف بها المأمون.

(٢) مروج الذهب ٣/٣٢٧.

(٣) بغداد في تاريخ الخلافة ص ١٢. انظر ديوان أبي العتاهية وأشارنا إليه هنا.

(٤) بلاغة الكتاب في العصر العباسي ص ١١٩ وجمهرة رسائل العرب ٣/٣٧٤.

وتتم نعمتك وأدام بك الخير، ورفع بك الشر. هذه رقعة الواله ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي الممات لجميل الذكر فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي وأن تصل رحمي وتحتسب فيما جعلك الله طالباً، وفيه راغباً فافعل، وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي إليك). فأجابها المأمون برسالة قال فيها^(١):

(وصلتني رقعتك يا أماء حاطك الله وتولاك بالرعاية ووقفت عليها، وساءني - شهد الله - جميع ما أوضحت فيها، ولكن الأقدار نافذة والأحكام جارية والأمور متصرفة والمخلوقون في قبضتها لا يقدر على دفاعها، والدنيا كلها إلى شتات، وكل حي إلى ممات، والغدر والبغي حثف الإنسان، والمكر راجع إلى صاحبه، وقد أمرت برد جميع ما أخذ لك ولم تفقدي ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه، وأنا بعد ذلك أكثر مما تختارين، والسلام) وهذه الشواهد قليل من كثير بين ما روته كتب الأدب والتاريخ من رسائل زبيدة وأقوالها، ولعل أظهر ما فيها إضافة إلى الحنكة السياسية والقدرة الأدبية تعبيرها الواضح عن مشاعر الأم والمرأة الناضجة فهي تترقق بالعاطفة المكبوتة والألم المكظوم، على الرغم مما فيها من حصافة وكياسة و (دبلوماسية) ليست غريبة على شخصية نسوية كبيرة كان لها دور فعال في أحداث عصرها السياسية والاجتماعية. ولا ريب في أن هذه الخصيصة أو الميزة الفنية التي تحملها رسائلها وأقوالها يجب أن تضاف إلى الخصائص التي امتازت بها الرسائل الفنية بصورة عامة والمنسوبة منها بوجه خاص فهي تحمل دائماً ملامح من مزاج المرأة وطابعها وشخصيتها المتميزة.

وللنساء بعض الرسائل في حسن الإشارة والموعظة والتبصير بالأمور السياسية نذكر منه ما كان لأم الشريف (عمة محمد بن أحمد بن

عيسى) وكان المعتضد قد أناخ بجنده عام ٢٨٦هـ على (آمد)^(١) وحاصرها ووجه (شعلة بن شهاب الشكري) إليه، فلما اتصل الخبر بأم الشريف تحدثت إليه في أمر ابن أخيها ثم كتبت معه كتاباً إليه^(٢) أجزلت فيه الموعظة وأخلصت فيه النصيحة. . وكتبت في آخره هذه الأبيات^(٣):

إقبل نصيحة أم قلبها وجع عليك خوفاً وإشفاقاً وقل سدا واستعمل الفكر في قلبي فلأنك إن فكرت ألفيت في قلبي لك الرشدا ولا تشق برجال في قلوبهم ضغائن تبعث الشنآن والحسدا مثل النعاج خمول في بيوتهم حتى إذا أمنوا ألفيتهم أسدا وداو ذلك والأدواء ممكنة وإذ طبيببك قد ألقى إليك يدا أعط الخليفة ما يرضيه منك ولا تمنعه مالا ولا اهلاً ولا ولدا واردد أخا يشكر رداً يكون له ردهاً من سوء لا تشمت به أحدا

فأخذ شعلة الكتاب وسار به إلى محمد بن أحمد، فلما نظر فيه رمى به إليه ثم قال: يا أخا يشكر: ما بأراء النساء تناس الدول ولا بعقولهن يناس الملك، ارجع إلى صاحبك، فرجع إلى المعتضد وأخبره الخبر وأراه كتاب أم الشريف فأعجبه شعرها وعقلها.

فلما عضته الحرب وجهه إلى المعتضد يطلب الأمان فأجابه إليه، ثم وجه المعتضد شعلة بن شهاب في طلب أم الشريف فكتبت إليه بهذه الأبيات^(٤):

قل للخليفة والإمام المرتضى رأس الخلائق من قريش الأبطح

(١) آمد: مدينة من مدن الجزيرة قرب ديار بكر وفي بعض المراجع أنها ديار بكر نفسها.

(٢) لم يقع الكتاب بين أيدينا.

(٣) جمهرة رسائل العرب ٣٩٣/٤ والمتظم ١٦/٦ - ١٧ ومروج الذهب ١٧٦/٤.

(٤) المصدر نفسه.

بك أصلح الله البلاد وأهلها بعد الفساد وطالما لم تصلح
وتزحزحت بك قبة العز التي لولاك بعد الله لم يتزحزح
وأراك ربك ما تحب فلا ترى ما لا يحب فجد بعفوك واصفح
يا بهجة الدنيا وبدر ملوكها هب ظالمي ومفسدي لمصلح
فسار بالكتاب إلى المعتضد فأعجبه الأبيات، وأمر أن يحمل إليها
تخوت^(١) من الثياب وجملة من المال، وإلى ابن أخيها محمد بن أحمد
مثل ذلك، وكان قد عفا عنه.

وكان للجواري والقيان مكاتبات منثورة ومنظومة، ولعل أكثر ما
وصلنا منها مكاتبات عريب المغنية الشاعرة.. وكانت لها رقاع
ومكاتبات ذكرها ابن المعتز^(٢) أشار مراراً إلى أنه قد وقعت له رقاع
عريب.. ثم ينقل لنا ما قرأ منها وهي مراسلات في أغراض مختلفة..
منها رقعتها إلى المأمون في تهنته وقد خرج إلى (فم الصلح) لزفاف
بوران:

انعم تخطتكَ صروف الردى بقرب بوران مدى الدهر
درة خدر لم يزل نجمها بنجم مأمون العللى يجري
حتى استقر الملك في حجرها بيورك في ذلك من حجر

وينقل ابن المعتز بعض مراسلاتها النثرية إلى (إبراهيم بن
المدير)^(٣) فيقول: (قرأت في مكاتبات لعريب فصلاً أجابت به إبراهيم بن
المدير في مكاتبة بديعة بعيادة)^(٤): (قد استبطأت عيادتك - قدمت قبلك

(١) التخوت: جمع تخت بالفتح، وهو وعاء تصان فيه الثياب.

(٢) الأغاني ١٦٩/٢٢ والمستطرف من أخبار الجواري ص ٣٧.

(٣) إبراهيم بن المدير: وزير من الكتاب المترسلين الشعراء من أهل بغداد استوزره المعتمد
العباسي سنة ٢٦٩هـ.

(٤) الأغاني ١٦٩/٢٢.

- أستديم الله نعمه عندك) . . قال وكتبت إليه أيضاً :

(أستوهب الله حياتك، قرأت رقعتك المسكينة، التي كلفتها بمسألتك عن أحوالنا، ونحن نرجو من الله أحسن عوائده عندنا، وندعوه ببقائك ونسأله الإجابة، فلا تعود نفسك - جعلني الله فداءها هذا الحفاء والثقة مني بالاحتمال وسرعة الرجوع^(١)).

وكتب إليه وقد بلغها صومه يوم عاشوراء :

(قبل الله صومك، وتلقاه بتبليغك لما التمس، كيف ترى نفسك - نفسي فداؤها - ولم كدرت جسمك في آب أخرجه الله عنك في عافية فإنه فظ غليظ، وأنت محرور، وإطعام عشرة مساكين أعظم لأجرك، ولو علمت لصمت لصومك مساعدة وكان الثواب في حسناتك دوني لأن نيتي في الصوم كاذبة)^(٢).

ولها معه مراسلات كثيرة في مختلف الأغراض والمناسبات^(٣). وعرف عنها كذلك أنها أحببت محمد بن حامد فكانت لها معه مراسلات ينقلها أبو الفرج عن ابن المعتز الذي روى أنه لما توفي محمد بن حامد عثر في تركته على سفظ^(٤) مختوم ففرض الخاتم وفتحها فيه رقاع عريب فقرئت فكان منها قوله^(٥):

ويلي عليك ومنكا أوقعت في الحب شكا
زعمت أني خوون جوراً علي وإفكا

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه ١٧٠/٢٢.

(٣) ينظر الأغاني ١٦٩/٢٢ - ١٧٣.

(٤) السفظ، الذي يعبا فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء (اللسان/سفظ).

(٥) الأغاني ٧٧/٢١.

إن كان ما قلت حقاً أو كنت أزمعت تركها
فأبدل الله ما بي من ذلة الحب نسكاً
وكتبت إليه تستزيره، فكتب إليها: (إني أخاف على نفسي) فكتبت
إليه تقول:

إذا كنت تحذر ما تحذر وتزعم أنك لا تجسر
فما لي أقيم على صبوتي ويوم لقائك لا يقدر
تبينت عذري وما تعذر وأبليت جسمي وما تشعر
ألفت السرور وخليتني ودمعي في العين ما يفتر
وممن عرف بالمراسلات النثرية والشعرية واشتهر بالقدرة الفائقة
على الكتابة^(١) فضل الشاعرة، حتى لقد قيل إن (سعيد بن حميد)^(٢) كان
قد سئل: لملك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها وتفيدها وتخرجها فقد
أخذت نحوك في الكلام وسلكت سبيلك). فأجاب السائل - وهو
يضحك - ما أخيب ظنك - ليتها تسلم مني لا آخذ كلامها ورسائلها،
والله يا أخي لو آخذ أفاضل الكتاب وأماثلهم عنها لما استغنوا عن
ذلك^(٣). وقال ابن المعتز: (وكان سعيد يقول بعد موتها: (ما رسائي
المدونة عند الناس إلا من إنشائها)^(٤)).

ورغم أنه قد يفهم في إجابة سعيد بن حميد بهذه الإجابة وثناؤه
على رسائل فضل وبراعتها فيه أنه أراد بذلك ضرباً من المجاملة، ونوعاً
من الإخلاص لخليته^(٥) فهو يدل على براعتها فيها من جهة وعلى جودة

(١) الأغاني ١٨/١٠١.

(٢) سعيد بن حميد: كاتب مترسل قلده المستعين العباسي ديوان رسائله، شعره رقيق (الأعلام
١٤٦/٣).

(٣) نساء الخلفاء/ ص ٨٨.

(٤) طبقات الشعراء ص ٤٢٦.

(٥) رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ص ٣٩.

الرسائل ومتانتها من جهة أخرى .

وكان بين الشاعرة وبين سعيد بن حميد مواصلة وحب وقد صوروا مواقفهما في ذلك بالكثير من المراسلات الشعرية والثرية التي تبادلها .

كتبت إليه مرة ، وكان كما يبدو قد انشغل عن مواصلتها :

(فإن قطعت عنا عادة البر تمسكنا بعادتنا في الشكر ، وحملنا الذنب على الدهر وإن تكن الأخرى فلم نعد الظن ولم تأت بديعاً من الأمر)^(١) .

ويبدو أن ارتباط فضل بقصر الخلافة كان ينغص عليها وعلى سعيد كثيراً من لذة هذه العلاقة^(٢) ، فهي بحكم كونها جارية من جواري المتوكل لم يكن بوسعها أن تكشف عن حبها له وتصرح به ، وإنما كانت تضطر في الكثير من الأحيان أن تجامل هذا وذاك باصطناع المودة فتبديها لهم حتى إذا ما خلّت إليه بثته هواها ووجدتها وما ذاك إلا لخشيته من سعي الأعداء والوشاة إلى التفريق بينهما في كتاب كتبت إليه^(٣) :

وعيشك لو صرحت باسمك في الهوى لأقصررت في أشياء في الهزل والجد
ولكنني أبدي لهذا مودتي وذاك وأخلو منك بالبهت والوجد
مخافة أن يغري بنا قول كاشح عدو فيسعى بالوصال إلى البعد

فكتب إليها سعيد :

تنامين عن ليلي وأسهره وحدي وأنهي جفوني أن تبشك ما عندي
فإن كنت لا تدرين ما قد فعلته بنا فانظري ماذا على قاتل العمدة

(١) المستظرف ص ٥٤ .

(٢) رسائل سعيد بن حميد وأشعاره ص ٢١ .

(٣) الأغاني ١٩ / ٢٦٣ .

ورغم اشتهاى كل منهما بحب الآخر، فإن ذاك لم يمنع من أن يكون لكل منهما أحباؤه وعشاقه، وهو الأمر الذي شاع في العصر، فقد كان للرجال قلوب طامحة لا تكتفي بالقليل من الأحباب فهي قلوب تنتقل بينهم وتجول في مسارح اللهو والعبث والفتنة والجمال.. وكذلك كان أمر الجوارى والقيان غالباً ما يتصيدن هوى الرجال وقلوبهم، ويصارحن كلاً على انفراد بالعشق واللوعة والصبابة، وهن في ذلك مشركات في الهوى متاجرات بالحب^(١).

وكان من أمر سعيد بن حميد أنه عشق جارية من القيان وبلغ ذلك (فضل) فكتب إليه تقول^(٢):

يا حسن الوجه سىء الأدب شبت وأنت الغلام في الطرب
ويحك إن القيان كالشرك المنص وب بين الغرور والمطرب
لا يتصيدن للفقير ولا يطلبن إلا معادن الذهب
بيننا تشكى هواك إذ عدلت عن زفرات الشكى إلى الطلب
تلاحظ هذا وذاك وذا لحظ محب بعين مكتسب

فهي تحذره من القيان وتقول له إنهن كالشرك الذي ينصب لطلب معادن الذهب، وتصور له أمرهن مع ذوي الغفلة والغرور من الرجال وكيف أنهن يخدعنهم بالقول والمواطف وكيف يوزعن نظراتهن بين هذا وذاك لأطماعهم فيهن ودعوتهم إلى حبهن. وكأنها ليست مثلهن في ذلك، وقد دل شعرها على كونها تفعل ما يفعلن.

قيل إنها اجتمعت في مجلس مع سعيد بن حميد وبنان المغني،

(١) الموشى ١١٦/٢ - ١٢٨.

(٢) الأغاني ١٨/١٠٠، والمستظرف من أخبار الجوارى ص ٥٥ والموشى ١٢١/٢ مع اختلاف في اللفظ.

فطمح نظرها إلى بنان وأقبلت عليه بوجهها وحديثها حتى لامها سعيد في ذلك فكتبت إليه في المجلس تقول^(١):

يا من أطلت تفرسي في وجهه وتنفسي
الويل من متدل يزهب بقتل الأنفس
هبني أسأت وما أسأت بل كإقرار المني
أحلفتني أن لا أسأ أرق نظرة في مجلسي
فنظرت نظرة مخطيء أتبعته بتفرسي
ونسيت أني قد حلفت فما عقوبة من نسي؟
فقام سعيد فقبل رأسها، وقال: لا عقوبة عليه، بل نحتمل هفوته
ونتجاوز عن إساءته^(٢).

وكتب إليها بعض من كانت تجتمع به في مجلس الخليفة^(٣):

ألا ليت شعري فيك هل تذكرينني فذكراك في الدنيا إليّ حبيب
وهل لي نصيب من فؤادك ثابت كما لك عندي في الفؤاد نصيب
ولست بموصول فأحيا بزورة ولا النفس عند اليأس عنك تطيب
فأجابته فضل بأنها صبة به وبأنه مصور في قلبها حين يغيب عنها
فكانه نصب عينها وكتبت إليه تقول:

نعم وإلهي إنني بك صبة فهل أنت يا من - لا عدمت - مثيب
لمن أنت منه في الفؤاد مصور وفي العين نصب العين حين تغيب

(١) الأغاني ١٨/١٠١ والمستظرف ص ٥٦ ومحاضرة الأبرار ص ١٢٨، ورسائل سعيد بن حميد ص ٢٦.

(٢) الأغاني ١٨/١٠١.

(٣) المصدر نفسه.

فشق بوداد أنت مظهر مثله على أن بي سقماً وأنت طبيب
وللقيان والجواري مراسلات ورد بعضها في الأغراض الخاصة
التي تستدعي الظروف الكتابة فيها . . وجاء أكثرها في الحب والغزل
وفي العتب والتشوق إلى اللقاء . . .

فالشاعرة عنان وكانت تطمح إلى أن يجعلها الرشيد من ضمن
جواريه وقيانه كتبت إلى الفضل بن الربيع كتاباً تستحثه فيه أن يشفع لها
لدى الرشيد ليشتريها وقالت فيه^(١):

كن لي هديت إلى الخليفة شافعاً بوركت يا ابن وزيره من معلم
حث الإمام على شرائي وقل له ربحانة ذخرت لأنفك فاشمم
ولم تحصل على إربتها في شراء الرشيد لها . . وكتبت إلى يحيى بن
خالد قصيدة في مدحه والثناء عليه ثم ختمتها بعرض طلبها في أن يمن
عليها بالسعي في شرائها كما سبق له أن منّ على اثنتين من زميلاتها
فصفت لهما الموارد العذبة بذلك^(٢) فقالت:

مننت على أختي منك بنعمة صفت لهما منها عذاب الموارد
فمن^(٣) لي بما أنعمت منك عليهما وقاك إله الناس كيد المكاييد
أعوذ من الحرمان منك بخالد وطيب تراب فيه أعظم خالد^(٤)
وكتبت عنان إلى أبي النضير وكان قد كتب إليها يدعوها للقاءه
بقوله^(٥):

(١) محاضرة الأبرار ومسارة الأخيار ١٢٦/١، والمحاسن والأضداد ص ١٥٦.

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢١.

(٣) هكذا وردت ولا يستقيم الوزن إلا بتخفيف النون وقد تكون فمر لي أو فمن بما أنعمت.
طبقات ابن المعتز ص ٤٢٢.

(٤) لم يرد البيت الأخير في طبقات ابن المعتز وأورده المحقق في الحاشية عن (الشعراء تيمورية).

(٥) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ص ١٨٩.

إن لي حاجة فرأيك فيها لك نفسي الفدا من الأوصاب
وهي ليست مما يبلغه غيري ولا أستطيعه بكتاب

فما كان منها إلا أن أجابته بقوله: إنها مشغولة عنه بمن لا تهواه،
وبينت له كيف يجب عليه أن يسر الأمر الذي يريده منها لأحد خلصائه
وأن يتحاشى جعله في كتاب لئلا يفتضح أمرهما فقالت:

أنا مشغولة بمن لست أهواه وقلبي من دونه في حجاب
فإذا ما أردت أمراً فأسرر ولا تجعله في كتاب

وكثرت مراسلات الجواري لدعوتهن إلى مجالس اللهو ومن ذلك
ما كتبه (أبو عامر بن بئق) إلى هند جارية أبي محمد بن مسلمة الشاطبي
يدعوها للحضور قائلاً^(١):

يا هند هل لك في زيارة فتية نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا نغمات عودك في الشقيل الأول
فكتبت إليه على ظهر الرقعة:

يا سيداً حاز العلا عن سادة شم الأنوف من الطراز الأول
حسبي من الإسراع نحوك أنني كنت الجواب مع الرسول المقبل
ولابن المعتز مراسلات شعرية مع بعض الجواري ننقل منها ما
جاء في كتاب إلى خزامى جارية الضبط المقيمين وكان قد أهدى إليها
ورداً يذكرها به بما كان بينهما من مودة ويأسف لإظهارها الزهد والتوبة
فقال^(٢):

(١) المستظرف من أخبار الجواري ص ٧٣.

(٢) الأغاني ١٠/ ٢٩٤ والمستظرف من أخبار الجواري ص ٢١ - ٢٢.

رايتك قد أظهرت زهداً وتوبة فقد سمحت من بعد توبتك الخمر
 فأهديت ورداً كي يذكر عيشة لمن لم يمتعنا ببهجتها الدهر
 وجاء في الأغاني أن (خزامي) هذه كانت تنادم ابن المعتز وهو
 حدث ثم تركت النبيذ، وكانت مغنية محسنة وشاعرة ظريفة فراسلها
 مراراً فتأخرت عنه^(١). . . ثم أجابته أخيراً برسالة شكرته فيها على حسن
 قريضه فيها، واعتذرت إليه اعتذاراً رقيقاً مؤدباً قائلة إن السن الدهر قد
 زجرتها عن المضي في سبيل اللهو والمجون وأن شرخ شبابها قد ولى
 فلم يبق لها غير وجوب لزوم الإنابة والزهد فقالت:

أتاني قريض يا أميري محبر حكي لي نظم الدر فُصل بالشذر
 أنكرت يا ابن الأكرمين إنابتي وقد أفصحت لي السن الدهر بالزجر
 وأذنني^(٢) شرخ الشباب ببينه فيا ليت شعري بعد ذلك ما عذري

وبعث محمد بن جعفر بن موسى الهادي برقعة إلى جارية لبعض
 النخاسين ببغداد وكانت بارعة الجمال ظريفة اللسان فيها أبيات يتغزل
 بها ويستعطفها ويرققها إليه فأجابته بقولها^(٣):

وما زلت تقصيني وتغري بي الردى وتهجرني حتى مرنت على الهجر
 وتقطع أسبابي وتنسى مودتي فكيف ترى يا مالكي في الهوى صبري
 فأصبحت لا أدري أيأساً تصبري على الهجر أم جد التصبر لا أدري
 وكتبت (مؤنسة) جارية المأمون رسالة إليه وكان قد سافر دون أن
 يحملها معه^(٤):

(١) المصدر نفسه ٢٩٤/١٠.

(٢) وردت في المستطرف (وإدبني) وربما كانت رواية الأغاني أقرب إلى الصحة.

(٣) لباب الآداب ص ١٤١ - ١٤٢.

(٤) معجم الأدباء ١٧٦/٥.

قد كان عتبك مرة مكثوما فالיום أصبح ظاهراً معلوما
نال الأعادي سؤلهم لا هنثوا لما رأونا ظاعناً ومقيماً
هبنني أسات فعادة لك أن ترى متجاوزاً متفضلاً مظلوما

والذي يلاحظ من هذه الأبيات، ومما ورد على شاكلتها في
مراسلات الجواري للخلفاء أن الجواري كن لا يتحرجن في إبداء الحب
للخلفاء والتغزل بهم والتشوق إليهم ولا يرى في ذلك أمراً غير مستساغ.

ومثله الرقعة التي بعثت بها محبوبة جارية المتوكل وكان قد دفع
إليها تفاحة مغلفة بالغالية، فقبلتها وانصرفت لترسل أبياتاً مع جارية لها
في رقعة دفعتها إلى المتوكل، فقرأها وضحك ودفعها إلى من كان في
حضرتة وكان منهم علي بن الجهم فإذا فيها^(١):

يا طيب تفاحة خلوت بها تشعل نار الهوى على كبدي
أبكى إليها وأشتكي دنفي وما ألقى من شدة الكمد
لو أن تفاحة بككت لبكت من رحمتي هذه التي بيدي
إن كنت لا تعلمين ما لقيت نفسي فمصداق ذاك في جسدي
فإن تأملته علمت بأن ليس لخلق عليه من جلد^(٢)

وربما كانت عادة إهداء التفاح المعضوض إلى الأحبة وكتابة ما
يحلو لهم عليها من شعر أو نثر من مبتكرات العصر . . وفي كتب الأدب
والأخبار الكثير من ذلك . . منه ما أورده الخالديان^(٣) من أن جارية

(١) المستطرف من أخبار الجواري ص ٦٤ والأغاني ٢٢/٢٠٢ .

(٢) ورد هذا الخبر في الأغاني ١٩/٢٦٨ ونسب الشعر فيه إلى فضل الشاعرة، ثم عقب أبو
الفرج قائلاً:

(وقد رويت الأبيات الأولى لمحبة شاعرة المتوكل).

(٣) التحف والهدايا ص ٣٥.

ظريفة أهدت إلى فتى كانت تهواه تفاحة معضوضة مكتوباً عليها بماء الذهب:

ليس هذا العض من عيب بها إنما ذاك رسول للقبل
فلما صارت إليه كتب إليها:

تفاحة جاءتك معضوضة قريبة العهد بكفيها
أكرم بها تفاحة أشبهت حمرتها حمرة خديها^(١)
ولعل من أجود وأبرع ما كتب في إهداء التفاح رسالة كتبتها إلى
المأمون إحدى جواريه . . فدلّت فيها على ذكائها وسعة اطلاعها ووفرة
علمها . . قالت^(٢):

إني يا أمير المؤمنين لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا إليك
وتواتر الطافهم عليك، فكرت في هدية تخف مؤونتها وتهون كلفتها،
ويعظم خطرهما ويجل موقعها، فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعت،
ويكمل فيه هذا الوصف إلا التفاح، فأهديت إليك منها واحدة في العدد
كثيرة في التقرب، وأحببت يا أمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها
وأكشف لك عن محاسنها، وأشرح لك لطيف معانيها، وما قالت
الأطباء فيها وتفنن الشعراء في أوصافها حتى ترمقها بعين الجلالة
وتلحظها بمقلة الصيانة، فقد قال أبوك الرشيد رضي الله عنه: (أحسن
الفاكهة التفاح، فقد اجتمع فيه الصفرة الدرية والحمرة الخمرية،
والشقرة الذهبية، وبياض الفضة ولون التبر يلذ بها من الحواس: العين
ببهجتها، والأنف بريحتها والضم بطعمها).

(١) ورد البيت الأول في الموشى ٤٠٤/٢.

تفاحة من عند تفاحة قريبة العهد بكفيها

(٢) جمهرة رسائل العرب ٥٢٧/٣ - ٥٢٩.

وقال أرسطاطاليس الفيلسوف عند حضوره الوفاة وقد اجتمع إليه تلاميذه: (التمسوا لي تفاحة أعتصم بريحها وأقضي وطري من النظر إليها). وقال إبراهيم بن هانيء: (ما علل المريض المبتلى ولا مكنت حرارة الشكلى ولا ردت شهوة الحبلى ولا جمعت فكرة الحيران، ولا سكنت حنقة الغضبان، ولا تحبب الفتيان في بيوت القيان بمثل التفاح).

والتفاحة يا أمير المؤمنين إن حملتها لم تؤذك، وإن رميت بها لم تؤذك، وقد اجتمع فيها ألوان قوس قزح من الخضرة والحمرة والصفرة وقال فيها الشعر:

حمرة النفاح مع خضرته أقرب الأشياء من قوس قزح
فعلى التفاح فاشرب قهوة واسقنيها بنشاط وفرح
فإذا وصلت إليك يا أمير المؤمنين، فتناولها بيمينك ولا تبعدها
عن عينك، ولا تبذلها لخدمك، فإذا طال لبثها عندك ومقامها بين
يديك، وخفت أن يرميها الدهر بسهمه ويقصدها بصرفه فتذهب بهجتها
وتحيل نظرتها، فكلها هنيئاً مريئاً غير داء مخامر^(١) والسلام عليك يا
أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته).

وربما كان انتشار هذه العادة في إهداء التفاح المعضوض راجعاً
إلى التكنية عن إرسال القبل، وقد صرحت إحداهن بذلك وكانت قد
أهدت إلى فتى كانت تهواه تفاحة معضوضة مكتوباً عليها^(٢):

ليس هذا العض من عيب بها إنما ذاك رسول للقبل
ونخلص مما مرّ بنا إلى أنه كان للجواري من المراسلات النثرية
والشعرية.. مما يدل على أن شعر المقطعات القصيرة الخفيفة الوزن

(١) هذا صدر بيت لكثير عزة:

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحل

(٢) التحف والهدايا ص ٣٥.

الظريفة المعنى كان سمة العصر . وقد سبق أن مر بنا نماذج كثيرة في أدب المجال والمناظرات تكاد تقترب في أسلوبها ومعانيها من أدب المراسلات . . فهي في الغالب أحاديث خفيفة في الحب والغرام أو الصد والهجران أو العتب أو الدعوة إلى اللقاء أو غير ذلك مما كانت تستلزمه حياة اللهو مع الجواني والقيان .

أدب التوقيعات:

ولم تقتصر التوقيعات على الخلفاء وكبار الأمراء والوزراء والكتاب من الرجال بل لكبريات النساء^(١) نصيب منها ممن شاركن في شؤون الدولة وسياستها وممن كان لهن دور في توجيه الأمور في السياسة والأموال وفي القضاء والعلاقات الاجتماعية . . كالخيزران زوجة الخليفة المهدي (ت ٢١٠هـ) والسيدة زبيدة (أم جعفر) زوج الخليفة الرشيد (٢١٦هـ) وفاطمة القهرمان (٢٩٩هـ) وثمل القهرمان (٣١٧هـ) وسواهن .

وقد وقفنا على آثار لهن في أدب التوقيعات إلا أن الذي بين أيدينا منه رغم أنه لا يعطينا فكرة واضحة عن هذا النوع من الأدب عند النساء إلا أنه يدل على أن المرأة كثيراً ما كانت تشارك في إدارة الأمور ويكون رأيها الحد الفاصل في توجيهها . .

وتشير كتب الأخبار والأدب إلى أنه كان لهاتيك السيدات كتاب للإنشاء يتولون تحرير الرسائل وتعميم التعليمات التي تصدر عنهن إلى العمال والولاة، فقد كان عمر بن مهران كاتباً مختصاً بالكتابة للخيزران ولم يكتب لغيرها^(٢)، وكان (علي بن داود) كاتباً للسيدة زبيدة^(٣)، وذكر

(١) أدب التوقيعات ص ١٥٢.

(٢) الوزراء والكتاب ص ٢١٨.

(٣) الفرج بعد الشدة ١/ ١٢١.

أن لها كاتباً اسمه (مسلم بن سعدان)^(١) وإليه أشار الرشيد بقوله حينما قال لأم جعفر: قد تهتك كاتبك سعدان فاعزليه فقالت: وبأي شيء تهتك؟ قال: بالمرافق والرشا حتى قال فيه الشاعر:

صبت في قنديل سعدان مع التسليم زيتا
وقناديل بننيه قبل أن تخفى الكميتا

فقالت له: وقد قال الشاعر في كاتبك أبي صالح يحيى بن عبدالرحمن أشنع من هذا، فقال: وما قال؟ قالت: قال:

قنديل سعدان على ضوئه فرج لقنديل أبي صالح
تراه في مجلسه أخصا من لمحله للدرهم اللائح
فقال: كذب على كاتبك وكاتبك.

وكان (سباع) كاتباً لعلية بنت المهدي، وكان لحمدونة بنت الرشيد كاتب^(٢) يتولى أمورها المالية، وكان (أبو يوسف عبدالرحمن بن محمد)^(٣) كاتباً للسيدة أم المقتدر.

ولم يصلنا الكثير من توقيعات النساء، وربما ضاعت ضمن ما ضاع من أديهن، ولم يصلنا منها إلا هذا النزر القليل مبعثراً في كتب التاريخ والأدب والأخبار، حتى لقد كان من العسير جمعها والوقوف على ما فيها..

وأكثر توقيعات النساء التي وصلتنا قائمة على المعاملات المالية في إدارة أملاكهن وأموالهن. ومما لا شك فيه أنه كان لهن توقيعات في السياسة والقضاء أولئك اللاتي تولين الحكم والقضاء بصورة مباشرة..

(١) بغداد في تاريخ الخلافة ص ١٣٦ والوزراء والكتاب.

(٢) الوزراء والكتاب ص ١٦٥.

(٣) تجارب الأمم ١/ ١٦٤.

وقد جاءت إشارات كثيرة إلى ذلك منها أن (فاطمة) القهرمانه كانت من ربات السياسة والدهاء والنفوذ والسلطان في عهد المقتدر كانت توقع على مراسم الدولة^(١).

كما عرف عن (ثعلب) القهرمانه أنها كانت الساعد الأيمن لأم المقتدر في شؤون الدولة وسياستها، وكانت تجلس بالرصافة للمظالم والنظر في كتب الناس، فكانت توقعاتها تخرج على سداد وينتفع بذلك المظلومون^(٢).

ولعل من المفيد أن ننقل بعض النماذج لتوقعات النساء الحرائر لثلا يغفل هذا الجانب من أدب المرأة، نذكر منه توقيعاً للخيزران زوجة المهدي وكان كاتبها (عمر بن مهران) قد كتب إليها وأكثر الاعتداد بنفسه فكتبت إليه توقيعاً قالت فيه: (وقد وصل كتابك تذكر وتذكر، ولا تستكثرون شيئاً يكون منك، واستدم أحسن ما أنت عليه يدم أحسن ما عندي لك، واعلم أنه قل شيء لم يزد إلا نقص، والنقصان يمحى الكثير كما ينمي على الزيادة القليل)^(٣).

وكانت السيدة زبيدة كاتبة بليغة عميقة الاطلاع مدركة للأمور. قيل إن عاملاً لها كتب إليها كتاباً فأرجعته إليه بعد أن وقعت في أسفله: (أصلح كتابك وإلا صرفناك من عملك) فلما عاد الكتاب إلى العامل تأمله فلم يظهر له فيه شيء، فعرضه على بعض إخوانه فرأى فيه الدعاء لها (وأدام كرامتك) فقال: (إنها تخيلت أنك دعوت عليها فإن كرامة النساء في دفنهن) فغير ذلك وأعاد الكتاب فقبلته^(٤).

(١) تجارب الأمم: ٤٠/١.

(٢) المستظم: ١٤٨/٦.

(٣) الوزراء والكتاب ص ٢٢١.

(٤) صبح الأعشى ٦٤/١.

وربما فضلت توقيعات السيدة زبيدة على بعض توقيعات الرجال الذين عرفوا بالبلاغة. . فقد ذكر لعمر بن مسعدة كاتب المأمون توقيعات جعفر بن يحيى وكان مشهوراً بدقته وبلاغته في التوقيعات فقال: (قرأت لأم جعفر^(١) توقيعات في حواشي الكتب وأسافلها فوجدتها أجود اختصاراً وأجمع للمعاني)^(٢).

وقيل إن داود^(٣) الكاتب كان قد حبس لها وكيلاً وجب عليه في حسابه مائة ألف درهم فكتب الوكيل إلى عيسى بن فلان وسهل بن الصباح^(٤)، وكانا صديقين له يخبره فسارا ليتكلما له فلقيهما الفيض بن صالح^(٥) فسألهما عن خبرهما فأخبراه فقال: اكتب إلى أم جعفر، فكتب إليها يعلمها خبر القوم وحضورهم ومسألتهم في الوكيل، فوقعت في الرقعة أن (يعرفهم ما وجب لها عليه من المال ويعلمهم أن لا سبيل إلى إطلاقه دون أداء المال) فأقرأهم داود التوقيع واعتذر إليهم، فقال عيسى وسهل بن الصباح: قد قضينا حق الرجل فقد أبت أم جعفر أن تطلقه إلا بالمال فقوموا ننصرف. فقال الفيض بن صالح: أنما جئنا لنؤكد حبس الرجل؟ قالوا له فماذا نصنع؟ قال: نؤدي عنه المال، ثم أخذ الدواة فكتب إلى وكيله في حمل ما على الرجل كتاباً دفعه إلى داود كاتب أم جعفر وقالوا: قد أجزنا في المال فادفع إلينا صاحبنا، قال: لا سبيل إلى ذلك حتى أعرفها الخبر. قال: فكتب إليها الخبر فوقعت في رقعته. (أنا

(١) أدب الكتاب ص ٣٩.

(٢) صبح الأعشى ١/ ٦٤.

(٣) جاء في الوزراء والكتاب ص ١٦٥ والفرج بعد الشدة ١/ ١٢١ ذكر كاتب (أم جعفر) بهذا الاسم وأورد صاحب الفهرست الاسم بـ (علي بن داود) وعرفه بأنه كاتب زبيدة بنت جعفر ص ١٨٠ ولا نشك في أنه هو المقصود بـ (داود) عند الجهشياري والتتوخي.

(٤) يبدو أنهما كانا من أصدقاء الوكيل.

(٥) الفيض بن صالح: أحد الكرماء المشهورين في العصر العباسي.

أولى بالمكرمة من الفيض بن صالح فأردد عليه كتابه بالمال وادفع إليه الرجل وقل له: لا يعاود مثل ما كان منه^(١).

ومن أمثلة التوقيعات في أمور المال ما أورده صاحب الأغاني أنه كان لعلية بنت المهدي وكيل يقال له سباع، فوقفت على خيانتة فضربته وحبسته فاجتمع جيرانه إليها فعرفوها جميل مذهبه وكثرة صدقه وكتبوا بذلك رقعة فوقعت فيها^(٢):

ألا أيهذا الراكب العيس بلغن سباعاً وقل إن ضم داركم السفر
أنسلبني مالي وإن جاء سائل رقت له إن حطه نحوك الفقر
كشافية المراضى بعائدة الزنى تؤمل أجراً حيث ليس لها أجر
ووصلتنا بعض التوقيعات للجواري تتسم بالخفة والظرف وكانت
تكتب في أسافل الرسائل التي تصلهن من عشاقهن. فمن ذلك ما ذكره
صاحب الديارات^(٣) من أن (مصاييح)^(٤)، الجارية غاضبت يوماً عبد
الله بن العباس في شيء بلغها عنه فرام أن يترضاها، فأبت فكتب إليها
رقعة يحلف فيها أنه ما أتى شيئاً مما أنكرته ويدعو على من ظلم فلم
تجبه عن شيء مما كتبه ووقعت تحت الدعاء: (على الظالم آمين).

وعن ابن جمهور القمي^(٥) أنه كتب إلى الجارية (زاد مهر)^(٦)
وكانت قد هجرته يا سيدة عبدها، والله وإن الذي بلغك باطل، لكني

(١) الفرج بعد الشدة ص ١٢٢١ - ١٢٢ والوزراء والكتاب ص ١١٥.

(٢) الأغاني ١٩٣/١٠ - ١٩٤ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٦٣.

(٣) الديارات ص ٦٧.

(٤) من مغنيات العصر العباسي وهي جارية الأحدب المقيم كانت تغني في كثير من شعره
وكانت موصوفة بالحسن والإحسان وكان عبدالله بن العباس يهواها.

(٥) ابن جمهور القمي: ينظر الديارات.

(٦) في حكاية أبي القاسم البغدادى، الديارات ص ٧١ - ٧٥ شيء كثير من أخبار هذه الجارية مع
ابن جمهور.

أعترف به طاعة لك . . وأطال في ذكر الأشعار معتذراً إليها . . فما كان منها إلا أنها وقعت على ظهر الرقعة :

(ما لك تغم نفسك ، وتنقطع في كتب الأشعار ، وجه إلي بالغلالة^(١) ، وقد اصطلحنا)^(٢) .

ويحدثنا أبو العيناء أنه كان قد عشقته امرأة بالبصرة من غير أن تراه وإنما كانت تسمع عذوبة كلامه ، فلما رآته استقبلته وقالت : قبحه الله أهذا هو؟ . . فكتبت إليه :

ونبشتها لما رأتني تنخرت وقالت دميم أحول ما له جسم
فلان تنكري مني احولاً فلانني أديب أريب لا عيبي ولا قدم
فوقعت في الرقعة . . الديوان الرسائل أركك^(٣) ؟

نخلص مما مرّ بنا أنه كان لسيدات القصور من أمثال الخيزران والسيدة زبيدة وعلية بيت المهدي كتاب يتولون لهن تحرير الأمور المختلفة التي كانت تمارسها كل منهن . . . إلا أن ما وصلنا من توقيعات لا يبدو إلا نزرأ يسيراً لا يكاد يوقفنا على صورة واضحة لهذا النوع من الأدب ، وإن وجود الكتاب لا يعني أن التوقيعات ليس من إنشائهن ، فالتوقيع في الغالب ما يكتبه المسؤول على ما يرفعه الكاتب إليهن .

وواضح أنه لا قيمة كبيرة للتوقيعات التي لا تعدو البت باختصار في شؤون مالية أو لقضاء حاجة أو مطلب من حاجات الناس ومطالبهم . ولكن بعض التوقيعات في الأمور المهمة الأخرى ذات قيمة فنية قد تحاذي توقيعات البلغاء من كبار الكتاب لاتسامها بالإيجاز الشديد الذي

(١) الغلالة : لباس شفاف يلبس تحت الثوب .

(٢) الديارات ص ٢٦٩ .

(٣) الديارات ص ٨٥ ، ٨٦ ، وجاءت في نهاية الأرب ٤ / ٢١ : (ليس لديوان الرسائل أركك) .

لا يضعف فيها قوة التعبير بل يزيدها قوة، ولدته معانيها ولما تنقيد به من تحفظ تفرضه عليها طبيعة الموضوع وما ينطق الشرع والعرف. أما التوقعات الشعرية فلها وقع خاص وطعم لذيد إن صحَّ التعبير سواء كان الشعر من نظم الموقع أو من محفوظاته. هذا ولا بدَّ من الإشارة في خاتمة هذا الفصل إلى أن التوقعات لا تقع تحت حصر لكثرة شكاوى الناس وتعدد أنواعها فضلاً عن توالي الدول والعصور. لهذا كان القليل الذي ذكرته المصادر من المختارات التي امتازت عن غيرها بما يحسن أن يمتاز به التوقيع الجيد البليغ. وأول هذه الميزة ألا يجاز غير المخل أي ما نطلق عليه اليوم الإيجاز الفني. وطبيعي أن عمل هذا الإيجاز سمة العصر الفنية. فكانت التوقعات في البداية لا تنقيد بالسجع إلا في القليل النادر حتى إذا تقدمنا مع الأعصر العباسية وجدنا السجع، واستخدام الفنون البديعية التي تفرعت وتشعبت وكثرت تفرض نفسها على التوقعات. ولكن يجب أن ننتبه إلى التوقعات النسائية، كانت في العصرين العباسيين الأول والثاني أهم ما تركه لنا الأدب من نتاج في هذا الباب، لغلبة العربية على حياة القصور ودواوين الدولة، ولاهتمام الحكام أنفسهم بالثقافة الأدبية واللغوية العربية، بل إن الأعاجم الذين ظهوروا على مسارح الحكم منذ القرن الثالث قد اضطروهم الموقف العام إلى الاستعراب والتثقف بالثقافات الأدبية واللغوية، وقد لاحظ المؤرخون ذلك في حكام العهد البويهى والسلجوقي. وبهذا قلت التوقعات المنسوبة للنساء في العصور المتأخرة على الرغم من أن بعضهم قد تمتعن بنفوذ واسع وفرض سيطرتهم على بعض الحكام.

الفصل الثالث

فنون شعرية مختلفة

الغزل:

ومن أكثر من شهر بشعر الغزل من الحرائر والجواري عليه بنت المهدي، وكانت من أكمل النساء عقلاً وأحسنهن ديناً وصيانة ونزاهة^(١)، وكانت من أجمل النساء^(٢) وأحسن الناس وأظرفهم^(٣)، رقيقة الشعر لطيفة المعنى حسنة مجاري الكلام ولها ألحان حسان^(٤).

وهي تمثل الفتاة المنعمة المدللة المحصنة المؤدبة، ذات الحس المرهف، والشعور الفياض، أوتيت المال والسلطان والجمال، إلا أنها كانت مثقلة بها.. ورغم كثرة ما ورد على لسانها من شعر الغزل والعيب، إلا أنني كنت أحس في شعرها مرارة الكبت والحرمان وألمح فيه آيات اليأس، وإنك لتحس من صور الحب في شعرها حبس الكثير من مشاعرها في نفسها..

لقد كان قلبها يفيض بالحب، إلا أنها وهي بنت السلطان والجاه لا تستطيع أن تبوح باسم من تحب.. ولهذا رأيناها كثيراً ما تكني عن حبيبها باسم فتاة فهي مرة تسميها رشاً ومرة زينب ومرة سلمى وأخرى ظل.

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص ٥٥.

(٢) المحاسن والأضداد ص ٢٣٠.

(٣) الأغاني ١٠/ ١٧٢.

(٤) أشعار أولاد الخلفاء ص ٥٥ والأغاني ١٠/ ١٧٢.

إنها وإن استطاعت أن تنفس بهذا الغزل عن مشاعرها وعواطفها
الفياضة إلا أنها لم تؤت القدرة على إظهارها صريحة واضحة، فكانت
تصدر مثقلة بالآلام والحسرات مفعمة بالكتمان، وكثيراً ما كانت تصرخ
صرخات مدوية تعبّر فيها عن ذلك فتقول^(١) :

كتمت اسم الحبيب عن العباد ورذدت الصبابة في فؤادي
فوا شوقي إلى بلد خلّي لعلّي باسم من أهوى أنادي

إنها تتلهف إلى بلد خلّي من الناس لتستطيع أن تنادي باسم من
تهوى فقط . . أليس ذلك غاية الكبت . . ؟ ألا يتضح في قولها هذا ثقل
وطأة الناس والمجتمع عليها وهي امرأة . . وهي أخت الخليفة لا يباح
لها ولا يقبل منها تردد اسم من تحبه لخوفها ممن حولها . .

وقالت^(٢) معبرة عن حرمانها وشدة كبتها :

يا ذا الذي أكنم حبيبه ولست من خوف أسميه
لم يدر ما بي من هواء ولم يعلم بما قاسيته فيه

ولعلية بنت المهدي معان رائعة في هذا الغرض، وجلّ شعرها
نشيد حزين من الأناشيد التي تعبّر فيها المرأة عن أساها في كبتها
وحرمانها ويأسها، ولعل من المفيد أن نورد بعض النماذج لأناشيدها في
الحرمان والألم . قالت مشيرة إلى أنها ستمنع طرفها من النظر وتحجبه
بالدمع وتكتفي بقلبها الصابر يمتعها بالفكر ويسليها .

سأمنع طرفي أن يلفت بنظرة وأحجبه بالدمع عن كل منظر
وأشكر قلبي فيك حسن بلائه أليس به القاك عند التفكر^(٣)

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص ٧١ والمستنظر ص ٨٢.

(٢) أشعار أولاد الخلفاء ص ٧١.

(٣) البصائر والذخائر ٩٠/١.

إنها لا تريد أن ترى حبيبها يبصرها وإنما تكتفي برؤيته بقلبها وهذا غاية التحمل . . الذي قد يتجاوز الغزل العذري، وربما سمحت لقلبها بأن يبوح لها بالوجد والحب ما دام حديث قلبها إليها غير مسموع من أحد . . . إلا أنها تمنع عينيها من الإفصاح بالبكاء لئلا يفتضح أمرها، فتقول^(١):

باح بالوجد قلبك المستهام وجرت في عظامك الأسقام
يوم لا يملك البكاء أخو الشوق فيشفى ولا يبرء السقام
وتعبّر عن شدة ما تلقى من الهوى فتقول إنه قد تشبث بها وأردفها على مركب صعب منه إلا أنها محرومة من كل ما يخفف عنها حر الشوق وحرارة الوجد . . قالت^(٢):

ألفت الهوى حتى تشبث بي الهوى وأردفني منه على مركب صعب
كتابي لا يقرى وما بي لا يرى ونار الهوى شوقاً توقد في قلبي
ومثله قولها:

أسعى فما أجزى وأظما فما أروى من البارد العذب
يحملني الحب على مركب من هجركم يا أملي صعب
وقالت معبرة عن ضعفها ويأسها وانقطاع رجائها في وصال من تحب^(٣):

أي رب حتى متى أضرع وحنّام أبكي وأسترجع
لقد قطع اليأس حبل الرجا فما في وصالك لي مطمع

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص ٦٥.

(٢) نفس المصدر ص ٨٠.

(٣) نفس المصدر ص ٦٨.

بليت بقلب ضعيف القوى وعين تضر ولا تنفع
إذا ما ذكرت الهوى والمنى تحذر من جفنها أربع
وقالت في سقمها وعظم جهدها^(١):

أرى جسدي يبلى وسقمي باطن وفي كبدي داء وقلبي سالم
فما السقم إلا دون سقم أصابني ولا الجهد إلا والذي بي أعظم
وغاية ما يمكن أن نقوله في عليه وشعرها أنها كانت صورة
واضحة لمعاناة المرأة في المجتمع الشرقي المتمزمت . . فهي تعاني من
الوجد والألم والشوق ومن حرارة الحب، إلا أنها لا تستطيع التصريح
ولا الهمس . . ولهذا رأيناها إذا ما همست حرّفت اسم من تحب إلى
اسم فتاة مقصودة أو غير مقصودة . . وربما حولت الفتاة حبها في أمثال
هذه المجتمعات إلى فتاة فعلاً فقالت فيها الغزل، ويقبل منها ذلك في
غير تحفظ أو حذر.

وصوّرت لنا عليه مختلف الانفعالات والأحاسيس الواقعية، فهي
كبشر له عواطفه . . قد تثور أحياناً فتكشف لنا عن رغبتها في أن تجتاز
الحواجز وتمد لنفسها العنان لتجمع في ملذاتها . . أليست ترى القوم
حولها في مجتمعها ذاته وقد جمحوا إلى أبعد الحدود، فتقول^(٢):

تعالوا ثم نصطبح ونلهو ثم نقترح
ونجمع في ملذاتنا فإن القوم قد جمحوا
إلا أنها لا تلبث أن تعود إلى واقعها مشدودة إليه مكبلة باليأس
والقنوط فتقول^(٣):

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص ٦٤.

(٢) نفس المصدر ص ٧٦.

(٣) نفس المصدر ص ٧٦.

الشوق بين جوانحي يتردد ودموع عيني تستهل وتنفد
إني لأطمع ثم أنهض بالمنى والياس يجذبني إليه فأقعد
وأكثر عليه في شعرها من الكناية عمن تحب بفتاة تصرح باسمها
حيناً وتبهمه حيناً آخر . . فمما صرّحت به من الأسماء قولها^(١) :

وجد الفؤاد بزينبا وجدأ شديدأ متعبا
أصبحت من وجد بها أدعى شقياً منصبا
ولقد كنيت عن اسمها عمداً لكي لا تفضبا
وجعلت زينب سترة وأتيت أمراً معجبا
قالت وقد عز الوصا ل ولم أجد لي مذهبا
والله لا نلت المود أو تنال الكوكبا
وقالت مكنية عمن تحب باسم سلمى^(٢) :

أليست سلمى تحت سقف يكنها وإياي هذا في الهوى لي نافع
ويلبسها الليل إذا دجى وتبصر ضوء الفجر والفجر ساطع
تدوس بساطاً قد أراه وأنشني أطاه برجلي كل ذا لي شافع^(٣)

إن هذا هو غاية القناعة في الحب، وإنه ليقرب من شعر العذريين
في العصر الأموي لولا هبوط أسلوبه إلى مستوى السهل المقبول، فهي
تري السعادة في أن يكنها مع حبيبته سقف واحد ويلبسهما الليل البهيم
معاً، وتبصران ضوء الفجر، وتدوسان البساط . . إنها قناعة من الحب
بهذه اللقيا . . وهي السعادة لديها . .

(١) الأغاني ١٠/ ١٧٥ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٦١.

(٢) أشعار أولاد الخلفاء ص ٦٢.

(٣) في البيت ضرورة شعرية قبيحة، فالصواب (أطوه).

ومما نسب إلى عليّ من الصور الشعرية الرائعة في العفة والقناعة باليسير للتخفيف من أوار الحب ولتحسّس السعادة واللذة قولها وقد حجّ (رشاً)^(١):

بين الإزارين من المحرم تدليه عقل الرجل المسلم
في قد غصن البان لكنّه من طيبات الشجر المطعم
مرّ إلى الركن فزاحمته فالتمس الركن ولم يلثم
وفات بالسبق إلى زمزم وكانت اللذات في زمزم
شربت فضل الماء من بعده فلست أنسى طعمه في الفم
وقد توصلت عليه في شعرها الغزلي إلى القول في أحكام الحب
وفلسفته وبيان أحواله . . فكانت ترى أن الحب إنما بني على الجور . .
فإن كان المعشوق منصفاً فقد سمج . . وهي لا ترى عيباً في مذلة
المحب فإن تنازله وتذلله لمحبوبه هو المفتاح المؤدي إلى الفرج، وترى
أن القليل من الحب الخالص خير من الكثير الممزوج . قالت^(٢):

بني الحب على الجور فلو أنصف المعشوق فيه لسمج
ليس يستحسن في حكم الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج
لا تعيين في محب ذلة ذلة العاشق مفتاح الفرج
وقليل الحب صرفاً خالصاً لك خير من كثير قد مزج

وتؤكد الفكرة وتوضحها بالبيتين التاليين إذ تبين أنها تتخذ التذلل في الهوى سبيلاً لإدراك العزة فيه، فلو كانت قادرة على سواء لسوء فعالة

(١) ذكر الصولي أن الأبيات رويت لأبي العتابة، أشعار الخلفاء ص ٧٣. إلا أنني لم أعثر عليها في ديوانه . .

(٢) الأغاني ١٠/ ١٨٥ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٦٦ ونزهة الجلساء في أشعار النساء ص ٨٣ وفيه اختلاف في اللفظ ونقص في الأبيات.

لوجدت في إقصائه لها ما يحملها على ذلك، ولكنها ضعيفة أمامه
مسلوبة الإرادة. قالت^(١):

أذل لمن أهوى لأدرك عزة وكم عزة قد نالها المرء بالذل
فلو كنت أسلوه لسوء فعاله لقد كان في إقصائه لي ما يسلي
ولكنها لا تهدأ على حال ولا تثبت على رأي فهي مضطربة قلقه في
موقفها من الحبيب إذ تعود فتقول إنها رأت من ألقى نفسه على الناس
هان لديهم فلتكن زيارة المحب حبيب غباً وليمسك نفسه على البعد وإن
جرع الآلام والأحزان بسبب ذلك.. قالت^(٢):

أما والله لو جوزيت بالإحسان إحساناً
لما صدّ الذي أهوى ولا ملّ ولا خاننا
رأيت الناس من ألقى عليهم نفسه هانا
فزر غباً تزد حباً وإن جرعت أحزاننا
وقالت عليه مبينة أحكام الحب موضحة رأيها فيه^(٣):

تحبب فإن الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصر فإن حدثت أن أخا هوى نجا سالماً فارج النجاة من الحب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتب
فهي راضية بالحب على متاعه وتقلبات أحواله لأنها ترى في ذلك
طعم السعادة وحلاوة الرسائل والكتب التي تؤججه وترسخه.
ونكتفي عند هذا القدر من شعر عليه وضعناه بين يدي القارئ

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص ٧٥.

(٢) نفس المصدر ص ٧٩.

(٣) الأغاني ١٠/١٨٥.

الكريم لتبين من خلاله أي نوع من الحب عانت، وأي نوع من الغزل قالت . . ولعلنا وضحنا إلى حد ما صورة حبها وغزلها . .

وبوسع القارئ أن يستدل مما ذكرناه على الموقع الاجتماعي للفتاة الحرة في المجتمع المحافظ . . ورغم أن عليّة استطاعت أن تسمع صوتها . . فقد وصلنا ذلك الصوت متهدجاً مفعماً بالحرمان والأسى والكبت واليأس . . ولم ألمح في شعرها تبذلاً أو تحللاً، وإنما كان عبارة عن معاناة عاطفية تنهض في نفسها فيشدها العقل والدين والمركز الاجتماعي إلى الواقع . . وربما كانت صادقة في قولها عن نفسها: (لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط) ولا بدّ أن أشير إلى اضطراب الأخبار وتناقضها حول عليّة واختلاف الأشعار وتعدد نسبتها أحياناً، وطبيعي أن شخصية من دار الخلافة لا بدّ أن تتعرض أخبارها وأشعارها إلى الآفات المختلفة التي تتعرض لها الأخبار والنصوص الشعرية وفي مقدمتها الصراع السياسي بين العباسيين وخصومهم الذي كان يدفع إلى وضع الأخبار والأشعار والزيادة فيها والعبث بها لتشويه سمعة السلالة العباسية الحاكمة.

وربما تزيد أنصار العباسيين والمولعون بالقصص الغرامية بالمبالغة فيها، وربما أسقط الذين يلتزمون بالضمير التاريخي والمنهج العلمي عمداً بعض الأخبار والأشعار. وأخبار عليّة وأشعارها المبعثرة في كتب التراجم والأدب خير شاهد على هذا، وقد حاولت أن أتجنب الخوض في هذا النقد التاريخي بل اكتفيت بالإشارة إليه لأن طبيعة البحث لا تحتمل هذا التفصيل، إلاّ أن من يدرس عليّة وأشعارها لا بدّ له من زيادة الاهتمام بهذه الناحية الخطيرة. ومنهجي كما هو واضح أن أمرّ على هذه الموضوعات مرّاً سريعاً ولو وقفت عند كل موضوع وقفة طويلة لطالت الرسالة إلى حد لا يحتمل.

وأرى من المناسب أن أشير إلى شاعرة أخرى من بنات السلطان

هي خديجة بنت المأمون . . قيل إنها كانت تقلد عمتها في التشبيب والتلحين، ونسب إليها ما نسب إلى عمتها من حبها لخدام من خدم أبيها، فقالت فيه الشعر وتمنت أن تكون حماماً له أو باشقاً يفعل به ما يشاء^(١):

بالله قولنّ لمن ذا الرشا المثل الردف الهضم الحشا
أظرف ما كان إذا ما صحا وأملح الناس إذا ما انتشى
وقد بنى برج حمام له أرسل فيه طائراً مرعشا
يا ليتني كنت حماماً له أو باشقاً يفعل بي ما يشا
لولبس القوهي^(٢) من رقة أوجعه القوهي أو خدشا

ويبدو مما سبق أن جلّ ما وصلنا من غزل الحرائر كان ما اشتهرت به عليّة بنت المهدي، ولا أشك أن هذا القليل الذي دونه ابن المعتز في طبقاته والصولي في أشعار أولاد الخلفاء وغيرهما لم يقع الاهتمام به، إلاّ لكون عليّة من بنات الخلفاء، ولقد لاحظنا اهتماماً واضحاً في كتب الأخبار والتاريخ بحرائر القصور وأخبارهن . . ولا ننسى أن عليّة بنت المهدي كان لها علم بالغناء والضرب على الأوتار، فهي أخت إبراهيم ابن المهدي المغني المشهور، ولهذا اهتم بها صاحب الأغاني ونسب إليها عدداً من (الأصوات)، وأشار إلى غنائها بأصوات أخرى لأخيها وللمغنين المعروفين.

واهتمام عليّة بالغناء ربما كان من أشد البواعث لها على نظم الشعر وعلى إرفاف حسّها وعنايتها به (جرس) الألفاظ والعبارات. فالمغني يحرص على أن تكون ألفاظه جميلة الوقع في الأذان مناسبة لطبيعة النغم وقد يدفعه هذا وخاصة إذا كان من غير المتضلعين من

(١) نزهة الجلساء في أشعار النساء ص ٥٤.

(٢) القوهي: ثوب منسوب إلى قوهستان.

الثقافة اللغوية والأدبية إلى التساهل بقبول اللحن واللفظ غير الفصيح .

إلا أن هذا لا يعني أنه لم يكن لسواها من الحرائر شعر في الغزل لأن طبيعة الحياة الحرمان الذي كانت تعانيه الحرائر مع الروح الأدبية التي سادت العصور كانت تدفعهن إلى الإنصاح بقول الشعر عما في نفوسهن من عواطف مكبوتة، ومشاعر مخنوقة همساً بين الجدران أو ترديداً خافتاً لا يسمح له أن يمتد في النور مما لا يمكن الوقوف عليه، ولئن وصلنا اليسير من فلتاته، فربما لأن أفلت من بين الجدران لتصطاده آذان بعض السامعين كالذي أورده ابن الجوزي عن فتاة سمعها الرشيد - وكان يتفقد شؤون الرعية - تردد آثاتها وتبدي زفراتها بين جمع من النساء كنَّ يكيّن لبكائها . . فطلب إلى أحد خدمه أن يدنو من الباب ليتسمع ما تقول، فحفظ الخادم من شعرها هذه الأبيات التي تقول فيها متحسرة على فراق حبيب لها :

هل أرى وجه حبيب شفني بعد فقدانيه إفراط الجزع
قد برى شوقي إليه أعظمي وبللى قلبي هواء وفزع
لبت دهرأ مرّ والقلب به جذل والعميش حلو قد رجع
وعفت آثاره منه فيا ليت شعري ما به الدهر صنع
قد تمسكت على وجددي به بجميل الصبر لو كان نفع

وربما كان نصيب الحرائر الأعرابيات في الغزل أكثر منهن فيه . . وقد رأينا نماذج على ذلك في (أدب الأعرابيات) وذلك لأن الصراحة في الأقوال والأفعال في البادية أكثر منها في الحاضرة . . ولأن الاختلاط بين الرجال والنساء كان مباحاً إلى حد أبعد بكثير مما هو عليه في المدن . . إلا أن الغالب على شعر الأعرابيات أغراض أكثر جدية، كالرثاء والفخر والمديح والوصف، لأن الأعرابية لا تحيط بها الظروف المعقدة والأجواء الحساسة المخيمة على دور الخلفاء ونسائهم .

أما ما عرف للجواري من غزل فأكثره عبارة عن مطارحات تلقى في مجلس من مجالس اللهو والأدب أو مراسلات بينهم وبين محبيهن تكون في الغالب مجالاً لإظهار البراعة في النظم والسرعة في البديهة والتفوق في الإتيان بالمعاني البديعة أو نظم الشعر للغناء في نغم من الأنغام.

فالشاعرة عنان مثلاً في إجابتها لمن طلب منها إجازة قوله^(١):

وما زال يشكو الحب حتى رأيت تنفس في أحشائه وتكلمها
بقولها :

ويبكي فأبكي رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
تدل على البراعة في النظم وفي معرفة صور الحب وأحواله .

ومثل ذلك ما وصلنا من معارضات فضل ونبت وعريب ومحوبة وغيرهن^(٢) . إنها صناعة وتلاعب وبراعة في المعاني والألفاظ وليس غزلاً بالمعنى المعروف، والغزل الأصيل قليل، وبعض الأصيل أصيل من حيث العاطفة وصدقها .

والمهم في هذا الغزل أنه يعكس نفسية المرأة . . . إنه غزل امرأة لا غزل رجل، إنه يتسم بالركة العاطفية الشديدة ويصور محن المرأة وأحاسيسها .

على أن من المفيد أن نلاحظ أن المرأة في كثير من الأحيان كانت تعتمد إلى تقليد ومحاكاة الرجل في غزله، ولهذا فقد بقي أكثر ما وصل إلينا من شعرها من غزل الجواري بصورة خاصة محصوراً في نطاق ما عهدنا من معان وصور شعرية قيلت في الغزل، في التعبير عن عواطف

(١) ينظر أدب المجالس والمناظرات والمطارحات ص ٣٠٣.

(٢) ينظر: أدب المجالس والمناظرات.

مصطنعة في مواقف معينة .

وربما نستطيع أن نستثني منه القليل من الغزل الأصيل الذي صدر
عن تجربة عاطفية وعبر عن الأحاسيس والعواطف الرقيقة .
وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في مواضعه من البحث .

شعر الزهد والتصوف :

وكان للتطور الشامل الذي حدث في العصر العباسي أثره الكبير
في انتشار الزهد وذكر الموت والحساب والعقاب والثواب واستخلاص
العبرة بأسلوب الترهيب والترغيب . . . إلخ .

وبعد أن كان الزهد دائراً في الحدود والأطر المذكورة رأيناه يتطور
بالتدريج فيتعقد ويتحول إلى التصوف . . فإذا بإنكار الذات الذي هو من
أول خصائص الزهد فيتعدي حد الانقطاع عن الدنيا والعزوف عنها في
حدود الحلال والحرام ويصير إلى انقطاع متطرف يشمل حتى الكسب
الحلال . . فإذا ما انتهى القرن الثاني وصرنا في القرن الثالث اكتسب
الزهد أبعاداً فلسفية وروحية وفكرية ، واتخذ رسوماً وأنماطاً أوصلته إلى
التصوف .

وكان لذلك كله عوامله الكثيرة المباشرة التي أدت إليه وساعدت
على تقويته ، فقد كانت الأموال تتدفق على طبقات معينة دون غيرها
فانغمست في الحياة تعبّ من مباهجها ومبازلها وتعيش حياة الترف
والإباحية والتحلل . . وقد أذكى ذلك كله كما رأينا ازدياد الجوارح
والقيان وانتشارهن في كل مكان يثخن الفسوق والمجون ويلهين النفوس
بالمفاتن فتطفح أفعالاً رذيلة وأقوالاً دينية يقولها الشعراء الذين يلتفون
حولهن . . فتتناقلها الألسن ، وما أخف حملها وما أسرع انتشارها فهي

رجع النزق ونغمة المجون وحديث اللهو، وما أخفها نقلاً للأحاديث
تذاع في المجالس فتزوج المشاعر وتدفع إلى الإقبال على الحياة
والانغماس فيها..

وقد أدى وجود مثل هذه الطبقة إلى إحداث حركة مضادة جرفت
بتيارها أولئك الذين حرموا الثروة والملذات ويشوا من الحصول عليها،
فصاروا يدارون الواقع بالرضا عنه والسخط على ضده... أولئك الذين
أوتوا من العقل والشعور ما أوقفهم وقفة المتمحص في أحوال أهل
المجون فأنكروا أعمالهم وسخطوا عليها واشمأزوا منها، فنادوا برفض
مباهج الحياة رغم قدرتهم على الانسياق وراءها للأخذ بنصيب منها
فكانوا بموقفهم المعارض المنكر هذا (رد فعل) معاكس لذلك التيار
الصاخب، أدى إلى توسع حركة الزهد وتطورها.

نقول إنه أدى إلى التوسع لأن حركة الزهد والتصوف كانت نتيجة
عوامل كثيرة تتجاوز الفعل ورد الفعل، وهي العوامل التي صنعت
حضارة عظيمة ذات ذخيرة فكرية وروحية غنية جداً، فكان من الطبيعي
بعد أن تطورت العلوم وانتشرت وتطور العقل الإسلامي وتعتقد، أن
تتطور حركة الزهد والتصوف كما تطورت الحركات الأخرى فتؤلف
مدرسة دينية وفكرية وروحية وأدبية جديدة متميزة..

وهناك من أطلق لنفسه العنان فترة من الزمن فأسام سرح اللهو
حيث أمكنه أن يسيمه حتى إذا أشبع غرائزه وعواطفه ورأى تفاهة ما هو
فيه انشئ تائباً زاهداً ليظهر نفسه من أدرانها ويعيد إليها كرامتها بعد أن
هانت فيشتط في ذلك ويبالغ متأثراً بما سبق أن ذكرنا في أجواء دينية
وفكرية واجتماعية وروحية - حتى يصل إلى درجة الزهد أو التصوف.

ولست بعد هذا بصدد تبيان كافة العوامل التي أدت إلى الزهد
وترجيح بعضها على البعض الآخر، فهناك دراسات وافية تناولت

الموضوع وأشبعته بحثاً^(١)، وإنما غرضي من هذا أن أصل إلى تقرير وجود الكثير من الناسكات المتزهديات من النساء، وكتب السير والتراجم غنية بالإشارات إلى ذلك.

وكان من الطبيعي أن تسهم المرأة في حركة الزهد والتصوف كما أسهمت في الحركات الأخرى وأن يكون لها دور يناسب الظروف والموال التي أحاطت بها، ولعل ما كانت تعانيه المرأة من ضغوط مختلفة أشرنا إليها مراراً في هذا البحث كان من الأسباب المهمة التي دفعتها إلى الإسهام بنصيب وافر في حركة الزهد والتصوف، بل إن كثيراً مما قد يحد نشاطها في الميادين الأخرى لا يجد له مكاناً في مجال الزهد والتصوف فالأبواب تتفتح لها هنا على مصارعها، ولن يجد أهلها والمجتمع من ورائهم ذرائع يتذرعون بها للحد من نشاطها في هذا المجال، وربما كان الانقطاع إلى الله زهداً أو تصوفاً أكبر متنفس لهموم المرأة في مجتمع محافظ يتمسك بغير قليل من العادات الموروثة. ولهذا وجدنا المرأة في ميدان الزهد والتصوف تحتل مكاناً بارزاً، فظهور شخصية مثل شخصية رابعة التي أسهمت بلا ريب في تقدم الزهد نحو التصوف لم يكن من قبيل الصدفة، فهي التي وضعت الحركة على أعتاب الحب الإلهي الذي أصبح بعد ذلك الطابع الملازم للتصوف في القرون التالية.

لقد نالت المرأة حظاً أوفر من الغذاء الروحي الذي قدمه الدين بوجه عام، وتيار الزهد والتصوف بوجه خاص. فلم يكن من الغريب أن تسهم في هذا التطوير وأن يكون لها دور رئيس فيه..

ولهذا لمن نجد في المجالات الأخرى شخصية نسوية تحدث

(١) تاريخ التصوف الإسلامي، د. عبد الرحمن بدوي، الصوفية في الإسلام د. را. نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، نيكلسون.

تحولاً مهماً يشبه ما أحدثته رابعة من الزاهدات والمتصوفات . . .

ولقد شهد العصر العباسي بالإضافة إلى رابعة العدوية عدداً من الزاهدات والمتصوفات وصلتنا عنهن بعض الإشارات والقليل من أدبهن. وشعرهن نذكر منهن الزاهدة ربحانة وحيونة ورابعة الشامية وسلمونة وميمونة وأخوات بشر الحافي، ومصنفة ومخة وزبدة وغيرهن^(١) وفاطمة بنت عبد الرحمن الحرانية^(٢) وأمة الواحد^(٣) بنت المحاملي (ستيتة) والعبادة اليمينية^(٤) وسواهن.

وأشار الجاحظ إلى عدد من زاهدات العصر العباسي وما قبله فقال^(٥): (والتاسكات المتزهديات من النساء في الزهد والرياسة من نساء الجماعة وأصحاب الأهواء، فمن نساء الجماعة أم الدرداء^(٦) ومعادة العدوية^(٧) ورابعة القيسية).

ومن نساء الخوارج: الشجاء وحمادة الصفيرية^(٨) وغزالة الشيبانية^(٩) قتلن جميعاً وصلبت الشجاء وحمادة، وقتل خالد بن عتاب

(١) صفة الصفوة ٢/٢٩٤.

(٢) تاريخ بغداد ١٤/٤٤١.

(٣) الوافي بالوفيات ٩/٣٨٧ ترجمة رقم ٤٣١٧.

(٤) المنتظم ٥/٦٢، ٦٣.

(٥) الحيوان ٥/٥٩٨.

(٦) أم الدرداء: هي زوج أبي الدرداء واختلف علماء التراجم فيها فبعضهم يجعلها شخصين: أم الدرداء الصفري وأم الدرداء الكبرى وبعضهم يقول هي واحدة ويختلفون في ذلك. (انظر الإصابة ٣٨٤) (قسم النساء).

(٧) معادة العدوية: معادة بنت عبدالله العدوية البصرية، كانت من العابدات وزوجها أشيم كان من نساك البصرة وزهادها.

(٨) الصفيرية: قوم من الحرورية الخوارج.

(٩) غزالة الشيبانية: هي زوج شبيب بن يزيد الخارجي الشيباني وكانت من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم، وكان الحجاج قد هرب في بعض الوقائع منها، فعيّره سفيان البجلي

غزالة وكانت امرأة صالح بن مسرح^(١).

ومن نساء الغالية الميلاء وحميدة وليلى الناعظية . ولعل رابعة العدوية العلم الأول الذي عرف للمرأة في هذا الباب وقد أدى الاهتمام بها وبسيرتها وأخبارها إلى الحفاظ على جزء لا بأس به من المقطوعات الشعرية والثرية التي قالتها في مختلف المناسبات .

وكانت رابعة قد شهدت في القرن الثاني للهجرة ألواناً من الصراع السياسي والمذهبي تأثرت حياتها بالفوارق الاجتماعية التي كانت تفصل بين الطبقات في البصرة .

يقول الرواة إنها ولدت في أسرة فقيرة فذاقت مرارة الفقر والحرمان ، ثم جرفها تيار اللهو والمجون حتى غشيها الإثم من كل جانب إلا أنها ما لبثت أن أفاقت من ذلك فتجلت صحتها في اعتزال الحياة والناس وفي اعتكافها على نفسها تنشد الاتصال الروحي بالله وقد ارتفعت فيها موجة التنسك والزهد حتى بلغت نزعة التصوف ، فاختارت لحياتها الحرمان والشظف لتظهر نفسها من شوائب الحياة المادية فتصفو وتستجيب للاتصال الروحي بالإله^(٢) .

وكان من أسس مذهبها الزهدي الاستغراق في حب الذات الإلهية . . وهي تصور في شعرها ذلك الحب الذي ملك عليها زمان

بقوله :

أسد علي وفي الحروب نعمة فتخاء تنفر من صفيير الصافر

ملا برزت إلى غزالة في الضحى بل كان قلبك في جناحي طائر

(١) صالح بن مسرح التيمي الخارجي كان يرى رأى الصفرية ، وقيل إنه أول من خرج من الصفرية وكان ناسكاً مصفر الوجه صاحب عبادة وكان زعيماً لشبيب الخارجي الذي خلفه على الزعامة بعد مصرعه كما خلفه كما يبدو على زوجه غزالة .

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية : رابعة العدوية .

نفسها فتقول^(١):

أحبك حبين: حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا وذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا
ولها في التجرد قولها^(٢):

يا سروري ومنيتي وعمادي وأنيسي وعدتي ومرادي
أنت روح الفؤاد أنت رجائي أنت لي مؤنسي وشوقك زادي
أنت لولاك يا حياتي وأنسي ما تشئت في فسيح البلاد
كم بدت منه، وكم لك عندي من عطاء ونعمة وأياد
حبك الآن بغيتي ونعيمي وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك يا حبيب براح أنت مني مكمّن، في الفؤاد
إن تكن راضياً عليّ فأني يا منى القلب قد بدا إسعادي

وقالت مصورة غاية التجرد وأنها لا تبيح جلسها ومحدثها إلا
الجسم وإنما روحها متصلة بالذات الإلهية:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليل مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي
فحببها وإن غاب عن بصرها فهو شاخص قبالة فؤادها لا يغيب
عنه^(٣).

(١) شهيدة العشق الإلهي ص ٧٣.

(٢) شاعرات العرب ص ١٢٤.

(٣) شاعرات العرب ص ١٢٥.

حبيب ليس يعدله حبيب وما لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصري وشخصي ولكن عن فؤادي ما يغيب
وكثيراً ما كانت تناجيه قائلة إن زادها من العمل الصالح ومما
يرضيه قليل فهي حائرة... أتبكي لقلّة زادها أم لطول مسافتها عنه...
فهي تشوق إلى لقائه وتخشى الناس وترجو أن يجيبها إلى رجائها في
الغفران لها فتقول:

وزادي قليل ما أراه مبلّغي اللزاد أبكي أم لطول مسافتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي فيك أين مخافتي
إلا أنها لم تلبث أن تجردت في حبها للذات الإلهية في غير رهبة
أو رغبة. فهي لا تعبد خوفاً من النار أو طمعاً بالجنة وإنما تعبد استغراقاً
في الحب لذاته، ذكر العطار^(١) أن رابعة كانت تقول:

(إلهي إن كنت عبدتك خوف النار فأحرقني بالنار، أو طمعاً في
الجنة فحرمها علي، وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمني من
مشاهدة وجهك). وقالت أيضاً: (إلهي كل ما قدرته لي من خير في هذه
الدنيا أعطه لأعدائك، وكل ما قدرته لي في الجنة امنحه لأصدقائك،
لأنني لا أسعى إلا إليك أنت وحدك)^(٢).

وهذه الأقوال تدل على زهداها في الحياة الدنيا وخيراتها وعلى
زهداها حتى بالحياة الآخرة.. فهي لا تريد خيراً في الدنيا وترجو الله أن
يجعل الخير لأعدائه ويمنع ما قدره لها في الجنة لأصدقائه لأنها لا تريد
بعبادتها إلا وجه الله.

ولما ظهرت رابعة نفسها من معنى العبادة رهبة أو رغبة راحت

(١) تذكرة الأولياء ٧٢/١ - ٧٣.

(٢) تذكرة الأولياء ٧٢/١ - ٧٣.

تدعو الناس إلى هذا التطهر . . قيل إنها سئلت مرة : لماذا تعبدن الله فأجابت : إنما أعبدته لذاته أفلا يكفيني نعمة منه أنه يأمرني بعبادته .

ويعلق الأستاذ عبد الرحمن بدوي على هذا النص فيقول^(١) : (على أن المقصود والأبعد في ذهن رابعة هو أن تسمو بالحياة الدينية في الإسلام بأن تزيل ما في القرآن من معان حسية وتحيلها إلى معان روحية خالصة فلها الفضل الأكبر في بدء هذه الحركة . . . ومن هنا يظهر دورها البارز في الحياة الروحية في الإسلام عامة) .

ورويت عن رابعة أقوال كثيرة تدل على تقشفها وزهدا واستغنائها عن الحياة . . قيل إن سفيان الثوري لقي رابعة وكانت زرية الحال فقال لها : يا أم عمرو، أرى حالاً رثة فلو أتيت جارك فلاناً لغير بعض ما أرى فقالت له : (يا سفيان وما ترى من سوء حالي؟ ألسنت على الإسلام فهو العز الذي لا ذل معه والغنى الذي لا فقر معه والأنس الذي لا وحشة معه، والله إنني لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملكها فكيف أسألها ممن لا يملكها)^(٢) فقام سفيان وهو يقول : ما سمعت مثل هذا الكلام . وقالت رابعة لسفيان : (إنما أنت أيام معدودة فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم فاعمل) .

وقال يوماً سفيان الثوري عندها : واحزننا! فقالت : لا تكذب بل قل واقلة حزننا، لو كنت محزوناً لم يتهاى لك أن تتنفس ومن وصاياها : اكنموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم) .

ومما يتفق مع عزوفها عن الحياة وزهدا فيها عزوفها عن الزواج وكانت ترفض الزواج وتجيّب من يخطبها الإجابات التي تدل انصرافها عن الحياة بكل ما فيها .

(١) شهيدة العشق الإلهي ص ٩٢ .

(٢) الحيوان ٥/٥٩٨ ووفيات الأعيان ٢/٢٨٦ .

ويروي الزبيدي^(١) خبر خطبتها فيقول: وخطبها عبدالواحد بن زيد فحجبه أياماً حتى سنت أن يدخل عليها، فقالت له: (يا شهواني اطلب شهوانية مثلك، أي شيء رجيت في من آلة الشهوة).

ويروي ذلك الخبر أيضاً عبدالرؤوف المنادي فيقول: (كتب سليمان الهاشمي، وكانت غلة ملكه كل يوم ثمانية آلاف درهم إلى كبار أهل البصرة في امرأة يتزوجها، فأجمعوا على رابعة فكتب إليهم: (أما بعد فإن الزهد في الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فهبيء مزاذك وقدم لمعادك، وكن وصي نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك، وصم الدهر واجعل فطرك الموت، وأما أنا فلو خولني الله أمثال ما حزت وأضعافه لم يسرنني أن أشتغل عن الله طرفة عين والسلام)^(٢).

وقيل إن الحسن البصري^(٣) كان قد خطبها فرفضته وقالت في ذلك:

راحتي يا إختوتي في خلوتي وحببي دائماً في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضاً وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه فهو محرابي إليه قبلتي
إن أمت وجداً وما ثم رضا وا عنائي في الوري واشقوتي
يا طبيب القلب يا كل المنى جد بوصل منك يشفي مهجتي
يا سروري وحياتي دائماً نشأتي منك وأيضاً نشوتي

(١) شهيدة العشق الإلهي ص ٥١ عن إتحاف السادة المتقين ٧٥٦/٩.

(٢) شهيدة العشق الإلهي ص ٥١ عن طبقات الأولياء ورقة (١٠٤) أ، ب مخطوط الظاهرية رقم ٤١٦٤.

(٣) وربما كان هذا الخبر موضوعاً لأن ولادة الحسن البصري سنة ٢١هـ ووفاته سنة ١١٠هـ بينما كانت وفاة رابعة سنة ١٨٠ أو ١٨٥هـ (شهيدة العشق ص ٤٩).

قد هجرت الخلق جمعاً أرتجي منك وصلأ فهو أقصى منيتي
ولم تكن رابعة العدوية وحيدة زمانها في الزهد كما ذكرنا وإنما
كانت أشهرهن في التصوف وأكثر من وصلنا من أدبهن .

وتذكر في هذا المجال (ريحانة الزاهدة) قال إبراهيم بن الأدهم^(١)
رحمه الله ، ذكرت لي ريحانة فخرجت إلى الأُبُلَّة فإذا أنا بجارية سوداء
قد أثر البكاء في خديها خطأً ، فذاكرتها شيئاً من أمر الآخرة فأنشأت
تقول :

من كان راكب يوم ليس يأمنه و ليلة تائهاً في عقب دنياه
فكيف يلتذ عيشاً لا يطيب له وكيف تعرف عين الغمض عيناه
وكانت ريحانة ترى أن النفس بما تعتاده فإن فسح لها المجال
وبذلت لها الملذات لم تقف عند حد وإنما تاقت إلى المزيد وإن هي
عودت على الحرمان والصبر تصبرت وتسلّت قالت :

صبرت عن اللذات حتى تولت وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تاقت وإلا تسلّت
وقالت : إن الموت مدرك كل إنسان لا محالة فكم من ملك أدركه
الموت ومن معه حتى أخرج من العيش الرغيد الذي كان يحياه^(٢) :

وما عاشق الدنيا بناج من الردى ولا خارج منها بغير غليل
فكم ملك قد صفر الموت بيته وأخرج من ظل عليه ظليل
وقالت تدعو إلى القيام في الليل لذكر الله وإلى عدم الاستكانة إلى
لذيق النوم فإن في ذلك المباهة والخسران :

(١) عقلاء المجانين ص ١٤٧ .

(٢) عقلاء المجانين ص ١٤٧ .

اجعل لنفسك في الليالي نبهة تنبهك من خلل المنام قياما
وانس إلى طول القيام مخلداً واترك لذيق النوم والأحلاما
وقالت^(١):

تعمود مهر الليل فإن النوم خسران
ولا تركزن إلى الذنب فإن الذنب نيران
فكن للوحي دزاساً وللقرآن أخدان
إذا ما الليل فاجاهم فهم في الليل رهبان
يميلون كما مال من الأرياح أغصان

وكانت ترى أن الحياة الدنيا عذاب، وكلما أقبلت على صاحبها
وعظم شأنها لديه كبر عذابه فيها، إنها تهين المكرمات فإذا ما هانت
على صاحبها كرمت وتوصي الإنسان بعد ذلك بالآ يأخذ منها إلا ما هو
بحاجة إليه وأن يستغني عما يستطيع أن يدعه منها فقالت:

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذاباً كلما كبرت لديه
تهين المكرمات بها بصفر وتكرم كلما هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما كنت محتاجاً إليه

وميمونة الزاهدة^(٢) من شواعر العشق الإلهي في القرن الثاني
الهجري، كانت إذا جنها الليل تقول في دعائها يا واحدي: تمنعني بالليل
التلاوة، ثم تقطعني عنك بك في ضياء إلهي! وددت أن النهار ليل حتى
أتمتع بقربك.

وقيل: طلعت الشمس عليها يوماً فأذنتها فقالت^(٣):

(١) المصدر نفسه ص ١٤٨.

(٢) عقلاء المجانين ص ١٤٨.

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٩ وشهيدة العشق الإلهي ص ١١٥.

إن كنت تعلم أنني بك واله فاصرف سموم الشمس عني سيدي
وصامت مرة حتى اسودت فليمت في ذلك فرفعت طرفها إلى
السماء وقالت (قد لامني خلقتك في خدمتك، وعزتك وجلالك
لأخدمك حتى لا يبقى لي عصب ولا قصب)^(١) ثم أنشأت تقول:

يا ذا الذي وعد الرضى لحبيبه إن الذي ما إن سواك أريد
وقال سلام^(٢) سمع حيونة تقول: (من أحب الله أنس ومن أنس
طرب، ومن طرب اشتاق، ومن اشتاق وله ومن وله خدم، ومن خدم
وصل، ومن وصل اتصل، ومن اتصل عرف، ومن عرف قرب، ومن
قرب لم يرقد وتسوّرت عليه بوارق الأحزان) وكانت تقول: (اللهم هب
لي سكون قلبي بعقد الثقة بك واجعل جميع خواطري واثقة برضاك، ولا
تجعل حظي الحرمان منك يا أمل الآملين).

وميمونة الزاهدة المتصوفة. . ومن شعرها قولها في المكاشفة وفيه
إشارة للخمر الرمزية عند المتصوفة^(٣).

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون
والسنة بسر قد تناجي تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمينا
فتسقيها تراب الصدق صدقاً وتشرب من كؤوس العارفين
وممن يذكر من الزاهدات (آسية البغدادية)^(٤).

(١) القصب: عظام اليدين والرجلين ونحوها.

(٢) عقلاء المجانين ص ١٥٠.

(٣) عقلاء المجانين ١٥١ واتجاهات الشعر العربي ص ٣١٥.

(٤) آسية البغدادية: من ربات العبادة والزهد والتقى والصلاح عكف عليها العام والخاص
وتوفيت سنة ٢٥٩هـ (أعلام النساء ٧/١).

قيل إنها ذكرت لعبد الله بن طاهر، فدعاها فأدخلت عليه ولزمت الصمت خمسة أيام فقال لها عبد الله: أخرساء أنت ما لك لا تنطقين، قالت لا ولكني أقول^(١):

قالوا نراك تطيل الصمت قلت لهم ما طول صمتي من عي ولا خرس الصمت أحمد في الحالين عاقبة عندي وأحسن بي من منطق شكس أنشر البز في من ليس يعرفه أم أنشر الدرب بين العمي في الفلس ومثلها زاهدة متصوفة أخرى تعارف الناس على أنها مجنونة، شوهدت في خيمة أعراب وعليها جبة صوف، فسلم عليها فلم ترد السلام ثم قالت^(٢) وقد بينت كيف أن الناس يظنون الجنون في أولئك الزاهدين الذين أجاعوا بطونهم وأسهروا عيونهم في عبادة الله فتقول: إنهم الباء ذوو عقول إلا أنهم لما رأوا الخلق وما هم عليه وعرفوا حقيقة الحياة شجاهم الأمر فاعتزلوا:

زهد الزاهدون والمعابدون إذ لمولاهم أجاعوا البطونا أسهروا الأعين القريحة فيه فمضى ليلهم وهم ساهرونا حيرتهم محبة الله حتى علم الناس أن فيهم جنونا هم ألبًا ذوو عقول ولكن قد شجاهم جميع ما يعرفونا قال عتبة الغلام^(٣): فدنوت إليها فقلت: لمن الزرع؟ فقالت: لنا إن سلم، فتركناها وأتيت بعض الأخبية، فأرخت السماء كأفواه القرب فقلت: والله لأتيتها فأنظر قصتها في هذا المطر، فإذا أنا بالزرع قد غرق، وإذا هي قائمة نحوه وهي تقول: والذي أسكن قلبي من طرف

(١) الوافي بالوفيات ٢٦٤/٩ رقم الترجمة ٤١٨٦.

(٢) مصارع العشاق ص ١٨٢.

(٣) مصارع العشاق ص ١٨٣.

سحر بصفي محبة اشتياقك أن قلبي ليقفن منك بالرضا، ثم التفتت إلي فقالت:

يا هذا! إنه زرع، فأنبته، وأقامه، فسنبله، وركبه وأرسل عليه غيثاً فسقاه واطلع عليه فحفظه، فلما دنا حصاده أهلكه، ثم رفعت رأسها نحو السماء فقالت: العباد عبادك وأرزاقهم عليك، فاصنع ما شئت! فقلت لها: كيف صبرك؟ فقالت: اسكت يا عتبة.

إن إلهي لغني حميد في كل يوم منه رزق جديد الحمد لله الذي لم يزل يفعل بي أكثر مما أريد وتحسن الإشارة إلى عابدة أخرى هي (آمنة الرملية)^(١) من عابدات القرن الثالث للهجرة انقطعت للتبتل فكان أكثر زهاد زمانها يترددون عليها ويتركون بها.. فدخل عليها بعض العابدين يزورونها فقالت لهم: ما شأنكم؟ قالوا: نسألك الدعاء، فقالت: لو أن الخاطبين خرسوا ما تكلمت عموزكم من البكم ولكن الدعاء سنة ثم قالت: (جعل الله قراكم من بيتي الجنة وجعل ذكر الموت بيني وبينكم على بال وحفظ علينا الإيمان وهو أرحم الراحمين).

ويذكر في هذا المجال (ست النساء بنت طولون)^(٢) وكانت ذات أموال عظيمة ونعمة ظاهرة وعطاء وافر فلم تلبث أن ضربت الدنيا بضرباتها فشاهدها بعض الأغنياء تتعرض للسؤال فقال لها: أين ما كنت فيه من النعيم؟ قالت: كنا نرصد نواذب الدهر فجاءتنا وتركنا ديارنا بلاقع. قال: فما تشتهين؟ قالت: ملء بطني طعاماً. فقال: هذا وكيلي، انصرفي إلى المنزل، وأمر لها بعشرة آلاف درهم. فقالت: يا أخي عليك بمالك، بارك الله لك فيه، أما إنه قد كان عندنا أكثر من ذلك فلم

(١) أعلام النساء ١/ ١٠.

(٢) نساء الخلفاء ص ١٢٧.

يبقى . ثم أكلت شيئاً وولت وهي تقول :

دع الدنيا لعاشقها سيصبح من ذبائحها
أرى الدنيا وإن مدحت تنص على فضائحها
فلا تغررك رائحة تصيبك من روائحها
فإن سرورها أَلَم وحتفك في منائحها
ومطربها بمعزفه يؤوب إلى نوائحها

وقبل أن تنتهي من الوقوف عند الزاهدات وزهدهن وأدبهن لا بد من الإشارة إلى أنه قد يقع لبعض الجواري من المصائب والمحن ما يجري الزهد على السنتهن والتكشف على حياتهن، كالذي كان من (تتريف) إحدى حظايا الخليفة المأمون فقد وفّت له بعد موته وقصرت نفسها على البكاء عليه وزهدت بالحياة فقالت في ذلك شعراً كثيراً^(١) وصلنا منه قولها :

إن الزمان سقانا من مرارته بعد الحلاوة أنفاساً فأروانا
أبدى لنا تارة منه فأضحكنا ثم انشئ تارة أخرى فأبكنا
إننا إلى الله فيما لا يزال لنا من القضاء ومن تلوين دنيانا
دنيا نراها تريننا من تصرفها ما لا يدوم مصافاة وأحزاننا
ونحن فيها كأننا لا نزايلها للعيش أحياءنا يتلون موتانا

وقد تمتد السنون ببعضهن فتثار في نفوسهن بعض نزعات إلى الزهد والتوبة وإلى تصوير صروف الزمان وتغير الأيام كما في قول عريب^(٢) التي عمرت ستة وتسعين عاماً :

من صاحب الدهر لم يأمن تصرفه غباً وللدهر إحلاء وإمرار

(١) المستظرف من أخبار الجواري ص ١٨.

(٢) طبقات ابن المعتز ٤٢٦.

وكل شيء وإن طالَّت إقامته إذا انتهى فله لا بد إقصار
وإلى ذلك أشار ابن المعتز في كتابه الذي أرسله إلى (خزاعي)
بذكرها بما كان بينهما من تواصل فقال^(١) :

رايتك قد أظهرت زهداً وتوبة فقد سمجت من بعد توبتك الخمرُ
فأجابته بقولها :

أتاني قريض يا أميري محبر حكى لي نظم الدر فضل بالشذر
أنكرت يا ابن الأكرمين إنابتي وقد أفصحت لي السن الدهر بالزجر
وأدبني شرخ الشباب ببينة فيا ليت شعري بعد ذلك ما عذري
وقد يكون ذلك زهداً اعتيادياً أعني من النوع الذي لجأ إليه
الإنسان بعد أن يودع الشباب ويحس بقرب الموت وبخاصة عند أمثال
هؤلاء الجواري اللاتي سبق أن ملأن الدنيا فجوراً وعبثاً ومجوناً.

ولا بد لنا بعد هذا الاستعراض الوجيز لأدب الزهد والتصوف عند
النساء نقف عند بعض الملاحظات العامة. فهو يحمل طابع أدب العصر
وخصائصه، ذلك أن شعرهن يمتاز بما امتاز به الشعر العباسي عامة من
رقة العبارة وسهولتها وليونة التراكيب والعبارات واستخدام ألفاظ
وأفكار العصر المستعارة من العلوم المختلفة وأفكارها وبخاصة العلوم
الدينية.

وقد رأينا أن النثر الذي نسبته مصادر الأدب والتصوف إليهن لا
يختلف من حيث الأسلوب والأفكار عن نثر زهاد العصر في العصر
العباسي الأول، فيتسم بما تتسم به أقوال الحسن البصري^(٢) وسليمان

(١) المستظرف ص ٢١.

(٢) تاريخ التصوف الإسلامي ص ١٦٠ - ١٧٠.

الداراني^(١) وعبد الله بن المبارك وبشر الحافي ومعروف الكرخي^(٢) وغيرهم، حتى إذا تجاوزنا هذا العصر إلى العهود التالية وجدنا متصوفات تنسب إليهن أقوال تحمل الخصائص والأبعاد الجديدة لحركة التصوف مما لا مجال لتفصيل الكلام فيه.

وبساطة شعر المرأة الزهدي والصوفي من حيث الألفاظ والتعابير والأفكار تعبير مطابق لما تتميز به طبيعة المشاعر النسائية من رقة وليونة ورشاقة في التعبير تلفها في الغالب غلالة شفافه من الكآبة، وأبرز ما نجده سهولة التعبير ولينه مما سنشرحه عند الكلام عن الملامح الفنية في الأدب النسوي، والبعد عن التعقيد في العبارة الشعرية والنثية والعزوف عن أثقالها بفنون الصنعة البديعية وتجنب الإغراب اللغوي والغموض والعمق الفكري والفلسفي، وهي خصائص واضحة فيما تناقلته المصادر من أشعار وأقوال النساء الزاهدات والمتصوفات، وما سبق أن عرضناه منها.

الرثاء:

وهو أهم الأغراض التي حذقتها المرأة في مختلف العصور بحكم الظروف المحيطة بها والحياة التي كانت تحياها ولما كان يملأ نفسها من عواطف جياشة سرعان ما تثيرها الآلام والأحزان فتندفق على لسانها كلمات مؤثرة وأقوالاً أو أشعاراً تنفس فيها عن لوعتها وأساها.

وقد اشتهرت المرأة أكثر ما اشتهرت بالرثاء من بين الأغراض الشعرية فقد تبكي المرأة زوجها أو الأم ولدها أو البنت أباهها أو الجارية سيدها ومولاها..

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخ ص ٦.

(٢) المصدر نفسه، ٥.

ولئن كثر رثاء الآباء والأبناء والأزواج في الشعر الجاهلي والإسلامي.. لقد كثر في العصر العباسي رثاء الجواري الوفيات لأسيادهن^(١).. وسنعرض لبعض ما وصلنا من شواهد شعرية تدل على ذلك وتوضح صورته إلى حد ما..

رثاء الحرائر:

أما ما قيل في رثاء الأمهات لأبنائهن فيذكر منه رثاء السيدة زبيدة لابنها الأمين قالت^(٢):

أودى بـإلفك من لم يترك الناسا فامنع فؤادك عن مقتولك الياسا
لما رأيت المنايا قد قصدن له أصبن منه سواد القلب والراسا
والموت دان له والهم قارنه حتى سقاء الذي أودى به الكاسا
رزنته حين باهيت الرجال به وقد بنيت به للدهر آساسا
فليس من مات مردوداً لنا أبدا حتى يرد علينا قبله ناسا

وقد يكون هذا الرثاء من ضمن ما نظم على لسان السيدة زبيدة وقد وردت إشارات كثيرة إلى مثل ذلك إلا أنني لا أجد في الأبيات حرارة العاطفة وشدة اللفتة على الأم الشاكل، وإنما هي أبيات في التصبر والتأسي بما وقع للناس وهذا ما لا يمكن أن يستقر في نفس الأم التي فقدت وحيدها.

ومما وقع بين أيدينا من رثاء الزوجات لأزواجهن قول لبابة ابنة علي بن المهدي في الخليفة الأمين^(٣) ولم يكن دخل بها:

أبكيك لا للنعيم والأنس بل للمعالي والسيوف والترس

(١) المستظرف ص ٦٣ والأغاني ٢٢/٢٠٥.

(٢) مروج الذهب ٣/٣٢٣.

(٣) مروج الذهب ٣/٣٢٣ وتاريخ الطبري ٨/٥٠١ وأعلام النساء ٤/٢٧٤.

أبكى على سيد فجعت به أرملني قبل ليلة العرس
يا مالكاً بالعرء مطرحاً خائنه أشرطه مع الحرس
وقالت بوران بنت الحسن ترثي المأمون^(١) زوجها :

أسعداني على البكاء مقلتيا صرت بعد الإمام للهم فينا
كنت أسطو على الزمان فلما مات صار الزمان يسطو عليا
ومما قيل في التعزية ما ورد عن السيدة زبيدة حينما علمت بجزع
الأمين لموت (فطيم)^(٢) أم ولده موسى . . وطلبت أن تحمل إليه
فاستقبلها فقال : يا سيدتي ماتت فطيم فقالت^(٣) :

نفسى فداؤك لا يذهب بك اللهف ففي بقائك ممن قد مضى خلف
عوضت موسى فهانت كل مرزئة ما بعد موسى على مفقودة أسف
وقالت : (أعظم الله أجرك، ووفر صبرك، وجعل العزاء عنها
ذخرك).

ولعل من أروع الرثاء وأصدق وأبلغه معنى وأفصحه عبارة من شعر
النساء القصيدة الفاتية للفارعة بنت طريف في رثاء أخيها الفارس
الوليد بن طريف^(٤) الخارجي الذي قتل بعد حرب شديدة فلما علمت
أخته الفارعة بذلك لبست عدة الحرب وحملت على جيش يزيد بن مزيد

(١) نساء الخلفاء ص ٧١.

(٢) وقيل (نظم).

(٣) تاريخ الطبري ٥١٤/٨.

(٤) الوليد بن طريف : نائر من الأبطال كان رأس الشراة في زمنه خرج بالجزيرة الفراتية سنة ١٧٧هـ في خلافة هارون الرشيد، سير إليه الرشيد جيشاً كثيفاً بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني فقتله بعد حرب شديدة (الأعلام).

الشيواني^(١) الذي كشف أمرها فواجهها وطاردها قائلاً: اغربي لقد فضحت العشيرة^(٢)، وقيل إنها استحييت وانصرفت^(٣).

فقال تبكت شجر الخابور وتعاتبه على عدم تساقط ورقه لاحتراقه بنار الحزن على قتل الوليد^(٤) وتعدد الصفات الحميدة التي كان يتصف بها من شجاعة وكرم وتقى ومروءة:

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تحزن على ابن طريف
فتى لا يلوم السيف حين يهزه إذا ما اختلى من عاتق وصليف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الخيل إلا كل جرداء صلدم وأجرد ضخم المنكبين عطوف
فقدناه فقدان الربيع وليتنا فديناه من ساداتنا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه شجاً لعدو أو لجأ لضعيف
حليف الندى إن عاش يرضى به الندى وإن مات لا يرضى الندى بحليف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد فيا رب خيل فضها وصفوف
ثم تمضي في تصوير أحزانها وفجيعتها بفقدان أخيها فتقول:

ألا يا لقومي للنوائب والردى ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى وللشمس همت بعده بكسوف

(١) يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني أمير من القادة الشجعان انتدبه هارون الرشيد لقتال الوليد بن طريف الشيباني وكان والياً بأرمينية وأذربيجان وهو ابن أخي معن بن زائدة (الأعلام).

(٢) يشير إلى عشيرة بني شيان التي يتسب إليها كل من يزيد والوليد والفارعة.

(٣) مرآة الجنان ١/ ٣٧٠.

(٤) تاريخ الطبري ٨/ ٢٦١ سنة ١٧٩ والعقد الفريد ٣/ ٢٦٩ والعيون والحدائق ٣/ ٢٩٧ ومرآة الجنان ١/ ٣٧٢ والشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٦٣ وشاعرات العرب ٣٧٤ - ٣٧٦.

ولليث فوق الشمس إذ يحملونه إلى حفرة ملحودة وسعوف
 بكت تغلب الغلباء يوم وفاته وأبرز منها كل ذات نصيف
 يقلن وقد أبرزن بعدك للورى معايد حلي من برى وشنوف
 كأنك لم تشهد مصاعاً^(١) ولم تقم مقاماً على الأعداء غير خفيف
 ولم تشتمل يوم الوغى بكتيبة ولم تبد في خضراء ذات رفيف
 دلاص ترى فيها كدوماً من القنا ومن ذلق يعجمنها بحروف^(٢)
 وطعنة خلس قد طعنت مرشة على يزني كالشهاب رعوف^(٣)

ثم تقف الفارعة أيامها على البكاء على أخيها وتوبخ قومها لأنهم
 ضيعوه وأضاعوا أنفسهم بعدم الثبات معه . بل توبخ السيوف لأنها
 أصابته ولم تعلم أي فتى أصابت فتقول^(٤) :

ذكرت الوليد وأيامه إذ الأرض من شخصه بلقع
 فأقبلت أطلبه في السماء كما يبتغي أنفه الأجعد
 أضاعك قومك فليطلبوا إفادة مثل الذي ضيعوا
 لو أن السيوف التي حدها يصيبك تعلم ما تصنع
 نبت عنك إذ جعلت هيبة وخوفاً لصولك لا تقطع

رثاء الجواري :

ومن صادق الرثاء ورقيقه ما قالته بعض الجواري في رثاء أسيادهن
 ووفاء منهن لهن ، وعرفاناً لأياديهن عليهن في حياتهم وسنلحظ من خلال
 ما سنعرضه من أمثلة شعرية صدق الشعور وعمق العاطفة ولوعة الحزن .

(١) المصاع : القتال .

(٢) الدلاص : اللين البراق ، صفة للدروع ، الدلق : الحاد .

(٣) الرعوف : والراعف : الفرس الذي يتقدم الخيل .

(٤) وفيات الأعيان ٣٣/٦ والشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٦٤ .

فالشاعرة عنان تود وقد فاضت نفسها حشرات أن تسوق أيامها
سوقاً تعجلاً لوفاتها بعد مولاه^(١)، إذ لا انتفاع لها بالبقاء... وهي
تبكي خشية أن تطول حياتها بعده قالت^(٢):

نفسي على حشرات موقوفة فوددت لو خرجت مع الحشرات
لو في يدي سباق أيامي إذا خطرتهن^(٣) تعجلاً لوفاتي
لا خير بعدك في الحياة وإنما أبكي مخافة أن تطول حياتي
ولما مات المأمون وفث له جاريته (تتريف) وقصرت نفسها على
البكاء عليه، واشتد جزعها وأقبلت ترثيه وتنوح عليه وتبكيه حتى ماتت،
ومن شعرها في ذلك^(٤):

يا ملكاً لست بناسيه نعمى إليّ العيش ناعيه
والله ما كنت أرى أنسي أقوم في الباكين أبكيه
والله لو يقبل فيه الفدا لكنت بالمهجة أفديه
عاذلتي في جزعي^(٥) أقصري قد علق الرهن بما فيه
وقالت^(٦):

إن الزمان سقانا من مرارته بعد الحلاوة أنفاساً فأروانا
أبدى لنا تارة منه فأضحكنا ثم انثنى تارة أخرى فأبكانا
إننا إلى الله فيما لا يزال لنا من القضاء ومن تلوين دنيانا

(١) قالت الأبيات في رثاء مولاهم الناطقي.

(٢) نساء الخلفاء ص ٥٢.

(٣) خطرتهن: خطر: جعل خطوتين بخطوة واحدة، سار بسرعة (اللسان/خطر).

(٤) المستظرف من أخبار الجواني ص ١٨.

(٥) وردت في المستظرف ص ١٨ (جذعي) ولعل الصواب ما أورده.

(٦) المستظرف من أخبار الجواني ص ١٨.

دنيا نراها ترينا من تصرفها ما لا يدوم مصافاة وأحزاننا
ونحن فيها كأننا لا نزايلها للعيش أحيانا يتلون موتانا

ووفاء الجواري لأسيادهن بعد موتهم وقصر حياتهن على النواح
والبكاء عليهم وعدم الانتفاع بالحياة والاستمتاع بمباهجها بعدهم أمر
اشتهرت به بعضهن في العصر العباسي فدنانير^(١) أيضاً وفَت لسيدها
يحيى بن خالد وآلت أن لا تغني بعده أبداً حتى أنها امتنعت عن الغناء
للرشيد^(٢) ومحبوبة جارية المتوكل لزمت لبس الثياب البيض بعده حداداً
عليه وعزفت عن الغناء . . . وقيل إنها لما اضطرها (وصيف) وكانت ضمن
جواريه اللاتي وقعن من نصيبه - على الغناء أخذت العود وغنت وهي
تبكي^(٣) :

أي عيش يطيب لي لا أرى فيه جمفرا
ملكاً قد رآته عيـ نسي قتيلاً معفرا
كل من كان ذا هيام وحزن فمقدبراً
غير محبوبة التي لو ترى الموت يشتري
لاشتريته بملكها كل هذا لتقبراً
إن موت الكئيب أصلح من أن يعمراً

فاشتد ذلك على وصيف وهم بقتلها لولا أن استوهبها بعض
الحاضرين فوهبها له فأعتقها وأمر بإخراجها وأن تكون بحيث تختار من
البلاد، فخرجت من سر من رأى إلى بغداد وأخملت ذكرها طول
عمرها^(٤) .

(١) الأغاني ١٧/١٨ .

(٢) الأغاني ١٧/١٨ .

(٣) الأغاني ٢٠٣/٢٢ - ٢٠٥ والمستطرف ص ٦٦ - ٦٧ مع اختلاف في اللفظ .

(٤) الأغاني ٢٠٤/٢٢ .

وسئلت فضل عما نزل بها صبيحة قتل المتوكل فقالت باكية^(١) :

إن الزمان بذحل^(٢) كان يطلبنا ما كان أغفلنا عنه وأسهاننا
ما لي وللدهر قد أصبحت همته مالي وللدهر ما للدهر لا كانا
وكانت الفتح ممن قتل مع المتوكل فرثته هند جارية أبي محمد بن
مسلمة الشاطبي وكان قد اشتراها فحظيت عنده، بقولها^(٣) :

قد قلت للموت حين نازله الموت مقدمة على البهم
لما تبينت ما فعلت إذن قرعت سناً عليه من ندم
فاذهب بمن شئت إذ ذهبت به ما بعد فتح للموت من ألم
فهني لا يهمها بعد أن ذهب الموت بالفتح أن يذهب بعده بمن يشاء
فلن تألم نفسها ذلك الألم على أحد سواء .

ومثل ذلك ما قالته نسيم في رثاء مولاها أحمد بن يوسف الكاتب
الكوفي :

ولو أن ميتاً هابه الموت قبله لما جاءه المقدر وهو هيووب
ولو أن حياً قبله جازه الردى إذ لم يكن للأرض فيه نصيب^(٤)
وقالت أيضاً ترثيه^(٥) :

نفسي فداؤك لو بالناس كلهم ما بي عليك تمنوا أنهم ماتوا

(١) المصدر نفسه ٢٦٧/١٩ - ٢٦٨ .

(٢) ذحل : الذحل : الثار (اللسان/ذحل) .

(٣) المستظرف من أخبار الجوارى ص ٧٣ .

(٤) معجم الأدباء ٧٩/٥ والمستظرف ص ٧١ .

(٥) معجم الأدباء ٧٩/٥ والمستظرف ص ٧١ وقد ورد البيتان مع البيتين السابقين في المستظرف
دفعاً واحدة والغريب أن المحقق لم يظن إلى اختلاف القافية .

وللورى مينة في الدهر واحدة ولي من الهم والأحزان موتات
ويلاحظ المتأمل في المعاني الواردة في رثاء الجوّاري بصورة
عامّة لأسيادهم أنّهم لم يتناولن إلا كدر العيش بوفاتهم وعدم انتفاعهم
بالحياة بعدهم وحرصهم على اللّحاق بهم.. ولا شك في أنّ العلاقة
العابرة القائمة على اللذة والأنس والتمتع بمباهج الحياة معهم هي التي
قيدت الجوّاري بذكر هذه المعاني في شعر الرثاء.

وهناك سبب آخر في غاية الأهمية إضافة إلى الحزن الطبيعي الذي
ينتج عن فقدان سيد الجارية المحب لها، وهو أنّ مصيرها بعد وفاته
مجهول في كفة الأقدار، فهي جزء من المال الموروث وغالباً ما يباع
لتقسيمه على الورثة فإذا حصل مثل ذلك فقدت الجارية ما اعتادت عليه
من راحة وطمأنينة أو من عناية فائقة ورعاية وتدليل.

ونجاح الجارية في منازل السادة التي تكثر فيها الجوّاري في
اجتذاب قلب سيدها ليس بالأمر الهين، فقد يرافقه صراع مرير مع عدد
كبير من الجوّاري..

ولم يتعد ما ورد من الشعر في رثاء الجوّاري المعاني ذاتها
والصور نفسها فالبكاء على الجارية بكاء على فقدان النعيم والأنس
ومباهج الحياة.

إلا أنّ هذا لا يعني انعدام ورود الرثاء بذكر بعض الصفات والمثل
العربية الأصيلة فقد قالت تيماء^(١) جارية أبي العباس خزيمة بن خازم
النهشلي ترثي سيدها^(٢):

(١) أعلام النساء ١/ ١٨٠.

(٢) المستطرف ص ١٧.

إن أبا العباس خدّن العلى خزيمة البأس فتى الجود
 والمتلف المخلف رب الندى أودى فما جود بموجود
 لئن حواه القبر ميتاً فقد تضيق عنه سعة البيد
 كأنه لم يفن يوماً ولم يعد على الشم الصناديد
 ولم يفن الخطب في مآزق ضحك بقلب غير مزوود^(١)
 كم فرقت آراؤه جحفاً وبدته أي تبديد
 فهي تصفه بالبأس والشجاعة وقوة البطش وبالجود حتى لكان
 الجود قد انعدم بعد وفاته . . ثم بالرأي الشاقب والفكر السديد . . إذ
 يمكنه بحزمه وذكائه أن تفرق آراؤه جحفاً وتبدده أي تبديد .

وهناك دوافع أخرى ربما يمكننا أن نضيفها إلى ما سبق أن عرضنا
 في رثاء الجوّاري لأسيادهن يساعد عليها تزود الجوّاري بقسط وافر من
 الثقافة الأدبية وكثرة حفظهن للشعر والعادات والتقاليد التي تقضي بنظم
 الشعر لإنشاده في مجلس الندب والبكاء والعزاء . . وقد مرت بنا أمثلة
 لندب الجوّاري أسيادهن في بعض المجالس^(٢) .

المديح:

وكان للنساء الحرائر والإماء شعر في المديح وردتنا نصوص بعضه
 ولم نقف لبعضه الآخر إلا على إشارات مقتضبة أو على أبيات قليلة لا
 تكاد تغني، وليس من شك في أن الحياة الثقافية والاجتماعية التي كانت
 تحياها المرأة، حرة أو أمة، في العصر العباسي تتيح لها إلى حد كبير
 أن تمارس القول في هذا الغرض، فقد كان لبعض النساء الحرائر
 والجوّاري مدائح وصلنا منها القليل، وضاع ضمن ما ضاع الكثير .

(١) المزوود: المدعور إذا فزع (اللسان/زاد).

(٢) الأغاني ٢٢/٢٠٣ - ٢٠٤، والمستظرف ص ٦٦ - ٦٧.

وكان لبعض الحرائر^(١) أن يحضرن مجالس الخلفاء لينشدن الأشعار في المديح والتهاني أسوة بالشعراء، وقد أشار التنوخي^(٢) إشارات كثيرة على ذلك، كما ذكر ابن المعتز أنه كان لعدد من الجواري في الخلفاء والملوك المدائح الكثيرة^(٣).

ومع ذلك فلم يرد بين الشعراء المحترفين للمديح ذكر شاعرة اتخذت من الشعر حرفة ومن المديح وسيلة للتكسب، اللهم إلا إذا عدنا الحجناء بنت نصيب من المتكسبات لقصرها مدائحها على طلب التوال، وسنورد لها نماذج شعرية تؤيد ذلك..

ورغم الإشارات الواردة في طبقات ابن المعتز عن كثرة مدائح فضل في الخلفاء والملوك، إلا أنني لم أعثر فيما بين يدي من المصادر على شعر لها في المديح، وهذا يعني أن الكثير من شعرها ضائع لم يعثر عليه بعد.. وقد ذكر مثل هذا عن خنساء الشاعرة (التي نازعت الشعراء ومدحت الخلفاء)^(٤). يضاف إلى ذلك أن من المعقول أن يكون لأمثال هؤلاء الجواري مدائح في أسيادهن من الخلفاء الوجهاء وممن يواصلهن.

أما ما ذكر عن بعض السيدات الحرائر، وحضورهن مجالس الخلفاء لمشاركة الشعراء في إلقاء قصائد التهاني والمدائح، فيقول التنوخي^(٥):

(حضرت بغداد في مجلس الملك عضد الدولة في يوم عيد الفطر

(١) الأغاني ١٩٠/١٠ - ١٩١ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٦٠ - ٧٢ ونشوار المحاضرة ٢٦٧/٥.

(٢) نشوار المحاضرة ٢٦٧/٥ رقم ١٣٥، ١٣٦.

(٣) طبقات ابن المعتز (أخبار فضل ص ٤٢٦).

(٤) طبقات ابن المعتز (أخبار فضل ص ٤٢٦).

(٥) نشوار المحاضرة ٢٦٧/٥ رقم ١٣٥.

سنة سبع وستين وثلاثمائة والشعراء ينشدونه التهاني، فحضرت عابدة الجهنية^(١) امرأة عم أبي محمد المهلبى الوزير، فأنشدت قصيدة لم أظفر منها بشيء).

وقال في حديثه عن عاتكة المخزومية^(٢): (حضرت مجلس عضد الدولة ببغداد في عيد الفطر سنة ٣٦٧هـ وحضر الشعراء فأنشدوا التهاني، وحضرت أم الحسن البغدادي السلامي^(٣) فأنشدته لنفسها قصيدة طويلة بعبارة فصيحة وإنشاد صبت مستقيم ولسان سليم من اللحن لم أصل إلى جميعها، تقول فيها عند ذكرها الممدوح^(٤):

شَتَّانَ بَيْنَ مَدْبَرٍ وَمَدْمَرٍ صَيْدَ اللَّيْثِ حِصَانِدُ الْغَزْلَانِ
رَوْعَتُهُ مِنْ بَعْدِ دَهْرٍ رَاعِنِي وَسَقِيَّتُهُ مَا كَانَ قَبْلَ سِقَانِي
فَلَقَدْ سَهَرْتَ لِيَالِيًّا وَلِبَالِيًّا حَتَّى رَأَيْتُكَ يَا هَلَالَ زَمَانِي
ويذكر التنوخي كذلك أن ابنة خال الشاعر السلامي كانت قد أنشدته لنفسها من قصيدة لها إلى سيف الدولة الحمداني:

لَوْلَا حِذَارِي مِنْ أَنْ أَلَامَ عَلَى عِتَابِ يَوْمٍ مِنْهُ وَإِعْتَابِهِ
لَسَرْتُ وَاللَّيْلَ هَوْدَجِي وَذُبَّابَ السِّيفِ فِي نَحْرِهِ إِلَى بَابِهِ^(٥)

(١) شاعرة فاضلة: وخطاطة ماهرة، وأديبة فصيحة، روى عنها القاضي أبو علي المحسن بن علي بن محمد التنوخي (أعلام النساء ٣/١٩٨).

(٢) عاتكة بنت محمد بن القاسم المخزومية أم الحسن بن محمد بن عبدالله السلامي الشاعر وكانت شاعرة فصيحة روى عنها القاضي التنوخي (نشوار المحاضرة ٥/٢٦٩ وأعلام النساء ٣/٢٠٨).

(٣) أبو الحسن السلامي: شاعر عباسي استقر لدى صاحب بن عباد فألحقه بخدمة عضد الدولة توفي سنة ٣٩٤هـ (البيعة ٣/٣٩٦).

(٤) نزهة الجلساء ص ٧٧ ونشوار المحاضرة ٥/٢٦٩.

(٥) نزهة الجلساء ص ١٠٩.

وللسيدة زبيدة في المديح والاستعطاف قولها في المأمون^(١) :

لخير إمام قام من خير عنصر وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين وفخرهم وللملك المأمون من أم جعفر

ولعلية بنت المهدي في أخيها الرشيد قولها^(٢) :

قل للإمام ابن الإمام مقال ذي النصح المصيب
لسولا قدومك ما انجلي عنا الجليل من الخطوب

وقالت فيه وكان قد زارها إثر دعوة منها فسرت بزيارته^(٣) :

تفديك أختك قد حبوت بنعمة لسنا نعدّلها الزمان عديلا
إلاّ الخلود وذاك قربك سيدي لا زال قربك بالبقاء طويلا
وحمدت ربي في إجابة دعوتي فرأيت حمدي عند ذاك قليلا

وأتبعتهما بأبيات أخرى في الاستعطاف أوردناها في (أدب
المراسلات) وربما ألفت بعض المدائح مواجهة في مجالس الخلفاء أو
الأشخاص الممدوحين . . وربما بعثت في رسالة . . وقد أشرنا إلى بعض
ذلك في (أدب المخاطبات) و (أدب المراسلات) .

ومما قيل في المديح قول الحجناء، وقد دخلت مع أبيها نصيب
الشاعر على الخليفة المهدي فقالت^(٤) مادحة ومهنتة وواصفة لقصره :

رب عيش ولذة ونعيم وبهاء بمشرق الميدان
بسط الله فيه أبهى بساط من بهار وزاهر الحوذان

(١) مروج الذهب ٣/٣٢٦ وجمهرة رسائل العرب ٣/٣٧٣.

(٢) أشعار أولاد الخلفاء ص ٧٢.

(٣) الأغاني ١٠/١٩١.

(٤) الأغاني ٢٢/٤٢٠ - ٤٢١.

ثم من ناضر من العشب الأخضر
مدّه الله بالتحاسين حتى
خففت حافته حين تناهى
زَيْنُوا وسطها بطارمة مث
ثم حشو الخيام بيض كأما
يتجاوبن في غناء شجي
ويقصر السلام من سلم الله
ولديه الغزلان بل هن أبهى
يا له منظراً ويوم سرور

ريزهو شقائق النعمان
قصرت دون طوله العينان
بخيام في العين كالظلمان
ل الشريبا يحفها النمران
ل المها في صرائم الكثبان^(١)
أسعداني يا نخلتي حلوان
وأبقى خليفة الرحمن
عنده من شوارد الغزلان
شهدت لذتيه كل حصان

ولها في مدح المهدي أيضاً قولها^(٢) ترققه عليهم:

أمير المؤمنين ألا ترانا
أمير المؤمنين ألا ترانا
أمير المؤمنين ألا ترانا
أضر بنا شقاء الجدّ منه
وأحواض الخليفة مترعات
أمير المؤمنين وأنت غيث
يعاش بفضل جودك بعد موت

خنافس بيننا جعل كبير
كأنا من سواد الليل قير
فقيرات ووالدنا فقير
فليس يميزنا فيمن يميز
لها عرف ومعروف كثير
يعمّ الناس وإبله غزير
إذا عالوا ويجتبر الكبير

وقد نقل السيوطي عن ابن النجار قوله في الحجناء: (إن لها
مدائح في المهدي قد جمعت). إلا أننا لم يصلنا من تلك المدائح غير
ما ذكرت.

(١) الصرائم: المنصرمة من الرمال ذات الشجر (الأساس/ صرم).

(٢) نزعة الجلساء ص ٣٤.

ودخلت الحجناء على العباسة بنت المهدي فأنشدتها قولها^(١):

أتيناك يا عباسة الخير والحياء وقد عجفت أدم المهارى وكَلَّتْ
وما تركت منا السنون بقية سوى رمة منا من الجهد رمت
فقال لنا من ينصح الرأي نفسه وقد ولت الأموال عنا فقلَّتْ
عليك ابنة المهدي عوذى بابها فإن محل الخير في حيث حلَّتْ
فأقرت لها بثلاثة آلاف درهم وكسوة وطيب، فقالت:

أغنيتني يا ابنة المهدي أي غنى بأعجرين كثير فيهما الورق^(٢)
من ضرب تسع وتسعين مملكة مثل المصابيح في الظلماء تأتلق
أما الحسود فقد أمسى تغيظه غماً وكاد يرجع الريق يختنق
وذو الصداقة مسرور لنا فرح بادي البشارة ضاح وجهه شرق
ورغم أن هذه الأبيات في طلب النوال فإنها مما يدل على أن
النساء في العصر كن يقصدن ويمدحن طلباً للمال والعطاء.

وكان للأمير الخليفة نصيب من مدائح النساء فقد قالت فيه عمته
عليه بنت المهدي تمدحه بكرم النسب والأصل وبالمكرمات وبالقدرة
والباس. قالت^(٣):

يا ابن الخلائق والجحاجة العلى والأكرمين مناسباً وأصولاً
والأعظمين إذا العظام تنافسوا بالمكرمات وحصلوا تحصيلاً
والقائدين إلى العزيز بأرضه حتى يذل عساكراً وخيولاً
وقالت مغنية في الأمين وكانت قد جزعت جزعاً شديداً لموت

(١) الأغاني ٤٢١/٢٢.

(٢) أي أغنيتني عقب ما أغناني أخوك بأعجرين: كمين.

(٣) أشعار أولاد الخلفاء ص ٨٢.

الرشيد فتركت النبيذ والغناء.. فلم يزل الأمين حتى عادت^(١) :

أطلت عاذلتني لومي وتفنيدني وأنت جاهلة شوقي وتسهيدي
قد رتحت شمولى فهو منجدل يحكي بوجنته ماء العناقيد

ولعنان الشاعرة في مدح جعفر البرمكي قولها تذكر براعته في حل
الأمور إذا ما التبت حتى لتستوي لديه البديهة والفكر.. وتصفه بسعة
الصدر والحزم في الرأي.. قالت^(٢) :

بديهنه وفكرته سواء إذا التبت على الناس الأمور
وصدر فيه للهـم اتساع إذا ضاقت من الهـم الصدور
وأحزم ما يكون الدهر رأياً إذا عجز المشاور والمشير

ومن القصائد الشهيرة التي وصلتنا للجواري في الخلفاء قول
(سكن) جارية محمود الوراق في مدح الخليفة المعتصم تذكر فيه أعماله
وإصلاحاته، وتشير إلى بابك وأخيه كيف أنهما شقا عصا الطاعة واغترا
بجهلها فحاولا القدح في حق المعتصم.. وكيف أنه قضى^(٣) على
ثورتهما بالعقل والسيف. قالت^(٤) :

إن الإمام إذا أرقى إلى بلد رقى إليه لعمران وإيناس
أما ترى الغيث قد جاءت أوائله والعود نضر الذرى مستورق كاسي
وأصبحت سر من را دار مملكة قطينها بين أنهار وأغراس
يا غارس الآس والورد الجنى بها غرس الإمام خلاف الورد والآس

(١) الأغاني ١٠/١٩٤.

(٢) الورزاء والكتاب ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٣) تاريخ الطبري ١١/٩ - ١٦.

(٤) المستطرف من أخبار الجواري ص ٣٢ - ٣٣، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٢ - ٤٢٣.

غراسه كل عات لا خلاق له عبل الذراع شديد البأس قنعاس^(١)
كبابك وأخيه إذ سما لهما بباتر للشوى في الجيد خلاص
فذاك بالجسر نصب للعيون وذا بسر من را على سامي الذرا راسي
وهكذا لم يزل في الدهر نعرفه غرس الخلائق من أولاد عباس
شفا عصا الدين واغترا بجهلها بعصبة شهرت في الحرب بالباس
وحاولا القدح في حق الإمام ودون الملك قد علما آساد أخياس^(٢)
في ظل معتقد للحق معتصم بالله للأسد غلاب وفراس
ودونه غصص يشجى العدو بها مثل المبارك أفشين وأشناس
أما ترى بابكاً في الجود منتصباً على ململمة من صنعة الناس
بين السماء وبين الأرض منزله وقائماً قاعداً جسماً بلا راس
ومن القصائد التي رددتها كتب الأدب لعنان في المديح قولها
تمدح يحيى بن خالد البرمكي وتذكر امتنانه على أختين لها من الجواري
وتسأله إلحاقه بهما^(٣):

نفى النوم عن عينيّ حوك القصائد وآمال نفسي همها غير نافد
إذا ما نفى عني الكرى طول ليلة تعوذت منها باسم يحيى بن خالد
وزير أمير المؤمنين ومن له فعالان من حمد طريف وتالد
من البرمكيين الذين وجوههم مصابيح يطفئ نورها كلّ واقد
على وجه يحيى غرة يهتدى بها كما يهتدي ساري الدجى بالفراقد
تعوذ إحساناً فأصلح فاسداً وما زال يحيى مصلحاً كل فاسد
وكانت رقاب في رجال تعطلت فقلّدها يحيى كريم القلائد

(١) القنعاس: الرجل الشديد المنع.

(٢) أخياس: يقال: كأنه أسامة في خيسه أي في أجمته (الأساس: خيس).

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢١.

على كل حي من أياديه نعمة وأثارة محمودة في المشاهد
حياضك في المعروف للناس جمة فمن صادر عنها وآخر وارد
وفعلك محمود وكفك رحمة ووجهك نور ضوؤه غير خامد
بلغت الذي لا يبلغ الناس مثله فأنت مكان الكف من كل ساعد
فيا رب زده نعمة وكرامة على غيظ أعداء وإرغام جاحد
مننت على أختي منك بنعمة صفت لهما منها عذاب الموارد
فمن^(١) لي بما أنعمت منك عليهما وذاك إله الناس كيد المكائد
أعوذ من الحرمان منك بخالد وطيب تراب فيه أعظم خالد.

ونخلص مما مر بنا أن حظ النساء فيما وصلنا من مدائحهن لم
يكن بخير منه في الأغراض الأخرى وربما كان سبب ضياعه أن الرواة
لم يحفلوا به كثيراً لعجز أكثره عن مجارة المديح الجيد الذي شاع في
العصر، وأن كثرة مديح الشعراء من الرجال كان قد غطى على شعر
النساء في هذا المجال.

ويلاحظ أن أكثر المعاني التي تناولتها النساء في مدائحهن تكاد
تكون تقليدية فصفات الممدوح لا تتجاوز تلك الصفات التي عهدناها
في الشعر العربي من شجاعة وبأس وعقل وحزم وتدبير وجود وكرم
وغيرها مما عرف من الصفات المحمودة.

الهجاء:

لا أشك في أنه كان لشواعر العصر العباسي هجاء كثير لم يصلنا
منه إلا النزر القليل. ومعلوم أن التنافس الشديد بين الجوارى والقيان
للحصول على المعجبين بشاعريتهن أو جمالهن أو غنائهن يدفعهن إلى

(١) فمن في الأصل، ولا يستقيم الوزن إلا بتخفيف التون، وقد تكون: فمر لي أو فمن بما
أنعمت.

التنافس والتهاجي، كما أن العلاقة العابرة المبتذلة بين بعض شعراء العصر وبعض الجواري الشاعرات قد تؤدي إلى التراشق بالشعر والتهاجي^(١) به، وقد مر بنا في الحديث عن القيان صور من هجاء الشعراء لهن...

وكثيراً ما تقع منافسة بين أبناء العصر فتميل جماعة إلى فينة أو تعجب بجارية دون الأخرى فتنبري للثناء على محاسنها وبراعتها وتقف للذود عنها ودفع ما يقال فيها من عيب أو ينسب إليها من نقص، وقد تهجو من يهجوها، كالذي وقع بين شارية وعريب، يروي لنا صاحب الأغاني^(٢): (وكان أهل سر من رأى متحازبين، فقوم مع شارية وقوم مع عريب لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء ولا أصحاب هذه).

وكالذي وقع بين فضل وخنساء جارية هشام المكفوف، وكانت شاعرة وكان أبو شبل عصم بن وهب^(٣) يعاون فضلاً عليها ويهجوها مع فضل، وكان الفصيدي والصلحي يعينان خنساء على فضل وأبي شبل، فقال أبو شبل على لسان فضل^(٤):

خنساء طيري بجناحين أصبحت معشوقة نذلين
من كان يهوى عاشقاً واحداً فأنت تهوين عشيقين
هذا الفصيدي وهذا الفتى الصلحي قد زارك فردين
نعمت من هذا وهذا كما ينعم خنزير بحشيتين^(٥)

(١) أبو نواس في تاريخه وشعره ص ٣٧، والمحاسن والأضداد ص ١٥٦.

(٢) الأغاني ٨/١٥.

(٣) أبو شبل: من شعراء الدولة العباسية في أيام المأمون وأدرك المتوكل ومدحه وعمر طويلاً.

(٤) الأغاني ٢٦٥/١٩ - ٢٦٦ ق.

(٥) موضع قضاء الحاجة.

فقلت خنساء تجيئها :

ماذا مقال لك يا فضل بل مقال خنزيرين فردين
يكنى أبا الشبل ولو عاينت عيناه شبلاً راث كثرين
وقالت فضل في خنساء^(١) :

إن خنساء لا جعلت فداها اشتراها الكسار من مولاها
ولها نكهة يقول محاذيها أهذا حديثها أم.....
ورغم بذاءة هذا الهجاء وسوقية الصورة الواردة فيه، إلا أنه هجاء
مر على كل حال وهو مقذع بارع، ويتضح ذلك إذا ما تذكرنا مكانة
الحديث ووقعه وجماله وكثرة القول فيه وجعله من السمات الأساسية
للجمال..

وقد رأينا اهتماماً كبيراً وولعاً شديداً في جعل الحديث مظهراً
للجمال حتى لقد أكثر الشعراء من التفنن في ذكره على أنه مما يصبي
القلوب ويجتذب الأسماع ويريح النفوس ويلذ العقول.. فهم مرة
يتغزلون بجمال الصوت ومرة يتغزلون بتنوع أفانين القول فيشبهونه
بالعسل أو الدر أو الرياض وغير ذلك.

وقد أدرك النخاسون والمقينيون أهمية هذا فكان من ضرورات
مهمتهم تدريب الجواري على أساليب التحدث والحوار والعناية بتثقيفهن
وتزويدهن بالمادة والطريقة الساحرة للتعبير عنها واستخدام الصوت
والإشارات وحركات الغنج وسائر عناصر الأداء التي تجعل الجارية
متحدثة بارعة ذات سحر وتأثير، وهذا كله يدلنا على مرارة هجاء فضل
الشاعرة لصاحبته خنساء بقبح نكهة الحديث.

(١) ديوان المعاني ١/ ٢٤٢ - ٢٤٣.

وقالت خنساء تهجو أبا الشبل^(١):

ما ينقضي فكري وطول تعجبي من نعمة تكنى أبا الشبل
لما اكتنيت بما اكتنيت به وتسمت النقصان بالفضل
كادت بنا الدنيا تميد ضحى وترى السماء تذوب كالمهل
ولعنن الشاعرة الماجنة في هجاء أبي نواس الكثير من الشعر
الفاحش والذم المقذع حتى زعم أنه كان يدور على السنة العامة، فقد
وقع بينهما شر أدى بها إلى أن تدس إليه سفهاء الكرخ والعيارين^(٢)
ليرددوا إذا ما رأوه:

أبو النواس اليماني وأمه جـلـبـان
والنفل^(٣) أفطن شي إلى حروف المماني^(٤)

وقد حاول أبو نواس أن ينتقم منها لكنها غلبته وأخجلته في
مناظرات شعرية فاحشة^(٥). إلا أنه لم يلبث أن ثار منها في أبيات قالها
فيها بعد ذلك وكان الرشيد يسعى لابتلاعها من مولاهم الناطقي وكان قد
بلغته أخبارها مع أبي نواس فأعجب بها واستظرفها، فما إن سمع مقالة

(١) الأغاني ٢٦٥/١٩ - ٢٦٦ وطبقات ابن المعتز ص ٤٢٥ وفيها اختلاف.

(٢) العيارون: جمع عيار وهو النشيط في المعاصي أو الغلمان لا تحمل لهم يتسابون
وتشامتون.

(٣) رويت بالغين وبالفاء. وكلتاها يستقيم معها المعنى. فالنفل بالفاء: أصل النفل النفي.
يقال: نفلت الرجل عن نسه. (اللسان/نفل).

والنفل بالغين: الفاسد النسب أو ولد الزنية (اللسان/نفل).

(٤) ورد البيتان في طبقات ابن المعتز، ص ٤٢١ منسوبة إلى أبان بن عبد الحميد اللاحقي ومعهما
بيت ثالث هو:

إن زدت بيننا على ذي ما عشت فاقطع لساني

(٥) أبو نواس في تاريخه وشعره ومبأذه ص ٣٧، والمستظرف ص ٤٢، ٤٧.

أبي نواس فيها حتى قال: (لعن الله أبا نواس وقبحه، فقد أفسد علي أمري في عنان بما قال فيها ومنعني من شرائها)^(١).

وقالت عنان في هجائه، وكان قد اجتمع بها يوماً فجعلت تطلب عثراته وتؤذيه فتجشأ في وجهها فقالت^(٢) من أبيات مبتذلة هجته فيها بقيق ريح ما ينطق به، وقد سبق أن رأينا فضلاً الشاعرة تهجو غريمتها خنساء بمثل ذلك، وربما كان الهجو بقيق رائحة الحديث من الصور الجديدة في العصر أو مما شاع القول فيه:

يا نواسي يا نفاية خلق الله قد نلت بي سماء وفخرا
مت إذا شئت قد ذكرتك في الشعر وجرر أذيال ثوبك كبرا
ولا بد لي في هذا المجال أن أقول: إنني مع أستاذي (الدكتور علي الزبيدي) في أن الرواة والقصاص^(٣) قد جعلوا من أمثال هذه المشاهد والمواقف والمحاورات مادة للقصص الغرامي الفاحش القريب من الأدب المكشوف، وأنها شكلت شطراً كبيراً من مادة القصص، وأن العبث والانتحال وسائر أنواع التحوير والتغيير واضحة جلية فيها. إلا أنني لا أذكرها على أنها حقائق وروايات موثقة بل نماذج يمكن أن نتخذ منها شواهد على ما نقول..

المهم أن ظروف المجتمع العباسي كانت توجد هذا اللون من الأدب وتحتويه.. وأن بعضها صحيح أو قريب من الصحة، وهذا يكفي لبحث لا يتخصص في دراسة القصص الغرامي العباسي بل يمس مسأ خفيفاً، وبحثي من هذا النوع.

(١) وقيل إن السيدة زبيدة كانت قد أوعزت إلى أبي نواس أن يقول شعراً في عنان ليصرفه عن شرائها (الأغاني ٥٢٨/٢٢).

(٢) المستظرف ص ٤٠ - ٤١.

(٣) في الأدب العباسي ص ٩٥.

ومما قيل في الهجاء ما نسب إلى عليّة بنت المهدي في هجاء جارية يقال لها (طفيان) لأم جعفر، وكانت قد وشت بعليّة وحكت عنها ما لم تقل^(١):

لطفيان خف مذ ثلاثين حجةً جديداً فلا يبلى ولا يتمزق
وأضافت بعض الأبيات التي فيها من الفحش ما لا يصح ذكره هنا.

ورغم قلة ما وقع بين أيدينا من هجاء النساء للنساء أو الرجال، فإن أهم ما تميز به هذا القليل هو صدوره عن الدوافع الشخصية في الأحقاد والمنافسات وتدهور الأخلاق والرغبة في التندر والسخرية والتباهي بالمقدرة على نسبة أكبر ما يمكن من المعاييب إلى المهجوة أو المهجو، بأسلوب عامي يقرب من الابتذال وبألفاظ نابية فاحشة. وهو ما يتفق مع السمة العامة لبعض موضوعات الهجاء التي شاعت في العصر العباسي بصورة عامة، حيث (اتخذ الهجاء أداة للتسلية والمداعبة والعبث والمجون... وقويت هذه الظاهرة واتسعت منذ عصر بشار وتبادله الهجاء مع أبي الشمقمق)^(٢).

ومن المعاني التي شاعت في الهجاء، تناول العاهات الجسدية والمظاهر الشخصية والعادات والمبالغة في ذم الأنوف واللحى والشوارب والصلعات والطول والقصر وغير ذلك^(٣).

ولعابدة بنت محمد الجهنية^(٤) في هجاء أبي جعفر محمد بن

(١) اشعار أولاد الخلفاء، ص ٦٢ والأغاني ١٠/١٧٦.

(٢) محاضرات الدكتور علي الزبيدي (المعاني والأفكار والأخيلة بين النقد وتاريخ الأدب/ الهجاء) ص ٥٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) عابدة بنت محمد الجهنية: شاعرة وخطاطة وأديبة فصيحة (أعلام النساء ٣/١٩٨).

القاسم الكرخي^(١) تعيبه بقصر قامته وهزاله . . قولها فيه وقد جعلت منه لعبة يلعب بها الصبيان أيام النيروز^(٢) :

شاورني الكرخي لما دنا النيروز والسن له ضاحكه
فقال ما نهدي لسلطاننا من خير ما الكف له مالكة
قلت له كل الهدايا سوى مشورتى ضائعة هالكه
اهد له نفسك حتى إذا أشعل ناراً كنت دوياركه^(٣)

وقال التنوخي معلقاً على هذا الهجاء : (فهجته هذه المرأة بما تحقق عندي أنها صادقة فيه لأنه يليق بكلام النساء ، وقد كانت تنشدني أفحل من هذا الكلام وكتبت ذلك عنها وهو ثابت في مواضع من كتبي وما تعلق بحفظي لها غير هذه الأبيات)^(٤) .

ويبدو من كلام التنوخي أن هذه الشاعرة كانت تكثر من هجاء أبي جعفر الكرخي ربما لأسباب شخصية أو سياسية وهو ما يوضح أنه كان لبعض النساء مواقف عداء أو كره لبعض الشخصيات أدت إلى الهجاء الذي وصلنا منه هذا النزر القليل .

(١) أبو القاسم : أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي من رجال الدولة العباسية تقلد عدة دواوين كبار ثم تقلد الوزارة للراضي وكان قصير القامة فاحتيج بسبب قصره إلى أن يتقص من ارتفاع سرير الملك (معجم البلدان ٢٥٣/٤) .

(٢) نشوار المحاضرة ٢٢٣/٢ ونزهة الجلساء ص ٧٦ .

(٣) دوياركه : دمية كانت تتخذ من القماش في النيروز .

(٤) نشوار المحاضرة ٢٢٤/٢ ونزهة الجلساء ص ٧٦ .

الفصل الرابع

أدب الأعرابيات

وكان للأعرابيات نصيب في الأدب ولا شك في ذلك فقد كانت الفصاحة فيهن سليقة تصدر عنهن دون عناء أو تكلف، إضافة إلى أنه كان فيهن عدد غير قليل من ذوات العقل الراجح والنظر السديد والفكر الثاقب وقد عثرت لهن على الكثير من النصوص الشعرية والنثرية في أغراض مختلفة . . ففي الشعر . الرثاء والمديح والغزل والهجاء والأمومة .

أما الأغراض التي وردت في نثرها فمتنوعة المرامي يمكن حصرها بما يلي: نذب الموتى، التعزية، الدعاء، السؤال والاستجداء، الرضايا، الحكمة، والموعظة، المخاصمات، الوصف، النوادر .

١ - الرثاء وندب الموتى :

وكان الرثاء وذكر الأحباب الأموات من أزواج أو أبناء أو أقارب من أكثر ما ورد على لسان النساء الأعرابيات في الشعر لأن المرأة كانت قد ألقت منذ أقدم العصور أن تكون هي الرائية والنائحة والمعدة للمزايا التي تصور الفضائل والسجايا والقيم التي يرتضيها المجتمع من فروسية وشجاعة وكرم ومروءة ونجدة وتضحية وإباء وشرف . . . إلخ .

والملاحظ أن ما وصلنا عن النساء من رثاء وندب شعري لا يزيد على نوعين: إما أن يكون ندباً عاماً تقوله الناديات المحترقات لا يخرج عن المعاني التقليدية التي تتردد في المراثي وتدور حول الصفات التي تمثل القيم الأخلاقية والاجتماعية للعصر، وإما أن يكون رثاءً صادقاً وندباً أصيلاً يصدر عن المرأة المنكوبة نفسها فيلتقي حينئذ والشعر

التقليدي في بعض المعاني والصور ويتعد عنه في العواطف والشعور
الصادق .

جاء عن الأصمعي^(١) أنه قال^(٢) : (رأيت امرأة جالسة عند قبر
تبكي وتقول :

هل خبر القبر سائليه أم قرّ عيناً بزائريه
أم هل تراه أحاط علماً بالجسد المستكن فيه
لو يعلم القبر من يوارى تاه على كل ما يليه
تحلو نعم عنده سماحاً ولم تدر قط لا بفيه
أنعى بريداً لمقتفيه أنعى بريداً لمجتيه
أنعى بريداً إلى حروب تحسر عن منظر كربه
أندب من لا يحبط علماً بكنهه بلغ نادبيه
يا جبلاً كان ذا امتناع وطود عز لمن يليه
ونخلة طلعمها نضيد يقرب من كف مجتيه
ويا مريضاً على فراش تؤذيه أيدي ممرضيه
ويا صبوراً على بلاء كان به اللّه يبتليه
يا دهر ماذا أردت مني أخلفت ما كنت أرتجيه
دهر رمانى بفقد إلفي أشكو زمانى وأشتكيه

(١) الأصمعي: عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي رواية العرب، وأحد أئمة العلم واللغة والشعر والبلدان توفي بالبصرة كان كثير التطواف في البوادي يقتبس علومها ويطلق أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. كان الرشيد يسميه (شيطان الشعر) قال الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي، وكان الأصمعي يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة. تصانيفه كثيرة أشهرها الأصمعيات (الأعلام للزركلي ج ٤ ص ٣٠٧ - ٣٠٨).

(٢) الأمالي ج ٢ ص ٣٢١ - ٣٢٢.

أمنك الله كل روع وكل ما كنت تنقبه
 ويلاحظ أن المعاني التي وردت في هذه الأبيات معانٍ تقليدية
 مألوفة وأن ما وصفت به المرأة زوجها من صفات لا تتعدى الفضائل
 والقيم المعروفة عند الأعراب من كرم وشجاعة ومنعة ومروءة،
 والمرجح أن استعمال هذا البحر من المخلع البسيط ذي الإيقاع الحزين
 ملائم كل الملاءمة لهذا النوع الأصيل الحزين من النذب.
 وعن الأصمعي أيضاً أنه رأى امرأة في البادية عند قبر تبكي
 وتقول^(١):

فمن للسؤال ومن للنوال ومن للمقال ومن للخطب
 ومن للحماة ومن للكمأة إذا ما الكمأة جثوا للركب
 إذا قبل مات أبو مالك فتى المكرمات قريع^(٢) النسب
 فقد مات عز بني آدم وقد ظهر النكد بعد الطرب
 ومن طريف ما رواه الأصمعي عند ذكره لهذا النص قوله: فملت
 إليها فقلت لها: من هذا الذي مات هؤلاء الخلق كلهم بموته؟
 فقالت: أو ما تعرفه؟.. قلت: اللهم لا، فأقبلت ودمعتها تنحدر.
 فقالت: فديتك هذا أبو مالك الحجام ختن أبي منصور
 الحائك...!

فقلت عليك لعنة الله، والله ما ظننت إلا أنه سيد من سادات
 العرب.

(١) الأمالي ٦٢/١.

(٢) القريع: القراع والمقارعة: المضاربة بالسيف، وقيل: مضاربة القوم في الحرب وقد
 تقارحوا، وقريعك: الذي يقارعك (اللسان/قرع).

ولعل هذا من تزيد الرواة وكلفهم في إضافة الطرائف والملح إلى الأخبار، وهو من نوادر الأصمعي التي صنعها الرواة أيضاً، فليس من المألوف أن تكون المرأة بدوية ويكون زوجها حجاجاً وختنه حائكاً لأن الحجامة والحياكة من حرف الحاضرة، ولكن الذي يهمننا أن هذا الشعر من النذب الخاص الذي تندب به المرأة فقيداً عزيزاً.

ولا غرابة في عملها ومقالها.. أليس عزيزاً عليها.. أليس من واجبها أن تفي له بتعداد المآثر والمزايا أو أن تنسب إليه ما تحب من فضائل ومناقب، وما عليها إلا أن تفعل ذلك وليقل الناس ما يقولون..! ومعروف أن الأصمعي كان يكثر التجواب والتنقل بين الأعراب يلتبس من أفواههم اللفظة ويتصيد الخاطرة.. فهذه ميزته وبضاعته وثروته.. وقد يمر بالغريب والعجيب والنادر والطريف فينقله إلينا ويحدثنا به.. قال^(١):

(دخلت بعض مقابر الأعراب ومعى صاحب لي فإذا جارية على قبر كأنها تمثال وعليها من الحلبي والحلل ما لم أر مثله وهي تبكي بعين غزيرة وصوت شجي، فالتفت إلى صاحبي فقلت: هل رأيت أعجب من هذه؟ قال لا والله ولا أحسبني أراه.. ثم قلت لها: يا هذه إنني أراك حزينة وما عليك زي الحزن فأنشأت تقول:

فإن تسألاني فيم حزني فإنني رهينة هذا القبر يا فتية
وإنني لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه حين يراني
أهابك إجلالاً وإن كنت في الشرى مخافة يوم أن يسؤك لساني

ثم اندفعت في البكاء وجعلت تقول:

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بي بالاً ويكثر في الدنيا مواساتي

(١) العقد الفريد ٣/ ٢٧٨.

قد زرت قبرك في حلي وفي حلل كأنني لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه أن قد تسر به من بعض هيثاتي
فمن رأني رأى عبري مولهة عجيبة الزي تبكي بين أموات

وهذا الخبر سواء أكان نادرة مصنوعة أم حادثة حقيقية يدل في
صيغته التي ورد فيها، وفي تحقيق هذه الصيغة والتعبير عنها هذا التعبير
الواضح من الأبيات نفسها.. على معان عميقة معبرة عن الأبعاد النفسية
الغائرة في أعماق النفس الإنسانية، فكأن المرأة هنا لا تريد الاعتراف
بحقيقة الموت على الرغم من تسليمها بها وإقرارها إياها أمراً واقعاً
مفروضاً عليها وعلى البشر، لا تريد أن تعترف بأن الموت قادر على أن
يتزعزع منها الرجل الذي أحبه وألفت أن تتحلى له بفأخر الثياب والحلي،
ولعمري إنه نذب لا يسير في النهج التقليدي للنذب، فالتقاط هذه الصور
النادرة، وتلونها بهذه الألوان وتشخيص هذا الموقف العاطفي النفسي
مناسب كل المناسبة للجو الذي يشيعه النذب ولا سيما النذب الذي
يبكي حبيباً عزيزاً كان جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه في حياة النادة.

كل هذا يدل على أن النذب كان غنياً بالعواطف والمعاني والصيغ
اللفظية والمعنوية والنفسية وأن حظه من الابتكار والإبداع لم يكن
قليلاً، وقال: رأيت بصحراء جارية قد ألصقت خدها بقبر وهي تبكي
وتناجي بحرقه ولوعة فتقول^(١):

خدي ثقبك خشونة اللحد وقليلة لك سيدي خدي
يا ساكن القبر الذي بوفاته عميت علي مسالك الرشد
اسمع أبشك علتي فلعلني أطفئ بذلك حرقه الوجد
وإني وإن كنت أشك في كون الجارية المذكورة بدوية لما في

(١) العقد الفريد ٢٧٨/٣.

الأبيات من الفاظ وتعابير لينة الأسلوب ذات طابع لغوي حضري واضح، إلا أنني أثبتتها لأنها جاءت في سياق ما روي عن الأصمعي من حكايات نقل أغلبها عن الأعرابيات. مهما يكن فالأبيات لا تخرج عن دائرة النذب المعبر عن الألم والحزن الذاتيين، أو ما تركه فقدان رجل عزيز في نفس النادبة ومشاعرها. وعنصر (الغيرية) أو الموضوعية ضئيل هنا بل معدوم فليس فيه أثر لفضائل البادية أو الحاضرة.

وقال: رأيت بالبادية امرأة على راحلة لها تطوف حول قبر وهي تقول^(١):

يا من بمقلته زها الدهر قد كان فيك تضاءل الأمر
زعموا قتلت وما لهم خبر كذبوا وقبرك ما لهم عذر
يا قبر سيدنا المجن سماحة صلى الإله عليك يا قبر
ما ضر قبراً فيه شلوك ساكن ألا يمر بأرضه القطر
فلينبعن سماح جودك في الثرى وليسورقن بقربك الصخر
وإذا غضبت تصدعت فرقاً منك الجبال وخافك الذعر
وإذا رقدت فأنت منتبه وإذا انتبهت فوجهك البدر
والله لو بك لم أدع أحداً إلا قتلت لفاتني الوتر^(٢)

فالمرثي في هذه الأبيات هو زهوة دهر صاحبه ويسر أمورها، وهو القطر للأرض، وجوده نبع يورق الصخر، وهو قوي شجاع تتصدع الجبال فرقاً منه، ويخشاه الذعر نفسه وهو واع لكل ما حوله عارف به كاشف سره، فرقده انتباهه وانتباهه بدر ينير ما حوله فلا يدع مستوراً مخفياً، وتختتم المرأة أبياتها بقولها إنها لو ثارت له بالناس جميعاً لما مسحت عن نفسها الظلم في الأخذ بثأره، ولا شك في أن هذه القطعة

(١) الأمازي ٣٩/١ - ٤٠.

(٢) الوتر: الظلم في الذحل: والدحل هو الثأر (اللسان/وتر، ذحل).

صورة أصيلة لندب الأعرابيات شكلاً ومعنىً وروحاً .

وللأعرابيات في رثاء أبنائهن شعر من أرق الشعر وأعذب وأصدقه لأن الحرقه صادرة من الأعماق . . من أكباد الأمهات ، قيل لأعرابية مات ابنها وقد رثيت متجملة متصبرة . . ! ما أحسن عزاءك فقالت : إن فقدي إياه أمني كل فقد سواه . . ، وإن مصيبي به هونت علي المصائب بعده ، ثم أنشأت تقول^(١) :

من شاء بعدك فليمت فعملي ككنت أحاذر
كنت السواد لناظري فعملي عليك الناظر
ليت المنازل والديار حفاير ومقابر
إنني وغيري لا محال لحيث صرت لصائر
ألا ترى ما ينطق به هذا الخبر من عمق الشعور الصادق وفداحة مصاب القلب الرؤوم ، وما تفرق في هذا الشعر من أصدق المشاعر وأعمق الأحزان والأشجان؟

وللأعرابيات في الرثاء والندب والتحدث عن الموتى قطع نثرية لا تقل أهمية عن القطع الشعرية . ينقل لنا الأصمعي ما رواه وقد خرج إلى البادية يتلمس اللغة فظمى ورأى بيتاً منفرداً في واد خلاء ، لا أنيس به ، فقصده ، فرأى عجوزاً فسألها ربه من ماء فقدمت له لبناً . . ثم قال لها : (إنني أراك معتنزة في هذا الوادي الموحش ، والحلة منك قريب فلو انضمت إلي جانبهم فأنست بهم ، فقالت^(٢) :

(يا ابن أخي ، إنني لأنس بالوحشة ، وأستريح إلى الوحدة ويطمئن قلبي إلى هذا الوادي الموحش ، فأتذكر من عهدت ، فكأنني أخاطب

(١) العقد الفريد ٢٥٤/٣ وعيون الأخبار ٥٦/٣ مع اختلاف .

(٢) جمهرة خطب العرب ٢٧٤/٣ والأمال ٦/٢ - ٧ .

أعيانهم وأترأى أشباحهم، وتتخيل لي أندية رجالهم، وملاعب ولدانهم ومغدى أموالهم، والله يا بن أخي لقد رأيت هذا الوادي بشع اللديدين^(١) بأهل أدواح وقباب، ونعم كالهضاب، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرماح يبارون الرياح، ويحمون الصباح، فأحال عليهم الجلاء قمأ^(٢) بغرفة فأصبحت الآثار دارة، والمحال طامسة، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به... ثم قالت: ارم بعينك في هذا الملأ المتباطن فنظرت، فإذا قبور نحو أربعين أو خمسين فقالت: ألا ترى تلك الأجداث؟ قلت: نعم...! قالت: ما انطوت إلا على أخ أو ابن أخ أو عم أو ابن عم، فأصبحوا قد ألمأت^(٣) عليهم الأرض، وأنا أترقب ما غالهم، إنصرف راشداً رحمك الله...!).

ومثل هذا ما رواه عن عبدالرحمن بن عمر قال^(٤):

(دخلت على امرأة من العرب بأعلى الأرض في خباء لها وبين يديها بني لها قد نزل به الموت، فقامت إليه فأغمضته وعصبته وسجته ثم قالت:

(يا بن أخي، قلت: ما تشائين؟ قالت: ما أحق من البس النعمة وأطيلت به النظرة أن لا يدع التوثق من نفسه قبل حل عقدته والحلول بعقوته والمحالة بينه وبين نفسه، قال: وما يقطر من عينها قطرة صبراً واحتساباً، ثم نظرت إليه فقالت: والله ما كان مالك^(٥) لعرسك) ثم

(١) اللديد: الصفحة (الأساس/لود).

(٢) قمأ يغرفه: قمم جمع وقبض (الأساس: قمم).

(٣) ألمأت: ذهبت بهم (الأساس/لما).

(٤) الأمالي ٢٧٨/٢ والبيان والتبيين ٢٣١/٣ وجمهرة خطب العرب ٢٧٥/٣ والعقد الفريد ٢٤٣.

(٥) جاء في العقد الفريد ٢٤٣/٣: (والله ما كان ماله لبطنه ولا امره لعمره) وهو أدل على المعنى.

أنشدت تقول:

رحيب ذراع بالتي لا تشينه وإن كانت الفحشاء ضاق بها ذرعا
وقالت أعرابية إن الرزية لا تكون بفقد المال أو موت الشاة أو
البعير... ولكنها بفقد سيد من سادات القوم.. يموت بموته بشر
كثير..

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد قرم يموت بموته خلق كثير^(١)

ويطول البحث لو أكثر من الشواهد وهي كثيرة في بداية العصر
العباسي لعناية الأصمعي وغير الأصمعي من علماء اللغة ورجال الأدب
بأدب الأعرابيات لدوافع وأسباب كثيرة فرضتها حركة جمع التراث
الشعري ونشأة علوم العربية وتطورها، ولعوامل ودوافع أخرى لا تخفى
على الباحثين.. وقد أشرنا إلى طبيعة هذا النذب بنوعيه العام
والخاص.. والحق أن نذب الأعرابيات وإن كان غنياً بالخصائص
الذاتية التي تجعل كثيراً من عناصره مشدودة إلى النذب الخاص لما فيه
من ذاتية أو (خصوصية) تبدو في التعبير الصادق الأصيل عن مشاعر
النادبة وعواطفها وما يعتلج في قلبها ويحرق ذاتها من أشجان
وأحزان..

إلا أن نذب الأعرابيات قوي الصلة برؤية فنية أوسع لأنه يتجاوز
في الأعم الأغلب الذاتية الضيقة لينطلق عن الفصل توكيد وترديد
ووصف الفضائل والمناقب والسجايا التي يتمسك بها المجتمع البدوي
إلى آفاق أبعد وأرحب من ذكر العواطف والمشاعر الذاتية.. لأن حياة
الأعرابية بحاجة دائمة إلى هذه الفضائل التي لا غنى عنها في حياة

(١) الأمالي ١/ ٢٧٢.

القبيلة في السلم والحرب . . ولهذا كان البكاء على الفروسية والشجاعة والمروءة والكرم وغيرها من السجایا الحميدة وهي الصفة الملازمة لندب الأعرابيات شعراً كان أم نثراً، وحتى الندب المصنوع الذي يؤيد افتعاله ما يحفل به من سجع أو محسنات لفظية تحمل طابع (المقامة) وغيرها من ألوان النثر المتأخر لأن المصنوع والمنحول مضطر إلى محاكاة الأصل الصحيح .

وطبيعي أن يكون هذا الندب من حيث الأسلوب (أعرابي البناء) أي فصيح الألفاظ قوي التراكيب بعيداً عن الألفاظ والعبارات التي تدور في أساليب الحضريين الذين رقت الحضارة ونعومة العيش ألفاظهم وتراكيبهم، فضلاً عن التصوير المتمثل في العديد من مشاهد الحياة البدوية وأجوائها الطبيعية والاجتماعية، ولا نقصد بالتصوير هنا صياغة المعاني والأفكار بل نعني الصور والمشاهد والمواقف التي تتوارد أمام العيون في الأحياء والمجتمعات القبلية والبيئة الصحراوية التي تعيش فيها . . والتي تؤلف عناصر الرؤية البصرية الموصوفة وصفاً فنياً واقعياً .

٢ - الوصايا :

وللأعرابيات في وصايا أبنائهن نصيب . . وإنها لتدل على بعد النظر وسلامة التفكير، وفهم أسرار الحياة والعلاقات الاجتماعية . . فمن ذلك ما رواه الأصمعي عن أبان ابن تغلب^(١) قال : (مررت بامرأة بأعلى الأرض وبين يديها ابن لها يريد سفرأ وهي توصيه فقالت : اجلس أمنحك وصيتي وبالله توفيقك، وقليل أجدائها عليك أنفع من كثير عقلك : إياك والنمائم فإنها تزرع الضغائن، ولا تجعل نفسك غرضاً للرماة، فإن الهدف إذا رمي لم يلبث أن يتثلم . . ومثل لنفسك مثلاً فيما

(١) أبان بن تغلب : هو أبو سعد أبان بن تغلب الرمي الكوفي كان من النساك الثقات في البصرة وكان مدوحاً بالفصاحة توفي سنة ١٤٠هـ .

استحسنته من غيرك فاعمل به وما كرهته منه فدعه واجتنبه، ومن كانت مودته بشره كان كالريح في تصرفها. ثم نظرت فقالت: كأنك عراقي أعجبت بكلام أهل البدو. ثم قالت لابنها: إذا هزرت فهز كريماً، فإن الكريم يهتز لهزتك، وإياك والثلثيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها، وإياك والغدر فإنه أتبع ما تعمل به، وعليك بالوفاء ففيه النماء، وكن بمالك جواداً وبدينك شحيحاً، ومن أعطى السخاء والحلم فقد استجاد الحلة: ربطتها وسربالها، انهض على اسم الله^(١).

وقالت أعرابية توصي ابنها بعدم سؤال الناس، لأن سؤالهم ما في أيديهم هو الافتقار إليهم، وهي لا تريد له أن يفتقر إليهم، لأنه سيهون عليهم، إلا إذا ألحت عليه الحاجة فعليه أن يجعل سؤاله إليهم حاجة السائل والمسؤول:

(يا بني إن سؤالك الناس ما في أيديهم من أشد الافتقار إليهم، ومن افتقرت إليه هنت عليه، ولا تزال تحفظ وتكرم حتى تسأل وترغب، فإذا ألحت عليك الحاجة، ولزمتك سوء الحال، فاجعل سؤالك إليه حاجة السائل والمسؤول فإنه يعطي السائل)^(٢).

وهناك بعض الوصايا التي قدمتها الأمهات لبناتهن في بعض المواقف كالزواج مثلاً. . وهي مثبتة في كتب الأدب إلا أن من العسير تحديد أوقاتها وتواريخها. . لعدم وجود إشارات واضحة إلى ذلك.

٣ - السؤال والاستجداء:

وقد يجور الدهر بموت الرجال ونفاد الأموال فتنفد الحيلة وتشتد

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٧٢ والأمال ج ٢ ص ٧٩ وجمهرة خطب العرب ج ٣ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ وبلغات النساء ٥٢ مع اختلاف.

(٢) جمهرة خطب العرب ج ٣ ص ٢٤٥.

الحاجة على نساء كنّ يرفلن بالعز والمنعة، تحميهن الرجال وترعى أمورهن وتعيّل أولادهن، فيلجأن إلى السؤال ..

ذكر الحصري عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال: (وقفت علينا أعرابية فقالت: يا قوم تعثر بنا الدهر، إذ قل الشكر، وفارقنا الغنى، وحالفنا الفقر، فرحم الله امرءاً فهم بعقل وأعطى من فضل وواسى من كفاف، وأعان على عفاف)^(١).

وروي أن المهدي خرج بعد هداة من الليل، فسمع أعرابية من جانب المسجد وهي تقول: (قوم متظلمون، نبت عنهم العيون، وفدحتهم الديون، وعضتهم السنون، بادت رجالهم وذهبت أموالهم، وكثر عيالهم، أبناء سبيل وأنساء طريق وصية الله ووصية رسوله ﷺ فهل من أمر بخير، كلاءه الله في سفره، وخلفه في أهله فأمر نصيراً الخادم فدفع إليها خمسمائة درهم)^(٢).

ودخلت أعرابية على عبدالله بن أبي بكر بالبصرة فوقفت بين السماطين فقالت: (أصلح الله الأمير وأمتع به، حدرتنا إليك سنة اشتد بلاؤها وانكشف غطاؤها، أقوت صببة صفاراً وآخرين كباراً في بلدة شاسعة تخفضنا خافضة، وترفعنا رافعة لمللمات الدهر، برين عظامي، وأذهبن لحمي، وتركنني والهة أدور بالحضيض، وقد ضاق بي البلد العريض، فسألت في أحياء العرب: من الكاملة فضائله، المعطى سائله، المكفي نائله، فدلت عليك، أصلحك الله تعالى، وأنا امرأة من هوازن، قد مات الوالد، وغاب الرافد، وأنت بعد الله غياثي، ومنتهى أمني، فافعل بي إحدى ثلاث خصال: إما أن تردني إلى بلدي أو تحسن

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٨٧.

(٢) جمهرة خطب العرب ج ٣ ص ٢٧٠ والعقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٨ وزهر الآداب ج ٣ ص ٢٤٤.

صفدي^(١) أو تقيم أودي فقال: بل أجمعهن لك، فلم يزل يجري عليها كما يجري على عياله حتى ماتت^(٢).

يتبين من النص السابق أن المرأة لم تلجأ إلى السؤال إلا بعد اضطرارها إليه وأنها صانت سؤالها إلا عن الكاملة فضائله - على حد قولها - الذي لا يخيب سائله ويكفي نائله فكان عند حسن ظنها وأجابها سؤالها وأجرى عليها ما كان يجريه على عياله حتى ماتت.

وقال الأصمعي^(٣): (رأيت أعرابية ذات جمال تسأل بمنى فقلت لها: يا أمة الله تسألين ولك هذا الجمال؟ قالت: قدر الله فما أصنع؟ قلت فمن أين معاشكم؟ قالت: هذا الحاج نسقيهم ونغسل ثيابهم قلت: فإذا ذهب الحاج فمن أين؟ فنظرت إلي وقالت: يا صلت الجبين^(٤) لو كنا نعيش من حيث نعلم ما عشنا).

وقريب من ذلك ما يرويه التنوخي^(٥) عن أحدهم أنه قال: (حججت في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وأنا في بعض المنازل راجعاً إذ غشيننا فقراء المدينة يستمبحون، فوقفت على جارية تتصدق بوجه كأنه القمر حين استدار، ولون الشمس حين أنار، فرددت طرفي عنها واستعذت الله من الفتنة بها، فلم تزل بين رجال الحاج وتعود إلى رحلي حتى وقفت وقلت لها: أما تستحين أن تبدي مثل هذا الوجه في مثل هذا الوقت والموضع بحضرة الخلائق؟ فلطمت وجهها وقالت:

لم أبده حتى تقضت حيلتي أبديته وهو الأعز الأكرم

(١) الصفد: العطاء.

(٢) جمهرة خطب العرب ج ٣ ص ٢٦٢ وبلاغات النساء ص ٤٢ وزهر الآداب ج ٣ ص ٣٠٦.

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ٢١٠.

(٤) الصلت الجبين: الواضح.

(٥) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

ويعز ذلك علي إلا أنه دهر يجور كما تراء ويظلم
 قد صنته وحجبته حتى إذا لم يبق لي طمع ومات الهيثم
 أبرزته من حجبه مقهورة والله يشهد لي بذلك ويعلم
 كشف الزمان قناعه في بلدة قل الصديق بها وعز الدرهم
 أصبحت في أرض الحجاز غريبة وأبوربيعة أسرتي ومحكم
 قال: فأعجبني ما رأيت من جمالها وفصاحتها وأدبها وشعرها
 فبررتها وكتبت الأبيات منها وقلت لها: ما اسمك قالت: المهنة بنت
 الهيثم الشيباني... إلخ الخبر).

فواضح أن لجوء النساء الأعرابيات إلى السؤال كان بدافع الحاجة
 وبدافع الحرص على صيانة العفة والشرف.. وقد وجدنا أنهن كن يجدن
 فيمن يسألن أمناً على الحرم كرماء في العطاء، وقد تتفنن الأعرابية في
 السؤال فتعرضه بصورة لبقة بارعة فتحصل على بغيتها من العطاء فمن
 ذلك أن (عبدالله بن جعفر نزل إلى خيمة أعرابية ولها دجاجة وقد دجنت
 عندها فذبحتها وجاءت بها إليه فقالت: يا أبا جعفر هذه دجاجة لي كنت
 أدجنها وأعلفها من قوتي، وألمسها في آناء الليل فكأنما ألمس بنتي
 زلت عن كبدي فنذرت أن أدفنها في أكرم بقعة تكون. فلم أجد تلك
 البقعة المباركة إلا بطنك فأردت أن أدفنها فيها.. فضحك عبدالله بن
 جعفر وأمر لها بخمسمائة درهم.

٣ - الطرائف والمداعبات:

وللأعرابيات عبارات موجزة في الدعاء والموعظة والحكمة أو
 المخاصمة أو الإجابات أو الوصف تدل على البلاغة والفصاحة وبعد
 النظر والبراعة في حسن توجيه الكلام والإيجاز البليغ كما نعلم من أبرز
 خصائص النثر الأعرابي وإن صح هذا التعبير فخير الكلام ما قل ودل.

عن البر القاضي أنه قال: رأيت امرأة بالبادية وقد جاء البرد

فذهب بزرع لها فجاء الناس يعزونها، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت: (اللهم أنت المأمول لأحسن الخلف، وييدك العوض عما تلف، فافعل ما أنت أهله، فإن أرزاقنا عليك وآمالنا منصرفة إليك) قال فلم أبرح حتى مر رجل من الأجلاء فحدث بما كان فوهب له خمسمائة دينار^(١).

وقال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول^(٢): (اللهم ارزقني عمل الخائفين، وخوف العاملين، حتى أتنعم بترك التنعم، رجاء لما وعدت وخوفاً مما أوعدت).

وقال^(٣): سمعت أعرابية تقول: (إلهي ما أضيق الطريق على من لم تكن دليله، وأوحشه على من لم تكن أنيسه).

وللأعرابيات في المخاصمة كلمات ظريفة وأقوال فصيحة. فقد جاء عن عبدالرحمن عن عمه أنه قال: (سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول: والله إن شريك لاشتفاف^(٤)، وإن ضجعتك لانجعاف^(٥) وإن شملتك لالتفاف، وإنك لتشبع ليلة وتنام ليلة تخاف) فقال لها: (والله إنك لكرواء^(٦) الساقين قعواء^(٧) الفخذين مقاء^(٨) الرقفين، مفاضة^(٩) الكشحين، ضيفك جائع، وشرك شائع^(١٠)).

(١) الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٤٦.

(٢) جمهرة خطب العرب ٣/٣٣٦ وزهر الآداب ج ٤ ص ١٠٣٤.

(٣) البصائر والذخائر ١/١٥.

(٤) الاشتفاف: اشتف ما في الإناء شربه كله.

(٥) الانجعاف: الانصراع.

(٦) الكرواء: دقيقة الساقين.

(٧) قعواء: المتباعدة ما بين الفخذين.

(٨) المقاء: الدقيقة الفخذين.

(٩) المفاضة: المسترخية.

(١٠) جمهرة خطب العرب ج ٣ ص ٢٩٨ والأمال ج ١ ص ١٠٤.

وقال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصمه:

(والله لو صور الجهل لأظلم معه النهار، ولو صور العقل لأضاء معه الليل، إنك من أفضلهما لمعدم فخف الله، واعلم أن من ورائك حكماً لا يحتاج المدعي عنده إلى إحضار بينة)^(١).

ولهن في الإجابات والوصف عبارات قصيرة خفيفة تدل على البراعة فقد دخلت أعرابية على حمدونة بنت المهدي، فلما خرجت سئلت فقالت: (والله لقد رأيتها فما رأيت طائلاً، كأن بطنها قربة، كأن ثديها دبة، كأن وجهها وجه ديك نفس عفرته يقاتل ديكاً)^(٢).

ويلاحظ بساطة التشبيه وبراعته وظرفه مع دقة في الوصف وفصاحة في التعبير.

كما يلاحظ ذكاء الأعرابية وجسارتها فضلاً عما في هذه النادرة من دلالة على شعور هذه المرأة الذكية بالحيف والغبن لما أصابها من فقر وما حل بها من حرمان حتى اضطرت إلى اختراق الحجب الكثيرة للوصول إلى القصر والوقوف أمام حمدونة. فالأعرابية تمثل بنات ونساء الشعب وحمدونة تمثل نسوة القصور اللاتي ينعمن بالنعيم والترف والمال والجاه ويرفلن بأفخر الثياب والحلل ويلبسن أغلى الحللي ووصف الأعرابية لها وسخريتها منها فيه دلالة نقمة نساء العامة من أعراب وحضر وتعبيرهن عن هذه النقمة بهذا الأسلوب الساخر^(٣).

وسئلت أعرابية عن ابنها فقالت: (أنفع من غيث وأشجع من ليث،

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٦٣ وجمهرة خطب العرب ج ٣ ص ٢٩٧.

(٢) عفرته: ريش عنقه.

(٣) هيون الأخبار ٣٩/٤، العقد الفريد ٩٢/٢، والأمالي ١٥٦/٢، وجمهرة خطب العرب ٣/٢٩٧.

ويحمي العشيرة ويبيح الذخيرة ويحسن السريرة^(١).

وقد استطاعت هذه الأعرابية أن تسم ابنها بأرفع السمات التي تعتبر مثل المجتمع العربي مع إيجاز في التعبير وبلاغة في التصوير.

جاء في صبح الأعشى^(٢): (تعرضت أعرابية للمنصور في طريق مكة بعد وفاة أبي العباس السفاح فقالت: يا أمير المؤمنين احتسب الصبر، وقدم الشكر، فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين، وأعظم عليك المنة في الحادثين، سلبك خليفة الله، وأفادك خلافة الله، فسلم فيما سلبك، واشكر فيما منحك، وتجاوز الله عن أمير المؤمنين وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين).

وروى الجاحظ^(٣) قال: (عزت امرأة المنصور عن أبي العباس حين مقدمه من مكة قالت: أعظم الله أجرك فلا مصيبة أجل من مصيبتك ولا عوض أعظم من خلافتك).

وحكى العتبي^(٤) (أن أعرابية قالت لخل لها: حديثك توديع، وزيارتك توقيع).

وحكى البيهقي^(٥) أن المهدي وقف على امرأة من بني ثعل فقال لها: ممن العجوز؟ قالت: من طيء، قال: ما منع طيئاً أن يكون فيها آخر مثل حاتم؟ قالت: الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك.. فأعجب بقولها ووصلها.

(١) البصائر والذخائر ص ١٥٠.

(٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ٢٧٨ وجمهرة خطب العرب ج ٣ ص ٥٣.

(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٨٥.

(٤) أدب الكتاب ص ١٣٤.

(٥) المعاسن والمساوىء ج ٢ ص ٢١٩ وأخبار الظراف والمتماجين ص ١٤٤.

ويطول الحديث عن الإجابات والعبارات الموجزة البليغة التي تفوهت بها الأعرابيات . . لذا نكتفي بهذا القدر لأن غرضنا الإشارة لا التفصيل .

٤ - الغزل:

للحب والغزل لدى الأعرابيات قصص وشعر، ورغم قلة ما وصلنا منه إلا أن هذا القليل يدل على أن فيه الكثير من الصفاء والنقاء ومن السذاجة والبساطة والطرافة . . .

يحدثنا الأصمعي^(١) أنه بينما كان يطوف بالبيت إذا به بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول:

لن يقبل الله من معشوقة عملاً يوماً ووامقها^(٢) غضبان مهجور
وكيف يأجرها في قتل عاشقها لكن عاشقها في ذاك ماجور

قال: فقلت لها: يرحمك الله أفي مثل هذا الموضع تشدين هذا؟
فقلت: إليك عني يا عراقي لا رهقك الحب . . فقلت لها وما الحب
فقلت: هيهات: جل والله عن أن يحصى وخفي عن أن يرى فهو كامن
ككمون النار في حجرها إن قدحته وري وإن تركته توارى . . فقلت
لها^(٣): قاتلك الله ما أوصفك للحب، ثم أنشأت تقول:

حور حرائر ما هممن بريبة كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام زوانياً ويصدهن عن الخنا الإسلام

(١) النصف الأول من كتاب الزهرة ص ٦٧ وطبقات الشافعية ٢٦٦/١ والموشى ٩٠/١ وفيه اختلاف.

(٢) الوامق: المحب.

(٣) في طبقات الشافعية ٢٦٦/١ (فهو كامن في الأحشاء).

وقد تضطر الأعرابية إلى أن تسر عاطفتها وتجن مشاعرها فتلجأ أحياناً إلى التكنية عمن تحب أو إلى التمويه على من حولها لتستر عواطفها عنهم . . فمن ذلك ما كان من زهراء الكلاية^(١) الأعرابية وكانت قد اتصلت بإسحاق الموصلي تحدثه وتناشده الشعر، ومالت إليه فصارت تكني عنه في عشيرتها إذا ذكر بجمل . . كتبت إليه وقد غابت عنه تقول^(٢):

وجدي بجمل على أني أجمجه وجد السقيم ببراء بعد إدناف
أو وجد ثكلى أصاب الموت واحداً أو وجد مغترب من بين ألاف
ومن ذلك ما كان من ستيرة العصبية^(٣) وقد نودي برحيل أحبابها
ولما تفض ما في نفسها منهم، فاحتالت بإرخاء عمامتها على عينيها
بحجة أن قذاهما قد سال، وما ذاك إلا لترك لهما العنان في أن تذرفا
الدموع على فراق الأحبة قالت^(٤):

ونادى بالترحل بعض صحبي فرحت ومقلتي غرقى بماها
فراحوا والشقي له ديون وأشيا من حوائج ما قضاهما
فأرخت العمامة دون صحبي على عيني وقلت جرى قذاها
فقالوا من ضراري كيف بكر وكيف تراك ترجو أن تراها
فقلت الله حمّ فراق بكر فأرجو أن يحمّ لنا لقاءها
ولستيرة العصبية غزل اتسم بالكثير من الصراحة والقوة،
قالت^(٥):

(١) أعلام النساء ٤٠/٢.

(٢) الأغاني ٣٠٠/٥ والأمال ٥٥/١.

(٣) شاعرة في العصر العباسي ربما كانت من شوارع الأعراب، ذكر الأصفهاني شعرها في (الزهرة ٣١٤) ولم يورد لها ترجمة، ولم أعثر في ما بين يدي من مصادر على ذكر لها.

(٤) الزهرة ص ٣١٤.

(٥) الزهرة ٦٤.

بتنا بأطيب ليلة وألذها يا ليتها وصلت لنا بلبال
 حتى إذا ما الليل أشعل لونه بالصبح أو أودى على الأشغال
 نادى مناد بالصلاة فراعنا ومضى جميع الليل غير نوال
 فنهضن من حذر العيون هواريا نهض الهجان بدكدك منهال
 ثم اطلعن كأنهن غمام ثم الربيع هممن باستهلال
 حتى دفعن إلى فتى جشمه ردة الكرى وتعسف الأحوال

وكثر في شعر الأعرابيات ذكر الطعائن والنوق والأطلال والفرق،
 نذكر منه ما قالته أعرابية وقد ذكرت أطلال أحبابها وطمعائهم^(١):

تبصر خليلي هل ترى بين دائش وبين أحي من طعائن كالأنثى
 طعائن يسلبن الفتى الغر عقله وذا الأهل حتى لا يبالي بالأهل
 أو ما قالته أخرى^(٢):

أرقت وطالت ليلتي بأبان لبرق سرى بعد الهدوء يمانى
 فيا عمّ عمّ السوء فرقت بيننا ونحن جميعاً شملنا متدانى
 وقالت ستيرة العصبية وقد ألمّ بها خيال الحبيب في نومها فحيّا
 جميع الركب ولم يسلم عليها^(٣):

ألمّ خيال طيبة أجنبيا فحيّا الركب دوني والمطيا
 لما حيبتهم يا طيف دوني وأنت أحبههم شخصاً إليا
 ألمّ بنا فسلم ثم ولى على الهجّاد تسليماً خفياً

(١) الزهرة ص ٢٤.

(٢) الزهرة ص ٢٩٢.

(٣) الزهرة ص ٢٦٢.

فلما أن كشفت غطاء رأسي أذاناً لا أرى إلا النفس^(١)
 وأينقنا الثلاث ملقّيات على متن الطريق وصاحبيا
 وزرقاً بالجفير منشّبات وشوحطة ترنّ ومشرفيا^(٢)
 فكلفنا سراهما إن رحلنا وأحششنا الأمير العامريا
 وربما صرحت الأعرابية بحبها ووصفته وصفاً رقيقاً كقول صبية من
 الأعراب في حضرة الرشيد^(٣):

تقول لأترب لها وهي تمترى دموعاً على الخدين من شدة الوجد
 أكل فتاة لا محالة نازل بها مثل ما بي أم بليت به وحدي
 براني له حبّ تنشب في الحشا فلم يبق من جسمي سوى العظم والجلد
 وربما لجأت الأعرابية إلى التكنية عمن تحب باسم فتاة، وهي
 طريقة كانت تلجأ إليها الحضورية أيضاً وبخاصة إذا كانت من بيت
 معروف لا من الجوّاري والقيان.

فمن ذلك ما شاع على لسان عليّة بنت المهدي^(٤) التي كانت تكنّي
 في أكثر غزلها بمن تحب باسم فتاة لعدم جرأتها على البوح بالاسم
 الحقيقي له . . .

فقد روى لنا الأصفهاني^(٥) أبو بكر محمد بن أبي سليمان أن
 أعرابية بالبادية أنشدته قولها في الغزل:
 هل الشوق إلّا مثل ما أتكلف أبين وعيني ما تني الدهر تذرف

(١) النفس: المتقدم من الخيل.

(٢) الشوحط: من شجر القسي (الأساس: شحط).

(٣) الأغاني ٢٢٥/٥.

(٤) ورد ذكره في غزل الحرائر.

(٥) الزهرة ص ٢٠٢.

تذكرت بيتاً من نعيمة والنوى قريب وقد كان الذي أتخوف
 فقد ظنّ هذا القلب أن ليس ناظراً إلى وجهها ما كذب الله خندف
 فيا قلب صبراً واعترافاً بما قضى لك الله إن الحرّ بالصبر يعرف
 تجلّد وأجمل واصطبر وازجر الأسى لعلّ النوى يوماً بنعمة تسعف
 عسى دارها أن ترعوي بعد بعدها عليك وتلقاها كما كنت تعرف
 وقالت أعرابية وصرحت بعفتها في الحب وبأنها لم يكن ليجري
 بينها وبين من تحب غير كلام المودة والحب.. فإن تهمت نفسها
 لغير ذلك صدهما عنه رقيبان عليهما من نفسيهما، هما التقى
 والتعفف^(١)..

ويوم كإيهام الحبارى لهوته بقمعة والواشون فيه تحرف
 بلا حرج إلّا كلام مودة علينا رقيبان التقى والتعفف
 إذا ما تهتمنا صددنا نفوسنا كما صدّ من بعد التهمم يوسف
 ولئن وقفنا على هذه النماذج من شعر الأعرابيات لقد افتقدنا مثل
 ذلك للحرائر الحضريات، وهذا ما يدل على أن الأعرابية كانت أكثر من
 الحضرية حرية وصراحة وأنها كان يباح لها الاختلاط إلى حدّ ما الأمر
 الذي حظر على حرائر الحواضر، وقد بدا ذلك في غزل الحرائر.

ونعود فنقول: إن خصائص أدب الأعرابيات بصورة عامة لا تكاد
 تبعد عن الخصائص العامة للاتجاه الأعرابي في الشعر والنثر وهو اتجاه
 كان واضحاً في نتاج الشعراء الأعراب ولاسيما الرّجّاز في العصر
 العباسي الأول.

ولا بدّ أن نشير إلى أن مشكلة قلة الأخبار والروايات في أدب
 الأعرابيات كانت واضحة، وأن الكثير من أشعار الأعرابيات وأقوالهن

(١) الزهرة ١/٦٦.

قد ضاعت، وذلك لتقلص الاهتمام به بعد عصر الجمع والتدوين، ولقلة من كان يعنى به من جامعي المنظوم والمنثور، ولاتجاه الأوساط الأدبية بعد عصر التدوين إلى نتاج المراكز والمناطق الحضرية.

الفصل الخامس

نظرة عامة في أدب المرأة وملامحه الفنية

لقد خضع (أدب المرأة) أسوة بأدب العصر العباسي عامة لتأثير المجتمع المتطور الذي تجلت فيه انعطافات الحضارة، فاستجاب لسمات الثقافة العصرية وآل إلى الانطلاق في المعاني والتجديد في الأغراض والابتكار في الأساليب والمعاني ملاءمة منه لروح العصر ومتطلباته.

ولعلّ من أهم المجالات التي تجلت فيها براعة المرأة في الانطلاقة الحضارية كان في (أدب المجالس والمناظرات) ثم في (أدب المراسلات) إضافة إلى ما بدا لنا من ومضات فنية تميز بها أدبها في الفنون الأدبية الأخرى التي أوردناها والتي سنتناول بعضها بالدراسة لتشخيص السمات البارزة وإبداء الملاحظات فيها.

فقد برعت المرأة براعة فائقة في أدب المجالس والمناظرات حتى شهد لها بالسبق في هذا المجال.

ومعلوم أن حظ الجوّاري من مخالطة الرجال ومجالستهم والتناظر معهم كان أوفى وأوفر. . . ولذلك كان نصيبهن من هذا النوع من الأدب أكثر من نصيب الحرائر فيه.

فالشاعرة عنان يدخل عليها مروان بن أبي حفصة وهي تبكي فيرى الدموع تنحدر من عينيها فيقول في ذلك:

بكت عنان فجرير دمعها كالدر إذ يستن من خبطه
فتقول مسرعة:

فليت من يضربها ظالماً تيبس يمناء على سوطه
فيشهد لها بأنها أشعر الجن والإنس^(١).

ويذكر أبو زهير رزين العروضي أنه دخل على عنان وعندها أعرابي
فقال له : يا عم جاء الله بك على حاجة ، فيقول لها : وما هي ؟ فتقول :
هذا الأعرابي يسألني أن أقول بيتاً ليحيزه وقد عسر عليّ الابتداء فابتدىء
أنت عليّ بالقول . فقال أبو زهير :

لقد قل العزاء فعيل صبري غداة حملولهم للبين زمت
فقال الأعرابي :

نظرت إلى أواخرها ضحيتاً وقد رفموالها عصباً فرنت
فقال عنان :

كتمت هواهم في الصدر مني على أن الدموع عليّ نمت
ويعلق أبو زهير على ذلك فيقول : فكانت عنان أشعرنا^(٢).

يتبين من هذا إذا صحّ الخبر أن الشاعرة عنان كانت أقدر على
المعارضة منها على المبادأة بالقول . . فهي أكثر براعة فيما لو حددت
لها جوانب القول ورسمت فيه معالم السير في الفكرة المطروحة .
وكذلك كان الأمر مع الشاعرة محبوبة حينما خرج الخليفة المتوكل من
عند قبيحة (زوجه) وكانت قد كتبت اسمها على خدها بغالية ، فأعجبه
سواد تلك الغالية على بياض خدها الجميل ، فطلب إلى علي بن الجهم
وكان في المجلس أن يقول شيئاً في ذلك ، فما كان من محبوبة ، وكانت
جالسة من وراء الستار تسمع الكلام حتى بادرت بنظم أبيات في وصف

(١) الورقة ، ص ٤١ والمستظرف من أخبار الجواري ص ٣٩.

(٢) الورقة ، ص ٣٤ - ٣٥ والشعر والشعراء في العصر العباسي ، ص ٤٦٩.

ذلك ولم تمهل علياً، ولم تدع له مجالاً للتفكير، فقالت:

وكاتبة بالمسك في الخد جعفرًا بنفسه مخط المسك من حيث أثر^(١)
وقيل: (فبقي علي بن الجهم واجماً لا ينطق بحرف)^(٢).

وأمثال هذه الأخبار في براعة الجواري كثيرة، فأحمد بن أبي طاهر (قام خجلاً)^(٣) حينما طلب إلى نبت أن تجيز مصراعاً ألقاه عليها فسبقتة بالشعر ينثال على لسانها انثيالاً حتى لم تدع له مجالاً للتفكير أو القول.

وفضل التي قيل إنها كانت تجلس في مجلس المتوكل على كرسي تعارض الشعراء بحضرته^(٤).

وغيرهن ممن عرفن بالإجابات الذكية والمناظرات البارعة، وقد فصلنا ذلك في (أدب المجالس والمناظرات).

وبديهي أن يكون أكثر ما قالته الجواري في هذا الباب غير بعيد عن أحاديث الحب والغرام ومطارحة الهوى، وكان ما عرفناه لبعض الجواري القيان من مجون وتبذل لا يمتنعن من فحش القول وهجر الكلام، كالذي كان من عنان في مطارحاتها مع عدد من شعراء المجون كأبي نواس^(٥) ودعبل وأبي النضير، أو كالذي كان من فضل في المساجلة الشعرية التي جرت بينها وبين أبي دلف.

(١) تنظر الأبيات.

(٢) نساء الخلفاء ص ٩٤ والمستظرف من أخبار الجواري ص ٦٤ - ٦٥.

(٣) نشوار المحاضرة ١٢٨/٧.

(٤) بدائع البداهة ص ١١ والأغاني ٢٧١/١٩ ونساء الخلفاء ص ٨٧، والمستظرف من أخبار الجواري ص ٥٢.

(٥) المستظرف من أخبار الجواري ص ٤١ - ٤٢.

ومما يلاحظ في مقطعات المجالس الشعرية رشاقة اللفظ ونعومة المعنى ولطف الأسلوب . . وكان لا بدّ لها أن تكون كذلك، فهي من مكملات الحسن ومتعمات الأنس ومن مستلزمات البراعة والظرف والذكاء التي يجب أن تزdan بها الجواري السميرات في مجالس اللهو والجمال والفتنة .

على أننا يجب أن لا نغفل نصيب الحرائر من أدب المناظرات^(١) رغم قلة ما وصلنا لهن منه إذا قيس إلى أدب الجواري في هذا الميدان . . وهو مع ذلك يدل على البراعة والقدرة . . ومن ذلك معارضته زبيدة للآبيات التي ألّفاها عليها الرشيد، في كاتبها سعدان .

وغيرها مما وصلنا من شعر المعارضات والمناسبات في أبيات أو مقطعات شعرية لها أو لغيرها من الحرائر^(٢) .

على أن من الملاحظ في معارضات الحرائر ومطارحاتهن غلبة طابع الجد وحرصانة التفكير . . وفرق بين أن تلقى الإجابات أو تجاز الأشعار في معرض اللذة والأنس في المجالس أو المواقف التي تجمع بين الجواري والقيان الشاعرات بالخلفاء والسادة والشعراء . . وبين أن تعرض الأفكار من قبل الحرائر في بعض مواقف الجد كأن تقدم إحداهن طلباً لأمر أو وصفاً له أو أن تجيب على سؤال يوجه إليها في دواوين المظالم ومجالسها أو أن تشير إلى مهمة من المهمات الجادة .

أما أدب المراسلات، فقد رأينا على نوعين: مراسلات الحرائر وكان في أغلب ما وصلنا منه لأغراض رفيعة ومهام كبيرة كالرسائل النثرية

(١) تاريخ الطبري ٥١٤/٨ .

(٢) المعقد الفريد ٢٨/١ ونهاية ٢٧٦/٦ والمستطرف للأبشيحي ص ٤٣ وزهر الآداب ٩٦/١ وتاريخ بغداد ٤٣٣/١٤ والبصائر والذخائر ٥١٢/٢ - ٥١٣ .

والشعرية التي وصلتنا عن السيدة زبيدة وأم الشريف . . ولقد اتصفت تلك الرسائل بفخامة اللفظ وجزالة المعنى ومثانة السبك .

وتميزت رسالة السيدة زبيدة ببعد النظر وسعة الصدر وحدة الذكاء مع إدراك عميق لآثار مواطءء الكلام في النفوس . .

وكان كتاب أم الشريف في موعظة ابن أخيها وتبصيره بالسياسة مثلاً في بعد النظر وفهم دخائل السياسة وإدراك الواقع بكافة مظاهره وخوافيه مع دقة في اللفظ وبراعة في الأسلوب ومثانة في السبك . . .

أما المراسلات التي عرفت للجواري فكان جلها في أغراض الحب والغرام من دعوة إلى وصال أو عتب على هجران أو وصف لوعة لفراق . .

وكان لبعضهن مكاتبات للخلفاء تشتمل على المكاشفة بالحب والمطالبة بالوصل . . ويبدو أن ذلك كان مستساغاً مقبولاً . . وكثيراً ما تضمن الجارية رسالتها إلى الخليفة ما يدل على وفرة علمها وسعة اطلاعها كالرسالة التي كتبتها إحدى جواري المأمون إليه وكانت قد أهدت إليه تفاحة^(١) .

وكان اللفظ في رسائلهن واضحاً ميسوراً بعيداً عن الغرابة والتعقيد متفقاً مع خفة الأفكار وظرفها مع رشاقة في التعبير ولطف في الأسلوب . كما يلاحظ في شعرهن كثرة الأوزان الخفيفة والضربات القصار كقول عريب في رسالة لها إلى محمد بن حامد :

ويلي عليك ومنكأ أوقعت في الحب شكأ
أو قول فضل ، وقد لامها صاحبها (سعيد بن حميد) لطموح نظرها

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٢٧ - ٥٢٩ .

في مجلس إلى بنان المغني وإقبالها عليه بالحديث، وكانت قد ضمنته رسالة إلى صاحبها^(١):

يا من أطلت نفرسي في وجهه وتنفسي
وغير ذلك مما أثبتناه في (أدب المراسلات).

وربما كان ميل الجواري الشاعرات إلى استعمال مثل هذه الأوزان واهتمامهن بجرس الألفاظ والعبارات بسبب حرصهن على اتساق الأوزان الخفيفة ذات الوقع الجميل لطبيعة النغم الذي قد يجريه على منظوماتهن للتغني بها في المجالس.

وكثيراً ما يمر بنا أن الشاعرة الفلانية قالت أبياتاً وصاغت لها لحناً
وتغنت في المجلس.

أما سائر الأغراض الشعرية التي نظمت فيها المرأة فأهمها المديح
والهجاء والغزل والثناء.

وقد وصلنا من مديح المرأة القليل وضاع كما يبدو الكثير منه،
بدليل ما وصلتنا من إشارات تؤيد ذلك، فابن المعتز يذكر في طبقاته عن
(خنساء) أنها (مدحت الخلفاء)^(٢) ولم يصلنا من مدحها كثير ولا
قليل . . كما يورد للجارية (سكن)^(٣) قصيدة طويلة في مدح المعتصم
تذكر فيها إصلاحاته وقضائه على ثورة بابك الخرمي وأخيه حينما شقاً
عصا الطاعة عليه . .

ومن القصائد التي رددتها كتب الأدب لعنان في المديح^(٤)

(١) الأغاني ١/١٨ أو محاضرة الأبرار ص ١٢٨ ورسائل سعيد بن حميد ص ٢٦ والمستظرف ص ٥٦.

(٢) طبقات ابن المعتز ص ٤٢٦.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢٢ والمستظرف من أخبار الجواري ص ٣٢.

(٤) المصدر نفسه ص ٤٢١.

قصيدتها في مدح يحيى بن خالد البرمكي . .

وكان يباح لبعض الحرائر أن يحضرن مجالس الخلفاء لمشاركة الشعراء في إلقاء قصائد التهاني والمدائح . . كالذي كان من الحجناء بنت نصيب التي كانت تدخل على الخليفة المهدي في مجلسه فتشده المدائح والتهاني^(١) .

أو كالذي أورده (التنوخى)^(٢) عن عابدة الجهنية وعاتكة المخزومية أنهما حضرتا مجلس عضد الدولة ببغداد في يوم عيد الفطر سنة ٣٦٧هـ مع الشعراء فأنشدته كل منهما قصيدة في المديح .

على أننا إذا ما تأملنا قصائد المديح التي قالتها النساء من الحرائر والجواري، وجدناها غالباً طويلة فخمة اللفظ متينة السبك رصينة المعاني ملائمة لفخامة الموقف وسمو الغرض، وربما جاءت أحياناً على شكل مقطعات قصيرة تلقى في مناسباتها على أن المدائح في أكثرها تقليدية في أساليبها وأفكارها تدور حول الفضائل العامة المتعارفة في المجتمع .

وكانت أكثر مدائح الشاعرات في الخلفاء، ورغم أن عدداً كبيراً من الشعراء قالوا في مديح بعض سيدات العصر الجليلات ممن كان يقصد للنوال كالخيزران والسيدة زبيدة . . فلم نعلم من شاعرات العصر من مدحت امرأة إلا ما وصلنا من مديح الحجناء للعباسة بنت المهدي طلباً لعطائها^(٣) . . .

أتيناك يا عباسة الخير والحياء وقد عجفت أدم المهارى وكنت وما تركت منا السنون بقية سوى رمة منا من الجهد رمت

(١) الأغاني ٢٢/٤٢٠ .

(٢) نشوار المحاضرة ٥/٢٦٧ .

(٣) الأغاني ٢٢/٤٢١ .

فقال لنا من ينصح الرأي نفسه وقد ولت الأموال عنا فقلت عليك ابنة المهدي عوذى ببابها فإن محل الخير في حيث حلت^(١) وربما كانت هذه الأبيات استهلاً لقصيدة في المديح إذ إن نفس هذا المطلع يدل على أن هناك مديحاً لا يمكن أن تقف فيه الشاعرة عند باب الممدوحة دون أن تفصل في صفاتها وتعدد مآثرها . .

ووقعت بين الجواري ملاحاة وخصومات أدت بهن إلى التهاجي، فلقد ذكر أن شارية وعريب القينتين اشتدت بينهما المنافسة حتى جعلت أهل سامراء حزبين متنافرين فقوم مع شارية وقوم مع عريب (لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء ولا أصحاب هذه)^(٢) .

وقد تؤدي مثل تلك المنافسة إلى أن تقول كل منهما شعراً في هجاء الثانية . . إلا أن شيئاً منه لم يصلنا . . !

كما وقع بين فضل وخنساء جارية هشام المكفوف تنافس وتهاج . . وتصدى لكل منهما بعض من يعين إحداها على الأخرى وقد تبادلتا ومن والاهما الهجاء الفاحش وتراشقتا من السب البذيء والقول الفاحش ما لا يسمح المجال بذكره^(٣) ولا غرابة في ذلك فإن كلاهما كانت تعيش حياة التحلل والخلاعة والاستهتار، وما شعرهما في هذه الأغراض إلا فيض وامتداد لطراز حياتهم وانعكاس لما في نفوسهم، وقد جاء ذلك منسجماً مع الاتجاه العام للهجاء في ذلك العصر الذي كان يصدر عن الأحقاد والمنافسات الفردية وتدهور الأخلاق والرغبات في التسلية والتندر^(٤) .

(١) ولها في العباسة أبيات أخرى في المديح ينظر ص ٣٨٩ من البحث.

(٢) الأغاني ٣٢٨/١٥.

(٣) المستطرف من أشعار الجواري ٤٠ - ٤٢.

(٤) محاضرات الدكتور علي الزبيدي ص ٥٤ (المعاني والأفكار والأخيلة بين النقد وتاريخ الأدب).

وكان من الحرائر من تصدى لهجاء بعض شخصيات العصر، وأكبر الظن أن خصومة وقعت بين عابدة بنت محمد الجهنية امرأة عم الوزير المهلبى وبين أبي جعفر محمد بن القاسم حينما ولي الوزارة، أدت إلى أن تهجوه بشعر وصلتنا منه بعض المقطعات، كقولها^(١):

شاورني الكرخي لما دنا النيروز والسن له ضاحكه
فقال ما نهدي لسلطاننا من خير ما الكف له مالكة
قلت له كل الهدايا سوى مشورتي ضائعة هالكة
أهد له نفسك حتى إذا أشعل ناراً كنت دياركه
وذكر التنوخي في حديثه عن الشاعرة (أنها كانت تهجو أبا جعفر وأن لها فيه شعراً أفحل مما بين أيدينا منه، ما تعلق بحفظه لها غير هذه الأبيات)^(٢).

ويلاحظ في هذا الهجاء خفة الوزن وبساطة المعنى وواقعية الصورة وسهولة الألفاظ... وقد رأى فيه التنوخي - كما يبدو - من تعليقه على الأبيات رقة الأنثى وبساطتها فقال: (إن للشاعرة في هجاء أبي جعفر شعراً أفحل من هذا)^(٣).

كما يلاحظ فيه أنه هجاء بالعيوب الجسمية والشخصية، وهو ما شاع استعماله في العصر العباسي حيث تجاوز الهجاء حد تجريد المهجو من الفضائل إلى المبالغة في نسبة المعايب والردائل، واتجه الهجاء إلى الفرد بالذات لأن الحضارة أدت إلى تراجع الكثير من القيم الاجتماعية^(٤) والنظر إلى معاييه بمنظار ضيق محدود.

(١) نشوار المحاضرة ٢/ ٢٢٣ ونزهة الجلساء ٧٦.

(٢) نشوار المحاضرة ٢/ ٢٢٤.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٢٢٤.

(٤) محاضرات الدكتور على الزبيدي ٥٤.

ويلاحظ في غزل الحرائر أن حبهن كان يعيش على اليأس، وأن طابع التشاؤم والحزن يكسوه ويغلب عليه.

فهن لا يتحدثن عن بهجة اللقاء أو الوصال . . نقرأ فلا نجد وصفاً للقاء . . إذ لا لقاء للمرأة مع من تحب . . . وهو إن ظفرت به لا يتعدى أن يكون لقاء خائفاً حذراً لا يتعدى النظرة الخاطفة التي لا تقدر على تثبيتها لأنها تخشى أن يلاحظها من حولها فتكون الفضيحة الكبرى، وربما كان لقاء خيال مع طيف قد يلم بها أحياناً.

ولاحظنا في غزل المرأة الحرة أنه وإن وجد طريقه إلى الظهور، إلا أنه بدا مثقلاً بالآلام مفعماً بالحسرات . . فعلية بنت المهدي مثلاً لا تستطيع حتى البوح باسم حبيبها فتتلهف إلى أن تعيش في بلد خلي، لعلها تستطيع أن تصرح باسمه وتناديه^(١):

كتمت اسم الحبيب عن العباد ورذدت الصبابة في فؤادي
فوا شوقي إلى بلد خلي لعلني باسم من أهوى أنادي
ولقد صوّرت عليّة في غزلها الاستكانة للواقع ورذدت أناشيد رائعة
في الحرمان والألم والكبت بأرق الألفاظ والطف المعاني . قالت:

سامنع طرفي أن يلف بنظرة وأحجبه بالدمع عن كل منظر
وأشكر قلبي فيك حسن بلائه أليس به القاك عند التفكر

ولاحظنا في غزل عليّة وهي (صورة المرأة الحرة) تمرد اليأس، فقد كانت تثور أحياناً فتدعو إلى إطلاق العواطف المكبوتة فما بالها تقاسي وحدها شدة الكبت والحرمان وهي ترى القوم حولها جامحين يرتعون في ملذاتهم وبيالغون في مسراتهم . . قالت:

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص ٧١ والمستظرف من أخبار الجوّاري ص ٨٢.

تعالوا ثم نصطبح ونلهو ثم نقترح
ونجمع في لذاذتنا فإن القوم قد جمحوا
إلا أنها لا تلبث أن تعود لتشد إلى الواقع الذي يكبلها باليأس
والقنوط فتقول:

الشوق بين جوانحي يتردد ودموع عيني تستهل وتنهد
إنني لأطمع ثم أنهض بالمنى واليأس يجذبني إليه فأقعد
ولعلها في تكنيتها عمن تحب باسم فتاة محاولة منها لتغطية
الحقيقة، أو ربما كان مجرد تنفيس للعواطف المكبوتة والأحاسيس
المحرمة.. لقد تحملت من وطأة المجتمع، ورضخت له ولكننا مع ذلك
لم ننصفها على بعد مئات السنين فوصفها البعض بالعبث واللهو
والمجون وجعلها البعض فيمن سلك سبيل الجواري وعاش حياتهن^(١)
وذنبها في ذلك أنها أفصحت عن الشكوى.. وجرمها فيه أنها صرحت
بالألم.

أما غزل الجواري فقد اتصف بالصراحة والجرأة إلا أنه كان في
الغالب مصطنعاً متكلفاً لا يعبر عن عاطفة حقيقية، وإنما هو تلاعب
بالألفاظ ومهارة في سبك المعاني.. وإنما هو اصطناع لمواقف الحب
حسب ما تمليه الظروف والمناسبات.

إلا أن هذا لا يمنع أن يكون لبعضهن غزل صادق.. وفرق بين
غزل الحرائر والجواري.. تلك خنقت عواطفها وحبت مشاعرها فجاء
غزلها ترانيم في الحرمان والألم.. وهذه أطلقت لها المجال فغنت
أناشيد المحبين في اللقاء والفراق والهجران والمواصلة.. وتلك مشيئة
المجتمع يفرض إرادته ويوجب طاعته.

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٨٣.

وقد أسهمت المرأة في هذا العصر في حركة الزهد والتصوف وكان لها دور يناسب الظروف والعوامل التي أحاطت به . . وربما كان لما تعانيه المرأة من ضغوط اجتماعية كثيرة سبقت الإشارة إليها أثره المباشر في توجيهها إلى الإسهام بنصيب وافر في حركة الزهد والتصوف، إذ إنها لم تجد في هذا المجال بالذات من أهلها أو من مجتمعها ما يحول دون مساهمتها أو يعمل على الحد من نشاطها فيه . . وربما وجدت المرأة في الزهد والتصوف متنفساً لهمومها وتخفيفاً لعواطفها من ثقل ما كانت تلقاه في المجتمع المحافظ ونالت فيه حظاً وافراً من الغذاء الروحي الذي قدمه الزهد والتصوف في العزوف عن الحياة واللجوء إلى الذات الإلهية تروى الظلم العاطفي في نفسها إلى الحب والعبادة في محرابه . .

ويلاحظ فيما سبق أن استعراضنا من نماذج شعرية ونثرية في أدب الزهد والتصوف بساطة الألفاظ والتعابير ومطابقتها لطبيعة المشاعر النسائية التي تتسم بحكم الظروف التي أحاطت بها بالبرقة والليونة والرشاقة في التعبير كقول رابعة:

حبيب ليس يعدله حبيب وما لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصري وشخصي ولكن عن فؤادي ما يفيب
أو قول ربحانة الزاهدة:

من كان راكب يوم ليس يأمنه وليلة تائهاً في عقب دنياه
فكيف يلتذ عيشاً لا يطيب له وكيف تعرف طعم الغمض عيناه

كما يلاحظ فيها غلبة أسلوب العصر السهل في استخدام هذه الألفاظ وعطفها على بعضها . وهو أسلوب قد لا نجده كثيراً في غزل العصر الأموي والإسلامي . . وربما أدت به السهولة إلى أن يصل إلى حد الركافة كالذي نلاحظه في البيت الأخير من قول رابعة العدوية في

التجرد لحب الذات الإلهية^(١):

يا سروري ومنيتي وعمادي وأنيسي وعدتي ومرادي
أنت روح الفؤاد أنت رجائي أنت لي مؤنس وشوقك زادي
أنت لولاك يا حياتي وأنيسي ما تشئت في فسيح البلاد
كم بدت منّة وكم لك عندي من عطاء ونعمة وأيادي
حبك الآن بغيتي ونعيمي وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك يا حبيب براح يا منى القلب قد بدا إسعادي

وإذا ما لاحظنا بعض النماذج النثرية وجدنا فيها ظاهرة استخدام الضمائر وتواليها وهي بلا شك سمة من سمات الأسلوب الصوفي الذي يتسم بالغموض وباللجوء إلى الضمائر وبخاصة في الأقوال الموجزة . ويمكننا ملاحظة ذلك في قول حيونة^(٢) الزاهدة في الدعاء .

يا واحدي تمنعني بالليل التلاوة ثم تقطعني عنك بك في ضياء النهار . . وددت أن النهار ليل حتى أتمتع بقربك أو قولها وقد لامها بعض الناس في كثرة صياهما : (قد لامني خلقك في خدمتك وعزتك وجلالك لأخدمك حتى لا يبقى لي عصب ولا قصب وأنشأت تقول :

يا ذا الذي وعد الرضى لحبيبه أنت الذي ما إن سواك تريد
وهكذا رأينا المجتمع يتيح للفتاة أن تركع في محراب الحب الإلهي ، وأن تنقطع إلى صب عواطفها وأحاسيسها ومشاعرها وآلامها وأحزانها في عبادة الله . . ولهذا رأينا كتب التراجم والسير تزدهم بذكر العدد العديد من النساء المتزهديات المنقطعات إلى العبادة . . ولا شك أن للتوجيه الديني الذي حرص كثير من الأولياء على تزويد فتياتهم به

(١) شهيدة العشق الإلهي ص ٧٣ .

(٢) عقلاء المجانين ص ١٤٨ .

لعصمتهم عما في ذلك المجتمع الصاخب من مبادئ ومفاتيح ومفاسد أثره في ذلك كله .

وقد عملنا على جعل أدب البادية متمثلاً في (أدب الأعرابيات) وتناولنا دراسته مستقلاً عن أدب الحواضر . .

أما أهم الأغراض التي تناولتها الأعرابيات فالرثاء والمدح والصايا والسؤال ثم الدعاء والموعظة والغزل وغيرها من الفنون الشعرية والنثرية .

وقد بدأ رثاء الأعرابيات على صورتين الأولى منهما تقليدية لا تكاد تتجاوز المعاني المألوفة التي تدور حول القيم المعروفة في الأوساط البدوية كالكرم والشجاعة والقوة وإعانة المحتاجين وغير ذلك مما عرف في الأوساط البدوية كقول إحدى الأعرابيات^(١):

ما ضر قبراً فيه شلوك ساكن ألا يمر بأرضه القطر
فلينبعن سماح جودك في الثرى وليورقن بقربك الصخر
وإذا غضبت تصدعت فرقاً منك الجبال وخافك الذعر
وإذا رقدت فأنت مننبيه وإذا انتبهت فوجهك البدر

أما الثانية فهي الصورة الواقعية التي تبدو في التعبير الصادق الأصيل عن مشاعر النادرة وعواطفها وما يدور في نفسها من آلام وأحزان تمزق ذاتها وتلهب أحاسيها .

ولهذا رأينا بعض النماذج من رثاء الأعرابيات وقد تجاوزت المعاني التقليدية المعروفة في الرثاء وجاء بمعان ذاتية طبيعية تلائم حياة الأعرابية ونفسياتها وشخصيتها .

(١) الأمالي ٣٩/١ . وقد وردت الأبيات بصورة أوسع ص ٤٠٦ .

فمن ذلك ما أوردناه عن تلك الأعرابية التي شاهدها الأصمعي وصاحبه في بعض مقابر الأعراب وعليها من الحلبي والحلل ما لم ير مثله وهي تبكي بعين غزيرة فسألها الأصمعي بقوله: يا هذه إني أراك حزينة وما عليك زي الحزن فأنشأت تقول^(١):

فإن تسألاني فيم حزني فإنني رهينة هذا القبر يا فتيان
وإنني لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه حين يراني
أهابك إجلالاً وإن كنت في الثرى مخافة يوم أن يسوك لساني
ثم اندفعت في البكاء وجعلت تقول:

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بي بالاً ويكثر في الدنيا مواساتي
قد زرت قبرك في حلبي وفي حلل كأنني لست من أهل المصيبات
أردت أتيك فيما كنت أعرفه أن قد تسر به من بعض هيثاتي
فمن رأي رأى عبرى مولهه عجيبة الزي تبكي بين أموات
فالأبيات تعبر عن أعماق نفسية هذه المرأة التي ترفض أن تعترف
بحقيقة الموت وبأنه قد انتزع منها حبيبها الذي ألقت أن تتجلى أمامه
بفاخر ثيابها وحلاها وهو رثاء لا يسير في النهج التقليدي للرثاء وإنما
يشخص شعورها النفسي والعاطفي تجاه هذا الموقف. وهو إلى ذلك
يتصف بالواقعية والسذاجة في التفكير والبساطة في التعبير.

وقبل إن أعرابية رثيت وهي متجملة متصبرة وكانت قد فقدت ولداً
لها فقيل لها: ما أحسن عزاءك فقالت: (إن فقدني إياه أمني كل فقد
سواه، وإن مصيبي هونت علي المصائب بعده) وأنشدت^(٢):

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

(١) العقد الفريد ٣/ ٢٧٨.

(٢) العقد الفريد ٣/ ٢٥٤ وعيون الأخبار ٣/ ٥٦ مع اختلاف راجع ص ٤٠٧.

كنت السواد لناظري فعمي عليك الناظر
ليت المنازل والد يار حفاير ومقابر
إنني وغيري لا محالة حيث صرت لصائر
ولا يخفى ما في هذه الأبيات من صدق الشعور في تعبير الأم عن
فداحة مصابها بفقد ولدها رغم تغطية مشاعرها بهذا الغشاء الرقيق الذي
يبدو للآخرين نصبراً وتجعلاً .

أما الوصايا التي أوصت بها الأعرابيات أبناءهن فكانت خلاصة
للمثل العربية والخلق القويم، مع براعة في إدراك جوانب النفوس ومع
قدرة على انتقاء أفضل الخبرات وأحسن التجارب لتنوير الموصى
وتوجيهه خلال سيره في دروب الحياة . . وربما بلغت المرأة حد الحكمة
في وصاياها الأمر الذي يدل على حسن إعدادها وبعد نظرهما وحدة
ذكائهما وقوة إدراكهما كما يدل على مدى انتفاعها من تجارب الحياة .

وبيئة الأعرابيات في الغالب بيئة فقيرة . . وقد يجور الدهر بموت
الرجال ونفاد الأموال فتقع الحاجة وتشتد حتى تضيق السبل أمام
الأعرابية فلا تجد أمامها سبيلاً غير السؤال وكثيراً ما تبدو الأعرابية في
سؤالها أبية شريفة عفيفة ذكية فصيحة بليغة . . كقول إحدها في
الاستجداء : (يا قوم: تعثر بنا الدهر، إذ قل الشكر وفارقنا الغنى
وحالفنا الفقر، فرحم الله امرأةً فهم بعقل وأعطى من فضل وواسى من
كفاف، وأعان على عفاف^(١) .

وللأعرابيات عبارات موجزة في الموعظة والحكمة تدل في أكثرها
على بعد النظر والبراعة في توجيه الكلام قال الأصمعي: سمعت أعرابية
تقول: اللهم ارزقني عمل الخائفين وخوف العاملين حتى أتنعم بترك

(١) زهر الآداب ٤/ ١٠٨٧.

التنعم رجاء لما وعدت وخوفاً مما أوعدت^(١).

أما وصفهن فهو رغم سذاجته يدل على براعة ودقة وذكاء، دخلت أعرابية على حمدونة بنت المهدي، فلما خرجت سئلت كيف رأيته فقالت: (والله لقد رأيته فما رأيت طائلاً، كأن بطنها قربة، كأن ثديها دبة، كأن استنها رفعة^(٢))، كان وجهها وجه ديك نفس عفريته^(٣) يقاتل ديكاً^(٤).

وللأعرابيات في الحب أحاديث وأشعار.. ورغم قلة ما وصلنا منه إلا أننا نستطيع أن نستنتج من هذا القليل شيئاً من المميزات العامة له.. فهو يتميز غالباً بالنقاء والسذاجة والعفة والصراحة كالذي رواه الأصمعي عن إحداهن حينما سمعها تقول وقد تعلقت بأستار الكعبة: لن يقبل الله من معشوقة عملاً يوماً ووامقها غضبان مهجور وكيف يأجرها في قتل عاشقها لكن عاشقها في ذلك مأجور فلما سألتها وما الحب؟.. قالت: (هيهات: جل والله عن أن يحصى وخفي عن أن يرى فهو كامن ككمون النار في حجرها إن قدحته وري وإن تركته توارى) فقال لها قاتلك الله ما أوصفك للحب!..

وكان في بعض المواقف إطلالة للأعرابيات على الحواضر كالذي كان من زهراء الكلابية التي أحبت إسحق الموصلي حتى صارت تراسله وتناشده الشعر، ويبدو أنها أخذت عن الحاضرة الاحتراس في كشف الحب والتكنية عمن تحب.. كتبت إليه وقد غابت عنه تقول^(٥):

(١) زهر الآداب ١٠٣٤/٤ وجمهرة خطب العرب ٣/٣٣٦.

(٢) الرقعة: الشجرة العظيمة.

(٣) عفريته: ريش عنقه.

(٤) عيون الأخبار ٣٩/٤ والمقد الفريد ٩٢/٢ والأماشي ١٥٦/٢ وجمهرة خطب العرب ٣/٢٩٧.

(٥) الأغاني ٣٠٠/٥ والأماشي ٥٥/١.

وجدي بجمل على أني أجمعه وجد السقيم ببرء بعد إنداف
أو وجد ثكلى أصاب الموت واحدا أو وجد مغترب من بين آلاف

يتبين مما سبق أن مر بنا من شعر النساء أننا من الممكن أن نجعل
ما بين أيدينا من شعرهن في أطارين أساسيين:

الإطار الأول منهما هو إطار الأبيات أو المقطوعات الشعرية ذات
الوزن الخفيف والإنشاد الناعم والمناسبة الطريفة واللفظ السهل والمعنى
الراقي. أما الإطار الثاني: فهو إطار القصيدة المتينة السبك ذات اللفظ
الفخم والمعنى الجميل والأسلوب الرصين والسبك المتين..

ولا أظن أن من الممكن أن نضع حداً يفصل بين مميزات شعر
الحرائر والجواري في هذا المجال فنخص الإطار الأول بالجواري ومن
سلك سلوكهن وعاش حياتهن^(١)، ونجعل الإطار الثاني مذهباً مميزاً
للحرائر ومن يسلك سبيلهن وهو ما ذهب إليه الدكتور (الشكعة) . . . إن
المسألة ليست مسألة حرائر أو جوار وإنما هي الظروف التي تفرض سمة
القول وصفة الشعر. . . وقد مرت بنا نماذج كثيرة من شعر الحرائر
مقطعات شعرية في أغراض مختلفة. . . فهل يمكننا أن نجعل السيدة
زبيدة^(٢) ولبابة زوجة الأمين^(٣) وبوران زوجة المأمون^(٤) وخديجة ابنته^(٥)
وغيرهن، من الجواري أو ممن سلك سبيلهن وعاش عيشهن.

كما وصلنا من شعر الحرائر والجواري كثير من القصائد الطويلة

(١) ينظر الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٨٣.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٣٢٦ وجمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧٣.

(٣) مروج الذهب ٣/ ٣٢٣ ونزهة الجلساء ص ٨٨.

(٤) نساء الخلفاء ص ٧١.

(٥) الأغاني ١٤/ ١١٤ ونزهة الجلساء ص ٥٤.

كقصيدة السيدة زبيدة والحجناء بنت نصيب^(١) وأم الشريف^(٢) والفاخرة بنت طريف الشيبانية^(٣) وعابدة الجهنية^(٤) وعاتكة المخزومية^(٥) وولادة المهزمية^(٦) من الحرائر وعنان^(٧) وسكن^(٨) وريم^(٩) وعائشة العثمانية^(١٠) من الجواري، إضافة إلى الإشارات الكثيرة التي وردت عن فضل ومحبة وخنساء في كثرة ما كان لهن من المدائح والمراثي في الخلفاء والأمراء مما يستدعي القصيدة الطويلة.

-
- (١) الأغاني ٢٢/٤٤٠ - ٤٤١ ونزعة الجلساء ص ٣٤.
 - (٢) المتنظم ١٦/٦ ومروج الذهب ١٧٦/٤ وجمهرة رسائل العرب ٤/٣٩٣.
 - (٣) تاريخ الطبري ٨/٢٦١ والعقد الفريد ٣/٢٦٩ والعيون والحدائق ٢/٢٩٧.
 - (٤) نشوار المحاضرة ٢/٢٢٤، ٢٦٧ ونزعة الجلساء ص ٧٦.
 - (٥) نشوار المحاضرة ٥/٢٦٩ ونزعة الجلساء ص ٧٧.
 - (٦) شاعرات العرب ص ٤٨١.
 - (٧) طبقات ابن المعتز ٤٢١.
 - (٨) المصدر نفسه ص ٤٢٢.
 - (٩) أخبار النساء لابن الجوزية ص ١١٧.
 - (١٠) طبقات ابن المعتز ص ٤٢٣.

الخاتمة:

أما وقد شارفت على الانتهاء من كتابة البحث أجدني لا أنفك أردد النظر وأقلب الفكر فيما قدمت من الحقائق العامة التي يجدر توضيحها وتأكيدا لأقول:

إنني قد استنطقت التأريخ والأخبار والأدب في العصر العباسي لتحكي لنا عن صورة المرأة في ذلك العصر، فاستطعت أن أصحح النظرة الخاطئة التي تصور المرأة بصورة عامة بالمجون والعبث والتحلل، وتوصلت إلى أن هذه الصورة هي صورة الجوارى والقيان لا صورة الحرائر العربيات.

وكشفت عن الحالة الاجتماعية والثقافية للمرأة الحرة والجارية وأوضحت مشاركات بعضهن في مجالات المعرفة المختلفة كالحديث والشعر والرواية والكتابة واللغة وغير ذلك.

ثم كشفت في هذا البحث عن أعمال المرأة في العصر العباسي، وأردت أن أبين أنها كانت تمارس بعض الأعمال وأنه قد أتيح لبعضهن الاستقلال الاقتصادي واستقرت ذلك من كتب الأدب والتاريخ والأخبار والحكايات والرسائل والسير والتراجم وأنها كانت تمارس بعض الأعمال المهنية والحرفية بشكل مقبول.

وبينت أنه كان للمرأة دور في السياسة وأنها كانت تدين بالآراء والمعتقدات وتشارك في التخطيط للدعوات السياسية، وكانت في بعض الأحيان على قدر جيد من الثقافة الفكرية فكانت تناقش في أمور السياسة وتأخذ دروساً فكرية من قادة الفكر وزعماء الثورات المختلفة ولها مساهمات مباشرة في ذلك.

وقد ميزت الأدوار السياسة التي قامت بها النساء العربيات من الحرائر عن الأدوار التي قامت بها الأجنبيةات من الجوارى والقيان وأكدت أن أعمال السيدات العربيات كأمثال زينب بنت سليمان والسيدة زبيدة وأم الشريف وجميلة بنت ناصر وست الملك وغيرهن كانت لهن أعمال مشرفة يذكرها التاريخ بكثير من التقدير والإجلال.. وأنه لم ينسب إلى شخصيات هؤلاء النسوة إلا أسمى الصفات وأجل المواقف، وأن أدوارهن في السياسة كانت تتسم دائماً بالحرص على العروبة في عصر استفحلت فيه القوى الأجنبيةة من كل مكان.

وقد فصلت ذلك في موضعه من البحث.

أما النساء الأجنبيةات من جوار وقيان، فقد كان تدخلهن مظهرًا من مظاهر ضعف الخلافة، لأنه كان لا يتجاوز في الغالب التدخل الأهوج الذي يتوخى المنافع الشخصية كالإثراء عن طريق الوساطات في العزل أو التعيين. وقد رأينا الخيزران وحرصها على أن تغدو المواكب ببابها محملة بالهدايا الثمينة لتشفع لهذا وذاك.. والسيدة أم المقتدر وقهرماناتها اللاتي أثرين ثراءً فاحشاً حتى اضطر الخليفة إلى أن يشكل ديواناً عند القبض على القهرمانة أم موسى بـ (ديوان المقبوضات من أم موسى).

وعرضت بعد ذلك لبيان صورة المرأة الجارية في حياة العامة والخاصة من خلال الأدب.. وقد أبنت المواقف المختلفة للشعراء منهن.. تبعاً لشخصياتهم وظروفهم من جهة ولطراز حياة الجوارى والقيان وأخلاقهن.. من جهة أخرى من مخلصات وعفيفات منيعات، أو عابثات متقلبات.. فكان الغزل العفيف والقول الشريف، وكان الغزل الماجن الفاحش..

وعملت على إبراز جانب من جوانب غزل الخلفاء بالجوارى وهو

ما شاع في قصورهم ومجالسهم:

واتخذت من الغزل الحسي للشعراء بالجواري معرضاً تتجلى فيه
معالم المدنية، وذلك لدراسة معايير الجمال في العصر ولمعرفة أحوال
المرأة في ملابسها وشعرها وزينتها.

ويعتبر الباب الثالث من البحث دراسة أدبية ونقدية لأدب المرأة
في العصر العباسي... ولعل أهمية هذا العمل تتجلى قبل كل شيء في
هذا الجهد الذي بذلته في جمع شتات هذه النماذج المبعثرة في مئآت
المصادر والمراجع وفي تنظيمها وإبرازها في منهج واضح يسهل على
الباحثين الاستفادة منه..

وربما كنت أول من قام بهذا العمل في دراسة أدب المرأة في
العصر العباسي وإظهارها بهذا الشكل.

وكان من متممات حرصي على إفادة الباحثين في هذا المجال أنني
ألحقت بالبحث استعراضاً لشهيرات أعلام النساء في العصر من حرائر
وجوار، مبينة لكل منهن مصادر دراستها محددة ذلك بالجزء والصفحة
ليستطيع من يريد أن يسلك الطريق أن يكمل ما بدأت به ويضيف إلى ما
قدمته ما قد ينصف أدب المرأة ويدلل على مكانته ويشير إلى مكانته في
التراث العربي.

ملحق

من أعلام النساء في العصر العباسي

تعريف بأعلام النساء :

١ - إسحاق الأندلسية :

جارية مولدة كانت للمتوكل فولدت له المؤيد إبراهيم والموفق أبا أحمد، ماتت ببغداد سنة ٢٧٢هـ ودفنت بالرصافة فرثاها الأديب الشاعر يحيى بن علي بن يحيى المنجم وعزى بها ابنها الموفق بقصيدة طويلة مطلعها :

عزاء فإن الدهر يعطي ويسلب وصبراً فللدنيا صروف تقلب
تاريخ الطبري سنة ٢٥٢، ونساء الخلفاء ص ٨٢ والمستظرف من
أشعار النساء ص ١٠ والوافي بالوفيات ٤٣٢/٨.

٢ - بنان الشاعرة :

من جوارى المتوكل لها مقدرة على الإجازة الشعرية ذكرنا لها
بعض ذلك في : (أدب المجالس والمناظرات). أعلام النساء ١٤٨/١
وزهر الآداب ٦٤٤/٣ المستظرف ص ١٢ ونساء الخلفاء ص ٩١.

٣ - بدعة الكبيرة :

جارية عريب مولاة المأمون، ذكرها أبو الفرج الأصفهاني في
(كتاب الإماء الشواعر) وقال إنها كانت أحسن دهرها وجهاً وغناء
وكانت تقول شعراً ليناً يستحسن من مثلها .

حظيت عند المعتضد وقالت الشعر في شبيه . مدحها ووصف
غناها وجمالها الشاعر ابن الرومي بقصيدة مطلعها :

بدعة عندي كاسمها بدعه لا شك في ذاك ولا خدعه
 كأنما رقة مسموعها رقة شكوى سبقت دمه
 اختلف في تاريخ وفاتها . قيل إنها عاشت ستين سنة وتوفيت سنة
 ٣٠٢هـ وقيل عاشت ٩٢ سنة وتوفيت سنة ٣٤٢هـ المستظرف ص ١٥
 ونساء الخلفاء ٦٣ وأعلام النساء ١/١٢٣ ونشوار المحاضرة ١/١٣٢ ،
 ٨٩ و ٢٠/٨ والديارات ص ٦٤ ، ٩٩ والأغاني ١٧٩/٢٢ .

٤ - بوران :

هي بوران بنت الحسن بن سهل تزوج منها المأمون عام ٢١٠هـ
 وأنفق على عرسها أموالاً جمة . . وقيل إن أباهما الحسن بن سهل خلع
 على القواد مراتبهم وحملهم ووصلهم فبلغت النفقة عليهم خمسين ألف
 ألف درهم ، وقيل إنه نثر على الهاشمين والقواد والكتاب بنادق مسك
 فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، ثم نثر
 بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض
 العنبر فقالت الشعراء فأكثر ، فمما استظرف مما قيل في ذلك قول
 محمد بن حازم الباهلي :

بارك الله للحسن وللبوران في السختن
 يا بن هرون قد ظفرت ولكن ببنت من
 فلما نمي هذا الشعر إلى المأمون قال : والله ما ندري خيراً أراد بنا
 أم شراً . أعلام النساء ١/١٥٩ وتاريخ الطبري ٨/٦٠٦ - ٦٠٩ ومروج
 الذهب ٣/٣٥١ ونزهة الجلساء ص ٣٠ ونساء الخلفاء ص ٦٧ وأخبار
 بغداد ص ١١٥ ومطالع البدر في منازل السرور ص ١٢٩ .

٥ - ثيماء :

شاعرة محسنة من مولدات المدينة وهي جارية أبي العباس

خزيمة بن خازم النهشلي قالت الشعر في مولاها ورثته بقصيدة مطلعها :
إن أبا العباس خدن العلى خزيمة اليأس فتى الجود
أعلام النساء ١ / ١٨٠ والمستظرف ص ١٦.

٦ - تعريف:

جارية المأمون من مولدات البصرة بارعة الجمال بديعة الظرف
موصوفة بالكمال . وكانت تقول الشعر فوصفت للمأمون فاشتراها
فوقعت بقلبه وقدمها على حظاياه . ولما مات المأمون فت له وقصرت
نفسها على البكاء عليه حتى ماتت ، ومن شعرها في رثائه :

يا ملكاً لست بناسيه نعى إلى العيش ناعيه
المستظرف ص ١٨ وأعلام النساء ١ / ١٧٢.

٧ - ثمل القهرمانه :

من ربات النفوذ والسلطان في عصر المقتدر ، اعتمدت عليها
السيدة أم المقتدر في إدارة سياسة الدولة وشؤونها . وكانت موصوفة
بالشر والإسراف في العقوبة .

وكانت تجلس للمظالم وتنظر في رقاع الناس في كل جمعة وتصدر
عنها التوقيعات . توفيت سنة ٣١٧ هـ وقد ورد اسمها (مثل) في بعض
المصادر .

نشوار المحاضرة ٣ / ١٧٩ وتجارب الأمم ١ / ٨٤ والمنتظم ٦ / ٤٨
وأعلام النساء ١ / ١٨٥ وتاريخ الخلفاء ٣٨١ وبين الخلفاء والخلفاء ص

٨ - جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني :

شاركت شقيقها أبا تغلب بالحكم في ميفارقين وكانت من أقرب
أولاد ناصر الدولة إليه في أخريات أيامه وهي المدبرة لجميع أموره ،

وكانت عالية المكانة عند أخيها أبي تغلب حتى أنه لم يكن يقرر أمراً دون الرجوع إلى مشورتها . وكانت كريمة سخية محسنة إلى الفقراء حتى ضرب المثل بحجها عام ٣٦٦هـ .

وتدل سيرتها في كتب التاريخ على الدهاء والشجاعة، فقد وقفت إلى جانب أخيها في حربه وسلمه وضربت معه في الآفاق حتى لقي مصرعه فضمت إلى جوارى عضد الدولة ونسائه بعد أن سلبها البويهيون جميع أموالها وختمت حياتها ختاماً مريراً .

قيل إن عضد الدولة كان قد خطبها لنفسه فامتنعت عليه ترفعاً فحقد عليها فلما وقعت في أساره هتك سترها وأذاقها مر العذاب حتى قيل إنها ألفت بنفسها في دجلة أو ألقى بها فيه .

نشوار المحاضرة ١/ ١٩٣ ، تجارب الأمم ٢/ ٤٠٤ ، الحضارة الإسلامية ٢/ ١٦٨ وأعلام النساء ١/ ٢١٤ ولطائف المعارف ٨٢ .

٩ - خزامى جارية المقين :

شاعرة ظريفة ومغنية من مغنيات الدولة العباسية كانت في شبابه تنادم ابن المعتز وغيره ثم تاب . كاتبها ابن المعتز بمواصلته فاعتذرت بأنها قد بلغت من العمر حداً لا يسمح لها بذلك .

الأغاني ١٠/ ٢٨٤ وأعلام النساء ١/ ٣٥٠ والمستطرف ص ٢١ .

١٠ - خليدة السوداء :

فتاة ابن شماس المكية أخذت الغناء عن ابن سريج ومعبد ومالك ، أراد محمد بن عبدالله بن عمر بن عثمان أن يتسراها ولكنها رفضت قائلة لأبي عون ، وكان قد جاءها في ذلك (فإن أراد صاحبك نكاحاً مباحاً أو زنى صراحاً فهل بنا إليه فنحن له ، وقالت : وأما نكاح السر فلا والله لا فعلته أبداً ولا كنت عاراً على القيان) .

١١ - خنساء جارية هشام النحوي المكفوف:

كانت خنساء جارية هشام المكفوف جليلة نبيلة أديبة شاعرة حسنة العقل فائقة الجمال من حواذك المغنيات المحسنات، وقد نازعت الشعراء ومدحت الخلفاء وأعطى بها هشام مالأ جليلاً فقال: والله لو أعطيت بها خراج السواد ما بعثها، وما أصنع بالمال ومتعتي بها يوماً واحداً أجل من كل ذخر وأمتع من كل فائدة. كانت تهاجي فضل الشاعرة ومن يشايعها، ومن شعرها قولها في أبي شبل الشاعر تهجوه:

ما ينقضي عجبى وطول تفكري من نعجة تكنى أبا شبل
لما اكتنيت بما اكتنيت به ووصفت ذا النقصان بالفضل
كادت تميد الأرض من جزع وترى السماء تذوب كالمهل

١٢ - الخيزران:

من ربات السياسة والنفوذ والسلطان، وهي مولاة المهدي وزوجه وأم ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد، ولما صارت الخلافة إلى الهادي استبدت بالأمر حتى شاركته في شؤون الدولة، وكانت تريد أن تغلب على أمره كما غلبت على أمر المهدي، وكانت الخيزران كثيراً ما تكلمه في الحوائج فكان يجيبها إلى كل ما تسأله، واثال الناس عليها وطمعوا فيها فكانت الموائب تغدو إلى بابها فكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها سبيلاً فاعتل بعله، فقالت لا بد من إجابتي. فقال: لا أفعل. قالت: قد تضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك فغضب موسى وقال: ويل على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لأقضيته لك، قالت: إذا والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذا والله لا أبالي وحمي وغضب، فقامت مغضبة فقال: مكانك لتستوعبي كلامي. والله وإلا فانا نفى من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من

قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمني لأضرين عنقه، ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواقب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك، إياك ثم إياك ما فتحت بابك لملي أو لذمي، فأنصرفت ما تعقل ما تطأ . . ولم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها).

وقيل إنها سعت بعد ذلك في قتل الهادي وتولية الرشيد بعده، وبلغ من ثرائها أنها كانت تغل في السنة مئتين ألف وستين ألفاً.

تاريخ الطبري ٨/ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٢ - ٢١٦، العيون والحدائق ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٩، المكافأة ص ٧٩، ٨٠، مروج الذهب ٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧، الوزراء والكتاب ١٧٤، ١٧٥، ٢٢١، نشوار المحاضرة ٨/ ١٥٤، المستظرف من أخبار الجواني ص ٢٤، أعلام النساء ص ٢٤، أعلام النساء ١/ ٣٩٥، تاريخ بغداد ١٤/ ٤٣٠، ٤٣١، تاريخ الخلفاء ص ٢٩٠.

١٣ - دنابر جارية يحيى بن خالد البرمكي:

كانت لرجل من أهل المدينة أدبها وخرّجها، وكانت أروى الناس للغناء القديم وللشعر، وكانت صفراء صادقة الملاحاة من أحسن الناس وجهاً وأظرفهن وأحسنهن أدباً ولها كتاب مجرد في الأغاني، أخذت عن فليح وإبراهيم وابن جامع وإسحاق ونظرانهم.

اشتراها يحيى بن خالد فأخذت بمجامع قلبه وكان يسمعها الرشيد فاشتد إعجابه بها ووهبها هبات سنوية منها عقد ثمنه ثلاثون ألف دينار، أقامت بعد نكبة البرامكة على الوفاء لهم ولمولاها، وقالت المراثي فيهم ورفضت أن تغني بعدهم لأحد حتى للخليفة هارون الرشيد الذي أمر بإطلاق سراحها.

الأغاني ١٨/ ١٣ وأعلام النساء ١/ ٤١٧ والمستظرف ٢٨.

١٤ - دنائير مولاة محمد بن كناسه :

أديبة شاعرة مغنية، كان أهل الأدب يقصدونها للمذاكرة والمساجلة في الشعر. وكان لابن كناسه صديق يكنى أبا الشعثاء وكان عفيفاً مزاحاً فكان يدخل إلى ابن كناسه ويسمع غناء جاريته ويعرض لها بأنه يهواها، فقالت فيه :

لأبي الشعثاء حب باطن ليس فيه نهضة لمتهم
أعلام النساء ١/٤١٦، ذم الهوى ص ٢٧٤ والأغاني ١٣/٣٤١.

١٥ - دقاق :

مغنية محسنة جميلة الوجه أخذت الغناء عن أكابر مغني الدولة العباسية فأتقنت الأداء والصنعة وانقطعت إلى حمدونة بنت الرشيد ثم إلى غضيض وكانت مشهورة بالظرف والمجون والفتوة.

أعلام النساء ١/٤١٤، المستظرف من أخبار الجواري ص ٢٦،
٢٧، مختار الأغاني ٣/٤٩٨.

١٦ - ذات الخال :

جارية إبراهيم الموصلي . . ويقال لها (خنت) مغنية من أجمل النساء وأكملهن. قال فيها إبراهيم الموصلي الشعر وغنى به فشهروها فبلغ خبرها الرشيد فاشتراها بسبعين ألف درهم ثم أهداها إلى حمويه . . وقيل إن الرشيد أهداها هدايا ثمينة.

محاضرات الأدباء ٣/٤٢ والعقد الفريد ٦/٤٦ وتزيين الأسواق
ص ١١، أعلام النساء ١/٤٢٣، والأغاني ١٦/٢٦٨.

١٧ - رابعة العدوية :

صوفية كبيرة وعابدة شهيرة وصلت في معرفة التصوف مكاناً عالياً،

وكان كبار المتصوفة في عصرها يقصدونها ويستفتونها . قال سفيان الثوري: مروا بنا إلى المؤدبة ولا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها .

قال الرواة إنها ولدت في أسرة فقيرة رقيقة الحال فذاقت مرارة الفقر والحرمان ثم جرفها تيار اللهو والمجون حتى غشيها الإثم من كل جانب ثم أفاق فتعزلت الحياة والناس واعتكفت تنشد الاتصال الروحي بالذات الإلهية لها شعر كثير في الغزل الصوفي، اختلف في تاريخ وفاتها بين ١٨٠هـ أو ١٨٥هـ، ألفت فيها الكتب .

دائرة المعارف الإسلامية: رابعة العدوية، شهيدة العشق الإلهي، رابعة تذكرة الأولياء ١/ ٧٢، ٧٣، الحيوان ٥/ ٥٩٨ ووفيات الأعيان ٢/ ٢٨٥، شاعرات العرب ص ١٢٤ وأعلام النساء ١/ ٤٣٠.

١٨ - زبيدة بنت جعفر:

أم جعفر أمة العزيز بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور المعروفة بزبيدة زوجة هارون الرشيد وأم ولده الأمين كانت معروفة بالخير والأفضال على أهل العلم والأدب والبر للفقراء والمساكين، ولها آثار كثيرة في طريق مكة والمدينة وليس في بنات هاشم عباسية ولدت خليفة إلا هي . . كانت سيدة جليلة ذات يد طولى في الحضارة والأدب، وكانت من ذوات العقل والرأي والفصاحة والبلاغة، لها شعر ورسائل ووصايا وتوقيعات تدل على ذلك، كثيراً ما كان الخليفة الأمين يمدح بكونها أمه . أثنى عليها عدد من الشعراء والأدباء . توفيت ببغداد سنة ٢١٦هـ .

أعلام النساء ٢/ ١٧ والأغاني ٤/ ٦٨، ١٠/ ١٨١، ١٨٢، ١٨ / ١٥٦، ٨/ ٣٧٢، والفرج بعد الشدة ١/ ١٢١ والمحاسن والمساوىء ٢/ ١٥٣، والفهرست ١٨٠، وجمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧٤، وبغداد في تاريخ الخلافة ص ١٢، ١٦٣، ١٦٤، ومروج الذهب ٣/ ٤١٤، وتاريخ بغداد ١٤/ ٤٣٣ وأدب التوقيعات ص ١٥٢، ومروج الذهب ٣/ ٣٩٦،

وجمهرة خطب العرب ٣/ ١٠٤ والديارات ص ٤٥، ١٨٥، ووفيات
الأعيان ٢/ ٣١٤ والوزراء والكتاب ص ٢٥٦، وتاريخ الطبري ٨/ ٥١٤
و ٧/ ٢١٣ وتاريخ الخلفاء ص ٢٩١ والعقد الفريد ١/ ٣١٣ وديوان أبي
نواس ص ٤١١ ومروج الذهب ٤/ ٢٤٤، وديوان أبي العتاهية ص ١٥٨،
٢١٥، وزهر الآداب ٤/ ٩٨٨، ٢/ ٣٧٠.

١٩ - زيدان القهرمانه :

من ذوات النفوذ والدهاء في العصر العباسي اشتد سلطانها في
عهد المقتدر وبلغ من نفوذها أن كبار رجال الدولة كانوا يتقربون إليها
ملتسمين منها الجاه والقوة، وكان لها طبيب خاص هو عيسى البغدادي
يحمل الرقاع بين الوزراء وربما حملها إليها لتعرض ذلك على الخليفة.

وقد استطاعت أن تجعل دارها سجناً لأكابر الدولة ممن يغضب
عليهم فقد وكل بابن الفرات عندها وسلم إليها الأمير الحسين بن حمدان
وسجن عندها علي بن عيسى بن داود بعد وزارته.

أعلام النساء ٢/ ٤٣، تاريخ الحكماء للقفطي ص ٢٤٩، المنتظم
٦/ ٧٠ أدب التوقيعات ص ١٥٣، تجار الأمم ١/ ٤٠، ١٠٤، ونشوار
المحاضرة ٤/ ١٧٩ بين الخلفاء والخلفاء ص ١٥.

٢٠ - زينب بنت سليمان بن عبد الله بن العباس :

سيدة جلييلة من ذوات العقل والرأي والسلطان والفصاحة
والبلاغة. حدثت عن أبيها سليمان وروى عنها الكثيرون.

كان محمد بن أبي العباس يهواها فخطبها لما قدم البصرة أميراً
عليها فرفضوا تزويجها به لشيء كان في عقله . . له فيها أشعار كثيرة في
الغزل وكانت أقعد ولد العباس نسباً وأكرمهم بيتاً. ولما قدم المأمون
بغداد اجتمع إليها الهاشميون وسألوها أن تكلم الخليفة في تغييره
الخضرة فضمنت لهم ذلك، وجاءت المأمون فقالت: (يا أمير المؤمنين

إنك على بر أهلك من ولد علي بن أبي طالب أقدر منهم على برهم لنا من غير أن تزيل سنة من مضى من آبائك، فدع لباسك الخضرة ولا تطمعن أحداً فيما كان منك) فقال لها: يا عمه ما كلمني أحد في هذا المعنى بكلام أوقع من كلامك وأقصر لما أردت، ورجع إلى لبس السواد، وكان المأمون وحاشيته ورجال دولته شديدي الاحترام لها، توفيت بعد سنة ٢١٨هـ.

مروج الذهب ٣/٢٣٦، ٢٣٧، الفرج بعد الشدة ٢/٣٧٩، ٣٨٠، المكافأة ص ٧٩، ٨٠ وأعلام النساء ٢/٦٨ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٥ - ١٠.

٢١ - سامر أو ساهر:

جارية لبعض المغنين بسر من رأى، كان إبراهيم بن العباس الصولي يهواها، وقد شهر بها ولها معه مراسلات شعرية. المستظرف من أخبار الجواري ص ٣١، أعلام النساء ٢/٤٤١، الأغاني ١٠/٦٠، معجم الأدباء ١/١٧٤.

٢٢ - ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمي:

وقد لعبت دوراً مهماً في التاريخ الإسلامي، ذلك أن أخاها الحاكم بأمر الله الفاطمي كان متقلب الرأي وقيل إنه ادعى النبوة، وكان يقدم البربر والترك على المصريين فحملهم ذلك على كرهه. وكانت أخته ست الملك من أحسن نساء زمانها جمالاً وعقلاً وأشدهن حزمًا وعزمًا. فنالت أول الأمر ثقة الخليفة فصار لا يقطع أمراً إلا برأيها، وحظيت بمحبة الناس حتى صاروا يؤيدونها عليه فأوجس الحاكم بأمر الله من أخته خيفة وشرع يتربص الفرصة لقتلها، ولكنها سبقته إلى ذلك، فتأمرت عليه مع دارس أحد قواده فتم قتله، ولما أيقن الناس بقتله اجتمعوا عليها ولولوها وصية على ابن أخيها الظاهر لصغر سنه، ولما حضر ابن

دارس بأمر من ست الملك أوعزت إلى خادم لها فضربه بالسيف فقتله وهو ينادي: يا لثارات الحاكم.. وقد قوبل عملها بالامتنان من الشعب..

وراحت ست الملك تصرف أمر الدولة قرابة أربع سنوات وهي تعدل في الرعية وتنصف المظلومين حتى أحبها الجميع ماتت سنة ٤١١هـ فمال الخليفة الظاهر بعد ذلك إلى اللهو اصطنع الترك فكان عهده بداية انحطاط الدولة الفاطمية.

أعلام النساء ١٦٦/٢، المرأة في حضارة العرب ص ٢٠٩،
الكامل في التاريخ ٣١٥/٩.

٢٣ - سكن:

جارية محمود الوراق. اشتهرت بالشعر. رفعت قصيدة بكتاب إلى المعتصم ليبتاعها.. فلما نظر فيها خرقها ورمى بها.. قيل لأنه كان أراد مرة ابتياعها فأبت. فقالت سكن في ذلك قصيدة طويلة تمدحه فيها مطلعها:

ما للرسول أتاني منك بياأس أحدثت بعد وداد جفوة القاسي
طبقات ابن المعتز ص ٤٢٢ وأعلام النساء ٢٠٠/٢ والمستظرف
من أخبار الجوارى ص ٣٢، ٣٣.

٢٤ - شاجي:

جارية عبيد الله بن طاهر وهي مغنية من مغنيات العصر العباسي في خلافة المعتضد.. وكان الخليفة إذا استحسّن شعراً بعث به إليها لتلحنه وتغنيه.. وكانت صنعتها في عهد المعتضد تسمى (غناء الدار) توفيت في حياة مولاهم عبيد الله فرثاها أحر الرثاء، وكان قد تزوجها فخلفت له أبناء كثراً.. قال في رثائها:

زرعت وشاجي بيننا في شبيبتي غراس الهوى فاعتم بالشمر العذب
فشاب بنو شاجي لظهري وأدركوا وشاب بنوهم وهي مالكة قلبي
الأغاني ٩/ ٤٠ والديارات ص ١١١، ١١٢.

٢٥ - شارية:

مولدة من مولدات البصرة اشتراها إسحاق الموصللي، كانت من
أحسن النساء غناءً. ثم اشتراها إبراهيم بن المهدي فأخذت غناه كله
أو كثره وبذلك يحتج من يقدمها على عريب المغنية، وكان قد ملكها
سبع سنين ورباها تربية الولد وقيل إنه كان يسميها (بنتي).

تزعمت شارية حركة الغناء بعد وفاة المعتصم حتى أواخر خلافة
الوائق وكان الوائق يسميها (ستي) اتصلت العداوة والمنافسة بينها وبين
عريب وانقسم أهل سامراء حزبين كل جماعة تؤيد واحدة منهما على
الأخرى.

أعلام النساء ٢/ ٢٨٠ والمستظرف من أخبار الجواري ص ٣٥
والأغاني ١٥/ ٣٢٠ - ٣٢٨ وتاريخ الطبري سنة (٢٥٦هـ) والديارات
ص ٦٥، ٧١، ٧٢، ٩٩ ونساء الخلفاء ص ٩٢.

٢٦ - أم الشريف:

سيدة جليلة وشاعرة من شواعر العصر العباسي ذات عقل وحكمة
وفصاحة وبلاغة عاصرت المعتضد، وفي سنة ٢٨٦هـ أناخ المعتضد
بجنده على أمد، وقد تحصن بها محمد بن أحمد بن عيسى، فبث
المعتضد جيوشه حولها وحاصرها، ووجه شعله بن شهاب اليشكري إليه
ليأخذ بالحجة عليه، فسار إليه واتصل الخبر بأم الشريف عمة محمد بن
أحمد فتحدثت إليه في أمر ابن أخيها ثم كتبت إليه كتاباً أجزلت فيه
الموعظة وأخلصت النصيحة. لها مواقف تدل على بعد نظرها وتعلها

في معالجة الأمور.

أعلام النساء ٢/٢٩٣ وجمهرة رسائل العرب ١٤/٣٩٤ ومروج الذهب ٤/١٧٥ - ١٧٧ والمنتظم ٦/١٦.

٢٧ - شغب:

(السيدة أم المقتدر) من ربات النفوذ والسلطان والسياسة والدهاء، أمرت ونهت وحكمت وتصرفت في أمور المملكة لضعف ابنها وآل بها الأمر إلى أن أمرت (ثمل) قهرمانتها بالجلوس للمظالم والنظر في رفاع الناس، وكان لها ديوان تجالس فيه الوزراء والقواد للتدول في نظر الدولة ولها كاتب خاص بها، ولما قتل المقتدر قبض عليها القاهر فعذبها صنوف العذاب حتى قيل إنه علقها بشديها يطالبها بالأموال التي كانت تمتلكها.

أعلام النساء ٥/٦٧ وتجارب الأمم ١/١٣، ٨٤، ١١٧، ١٦٤ ونشوار المحاضرة ١/٢٤٢، ٢/٧٦ - ٧٨ وتاريخ الخلفاء ص ٣٨١ والعيون والحدائق ص ٢٣١ والكامل في التاريخ ٨/٢٤٥.

٢٨ - عابدة بنت محمد الجهنية:

شاعرة فاضلة وخطاطة ماهرة وأديبة فصيحة روى عنها التوخي أبو علي الحسن بن علي قال: حضرت بغداد في مجلس الملك عضد الدولة في يوم عيد الفطر سنة ٣٦٧هـ والشعراء ينشدونه التهاني فحضرت عابدة الجهنية امرأة عم أبي محمد المهلبى الوزير فأنشدت قصيدة لم أظفر منها بشيء.

وقال: أنشدتني عابدة لنفسها، وهذه امرأة فاضلة كانت تهجو أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي لما ولي الوزارة.

شاورني الكرخي لما دنا النيد روز والسن له ضاحكة

أعلام النساء ٣/ ١٩٨، نزهة الجلساء في أشعار النساء ص ٧٥
ونشوار المحاضرة ٢/ ٢٢٤.

٢٩ - عاتكة المخزومية:

عاتكة بنت محمد بن القاسم المخزومية شاعرة فصيحة مدحت
عضد الدولة ببغداد وكانت تحضر مجلسه أسوة بالشعراء لإنشاد التهاني
والمدائح، روى عنها التنوخي في مدح المعتضد:

شتان بين مدبر ومدبر صيد الليوث حصائد الغزلان
نزهة الجلساء ص ٧٧ ونشوار المحاضرة ٥/ ٢٦٩.

٣٠ - عريب:

وهي مغنية محسنة وشاعرة ذات فصاحة وبلاغة وحسن وجمال،
قيل إنها ابنة جعفر البرمكي تزوج جعفر أمها خفية ولما ماتت أمها دفع
(عريب) إلى امرأة نصرانية وجعلها داية لها فلما حدثت نكبة البرامية
باعتها الداية إلى البراميكي صاحب مراكب الرشيد عبد الله بن إسماعيل
فرباها وأدبها وعلمها الغناء.

قال الفضل بن مروان: كنت إذا نظرت إلى قدمي عريب شبهتها
بقدمي جعفر، وذكروا بلاغتها في كتبها فقليل: فما يمنعها من ذلك وهي
ابنة جعفر بن يحيى.

وقال أبو بكر الصولي: كانت عريب المأمونية تدعي أنها بنت
جعفر بن يحيى بن خالد من امرأة شريفة، ولها شعر وصنعة في أشعار
كثيرة ولغنائها ديوان مفرد من شعرها والصنعة فيه لها.

وقال ابن المعتز: كانت عريب جارية المأمون من أحسن النساء
وجهاً وأفصحهن لساناً وأبلغهن بياناً وأصنعهن كفاً، وكانت شاعرة مقلقة
مطبوعة وكان المأمون يعشقها وهي عند مولاتها..

وكانت تجيد المراسلات الشعرية والنثرية، وقد ذكر ابن المعتز أن رقاعاً لعريب فيها مكاتبات منشورة ومنظومة وقعت إليه، وكانت تجيد صوغ الألقان، وكان المعتمد يوجه شعره إليه لتلحنه فكانت تستضعف الشعر وتقول: ويلي كم أغني في حروف الف باء تا ثا. لها مراسلات مشهورة مع إبراهيم بن المدير ومحمد بن حامد.. توفيت سنة ٢٧٧هـ.

الأغاني ٢٠٢/١٠، ٥٨/٢١ - ٩٥، ١٥٦/٢٢، ١٦٢، ١٦٩، ١٧١، ١٧٩. طبقات ابن المعتز ٤٢٥ ونساء الخلفاء ٥٥ - ٥٧ والمستظرف ص ٣٧، والديارات ص ٩٩، ٦٤، ٦٥، ١٠٥، ١٦٥، ونشوار المحاضرة ١/١٣١، ٢٧٠ نهاية الأرب ٥/٩٥ - ١١٢، وأخبار بغداد لابن طيفور ١٥٠، ١٥١، ١٦٩، ١٧٧، ١٧٩، والوزراء والكتاب ١٥٤ - ١٥٥، المحاسن والأضداد ص ١٥٧، ١٥٢، وتاريخ الخلفاء ص ٣٢٥، وبغداد في تاريخ الخلافة ص ١٦٨ والحضارة الإسلامية (متز) ١٥٩ وأعلام النساء ٣/٢٦١ والبصائر والذخائر ٢/١٥٠ والكامل لابن الأثير (وفيات ٧٧، ٢٧٧) وديوان أبي نواس ص ٢٧٥.

٣١ - عنان جارية الناطقي:

شاعرة ظريفة ذكرها الأصفهاني فقال: كانت عنان جارية النطاف صفراء مولدة من مولدات اليمامة وبها نشأت وأدبت، اشتراها النطاف وهم الرشيد بابتياعها منه فمنعه منها اشتهاها وما هجاها به الشعراء (ومنهم أبو نواس) مع ميله إليها.. وقيل إنه أحضرها لبيتاعها من سيدها فطلب ثمنها مائة ألف درهم، فلما مات مولاها بيعت بمائتي ألف درهم. وكانت أول من اشتهر بقول الشعر وأفضل من عرف من طبقتها، ولم يزل فحول الشعراء في عصرها يلقونها في منزل مولاها فيقارضونها الشعر وتتصف منهم. لها مطارحات شعرية ماجنة مع الشعراء المجان أمثال أبي نواس، ولها معارضات شعرية مع مشاهير الشعراء كالعباس بن الأحنف ومروان بن أبي حفصة.

نساء الخلفاء ص ٣٧ - ٥٣، المحاسن والأضداد ١٥٢ - ١٥٦
 الوزراء والكتاب ٢٠٤، ٢٠٥، الأغاني ٥٢١/٢ - ٥٣٢، محاضرة
 الأبرار ومسامرة الأخيار ١٢٦/١، ١٢٧، أخبار أبي نواس ص ٧٢ - ٧٨
 وبدائع البدائه ص ١٤٩، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢١
 والمستنظرف ص ٣٨، وزهر الآداب ٩٧١/٤، أعلام النساء ٣٦٩/٣ -
 ٣٧٢ والأعلام ٢٦٧/٥ والفهرست ص ٢٣٩، العصر العباسي الأول
 ص ٣٢٨، أبو نواس في تاريخه وشعره ومبازله لابن منظور ص ٣٧،
 المرأة في حضارة العرب ١٦٠.

٣٢ - عليّة بنت المهدي:

سيدة عباسية جليّة ولدت سنة ١٦٠هـ، فكانت من أحسن النساء
 وأظرفهن وأعقلهن، ذات صيانة وعفة وأدب بارع، تقول الشعر وتصوغ
 فيه الألحان الحسنة.

قيل: كانت عليّة حسنة الدين وكانت لا تغني ولا تشرب النبيذ إلا
 إذا كانت معتزلة الصلاة، فإن طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة
 الكتب فلا تلك بشيء غير قول الشعر. وكانت تقول: ما حرم الله شيئاً إلا
 وقد جعل فيما حلل منه عوضاً. فبأي شيء يحتج عاصيه والمنتهك
 لحرماته؟ وكانت تقول: لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط، ولا أقول
 شعري إلا عبثاً.

وكان الرشيد يبالي في إكرامها واحترامها ويستصحبها في بعض
 أسفاره، وقيل إنها اختصت خادماً يقال له طل من خدم الرشيد فكانت
 تراسله بالأشعار، فبلغ ذلك الرشيد فحلف عليها أن لا تكلم طلاً ولا
 تسميه باسمه فضمنت له ذلك، واستمع الرشيد إليها يوماً وهي تدرس
 آخر سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ يَصْبِهَا أَبَلْ
 فَطَلْ﴾ وأرادت أن تقول (فطل) فقالت: (الذي نهى عنه أمير المؤمنين).

فدخل فقبل رأسها، وقال: قد وهبت لك طلاً، ولا أمنعك بعد هذا من شيء تريدينه.

وربما كان هذا من الأخبار الموضوعة من قبل الفرس وغيرهم على الرشيد وأخته عليه.. فقد تضاربت الآراء واختلفت الأخبار في كثير من الشخصيات في هذا العصر.

الأغاني ١٠/١١١، ١٧١ - ١٩٥، ٢٢/٥٠، ٥٣، ٥٧، وزهر الآداب ١/١٣، البصائر والذخائر ١/٩٠، ديوان العباس بن الأحنف ٦٢، والوافي بالوفيات ٢/١٩٧ والمحاسن والأضداد ٢٢٩، ٢٣٠ ونشوار المحاضرة ١/١٩٥، وأشعار أولاد الخلفاء ص ٥٥، ونزهة الجلساء ص ٨٠ - ٨٦، وأعلام النساء ٣/٣٣٤.

٣٣ - الفارعة بنت طريف:

هي أخت الوليد بن طريف بن الصلت الشيباني الخارجي وكان أخوها الوليد قد خرج عن الطاعة في خلافة الرشيد فأرسل إلى حربه يزيداً بن زائدة الشيباني فغلبه وقتله عام ١٧٩ هـ فمأ أن سمعت الفارعة بخبر قتل أخيها حتى لبست عدة الحرب وحملت على جيش يزيد وأبلت بلاءً حسناً إلا أن يزيد خرج إليها فضرب بالرمح فرسها وقال لها: أغربي غرب الله عينك فقد فضحت العشيرة، فانصرفت، وللفارعة في أخيها مراث كثيرة سلكت فيها سبيل الخنساء في مراثيها لصخر، منها مرثيتها التي تقول فيها:

أيا شجر الخابور ما لك مورقاً كأنك لم تحزن على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

أعلام النساء ٤/٢٠، تاريخ الطبري ٨/٢٦١ ومرآة الجنان ١/٣٧٠، والعيون والحدائق ٣/٢٩٧، العقد الفريد ٣/٢٦٩ وزهر الآداب ٤/٩٩٢.

٣٤ - فاطمة القهرمانه :

من ذوات الدهاء والنفوذ والسلطان، كانت توقع على مراسيم الدولة فتقول: (أمر أمير المؤمنين بحمل أربعين بدره عيناً من بيت المال الخاصة إلى حضرته) وكان توقيع ابن الفرات في آخره بامثال المرسوم منه، وبالأمر بتنفيذه. وقد غرق بها طيارها في يوم ريح عاصف تحت جسر بغداد سنة ٢٩٩هـ.

أعلام النساء ٩١/٤ ونشوار المحاضرة ٢٦٩/٣، ١٧٩/٤،
وتجارب الأمم ٢٠/١.

٣٥ - فضل :

شاعرة ماجنة من أظرف أهل زمانها، ولها أخبار مدونة ملاح..
قال أبو الفرج الأصفهاني: كانت مولدة ولدت باليمامة ونشأت بالبصرة وكانت سمراء أديبة فصيحة سريعة الهاجس مطبوعة في قول الشعر، أحسن خلق الله خطأً وأفصحه عبارة وأبلغه مخاطبة وأثبته في محاوره، وكانت تجلس في مجلس المتوكل على كرسي تعارض الشعراء. قيل إنها يوم أهديت إلى المتوكل قال لها: أشاعرة أنت قالت: كذا يزعم من باعني ومن اشترى، فضحك وقال: أنشدنا شيئاً من شعرك فأنشدته قولها الذي مطلعها:

استقبل الملك إمام الهدى عام ثلاث وثلاثين

وكانت بارعة في إجازة الشعر بسرعة بديهة وبلاغة معنى.. وقيل إنها كانت تهوى سعيداً بن حميد ولها معه مراسلات كثيرة.. قيل يوماً له أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها وتفيدها وتخرجها فقد أخذت نحوك في الكلام وسلكت سبيلك، فقال وهو يضحك: ما أحسن ظنك، ليتها تسلم مني لا آخذ كلامها ورسائلها والله يا أخي لو أخذ أفاضل الكتاب وكبرائهم وأمائلهم عنها لما استغنوا عن ذلك. توفيت سنة ٢٥٧

وقيل سنة ٢٦٠هـ.

طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٢٦، ونساء الخلفاء ص ٨٤
والمستظرف ص ٥٠ - ٥٤، وأمالى القالى (الذيل) ص ٦٧، والمنتظم ٥/
٧٠٦، وفوات الوفيات ٣٤٨/٢، والمحاسن والأضداد ص ١٥٢،
وتاريخ الخلفاء ص ٣٦٠، وبدائع البدائى ص ٢٩، ٦٠، ١١١، ١١٢،
١٥٠، وسيدات البلاط العباسى ص ٨٢، والبصائر والذخائر ٦/٢،
٣٠، وطبقات الشافعية ١/٢٦٣، والأغانى ١٨/١٠١، ١٩/٢٥٧ -
٢٧٠، وجمهرة رسائل العرب ٤/٢٨٥، وألف با البلوى ٢/٤٩٣.

٣٦ - فريدة جارية اللوائى :

وكانت لعمر بن بانه المغمى، وأهداها للوائى وكانت من
الموصوفات المحسنات ومن المحظيات عنده. ولما مات اللوائى أمر
المتوكل بإحضار فريدة جارية أخيه اللوائى فأحضرت مكرهة ودفع إليها
عوداً فغنت غناءً كالندبة، فأمرها أن تغنى غيره فبكت وغنت غناءً شجياً
بحزن. . . إلا أنها لم تثبت على وفائها للوائى فقد تزوجها المتوكل بعد
ذلك فولدت له ابنه أبا الحسن.

المستظرف من أخبار الجوارى ٤٩، ومعجم الأدباء ٢/٢١٠،
والديارات ص ١١، ١٢، ونساء الخلفاء ص ١٠٠، وأعلام النساء ٤/١٦٤.

٣٧ - قبيحة أم المعتز :

سماها المتوكل قبيحة لجمال صورتها (من أسماء الأضداد) وهى
من ربات السياسة والدهاء والنفوذ والسلطان.

ولما تمت البيعة للمعتز ابنها وخلع المستعين اجتمع غلمان
المتوكل وصاروا إلى أم المعتز وبينوا تخوفهم من المستعين، فشاورت
فى الأمر وكتبت إلى أحمد بن طولون: إذا قرأت كتابى فجننى برأس
المستعين وقد قلدتك واسط فأجابها: والله لا يرانى الله عز وجل أقتل

خليفة له في رقبتي بيعة وإيمان مغلظة أبداً، وكانت تحرض المعتز على الأتراك: وتقول: يا بني اقتلهم في كل مكان... وقيل إنها أخرجت إليه قميص أبيه المتوكل مخضباً بدمائه قال لها المعتز: يا أماء أرفعيه وإلا صار القميص قميصين... وقد أخذت أموالها ونعمها لما قتل ولدها المعتز فخرجت إلى مكة فأقامت بها مدة ثم عادت إلى سامراء وتوفيت سنة ٢٦٤.

المستظرف من أخبار الجواري ص ٥٧، والديارات ص ١٦٩،
١٧٠ والإيجاز والإعجاز ص ٢١، وأعلام النساء ٤/ ١٨٤.

٣٨ - قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون:

واسمها أسماء تزوجها الإمام المعتضد بالله وهي عند أبيها بمصر وزفت إليه وكان معها من الجهاز ما لا يكاد يوجد مثله في خزائن الملوك، وكانت من أعقل النساء... قيل إن المعتضد قال لها يوماً: (بم شكرين الله إذ جعل أمير المؤمنين زوجك؟) فقالت: (بما يشكر به أمير المؤمنين إذ جعل أحمد بن طولون من رعيته) توفيت سنة ٢٨٧هـ.

تاريخ الطبري حوادث سنة ٢٨٧هـ ومروج الذهب ٤/ ١٦٩
والمنتظم ٦/ ٢٦ ووفيات الأعيان ١/ ١٩٢ وسيدات البلاط العباسي
ص ٩٤ ونساء الخلفاء ص ١٠٤.

٣٩ - لبابة بنت علي بن المهدي:

شاعرة من شواعر العرب في الدولة العباسية تزوجها محمد الأمين وقتل ولم يدخل بها فقالت ترثيه:

أبكيك لا للنميم والأنس بل للمعالي والسيوف والقوس
نزهة الجلساء في أشعار النساء ص ٨٨، تاريخ الطبري ٨/ ٥٠١،
أعلام النساء ٤/ ٢٧٤، مروج الذهب ٣/ ٣٢٣.

٤٠ - محبوبة جارية المتوكل :

مولدة من مولدات البصرة، شاعرة سريعة البديهة مطبوعة لها قدرة عجيبة على ارتجال الشعر في المناسبات وهي مغنية حسنة الوجه حسنة الغناء . ملكها المتوكل وهي بكر أهداها إليه عبيد الله بن طاهر في جملة أربع مئة جارية فتقدمتهن جميعاً وحظيت عنده . . كانت تقول الشعر بداهة فتتفوق على فحول الشعراء . وقد وفّت للمتوكل بعد وفاته فلم تزل حزينه عليه هاجرة لكل لذة حتى ماتت، ولها فيه مراث كثيرة .

قال علي بن يحيى المنجم : إن جوارى المتوكل تفرقن بعد موته فصار إلى وصيف عدد منهن محبوبة فأمر يوماً بإحضارهن فحضرت وعليهن الثياب الفاخرة المرونة وقد تزين وتعطرن سوى محبوبة، فإنها جاءت مرهء متسلبة عليها ثياب بياض . . ثم قال لمحبوبة غني فأخذت العود وغنت وهي تبكي المتوكل وتقول :

أي عيش يطيب لي لا أرى فيه جمفرا
فاشد ذلك على وصيف وهم بقتلها، فاستوهبها منه بغا وكان
حاضراً فوهبها له فأعتقها فخرجت إلى بغداد فأقامت بها وأخملت نفسها
حتى ماتت .

الأغاني ٢٢ / ٢٠١ - ٢٠٥ وذم الهوى ص ٣٤٣ ومروج الذهب ٤ /
٧٣ - ٧٥ وتاريخ الخلفاء ص ٣٥٧ ، ٣٦٠ ووفيات الأعيان الترجمة ١٣٣
وأعلام النساء ٥ / ٢٥ ونهاية الأرب ٥ / ١٠٨ والمستظرف من أخبار
الجواري ٦٣ - ٦٧ ونساء الخلفاء ٩٢ - ٩٨ .

٤١ - أم موسى القهرمانة :

كانت إحدى نسوة ثلاث سيطرن على أمور الدولة العباسية في زمن
المعتضد هن : السيدة أم المقتدر، وخالته، وأم موسى القهرمانة، وقد
تمكنت من الدولة وأثرت ثراءً فاحشاً، وفي سنة ٣١٠ سخط عليها

الخليفة وقبض عليها وعلى أسبابها ومن كانت تعنى به واستخرج منها ألف ألف دينار لاتهامها في إزاحة المقتدر عن الخلافة ونقلها إلى أبي العباس محمد بن إسحاق بن المتوكل الذي زوجته بابنة أخيها .

المنتظم ١٦٦/٦ وتجارب الأمم ٨٣/١ ونشوار المحاضرة ١/٢٤٢.

٤٢ - نبت جارية المعتمد على الله :

مغنية حسنة الغناء، شاعرة سريعة الهاجس، عرضت على المعتمد فامتنعها في الغناء والكتابة فرضي بما ظهر له من أمرها وكانت بارعة في المعارضة .

نساء الخلفاء ص ١٠١ والمستظرف من أخبار الجواري ص ٦٩ ونشوار المحاضرة ١٢٨/٧.

٤٣ - هيلانة جارية الرشيد :

قيل إنه أخذها من يحيى بن خالد البرمكي وكانت بديعة الجمال ظاهرة الكمال فحظيت عنده وأقامت معه ثلاث سنين ماتت سنة ٢٧٣هـ، فوجد عليها وجداً شديداً فقال في رثائها :

قد قلت لما ضمنوك الشرى وجالت الحسرة في صدري
أذهب فلا والله ما سرنى بعدك شيء آخر الدهر

نساء الخلفاء ص ٥٤ والمستظرف من أخبار الجواري ص ٧٢ وتاريخ بغداد ٩٨/١ وتاريخ الخلفاء ص ٢٩٥ وديوان العباس بن الأحنف ص ٢٠٨ والديارات ص ١٤٦.

٤٤ - ولادة المهزمية البصرية :

إحدى الشاعرات الحرائر روى لها أبو هفان شعراً جزلاً فخماً فيه فحولة الأوائل ورصانة المجيدين وقوة المتمكنين، وقالت تفخر بشمائلها

ومكانتها ويقومها بأبيات منها :

لولا اتقاء الله قمت بمفخر لا يبلغ الثقلان فيه مقامي
قبل إنها توفيت نحو سنة ٢٠٠ هـ.

الأعلام للزركلي ١٣٦/٩ ، وشاعرات العرب ص ٤٨١ ، أعلام
النساء ٢٩٠ / ٥.

المصادر والمراجع

- أبو نواس، قصة حياته في جده وهزله - الدكتور عبد الرحمن صدقي، الدار القومية للطباعة والنشر.
- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري - الدكتور محمد مصطفى هداره، دار المعارف ١٩٦٣م.
- اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري - الدكتور يوسف حسين بكار.
- أخبار أبي نواس لابن منظور، تحقيق محمد عبد الرسول إبراهيم وعباس الشربيني مطبعة الاعتماد.
- أخبار أبي نواس لأبي هفان، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.
- أخبار الحمقى والمنفلقين لابن الجوزي ط ١، ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م.
- أخبار الدولة العباسية لمؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري، مطابع دار صادر بيروت ١٩٧١م.
- أخبار الظرف والمتماجنين لابن الجوزي، تحقيق السيد بحر العلوم، ط ٢ مطبعة الغرى، النجف ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م.
- أخبار النساء لابن قيم الجوزية إصدار دار الفكر.
- اختيار المنظوم والمتنور.
- أخلاق الوزيرين لأبي حيان التوحيدي، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٥م.
- أدب التوقيعات: خالدة ناجي (أطروحة ماجستير) جامعة بغداد ١٩٧٦م.
- أدب الكتاب لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي، تحقيق محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية بمصر ١٣٤١هـ.
- الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، مصطفى الشكعة ١٩٦٨م.
- الأدب والسياسة منذ قيام الدولة العباسية حتى منتصف القرن الثالث

- الهجري (أطروحة دكتوراه) من جامعة بغداد ١٩٧٧.
- الأذكىاء لابن الجوزي، المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
 - آراء أبي العلاء المعري معروف الرصافي ط ١، ١٩٥٥م، مطبعة دار المعارف، بغداد.
 - الأساس للزمخشري دار ومطابع الشعب، القاهرة.
 - أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي، نشر ج هورث دن ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م.
 - أشعار النساء للمرزباني، تحقيق سامي مكّي العاني وهلال ناجي، بغداد، دار الرسالة للطباعة ١٩٧٦.
 - الأعلام خير الدين الزركلي ط ٢، مكتبة كوستا توماس، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.
 - أعلام النساء، عمر كحالة ط ٢، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٥٩م.
 - أعيان الشيعة تأليف السيد محسن الأمين ط ٢، ١٩٥٣م، مطبعة الإنصاف، بيروت.
 - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - دار الثقافة - بيروت.
 - ألف ليلة وليلة. الشيخ محمد قطة العدوي، مصر مطبعة بولاق ١٩٥٢م.
 - ألف ليلة وليلة، د. سهر القلماوي، دار المعارف بمصر.
 - الحان الحان عبد الرحمن صدقي، دار المعارف بمصر ١٩٥٧م.
 - الإمتاع والموائسة لأبي حيان التوحيد، أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة.
 - أمثال العرب للمفضل الضبي مطبعة الجوانب ١٣٠٠هـ.
 - الأوراق لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي، قسم أخبار الشعراء ط ١، ١٩٣٤م.
 - بدائع البدائة لعلي بن ظافر الأزدي، تحقيق محمد أبو الفضل، مكتبة الأنجلو ١٩٧٠م.
 - بدر التمام في شرح ديوان أبي تمام. ملحم إبراهيم الأسود بيروت

١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨ م.

- البرصان والعميان والمرجان للجاحظ، دار الاعتصام للطبع، تحقيق محمد مرسي الخولي ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.
- بشار بن برد - أعلام الإسلام، عبدالقادر المازني.
- البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني ١٩٦٤ م.
- بغداد في تاريخ الخلافة العباسية لابن طيفور ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م.
- بغداد في القرن الثالث الهجري. مكية سلمان العبيدة (أطروحة ماجستير) من جامعة بغداد - كلية الآداب.
- بلاغات النساء لأبي الفضل ابن طيفور، منشورات مكتبة بصيرتي.
- بلاغة الكتاب في العصر العباسي، محمد نبيه حجاب، المطبعة الفنية الحديثة ط ١ ١٩٦٥ م.
- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ط ٣، ١٩٦٨ م.
- بين الخلفاء والخلعاء، د. صلاح الدين المنجد. دار الحياة ١٩٥٧ م.
- الناج في أخبار الملوك للجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت ١٩٧٠ م.
- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٧ م.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، أحمد شلبي ط ٤، ١٩٧٠ م.
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط ٢، مطبعة السعادة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م.
- تاريخ الشعر العربي حتى أواخر القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهيتي، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م.
- تاريخ الشعر العربي في العصرين الأول والثاني من خلافة بني العباس، د. محمد عبد العزيز الكفراوي، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٤ م.
- تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان ط ٤، دار العلم للملايين ١٩٦٥ م، بيروت.

- تاريخ الطبري، دار المعارف، د. أبو الفضل إبراهيم ١٩٦٦م.
- تجارب الأمم لابن مسكويه، تحقيق.
- تحفة الأبيه فيمن نسب إلى أبيه لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق عبدالسلام هارون ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.
- التحف والهدايا للخالدين، دار المعارف. سامي الدهان ١٩٥٦م.
- التعازي لأبي الحسن علي بن محمد المدائني، تحقيق د. إبتسام مرهون ود. بدري محمد فهد، مطبعة النعمان، النجف ١٩٧١م.
- التزيين والحلي في العصر العباسي، زكية عمر العلي، دار الحرية للطباعة ١٩٧٦م.
- تزيين الأسواق للأنطاكي. المطبعة الأميرية ١٢٩١هـ.
- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، د. شكري فيصل ١٩٥٩م.
- تكملة تاريخ الطبري للهمداني، تحقيق ألبرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية ط ٢، ١٩٦١م.
- تهذيب الأخلاق لابن مسكويه، مطبعة مدرسة والده عباس الأول ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م.
- تيارات ثقافية بين العرب والفرس د. أحمد محمد الحوفي، دار النهضة مصر ١٩٦٨م.
- ثلاث رسائل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ط ٢، ١٣٨٢هـ، المطبعة السلفية.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة، دار نهضة مصر ١٩٦٥م.
- جمال المرأة عند العرب، د. صلاح الدين المنجد، بيروت، ١٩٥٧م.
- جمهرة خطب العرب، د. أحمد زكي صفوت ط ٢، ١٩٦٢م.
- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، د. أحمد زكي صفوت، ط ١، ١٩٧٣م.
- جمهرة المغنين، خليل مردم، المطبعة الهاشمية ١٩٦٤م.

- الجوّاري، د. جبور عبدالنور، دار المعارف بمصر ط٢.
- الجوّاري المغنيات، فايد العمروسي، دار المعارف بمصر ١٩٦١م.
- الحجاب لأبي الأعلى المودودي، دار الفكر الإسلامي، تعريف محمد كاظم السباق، ط١، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.
- حديث الأربعاء، د. طه حسين، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.
- الحركة الأباضية في المشرق العربي، مهدي طالب هاشم (أطروحة ماجستير) بغداد ١٩٧٧.
- الحضارة الإسلامية لأدم متز.
- حكاية أبي القاسم البغدادي، لمحمد بن أحمد بن أبي المطهر الأزدي، مكتبة المثنى بغداد.
- الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، د. أحمد كمال زكي، دار الفكر بدمشق ط١، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- الحياة الأدبية في العصر العباسي، محمد عبد المنعم خفاجي. القاهرة، رابطة الأدب الحديث ١٩٥٤م.
- الحياة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة، الدكتورة مليحة رحمة الله عليها بغداد مطبعة الزهراء ١٩٧٠م.
- الحياة الجنسية عند العرب. د. صلاح الدين المنجد، بيروت مطابع دار الكتب ١٩٥٨م.
- الحيوان للجاحظ. تحقيق عبدالسلام محمد هارون ط١ مطبعة مصطفى البابي ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م.
- خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي، منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٦٦م.
- الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، زينب فواز، المطبعة الأميرية، بولاق ١٣١٢هـ.
- دولة النساء للبرقوقي، مطبعة الاعتماد بمصر ط١، ١٩٥٤م.
- الديارات للشبابشتي، تحقيق كوركيس عواد، ط٢ منشورات المثنى، مطبعة المعارف بغداد ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

- ديوان ابن الرومي، تحقيق كامل كيلاني، مطبعة التوفيق الأدبية، ١٩٢٤م.
- ديوان ابن المعتز، دار صادر، بيروت ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- ديوان ابن هرمة، تحقيق محمد جبار المعبيد، مطبعة الآداب، النجف ١٣٨٦هـ - ١٩٦٩م.
- ديوان أبي تمام. شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، القاهرة دار المعارف ١٩٧٢م.
- ديوان أبي الحسن التهامي، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق.
- ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- ديوان أبي نواس، تحقيق عبدالمجيد الغزالي، مطبعة مصر ١٣٧٣هـ - ١٩٤٣م.
- ديوان أبي نواس، تحقيق بهجت عبد الغفور حمد أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد كلية الآداب ١٩٧٨م.
- ديوان إسحاق الموصلي، تحقيق ماجد العزي، مطبعة الإيمان، بغداد ١٩٧٠م.
- ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف ١٩٦٣م.
- ديوان بشار محمد الطاهر بن هاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.
- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م.
- ديوان دهل الخزاعي، تحقيق د. عبد الكريم الأشتر، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- ديوان السري الرفاء، مكتبة القدسي ١٣٥٥هـ.
- ديوان الشافعي، دار الثقافة، بيروت، تحقيق زهدي يكن ١٩٦١م.

- ديوان الشريف الرضي، دار صادر، دار بيروت ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.
- ديوان صريع الغواني، تحقيق د. سامي الدهان، دار المعارف بمصر ١٩٥٧م.
- ديوان الصنوبري، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة ١٩٧٠م.
- ديوان العباس بن الأحنف، تحقيق د. عاتكة وهي الخزرجي.
- ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك ١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م.
- ديوان عماره بن عقيل، تحقيق شاكر العاشور، مطبعة البصرة ط١، ١٩٧٣م.
- ديوان حلقة الفعل، تحقيق أحمد الصقر، المطبعة المحمدية بالقاهرة، ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م.
- ديوان قيس بن الخطيم، د. إبراهيم السامرائي ود. أحمد مطلوب.
- ديوان المتنبي، تحقيق عبدالرحمن البرقوقي، مطبعة الاعتماد بمصر، ط١، ١٩٥٤م.
- ديوان محمد بن عبدالملك الزيات، د. جميل سعيد.
- ديوان المعاني - أبو هلال العسكري - مكتبة الأندلس، بغداد ١٣٥٢هـ.
- ديوان الواواء الدمشقي، تحقيق سامي الدهان، المجمع العلمي العربي ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.
- ذم الهوى، لابن الجوزي. مصطفى عبد الواحد، مطبعة السعادة ط١، ١٩٦٢م.
- ذقل الأمالي، تأليف أبي علي إسماعيل القالي البغدادي، دار الفكر.
- ذيل زهر الآداب، المطبعة الرحمانية.
- رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، د. مصطفى الشكعة، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧١م.
- رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، لابن بطلان - نوادر المخطوطات - تحقيق عبدالسلام هارون ط١، ١٩٥٤م.
- رسائل أخوان الصفاء وخلان الوفاء، دار بيروت، دار صادر، ١٣٧٦هـ -

- رسائل الجاحظ، مطبعة التقدم ط١، ١٣٢٤هـ.
- رسائل الخوارزمي، ط١ مطبعة الجوائب ١٢٩٧هـ.
- رسائل سعيد بن حميد وأشعاره، جمع وتحقيق د. يونس أحمد السامرائي، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧١م.
- رسائل الصابي والشريف الرضي، تحقيق محمد يوسف نجم، الكويت، مطبعة حكومة الكويت ١٩٦١م.
- رسائل صاحب بن عباد، تحقيق د. عبدالوهاب عزام ود. شوقي ضيف ط١.
- رسوم دار الخلافة لأبي الحسين هلال بن المحسن الصابي، تحقيق ميخائيل عواد مطبعة العاني، بغداد ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.
- زهديات أبي نواس، تحقيق د. علي الزبيدي، القاهرة سنة ١٩٥٩م.
- زهر الآداب للحصري، تحقيق د. زكي مبارك.
- الزهرة لأبي بكر محمد بن أبي سليمان الأصفهاني، مطبعة الأدباء اليسوعيين، بيروت ١٩٣٢م (النصف الأول).
- الزهرة لأبي بكر محمد بن أبي سليمان الأصفهاني، تحقيق د. نوري القيسي.
- سحر البلاغة وسر البراعة للشعالبي، تحقيق أحمد عبيد ط١ مطبعة الترقى بدمشق.
- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية.
- سيدات البلاط العباسي، مطبعة دار الكشاف بيروت ١٩٥٧م.
- شاعرات العرب، جمع وتحقيق عبد البديع صقر، منشورات المكتب الإسلامي، ط١ ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ط١ مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٥٣م.
- شرح ديوان المتنبي. عبدالرحمن البرقوقي. دار الكتاب العربي بيروت.

- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢ مطبعة المدني ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م.
- شعر الزهد والتصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين (أطروحة ماجستير) من جامعة بغداد - كلية الآداب ١٩٧٥ م.
- شعر ابن المعتز لأبي بكر الصولي، دراسة وتحقيق د. يونس السامرائي، منشورات وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٧ م.
- شعر أبي هلال العسكري، تحقيق ودراسة د. محسن غياض، بيروت ١٩٧٥ م.
- الخوارج، تحقيق. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- شعر علي بن جبلة المعروف بالعمكوك، تحقيق أحمد نصيف الجنابي، مطبعة الآداب في النجف ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م.
- الشعر والشعراء في العصر العباسي د. مصطفى الشكعة. دار العلم للملايين ١٩٧٣ م.
- شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية) لعبد الرحمن بدوي، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٨ م.
- صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني الراوية ط ١، ١٩٥٣ م محمد أحمد خلف الله مطبعة نهضة مصر.
- صفة الصفوة لابن الجوزي ط ١ حيدر آباد الدكن ١٣٥٥ هـ.
- الصوفية في الإسلام، تأليف نيكلسن وترجمة نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٥١ م.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م.
- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب، تحقيق الطناجي طبع عيسى البابي ط ١.
- طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي.
- طبقات الشعراء لابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف.

- طوق الحمامة في الألفة والآلاف، تحقيق د. الطاهرة أحمد مكي، دار المعارف بمصر ط١، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- طبيعة الدعوة العباسية د. فاروق عمر - دار الإرشاد، ط١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- عالمت بغداديات في العصر العباسي، بغداد، دار الجمهورية ١٩٦٧م.
- العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، بدري محمد فهد ١٩٦٧م. مطبعة الإرشاد ببغداد.
- العباسيون الأوائل د. فاروق عمر فوزي، دار الإرشاد، ط١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- المعبر في خبر من خبر للجاحظ الذهبي، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت ١٩٦٠م.
- العصر العباسي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ط٥، ١٩٧٥م.
- المقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق أحمد أمين وإبراهيم الإياري وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩م.
- عقلاء المجانين لأبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، تقديم محمد بحر العلوم ط٢، المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٥٧هـ - ١٩٦٨م.
- العمدة لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة مصر ١٩٥٥م.
- هيون الأخبار لابن قتيبة، مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- العيون والحدائق لمؤلف مجهول. مكتبة المثنى.
- العيون والحدائق لمؤلف مجهول ج٤، تحقيق نبيلة عبدالمنعم داود، جامعة بغداد ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- غزل النساء عيسى سابا، دار العلم للملايين، بيروت ط١، ١٩٥٣م.
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تأليف محمد بن علي بن طباطبا دار صادر، بيروت ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

- الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف دار المعارف مصر ١٩٦٠م.
- الفهرست لابن النديم، مطبعة الاستقامة، الحاج مصطفى محمد.
- فوات الوفيات. محمد بن شاکر الکتبی، تحقیق محمد محیی الدین عبد الحمید، السعادة. مصر ١٩٥١م.
- في الأدب العباسي د. علي الزبيدي. دار المعرفة ط١، ١٩٥٩م.
- في الأدب العباسي د. محمد مهدي البصير ط٣ النجف ١٩٧٠م.
- القاضي التنوخي وكتاب النشوار، د. بدري محمد فهد، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٦٦م.
- القرآن الكريم.
- قصة الحضارة (ول ديورانت) ترجمة بدران لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٢، ١٩٥٦م.
- القيان والغناء، د. ناصر الدين الأسد، دار المعارف ط٢، ١٩٦٨.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير. ليدن (أوفست) بيروت، دار صادر ١٩٦٦.
- كليله ودمنة، تحقيق د. صابر يوسف، ط٢، ١٩٦٠م.
- لباب الآداب لأسامة بن منقذ، تحقيق د. أحمد شاکر، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.
- لسان العرب لابن منظور، بيروت، دار صادر، ١٩٥٥م.
- لطائف المعارف للثعالبي، تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي، دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق أحمد محمد الحوفي ويدوي طبانة، نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٩م.
- مجمع الأمثال للميداني ١٣٥٢هـ.
- المحاسن والأضداد، مكتبة العرفان، مطبعة الساحل الجنوبي.

- المحاسن والمساوي للبيهقي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر.
- محاضرات الأدباء، دار الحياة، بيروت ١٩٦١م.
- المختار من شعر بشار، تحقيق محمد بدر الدين العلوي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م.
- المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسنية المصرية ط ١، ١٣٢٥هـ.
- مختصر تاريخ العرب سيد أمير علي، دار العلم للملايين، بيروت ط ١، ١٩٦١م.
- المخصص لابن سيده، القاهرة. المطبعة الكبرى ١٣١٠هـ.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي، مطبعة دار المعارف النظامية، بيروت ط ٢، ١٩٧٠م.
- المرأة بين الفقه والقانون، د. مصطفى السباعي ط ١ دمشق ١٩٦٢م.
- المرأة في التاريخ والشرائع محمد جميل بيهم، بيروت ١٣٣٩هـ - ١٩٢١م.
- المرأة في الجزيرة في القرن الأول الهجري د. عبداللطيف جاووك (أطروحة دكتوراه).
- المرأة في حضارة العرب، محمد جميل بيهم، دار النشر للجامعيين.
- المرأة في شعر البحري، د. نعمان أحمد فؤاد، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.
- المرأة في الشعر الجاهلي د. محمد الحوفي.
- المرأة في الشعر الجاهلي د. علي الهاشمي مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٠م.
- المرأة في جاهليتها وإسلامها، عبدالله عفيفي، مطبعة الاستقامة.
- مروج الذهب للمسعودي مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٨م.
- مروان بن أبي حفصة وشعره، د. قحطان رشيد التميمي، مطبعة النعمان ١٩٧٢م.

- المستجاد من فعلات الأجواد للتتوخي، تحقيق محمد كرد علي ١٩٧٠م.
- المستظرف من أخبار الجوارى للسيوطي، تحقيق د. صلاح الدين المتجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ط١، ١٩٦٣م.
- المستظرف من كل فن مستظرف للأبشيبي، مطبعة المشهد الحسيني ١٣٦٨هـ.
- مصارع العشاق، طبع الجوائب باستانبول سنة ١٣٠١هـ - ١٨٨٣م.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي، مطبوعات دار المأمون، مكتبة عيسى البابي.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، منشورات مكتبة الأسد، طهران ١٩٦٥م.
- المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب. دوزي زينهارت، ترجمة أكرم فاضل بغداد، دار الحرية للطباعة ١٩٧١.
- المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي. القاهرة، مطابع الشعب ١٣٧٨هـ.
- مفاخرة الجوارى والغلمان، تحقيق شارل بيلا، دار المكشوف ط١، بيروت ١٩٥٧م.
- المفضليات للضبي، تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٣م.
- المكافأة لأبي جعفر أحمد بن يوسف الكاتب ط١، ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م.
- المنتظم لابن الجوزي ط١ مطبعة دار المعارف العثمانية ١٣٥٧هـ - ١٩٧٦م.
- من تاريخ الأدب العربي د. طه حسين، دار العلم للملايين ط٢، ١٩٧٦م.
- من نسب إلى أمه من الشعراء، تأليف محمد بن حبيب بن جعفر ضمن مجموعة نوادر المخطوطات، تحقيق عبدالسلام هارون ١٩٥٤م.
- الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة مؤسسة فرانكل للطباعة والنشر ١٩٦٥م.

- الموشى أو الظرف والظرفاء لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى
الوشاء تحقيق د. كمال مصطفى ط ٢، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.
- المؤلف والمختلف، نشر فريتن كرنكو، مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٤هـ.
- نزهة الجلساء في أشعار النساء، تأليف السيوطي، تحقيق صلاح الدين
المنجد، دار المكشوف ط ١، ١٩٥٨م.
- نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، تأليف
الساعي الخازن البغدادي، تحقيق د. مصطفى جواد. دار المعارف.
- النساء العربيات كرم البستاني دار صادر.
- النوادر لأبي علي القالي، دار الفكر.
- نهاية الأرب في فنون الأدب النويري، مطبعة دار الكتب، ١٣٤٣هـ -
١٩٢٥م.
- الوافي بالوفيات للمصفي، تحقيق محمد يوسف نجم، دار النشر، فرانز
شتاينر ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- الورقة لابن الجراح. تحقيق عبدالوهاب عزام وعبدالستار أحمد فراج،
القاهرة، دار المعارف ١٩٥٣م.
- الوزراء والكتاب للجهمياري، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري
وعبدالحميد شلبي ط ١، مطبعة مصطفى البابي ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.
- الهجاء عند ابن الرومي، عبدالحميد جيدة، المكتب العالمي للطباعة
والنشر، بيروت ١٩٧٤م.
- يشيمة الدهر، للشعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة
السعادة بالقاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م ط ٢.

المخطوطات والمقالات

- أنساب الأشراف للبلاذري ج ٣ مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد برقم ١٦٣٦.
- تاريخ بغداد للفتح بن علي بن محمد بن الفتح البنداري، مكتبة الدراسات العليا برقم ١٢٣٧.
- التذكرة الحمدونية لمحمد بن حمدون ج ١٢، مكتبة الدراسات العليا برقم ١٢٨٢.
- ري الظمأ فيمن قال الشعر من الإماء، دار الكتب المصرية برقم ١٩٨٧٨ ي.
- محاسن النساء لأحمد بن هشام، مكتبة تيمور برقم ١٨٠٣ أدب المقالات.
- ألف ليلة وليلة جنى على المرأة ألفة الإدليبي مجلة العربي العدد ١٠٩ آب ١٩٦٧.
- (التصوف تهجد وتعبد وفناء (رابعة العدوية)) وداد سكاكيني مجلة العربي العدد ٤ آذار ١٩٥٩.
- الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي (محمد جمال الدين سرور) مجلة العربي العدد ٥٧ سنة ١٩٦٣.
- (دور المرأة السياسي في العصر العباسي) للدكتورة مليحة رحمة الله عليها. مجلة كلية الآداب العدد ١٤ المجلد الثاني ١٩٧٠ - ١٩٧١ م.
- (عناية المرأة بشعرها عبر العصور) للدكتورة بتول سعيد مجلة الأدبية العدد الثاني ١٩٦٩.
- (ما ألف عن النساء في العصر العباسي) الدكتور صلاح الدين المنجد مجلة المجمع العلمي العربي العدد ١٦ سنة ١٩٤١.
- (المرأة في شعر أبي نواس) مجلة الهلال (عدد خاص) ١٩٤٢ م.

ABSTRACT

Three motives were behind the writing of this thesis.

The Woman in Literature During the Abbaside Period.

First, to correct the common idea that the Abbaside period was one of decay and degeneration, and that the picture of the woman as represented in the poetry of Bashshar and Abu Nuwas, for example; was not the true picture of her. As those poets were only depicting the foreign slave-girl (**jawari**) but not the non-slave woman (**harair**).

Second, to show, through literature, the role played by woman in cultural and political life of the time, and to assert her effectiveness in society.

Third, to render a truthful service to our legacy by disclosing some obscure aspects concerning the woman's literature. And to collect the material related to the subject in our sources.

I found it necessary to sketch, in brief, the picture of the woman in the pre-Islamic and Islamic periods. Then I discussed, in detail the condition of the woman in the Abbaside period, in which the slave-girls (**jawari**) played an important and rather strong role in the political and cultural life. This urged for action to counteract this foreign penetration in the society.

Also we found it useful to present the economic and cultural status of the woman. It was proved that, in some cases, she had had economic independence, and practised some professions. Some of them took part in revolutionary activities, war, and politics. Generally speaking, in politics, the role played by the **jawari** was rather subversive, while that played by the **harair** constructive.

The thesis, then, is divided into three parts **part one** deals with the position of the **harair** in the family, and was entitled (the woman in the family). This part was divided into five chapters as follows

Chapter one: The picture of the daughter in literature.

Chapter two: The picture of the mother in literature.

Chapter three: The picture of the Wife in literature.

Chapter four: The picture of the sister in literature.

Chapter five: The picture of the beloved in literature.

Part two deals with the **jawari** in literature, and consists of a short introduction on (Love), a phenomenon that was widely spread that time,

and four chapters.

Chapter one deals with the picture of the *jariya* (both chaste and unchaste) as represented in the poetry of some famous poets of the time such as Abu Nuwas, Bashshar Ibn Burd, Al-Abbas Ibn al-Ahnaf and Abu al-Atahiya.

Chapter two discusses the *jawari* in the court, and their relationships with the Caliphs. Also discussed, the poetry composed by the Caliphs on their *Jawari*.

Chapter three deals with a group of *Jawari* known as *Qiyān* (songstresses) whose influence on literature (both poetry and prose) was quite perceptible.

Chapter four deals with the standards of beauty of the time compared with previous times. It also deals with the aspects of beauty in the woman (such as, clothes, make-up, trinkets, dyestuff etc.) poetry of the time was of course, the best source that furnishes the material for this chapter.

Part three concerned with (the Literature of the Woman), and is divided into five chapters.

Chapter one deals with the literature of the *majalis* (entertainment gatherings where the participants engaged in literary conversations and through which they listen to music and songs) and *munazarat* (debates) where the woman took part and showed characteristics supremacy.

Chapter two designated to the study of the literature of epistle (*murasalat*), where distinction is made between those written by the *harair*, dealing mainly with politics and administration, and those written by the *jawari* dealing mainly with love affairs and the like.

Chapter three studies the poetic genres the woman wrote about i.e. amorous poetry, panegyric poetry, satiric poetry, elegiac poetry and ascetic poetry.

Chapter four deals with the literature of the Bedouin-women (*Arabiyyat*).

Chapter five analyses the artistic features of that literature. Its essential characteristics and traits were discussed.

At the end of this abstract I found it necessary to state that I did my best to present the subject systematically and to disclose some obscure aspects of it.

محتويات البحث

الموضوع	رقم الصفحة
كلمة المركز	٧
المقدمة	٩
التمهيد	٢١
١ - صورة المرأة في المجتمع في العصرين الجاهلي والإسلامي	٢٣
٢ - صورة المرأة في المجتمع في العصر العباسي	٤٢
الباب الأول: المرأة في الأدب (الحرائر)	١٠١
الفصل الأول: الابنة في الأدب	١٠٦
الفصل الثاني: الأم في الأدب	١٢٥
الفصل الثالث: الزوجة في الأدب	١٤٢
الفصل الرابع: الأخت في الأدب	١٧٣
الفصل الخامس: الحبيبة في الأدب	١٧٧
الباب الثاني: الجواري في الأدب	١٨٧
الفصل الأول: الجواري والشعراء	١٩٩
الفصل الثاني: الجواري والخلفاء	٢١٧
الفصل الثالث: الجواري والقيان	٢٣٢
الفصل الرابع: جمال المرأة وزينتها	٢٥١
الباب الثالث: أدب المرأة	٢٩٧
الفصل الأول: أدب المجالس والمناظرات	٣٠٣
الفصل الثاني: أدب المراسلات (الرسائل - التوقيعات)	٣٢٥
الفصل الثالث: فنون شعرية مختلفة (الغزل، الزهد، الرثاء، المديح، الهجاء)	٣٥١
الفصل الرابع: أدب الأعرابيات (الوصايا، السؤال والاستجداء، والمداعبات والطراف، الغزل)	٤٠٢

٤٢٥	الفصل الخامس: نظرة عامة في أدب المرأة وملامحه الفنية
٤٤٤	الخاتمة:
٤٤٧	ملحق من أعلام النساء في العصر العباسي
٤٧٢.....	المصادر والمراجع